صفحات من التاريخ الإسلامي
في الشمال الإفريقي

الثمار الزكية للحركة السنوسية فى ليبيا

الإمام محمد بن علي السنوسي

ومنهجه في التأسيس
(التعليمي والحركي والتربوي والدعوي والسياسي)

تأليف
علي محمد محمد الصلابي

الجزء الأول

مكتبة الصحابة
الإمارات - الشارقة
ت: ٥٦٣٣٥٧٥ - فاكس: ٥٦٣٧٥٤٤

مكتبة التابعين
القاهرة - عين شمس
ت: ٤٩٣٨١٤٤ - فاكس: ٤٩٣٤٣٢٥



الطبعة الأولى

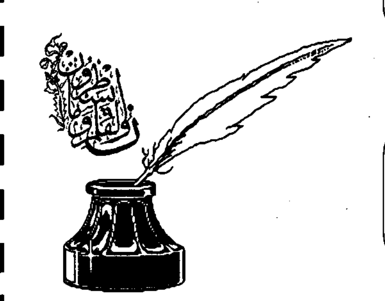
١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م

مكتبة الصحابة

الإمـارات - الشارقة .
ت : ٥٦٣٣٥٧٥ - فاكس : ٥٦٣٧٥٤٤

مكتبة التابعين

القاهرة - عين شمس .
ت : ٤٩٣٨١٤٤ - فاكس : ٤٩٣٤٣٢٥



الإهداء

إلى العلماء العاملين ، والدعاة المخلصين،

وطلاب العلم المجتهدين ، وأبناء الأمة الغيورين:

أهدي هذا الكتاب سائلاً المولى عز وجل بأسمائه

الحسنى وصفاته العُلا أن يكون خالصًا

لوجهه الكريم

﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ١١٠]



بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمة

إن الحمد لله نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢] .

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١] .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١] .

أما بعد:

يا رب لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك، لك الحمد حتى ترضى ولك الحمد إذا رضيت ولك الحمد بعد الرضى .

هذا الكتاب السابع في سلسلة صفحات من التاريخ الإسلامي في الشمال الإفريقي يتحدث عن الحركة السنوسية في ليبيا وقد سميته **(الإمام محمد بن علي السنوسي ، منهجه في التأسيس، التعليمي، الحركي، التربوي، الدعوي)** .

وقد ذكرت في مقدمة الكتاب الأول من سلسلة **(صفحات من التاريخ الإسلامي في الشمال الإفريقي)** ؛ أن اهتمامي بالتاريخ كانت بدايته خلف أسوار السجن السياسي في ليبيا، وقد اكرمني الله تعالى أن ألتقي في مدرسة يوسف عليه السلام ببعض وجهاء بلادنا المعتقلين من ذوي الثقافات المتنوعة، والخبرات المتعددة، والاتجاهات

المتباينة، وقد حرصوا على توريث تجاربهم وخبراتهم، وتاريخهم للأجيال القادمة، وقد استمعت إلى بعض أبناء الحركة السنوسية وهم يتحدثون على ما قام به الدعاة والمجاهدون من أبناء الحركة في إعزاز دين الله، ونصرة أهله والدعوة إليه في الصحراء الكبرى، وغرب ووسط إفريقيا، وبلاد الحجاز، ومصر والشمال الإفريقي، وكان لذلك الحديث أثره في نفسي، ومن ثم اهتممت بجمع المعلومات عن كل ما يتعلق بالحركة السنوسية، من أجل دراستها، دراسة تحليلة وافية، والكتابة عنها وكنت شديد الفرح بكل معلومة أحصل عليها من أفواه رجال الحركة، فأكتبها على أوراق الصابون، وأوراق البسكويت، وأوراق حليب الكورنيش بواسطة أقلام الرصاص، والجرافيت التي كنا نستخرجها من بطاريات الشحن الصغيرة ؛ لأنه كان من الصعوبة بمكان الحصول على أوراق أو أقلام في المعتقل .

وبعد خروجي من السجن في ٣ / ٣ / ١٩٨٨م وقد أكرمني الله بوضوح الهدف، والشعور بوجوب الدعوة إلى الله تعالى، والاستعداد للتضحية في سبيلها

قال الشاعر:

خرجنا من السجن شم الأنوف ... كما تخرج الأسد من غابها

نمرّ على شفرات السيوف ... ونأتي المنية من بابها

وعندما خرجنا من المعتقل، كانت الصحوة الإسلامية قد امتدت في شرايين المجتمع الليبي، لقد غمرتني سعادة كبرى بظهور التيار الإسلامي، وامتلاء المساجد وانتشار الحجاب، وظهور التدين في المناسبات الاجتماعية إلا أنه بعد احتكاكي ببعض أبناء الصحوة، لاحظت أنها عاطفة جياشة ينقصها العلم الشرعي من الكتاب والسنة، كما وأنني لمست انقطاعًا واضحًا عند هذا الجيل المبارك عن تاريخ أجداده وجهادهم ضد فرنسا في وسط إفريقيا والصحراء الكبرى، وجهادهم العظيم ضد إيطاليا في طول البلاد وعرضها، وجهادهم ضد بريطانيا على الحدود المصرية الليبية، وللأسف الشديد لا يتذكرون من فتوحات الصحابة والتابعين لليبيا والشمال الإفريقي

إلا ثقافة ضحلة لا تسمن ولا تغني من جوع، لذلك ازدادت قناعتي بأهمية كتابة تاريخ بلادنا ليس من الحركة السنوسية فقط، بل ليمتد من الفتح الإسلامي إلى العصر الحديث، وبعد خروجي من بلادنا العزيزة لطلب العلم التحقت بالجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية، وكانت فكرة كتابة التاريخ قد استقرت في ذهني، وشرعت في تنفيذها مستعينًا بالله العليم الحكيم، ومتضرعًا إلى التواب الرحيم أن يلهمني الصواب، وييسر لي الأسباب، وبعد عشر سنين ظهرت تلك الفكرة بفضل الله ومنه وتوفيقه إلى حيز الوجود في سلسلة صفحات من التاريخ الإسلامي في الشمال الإفريقي طبع منها ستة كتب، وانتشرت في المكاتب العربية، والمعارض الدولية، ووصلت إلى كثير من القراء، فكانت بين مادح وذام، ومنتقد ومستدرك ؛ قال الشاعر:

إن تجد عيبًا فسدَّ الخللا   جل من لا عيب فيه وعلا

وقال الشاعر:

من الذي ما ساء قط   ومن له الحسنى فقط

وقد وصلتني ملاحظات علمية قيمة أشكر إخواني على حسن نصحهم، وجميل إهدائهم، وتشجيعهم، وأدعو الله العلي الكبير أن يوفقني وإياهم لخدمة دينه وسنة نبيه ﷺ، وتاريخ الإسلام المجيد .

وها أنا الآن أقدم للجزء الأول للكتاب السابع وقد اطلع عليه بعض المختصين بعلم التاريخ، وقد قال أحد المؤرخين: إن ما يقوم به هذا الباحث الشاب رد عملي على كل من يريد أن يفصل ليبيا عن جذورها الإسلامية الممتدة في أعماق التاريخ، ومن النوادر اللطيفة عندما كنت أكتب في هذا الكتاب طرق باب بيتي مجموعة من الشباب الليبي المهاجر، فأدخلتهم وأكرمتهم وبدأت أحدثهم عن الدرر، والجواهر، والأمجاد العظيمة التي يزخر بها تاريخ بلادنا المعاصر، فقال لي أحدهم لا نريدك أن تكتب التاريخ وإنما نريدك أن تصنعه ؛ فقلت لهم: أنتم تصنعونه وأنا أكتبه، فضحك

الجميع، وما كانت تلك الكلمة لتثنيني عن هدفي الذي هيمن على نفسي ومشاعري وأحاسيسي، فبذلت له وقتي وجهدي ومالي سائلاً المولى عز وجل أن تكون أعمالي خالصة لوجهه الكريم .

إنني كلما توغلت في دراسة التاريخ ازددت قناعة بأهميته في تكوين الأمم، وتربية الشعوب، وتحقيق الآمال، وبناء الدول، ومحاربة الباطل، وإزالة الظلم، ونشر العدل . وقد أيقنت أن الأيام دول وأن الأحداث تتكرر على اختلاف في الزمان والمكان ولكنها تتكرر في إطارها العام والتاريخ يمد القارئ بخصائص وسمات الأحداث فيسهل عليه الاتعاظ والاعتبار بأحوال الدول والشعوب والأمم والجماعات .

إن هذا الجزء الأول من الكتاب السابع يعرّف القارئ الكريم بالإمام محمد بن علي السنوسي الذي يعتبره الكثيرون حامل لواء النهضة الحديثة في ليبيا، ومرسي قواعدها، وموقد جذوة الإيمان في قلوب قبائلها .

يتحدث هذا الكتاب عن حياة هذا الإمام الذي بارك الله في علمه وعمله وأحيا الله به شعبًا حمل لواء الدعوة والجهاد في الصحراء الكبرى، ووسط إفريقيا ولم يتردد في بذل ماله ورجاله من أجل نصرة دين الله تعالى .

ويسلط الأضواء على جوانب متعددة في منهج الحركة السنوسية، ليبين للقارئ الكريم أن شعب ليبيا عندما أكرمه الله تعالى بداعية رباني استطاع أن يفجر طاقته الكامنة تحول إلى مجتمع إسلامي قوي حمل مشاعل النور في قلب إفريقيا المظلمة، وبذل الغالي والنفيس في سبيل الإسلام وقارع الاستعمار الفرنسي والإيطالي والإنجليزي في ملحمة من أروع ملاحم التاريخ المعاصر في الصراع بين الكفر والإيمان والحق والباطل والهدى والضلال .

ويوضح للقارئ الكريم أن ابن السنوسي يعتبر رائدًا من رواد مدرسة الإصلاح الإسلامي في الشمال الإفريقي ووسطها وغربها عمل على نشر الإسلام الصحيح، ومحاربة البدع، والخرافات، والشعوذة بأنواعها وأشكالها، التي لحقت به في عصورها المتأخرة في مشرقه ومغربه على حد سواء .

إن هذا الجهد المتواضع يميط اللثام عن شخصية علمية دعوية ربانية كان لها أثر ولا زال في ليبيا خصوصًا وإفريقيا عمومًا، ويجيب القارئ على كثير من الأسئلة التي يحتاجها المهتمون بدراسة الدعوات الإصلاحية، والتي يبحث عن إجابتها دعاة الإسلام في ليبيا خصوصًا .

ما هي رحلات ابن السنوسي العلمية؟ وما هي العلوم التي درسها؟ ومن هم شيوخه؟ وما سر نجاحه؟ وما هي صفاته؟ وكيف تعرف على أحوال المسلمين وأخلاقهم؟ وكيف استطاع أن يتصل بالكثير من القادمين من مختلف أنحاء العالم الإسلامي؟ وما هي خطة عمله التي سار عليها؟ وهل استفاد من حركة الشيخ محمد ابن عبد الوهاب، وتجربة محمد علي باشا حاكم مصر؟ وما هو أسلوبه في التعامل مع الدولة العثمانية، وعلمائها؟ ،كيف تعامل مع الطرق الصوفية، والقبائل البدوية، والقبائل الوثنية؟ وما هي حقيقة الزوايا السنوسية؟ وهل استطاع ابن السنوسي أن يجعل من قبائل ليبيا قوة إسلامية يحسب لها حسابها الإقليمي، والدولي؟ وهل كانت مفاهيم الحركة السنوسية سلفية؟ وما هي علاقة ابن السنوسي بحركة الجهاد ضد إيطاليا وفرنسا؟ وهل كان من الممكن أن يخرج أبطال الجهاد، من أمثال أحمد الشريف، وعمر المختار وغيرهم لولا الله ثم جهود ذلك المصلح العظيم؟

نعم علامات استفهام كثيرة نحاول الإجابة عليها في الجزء الأول ثم الجزء الثاني بإذن الله تعالى .

هذا وإنني لم آتِ بجديد، وإنما وفقني الله تعالى للجمع والترتيب والتحليل، فإن كان خيرًا؛ فمن الله وحده، وإن أخطأت السبيل فأنا عنه راجع إن تبين لي ذلك والمجال مفتوح للنقد، والرد والتعليق والتوجيه، كما أقرر بأنني قد استفدت كثيرًا في كتابي هذا من الجهود التي سبقتني، ككتاب (السنوسية دين ودولة) لمحمد فؤاد شكري، و«الحركة السنوسية»، للدجاني، و«برقة العربية أمس واليوم» للأشهب، و«السنوسي الكبير» للأشهب، و«الفوائد الجليلة في تاريخ العائلة السنوسية» لعبد القادر بن علي، و«المجموعة المختارة» للإمام ابن السنوسي التي أعاد طباعتها

محمد عبده بن غلبون وإخوانه، وغيرها من الكتب، وقد دونت ما اختصرته من مباحث وأشرت إليه في هامش الكتاب للأمانة العلمية، كما أنني انتهجت منهجًا دعويًا، تاريخيًّا يعتمد على توسيع النقاط البيضاء المشرقة، وتضييق النقاط السوداء المظلمة، وليس معنى هذا التحكم في الحقيقة التاريخية، بل كشف الحقائق النيرة وتجريدها مما قامت به أقلام الأعداء من الدس والكذب والافتراء والتضليل، ومساهمة مني في علاج الهزيمة النفسية التي يمر بها شعبنا المظلوم ومتضرعًا لله تعالى الحي القيوم أن يحيي شعبنا وأمتنا بالإيمان والقرآن الكريم، وسنة سيد الخلق أجمعين .

وقد قمت بتقسيم الجزء الأول من الكتاب السابع في السلسلة التاريخية إلى مقدمة، وثلاثة فصول، وخاتمة، وهي كالآتي:

الفصل الأول: الإمام محمد بن علي السنوسي ، ويشتمل على ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: اسمه ونسبه وشيوخه ورحلاته في طلب العلم .

المبحث الثاني: أسباب اختيار ابن السنوسي برقة مركزًا لدعوته .

المبحث الثالث: إقامة ابن السنوسي في الحجاز وعودته إلى برقة .

الفصل الثاني: البعد التنظيمي ، والمنهج التربوي ، والبعد السياسي عند ابن السنوسي ويشتمل على ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: البعد التنظيمي .

المبحث الثاني: المنهج التربوي .

المبحث الثالث: البعد السياسي .

الفصل الثالث: أسلوبه الدعوي ، وثروته الفكرية ، وصفاته الربانية ويشتمل على ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: الأسلوب الدعوي .

المبحث الثاني: الجانب الفكري عند ابن السنوسي من خلال كتبه .

المبحث الثالث: من أهم صفات ابن السنوسي .

ثم نتائج البحث .

وأخيرًا: أرجو من الله تعالى أن يكون عملاً خالصًا لوجهه الكريم وأن يثيبني على كل حرف كتبته ويجعله في ميزان حسناتي وأن يثيب إخواني الذين أعانوني بكافة ما يملكون من أجل إتمام هذا الكتاب .

«سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين» .

الفقير إلى عفو ربه ومغفرته

علي محمد محمد الصلابي

* ■ *

▪ المدخل ▪

أحوال العالم الإسلامي قبيل ظهور الحركة السنوسية

بدأ الضعف والانحلال يدب في أوصال الأمة الإسلامية بعد وفاة صلاح الدين الأيوبي الذي هزم الصليبين، وطهر بلاد المسلمين منهم، ومما زاد الأمر سوءًا احتلال التتار للممالك الإسلامية، وتمزيقهم للأمة، والعمل على إزالة معالمها الحضارية، والدينية، والعلمية، وشاءت إرادة الله النافذة أن يلطف بهذه الأمة، فأكرم الله العثمانيين بالتمكين، وكان قمة ذلك التمكين في زمن السلطان محمد الفاتح الذي أجرى الله على يديه فتح القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية عام ٨٥٧هـ/ ١٤٥٣م، وبذلك عادت للأمة هيبتها، وقوتها، ومجدها، وعزتها، وتولى العثمانيون زعامة الأمة الإسلامية، وكان الشعب العثماني قد تميز بالحماس، وحب الجهاد، وعشق الشهادة في سبيل الله، وسلامة الفطرة، والبعد عن الأمراض الاجتماعية التي أصابت غيره من الشعوب، أضف إلى ذلك القيادة الربانية التي كانت تقود الشعب نحو ساحات الوغي، وتعمل على نشر الإسلام، وتزيل العوائق من أمام الأمم المفتوحة، ليعرض عليها الإسلام صافيًا نقيًّا من كل شائبة، وهيمن الإسلام من جديد على زعامة العالم وقيادته، وأصبحت الدولة العثمانية تحكم في ثلاث قارات: أوروبا، وإفريقيا، وآسيا، وتوغلت في أوروبا، حتى بلغت الجيوش العثمانية أسوار فينا، وكانوا سادة البحر المتوسط من غير نزاع، وقد جمعوا بين السيادتين، البرية، والبحرية، وبين السلطتين الروحية والساسية [1] .

(ولكن من سوء حظ المسلمين أخذ الترك في الانحطاط ودب إليهم داء الأمم من قبلهم: الحسد والبغضاء، واستبداد الملوك وجورهم، وخيانة الأمراء وغشهم للأمة . وإخلاد الشعب إلى الدعة والراحة . وكان شر ما أصيبوا به الجمود في العلم والجمود في صناعة الحرب، وتنظيم الجيوش) [2] .

---

(١) انظر: إمام التوحيد ، محمد بن عبد الوهاب، ص (٨ ، ٩) .

(٢) انظر: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، للندوي، ص (١٤٨) .

وأخذت ملامح القوميات العرقية تظهر على مسرح الأحداث في الدولة، وتفجرت الثورات في البلقان، وشرعت في تشكيل جمعيات قومية سرًّا، وعلنًا، وبدأت التوجيهات العلمانية تظهر في الأمة، وعمل اليهود والنصارى على تقوية هذه الاتجاهات المفسدة. فاليهود أرادوا الانتقام لأن العثمانيين منعوهم من فلسطين، والنصارى يريدون أن ينتقموا لحملاتهم الصليبية التي فشلت في حقيق أهدافها أمام جهاد عماد الدين، ونور الدين وصلاح الدين .

كانت الأحزاب العلمانية، والجمعيات السرية، والعصبيات القومية، تنخر في كيان الدولة العثمانية ؛ فظهر من يدعو إلى القومية الطورانية، والعربية، والكردية ... إلخ، وبدأت الثورات تتفجر في البلدان، وأخذت الحركات الانفصالية تتكاثر، وأخذت الدول الأوربية في دعمها، وتعد المشاريع لاقتسام تركة الرجل المريض، وكان العالم الإسلامي آنذاك منضوٍ تحت لواء الدولة العثمانية التي فقدت عوامل النهوض، وأهملت شروط التمكين، وتباعدت عن أسبابه، وتخلفت عن ركب الحضارة، فدخلت الأقاليم الإسلامية في دوامة التدهور، والظلام الحالك، والمحنة الشاملة، والجهل المطبق والظلم الفادح، والفقر المدقع، فتفجرت الثورات بدوافع مختلفة، فمرة بدوافع العرق والقومية، وأخرى دفاعًا عن النفس ضد الجور، والتعسف والظلم، وتارة بدافع الحقد، والتعصب، وكانت اليهودية والصليبية خلف تمزيق السلطنة، وإضعافها، فكثرت مصائبها، وتعددت جبهاتها، وأصبح مركز الخلافة، مفككًا، ضعيفًا، متدهورًا، منحلاً، وقد أصيبت الولايات، كالجزائر، وتونس، وليبيا، ومصر، والشام والحجاز، بالضعف الشديد، والتدهور المريع، بسبب الظلم والاستبداد، وانتشار الجهل، وجمود العلم، وغياب القادة.

وصاحب هذا الانهيار في كيان الدولة، أحداث خطيرة، كان لها أثر فعال على المسلمين وجميع جوانب حياتهم، الفكرية، والدينية، والعلمية والسياسية فمن ذلك:

أ- احتل الفرنسيون مصر عام ١٧٩٨م وظلوا فيها حتى عام ١٨٠١م، وتمكن محمد علي باشا من الانفراد بحكمها بعد خروج فرنسا (١٨٠٥-١٨٤٨م) وكان هذا

الرجل مصيبة كبرى على الأمة، واستطاعت الدول الأوروبية، والمحافل الماسونية أن تحقق أهدافها بواسطته، فعمل على:

١- تحطيم الدولة السعودية الأولى التي كانت خنجرًا مسمومًا في ظهر الأطماع البريطانية في الخليج العربي خصوصًا، والمشرق عمومًا .

٢- فتح البلاد على مصراعيها لإقامة مؤسسات معادية للدين الإسلامي والمسلمين؛ كالمحافل الماسونية، والإرساليات التبشيرية، والأديرة والكنائس، ومدارس تتعهد التيارات المعادية للإسلام، وبث الأفكار المعادية للأمة .

٣- أتاح الفرصة لشركات أوروبية تحكمت في اقتصاد البلاد .

٤- منح امتيازات واسعة للأوروبيين، ومنع المسلمين منها .

٥- خنق التيار الإسلامي الأصيل، وضيق على العلماء والفقهاء، ولم يسمح للمسلمين أن يتكتلوا من أجل أهدافهم السامية، وغير ذلك من المساوئ .

ب- وفي عام ١٨٣٠م احتلت فرنسا الجزائر، وفشلت الدولة العثمانية في منعها، وحاولت فرنسا جعل الجزائر قطعة منها، ثم امتد نفوذها إلى تونس عام ١٨٨١م، ودخلت إلى السودان الغربي .

ج- احتلت بريطانيا عدن عام ١٨٣٩م وبدأت في توسيع نفوذها وسلطانها على دول الخليج العربي، وبعض بلاد الشام، وحاولت الدولة العثمانية وقف السرطان الصليبي الذي انهك جسم الأمة ولكنها فشلت، وأصبحت الأمة تعاني من الآثار المترتبة بسبب ابتعادها عن شرع الله تعالى ؛ فمن الناحية الاجتماعية، تفشى الجهل، وأصبح عامًّا شاملاً لكل الديار الإسلامية، وضمر الإيمان، وتقاعست النفوس، وكان النزاع بين الأمراء مستمرًّا على حطام الدنيا، وأصبح كل حزب بما لديهم فرحين، وولاة الدولة العثمانية همهم جمع الأموال، وتكثير الأملاك إلا من رحم الله، وأخذ الظلم الذي استشرى يعجل بزوال الدولة العثمانية، أما من الناحية العلمية ؛ أصبحت الأمة في ليل حالك وظلام دامس ؛ وتفشى الجهل في كل طبقات الأمة

وفي جوانبها الثقافية كالأدب، والعلم، والصناعات، . . . وكان العالم الإسلامي من شرقه إلى غربه مصابًا بالجدب العلمي، وشبه الشلل الفكري، وأصبح في حالة غيبوبة، واستولي عليه النعاس الشديد، ومات فيه النشاط، والحيوية، والأبداع، والاجتهاد في العلم والدين، والأدب، والشعر، والحكمة ودخلت الأمة في نفق التقليد الأعمى، وكان مظلمًا شديد الظلمة .

وأصبحت الجامعات الكبرى كالأزهر، والزيتونة تهتم بالمتون وتترقى في الشروح، ومن بلغ الذروة في العلم والمعرفة فهم ما في الحواشي، وعاش العالم الإسلامي في عزلة سياسية وعلمية مخيفة، فلا علاقة له بشعوب الأرض إلا من خلال النزاع السياسي، والصدام العسكري، فتجمدت حياته العلمية وانتهت إلى ترديد كتب وعبارات الأقدمين والمجتهد النحرير من يفهمها [١] .

(وأصبح العلم مع الزمن، احتكارًا لأسر معينة، وغدت طبقة العلماء طبقة اجتماعية ذات امتيازات خاصة، واتخذت موقفًا صلبًا ضد كل تجديد في عالم الفكر، فقد قاوموا إدخال المطابع إلى الدولة وطباعة الكتب الدينية الإسمية) [٢] .

وكان العلماء هم المشرفون على التربية والتعليم في الدولة، ولم يستطع العلماء أن يجعلوا للتعليم في المدارس والمعاهد برنامجًا متطورًا يتناسب مع عصرهم، وقد تحدث بعض المفكرين عن عيوب التعليم متخذين من الأزهر الشريف مثلاً على ما وصلوا إليه ؛ فقد قال محمد خليل المرادي عن عيوب التعليم في الأزهر ما يلي:

١- قبول أبناء الأكابر والأغنياء في الأزهر ممن لا يتمتعون بمستوى تعليمي جيد .

٢- تدني مستوى الأساتذة .

٣- استئثار بعض الأساتذة بتعليم كثير من المواد بحيث يعينون بدلاء عنهم مقابل مرتب زهيد .

---

(١) انظر: إمام التوحيد، ص (١٧) .

(٢) انظر: زعماء الإصلاح في العصر الحديث، ص (٦) .

٤- تحديد الموضوعات، وضيق النظر في التدريس، فقد كان الهدف في التعليم تلقي بعض المعلومات المحدودة، أما تجاوز هذه المعلومات أو مجرد التساؤل عن صحتها، فقد يثير الشكوك ومقاومة العلماء أو قد يصل إلى حد العقاب والطرد من المعهد أو فقدان مصدر العيش ناهيك عن التشهير [١] . هذه أهم ملامح الحياة الأدبية والعلمية في ذلك العصر .

أما من الناحية الصناعية:

فقد ضيع المسلمون الأعمار، وأخلدوا إلى التقليد الأعمى، ورضوا بالجمود، ولم يبتكروا في الصناعات، بل أضاعوا ما كان لديهم من صناعات قديمة، وفقدوا مهارتهم، وحاول السلطان العثماني سليم الثالث [٢] أن يهتم بالإصلاح الصناعي، فأنشأ مدارس جديدة، وكان يعلم بنفسه في مدرسة الهندسة، وألف جيشًا على الطراز الحديث فثار عليه الجيش لغرابة ذلك، وتم قتله .

ومن الناحية الدينية:

(كان علماء الدين في الدولة العثمانية يعتبرون أنفسهم حماة الشريعة والحريصين على التمسك بمذهب أهل السنة، إذ كان دين الدولة الإسلام ومذهبها الرسمي هو المذهب الحنفي، وكان على رأس هؤلاء العلماء شيخ الإسلام ووظيفته شبيهة بوظيفة الخليفة العباسي الذي كان يقيم في القاهرة في ظل حكم المماليك، وكان مركزه معادلاً لمركز الصدر الأعظم (رئيس الوزراء)، ويتمتع شيخ الإسلام بصلاحية إصدار الفتاوى في القضايا الكبرى، كأن يصدر فتوى بعزل السلطان أو إعلان الجهاد، ولكنه من الناحية العلمية يعين من قبل السلطان ويلي شيخ الإسلام في منصبه (قاضيا العسكر) في الروملي، والأناضول، وقاضي إستانبول، ويليهم عدد من القضاة يكونون جميعًا مع شيخ الإسلام (المجلس الأعلى للعلماء) [٣] .

---

(١) انظر: الاتجاهات الفكرية عند العرب في عصر النهضة، علي المحافظة، ص (١٤-١٥) .

(٢) انظر: ترجمته في كتاب الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط، الكتاب السادس من هذه السلسلة .

(٣) انظر: الاتجاهات الفكرية عند العرب في عصر النهضة، ص (١٢) .

وجمد المسلمـون في علوم دينهم فليس لديهم إلا ترديد بعض الكتب الفقـهية، والنحوية، والصرفية، ونحوها، وجمدوا على فقه المذاهب، وجل همهم التعمق في الحواشي، وحفظ المتون، دون القدرة على الاجتهاد .

وجعلوا لكل مذهب من المذاهب الفقـهية مفتيًا وإمامًـا، وتعددت الجماعات في المسجد الواحـد كل ينتصر لمذهبه، وكل يصلي خلف إمام حـسب المذاهب المتواجدة في ذلك المسجد، كـما أن الإفتاء في أي مسألة حسب مـذهب السائل، وحرم على الناس خروجهم عنهـا، وأغلق باب الاجتهاد بمغاليق من حـديد، وكان علماء الدين كمـا وصفهم المؤرخ الجـبرتي: (إنهم قد زالت هيـبتهم من النفـوس، وانهمكوا في الأمور الدنيوية والحظوظ النفسانية والوساوس الشيطانية، ومشاركة الجهال في المآتم، والمسـارعـة إلى الولائم في الأفـراح والمآتم، يتكالبون على الأسـمطة، كـالبهـائم، فتـراهم في كل دعوة ذاهبين، وعلى الخوانات راكعـين ولما وجب عليهم من النصح تاركين) [1] .

أمور يضحـــك السفهاء منها ويبكي من عواقبــــها اللبيـــب

وعندما دخل نابليون بونابرت مصر غازيًا، استفاد من أمثال أولئك العلماء وألف منهم ديوان القضاء وقال: (إني أستعين بهم لاتقاء أكـثر العقبات إذ إن أكثرها دينية، ولأنهم لا يعرفون أن يركبوا حصانًا، ولا أن يقـوموا بأي عمل حربي، وقد استفدت منهم كثيرًا، واتخذتهم وسيلة للتفاهم مع الشعب) [2] .

وليس معنـى ذلك أنه لم يكن لبعض العلمـاء دور في محاربة نـابليون؛ بل إن ثورات القاهرة المشهورة ضد الاحتـلال الفرنسي قادها علماء الأزهر، ولقد تعرضت لها في كتابي الدولة العثمانية .

لقد انتـشرت في ذاك العصـر الدعوات المنحرفة، والأفـكار المسمومة، وكـثرت مظاهر تقديس القبـور، وطلب الحاجات من أصحابهـا وبناء القباب الضخمـة عليها

---

(١) انظر: إمام التوحيد ، ص (٢٢) .

(٢) انظر: انتشار دعوة الشيخ خارج الجزيرة العربية، ص (١٢) .

والصلاة حولها، وارتكاب البدع الخطيرة، وانتشر التصوف المنحرف في أرجاء البلاد الإسلامية، شرقها، وغربها، عربيها وعجميها، لقد ضاع مفهوم العبادة الصحيح، والولاء والبراء، وانحرفت الأمة عن كتاب ربها وسنة رسولها ﷺ، فكان من الطبيعي أن تتعرض لضربات أعدائها، وأطماعهم الشريرة، فإذا نظرنا للدولة العثمانية، نجدها قد انقلبت إلى مطايا استبداد وفوضى واغتيال، وكثر السلب والنهب، وفقد الأمن، وانحرف بعض السلاطين عن الصواب يقول محمد كمال جمعة: (وكانت قصور السلاطين والوزراء وكبار رجال الدولة مملوءة بالجواري والسبايا، وكان بعض أولئك السبايا أجنبيات من بلاد أجنبية فكن عيونًا لدولهن على الدولة العثمانية) [١] .

(وقد تعالى سلاطين هذه الدولة على الرعية فإذا خاطبوا الرعية كانوا لا يوجهون الخطاب إليها مباشرة بل يقولون لولاتهم بلغوا عبيد بابنا العالي) [٢] .

وكانت الدولة العثمانية في آخر زمانها لا تحارب التصوف المنحرف بمختلف طرائقه وبصوره التي بعدت عن الإسلام بعدًا شاسعًا، وكانت قد دخلت عليه عادات بعضها نصرانية، كالرهبانية، واللعب بذكر الله، وابتداع أساليب فيه، كالرقص، والغناء والصياح، والتصفيق . . . إلخ .

فإذا نظرنا إلى بلاد فارس ؛ نجد الدولة الصفوية الرافضية قد عاصرت الدولة العثمانية، وكانت تدعي الإسلام وهي دولة رافضة على مذهب الإمامية وكانت تغالي في الرفض حتى أنها حاربت الدولة العثمانية؛ لأنها منسوبة إلى السنية أشد الحرب بتحريض من النصارى والصليبيين، واستجابة لمعتقدهم الفاسد .

أما إذا نظرنا إلى بلاد الهند ؛ فقد كانت الدولة المغولية ؛ لكنها كانت بقية ورثها أبناء ملك الهند المغولي أكبر خان، وقد قرب الشاعر الشيعي المسمى الملا مبارك ووليده، أبا الفائز (وكان شاعرًا متصوفًا) وأبا الفضل (وكان فيلسوفًا على طريقة

---

(١) انظر: انتشار دعوة الشيخ خارج الجزيرة العربية، ص (١٢) .
(٢) انظر: المصدر السابق نفسه، ص (١٣) .

الصوفية المنحرفة)، وجعل فتح الله الشيرازي من أكابر علماء الشيعة من فارس مستشاره الشرعي، وهو شديد الوطأة على علماء أهل السنة، وألغى اللسان العربي من بلاطه وجعل الفارسي مكانه، وكان ميالاً إلى التصوف المنحرف ويراه أرقى طريقة إسلامية، وهو على طريقة تصوف أهل وحدة الوجود، وله عقائد أخرى منها تناسخ الأرواح ، أخذه عن البراهمة (١) .

مما دعا الشيخ العالم ولي الله الدهلوي (ت ١١٧٦هـ) في نهاية هذا العصر المغولي أن يقوم بجهود تكسر الجمود، وتطلق العقول لتتمشى مع صلاحية الإسلام لكل زمان ومكان(٢)، لكن انتهت دولة المغول في الهند، وطمعت البرتغال الكافرة في مسلمي الهند بسبب فساد ملوك هذه الدولة المغولية، وقامت حروب داخلية كثيرة، وتغلب فيها الهندوس واستعمرتها شركة الهند الشرقية الإنجليزية حوالي ١١٧٥هـ (٣) .

وأما المغرب الأقصى:

كانت دولة العلويين تعاني من خلافات القبائل وثورات البربر ونزاع الطامعين على العرش، وتحاول جاهدة في الحفاظ على نفسها أمام أطماع الدول الاستعمارية، وقد كان لها قبل ذلك القرن أسطول بحري قوي حمى حدودها البحرية، وفرض احترامها على الدول الأوروبية ولكنها خسرته في عهد السلطان سليمان الذي أهمله واختار أتباع طريقة عقد المعاهدات مع الدول الأوروبية، وعندما حاول ابنه السلطان عبد الرحمن إعادة بناء الأسطول وقفت له تلك الدول بالمرصاد وأجبرته على التخلي عن عزمه (٤) .

وبدأت الدول الأوروبية تستقطع من العالم الإسلامي دولاً كلما أُتيحت لها الفرصة، لقد اهتز المسلمون لاحتلال الصليبيين لأجزاء من الوطن الإسلامي اهتزازاً

---

(١) انظر: موجز تاريخ تجديد الدين وإحيائه، للمودودي، ص (٦٩-٧٩) .
(٢) المصدر السابق نفسه، ص (٧٩، ٨٠) .
(٣) انظر: انتشار دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، ص (٢٠، ٢١) .
(٤) انظر: الحركة السنوسية، ص (١٢) .

عنيفًا، كما أثر عليهم احتكاكهم بالغرب، واطلاعهم على تقدمه، بالإضافة إلى إحساس بعضهم بتخلف المسلمين وانحطاطهم .

ومن هنا نبعت حركات الإصلاح التي تتابعت في العالم الإسلامي منذ النصف الثاني للقرن الثامن عشر، بتأثير عوامل عديدة منها ؛ إحساس بعض العلماء الربانيين بسوء الأوضاع في العالم الإسلامي، وتحدي العالم الصليبي الأوروبي للعالم الإسلامي واحتلاله أجزاء منه، فقامت حركة الشيخ محمد بن عبد الوهاب في نجد، وكان الدافع لها إحساس مؤسسها بانحطاط المسلمين، وتأخرهم؛ لقد أذن الله سبحانه وتعالى بظهور دعوة الإمام محمد بن عبد الوهاب، بعد ما أطبقت الجهالة على الأرض، وخيمت الظلمات على البلاد، وانتشر الشرك والضلال والابتداع في الدين، وانطمس نور الإسلام، وخفي منار الحق والهدى وذهب الصالحون من أهل العلم فلم يبقَ سوى قلة قليلة لا يملكون من الأمر شيئًا، واختفت السنة وظهرت البدعة، وترأس أهل الضلال والأهواء وأضحى الدين غريبًا والباطل قريبًا، حتى لكأن الناظر إلى تلك الحقبة السوداء المدلهمة ليقطع الأمل في الإصلاح ويصاب بيأس قاتل في أية محاولة تهدف إلى ذلك .

فكانت دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب - رحمه الله - تعد البداية الحقيقية لما حدث في العالم الإسلامي من يقظة جاءت بعد سبات طويل، وما تمخض عنها من صحوة مباركة ورجعة صادقة إلى الدين (١) .

لقد كان أثر دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب عظيمًا في العالم الإسلامي، ويكفي في ذلك أن تكون عقيدة أهل السنة آخذة في الظهور والزيادة والقوة، بعد أن كانت غريبة ومحاربة في أكثر البلاد، وبدأت الأمة تلتمس كتاب الله وسنة رسوله ، لتسير على هدى الإسلام الصحيح في حياتها .

وظهر الإمام محمد بن علي السنوسي بدعوته الإسلامية بعد وفاة محمد بن عبد

---

(١) انظر: الانحرافات العقدية والعلمية ، للزهراني (٢ / ٣٥٨) .

الوهاب بعشرات السنين وكان لدعوته، أثر في مسيرة الأمة الإسلامية في الشمال الإفريقي، وغربها ووسطها، وكذلك في الحجاز وغيرها من أقطار العالم الإسلامي، ونترك للصفحات القادمة إعطاء القارئ الكريم صورة واضحة عن حياته، ورحلاته، وأعماله، وكيف عاش واقع المسلمين المؤلم، وخطر الأوروبيين المحدق، فاندفع يعمل محاولاً الإصلاح، وما العوامل التي أثرت عليه ودفعته إلى القيام بحركته؟ وما مؤلفاته وأفكاره؟ وما نظامه الحركي الذي سار عليه حتى وصل إلى ما وصل إليه؟ .



■ الفصل الأول ■

الإمام محمد بن علي السنوسي

المبحث الأول

اسمه ونسبه وشيوخه ورحلاته في طلب العلم

أولاً: اسمه ونسبه:

هو الشيخ محمد بن علي بن السنوسي بن العربي بن محمد بن عبد القادر بن شهيدة بن حم بن يوسف بن عبد الله بن خطاب بن علي بن يحيى بن راشد بن أحمد المرابط بن منداس بن عبد القوي بن عبد الرحمن بن يوسف بن زيان بن زين العابدين بن يوسف بن حسن بن إدريس بن سعيد بن يعقوب بن داود بن حمزة بن علي بن عمران بن إدريس بن إدريس بن عبد الله الكامل بن الحسن المثنى بن الحسن السبط ابن علي بن أبي طالب الهاشمي القرشي (١).

ولد سنة ١٢٠٢هـ صبيحة يوم الإثنين الموافق الثاني عشر من ربيع الأول عند طلوع الفجر ولذلك سماه والده محمدًا تيمنًا باسم النبي ﷺ، وكانت ولادته بضاحية (مَيْثًا) الواقعة ضفة وادي شِلْف بمنطقة الواسطة التابعة لبلدة مستغانم في الجزائر (٢) وتوفي والده بعد عامين من ولادته، وتولت عمته فاطمة تربيته وتنشئته تنشئة صالحة وكانت من فضليات أهل زمانها، ومتبحرة في العلوم ومنقطعة للتدريس والوعظ يحضر دروسها ومواعظها الرجال (٣) واهتمت السيدة فاطمة بابن أخيها الذي أظهر حبًّا عظيمًا لتحصيل العلوم، فأخذ يطلب العلوم من شيوخ مستغانم، وغيرها من البلاد المجاورة لها مع تعهد عمته له ومن أشهر شيوخه في تلك المرحلة، ممن أخذ عنهم القرآن الكريم مع القراءات السبع؛ محمد بن قعمش الطهراوي زوج

---

(١) انظر: المجموعة المختارة للإمام السنوسي، ص (٧).

(٢) انظر: الفوائد الجلية في تاريخ العائلة السنوسية، عبد القادر بن علي، (١ / ٨).

(٣) انظر: السنوسية دين ودولة، د. محمد فؤاد شكري، ص (١١).

عمته، وابنه عبد القادر وكانا عالمين جليلين صالحين، وابن عمه الشيخ محمد السنوسي الذي تولاه بعد وفاة عمته في الطاعون عام ١٢٠٩هـ وعمره لم يتجاوز السابعة وأتم على ابن عمه حفظ القرآن الكريم برواياته السبع مع علم رسم الخط للمصحف والضبط وقرأ عليه الرسالات الآتية، مورد الظمآن، المصباح، العقيلية، الندى، الجزرية، الهداية المرضية في القراءة المكية، حرز الأماني للشاطبي، وغيرها مما هو من وظائف قارئ القرآن [١] ، وبعد أن أتم ما يلزمه من لوازم حفظ القرآن وإتقانه شرع ابن عمه الشيخ محمد السنوسي في تعليمه العلوم العربية ثم الدينية بالتدريج وتربيته على العمل بما تعلم وكان يزوده بتراجم العلماء والقادة والفقهاء وتوفي ابن عمه عام ١٢١٩هـ فجلس محمد بن علي عند شيوخ من مستغانم وهم: محيي الدين بن شلهبة، ومحمد بن أبي زوينة، وعبد القادر بن عمور، ومحمد القندوز، ومحمد بن عبد الله، وأحمد الطبولي الطرابلسي، وكلهم من جهابذة العلماء في زمانهم، ومكث يطلب العلم في مستغانم سنتين كاملتين [٢] .

وفي أوائل ١٢٢١هـ خرج من مستغانم إلى بلدة مازونه ومكث بها سنة واحدة وتتلمذ على مجموعة من المشائخ هم؛ محمد بن علي بن أبي طالب، أبو رأس المعسكري، وأبو المهل أبو زوينه [٣] .

وبعد ذلك رحل إلى مدينة تلمسان وأقام بها ما يقارب من السنة وتتلمذ على كبار شيوخها [٤] .

ثانيًا: نبوغ مبكر:

كان الشيخ محمد بن علي السنوسي في صغره يميل إلى الانزواء والانفراد ويمضي وقتًا طويلاً في التفكير العميق، ويتألم من حال الأمة وما وصلت إليه من الضعف والهوان والضياع وكان يبحث عن عوامل النهوض، وأسباب توحيد صفوف الأمة، وإحياء الملة الإسلامية، وحدث ذات مرة أن وجده بعض العلماء جالسًا فوق

---

(١) ، (٢) انظر: الفوائد الجلية، (١ / ١٠) .

(٣) ، (٤) المصدر السابق نفسه، (١ / ١١) .

كثيب من الرمال تظهر علـى صفحات وجهه المشرق علامات التـفكير العميق، فلما سألوه عن السـبب في ذلك، أجاب بأنه: (يفكر في حال العـالم الإسلامي الذي لا يعدو عن كونـه قطيعًا من الغنم لا راعي له على الرغم من وجود سـلاطينه وأمرائه ومشـايخ طرقـه وعلمائه، فـمع أن هناك عددًا كـبيـرًا من المرشدين وعلمـاء الدين الموجودين في كـل مكان، فإن العالم الإسـلامي لا يزال مفـتقرًا أشـد الافتـقار إلى مرشد حقيقي يكون هدفه سوق العالم الإسلامي أجمع إلى غاية واحدة ونحو غرض واحد، والسبب في هذا انعـدام الغيرة الدينية لدى العلماء والشيـوخ وإنصرافهم إلى الخلافات القائمـة بينهم قد فرقتهم شيـعًا وجماعات فأصبـحوا لا يعنون بنشر العلم والمعرفـة ولا يعلمون بأوامر الدين الحنيف، وهو دين توحـيد أساسه الاتحـاد وجمع الكلمـة . زد على هذا أن على هؤلاء العلمـاء والشيـوخ واجب عظيم في حق الملة الإسلامية، إذ إن الشـعوب المجاورة في السودان والصحراء من إفريقـية الغربية - لا تزال تعبد الأوثان، ومع هذا فإنهم بدلاً من وعظ هذه الشعوب الوثنية وإرشادهم إلى الدين القويم، مازالوا يفضلون القبوع في كل مسجد من مساجد المعمورة غير عاملين بعلمهم لا هم لهم إلا راحة أجسامهم، حريصين على لذاتهم، غير قائمين بواجبات مراكزهم، لا ضمائر لهم تؤنبهم على إهمالهم إرشاد هؤلاء المساكين، الوثنين) [(١)] .
ومع ذلك فقد بلغ السـيد من القوافل الواصلة إلى بلده مستغـانم أن الإسلام مغلوب على أمره في كل محل، (وأن المقاطعـات والخطط المعمورة تذهب من أيدي المسلمين في كل وقت وبسرعة البـرق، فالإسلام في حالة التدهور المخيف . ثم خـتم كلامه بقوله: (هذا مـا أفكر فيه! فـلما سألوه ومـاذا يجب على المسلمين عمله لتـلافي ما ذكرت، أجاب: سأجتهد، سأجتهد) [(٢)] .

لقد كان تفكيره في حال الأمة مبكرًا، واجـتهد في البحث عن العلل والأسباب التي أدت إلى التـدهور والضعف المخيـف في كيان الأمـة وذكر أن من أسـباب هذا

---

(١) انظر: السنوسية دين ودولة، ص (١٣) .
(٢) انظر: المصدر السابق نفسه، ص (١٣) .

الضياع فقدان القيادة الراشدة، وغياب العلماء الربانيين، وانعدام الغيرة الدينية، والانشغال بالخلافات التي فرقتهم شيعًا وجماعات، والتفريط في حق دعوة الناس إلى الإسلام، وضياع الأقاليم الإسلامية، ولذلك اهتم بالبحث عن عوامل النهوض فرأى أن بدايتها في الإيمان العميق الذي هو أساس كل خير وسبب لحصول البركات ونزول الأرزاق، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [سورة الأعراف، الآية:٩٦] .

إن الإيمان هو القضية الأولى والأساسية لهذه الأمة، فإذا تخلف المسلمون عن غيرهم في وسائل الحياة الحرة الكريمة فمرد ذلك إلى انحرافهم عن فهم الإسلام فهمًا سليمًا، وعن ضعف إيمانهم بقيمه ومثله ولا سبيل إلى إصلاح حالهم ومآلهم إلا بالإيمان على الوجه الذي بينه الله في كتابه، ورسوله ﷺ في سنته . وهو أن يكون طاقة دافعة إلى العمل، وقوة محركة للبناء، وحافزًا طبيعيًّا للتفوق [١] .

وقد وصل إلى حقيقة مهمة ألا وهي أهمية العلم في نهوض الأفراد والجماعات والأمم، لأن العلم ظهير الإيمان، وأساس العمل الصالح، ودليل العبادة [٢] .

لقد كان شغفه بالعلم عظيمًا ورحم الله أبا اسحاق الأليبري عندما قال:

فلو قد ذقت من حلواه طعمًا ... لآثرت التعلم واجتهدتا

ولم يشغلك عن هوى مطاع ... ولا دنيا بزخرفها فتنتا

ولا ألهاك عنه أنيق روض ... ولا خدر بزينتها كلفتا [٣]

فقوت الروح أرواح المعاني ... وليس بأن طعمت ولا شربتا

ثالثًا: الرحلة إلى فاس:

وكانت المرحلة الثانية في الطلب، حيث قصد مدينة فاس في المغرب الأقصى

(١) انظر: التمكين للأمة الإسلامية، محمد السيد، ص (٤١) .
(٢) انظر: التمكين للأمة الإسلامية، ص (٦٢) .
(٣) انظر: عشرون قصيدة في الزهد، محمد أحمد، ص (٤٦) .

ومكث فيها سبع سنوات تقريبًا، فأخذ العلم بالرواية عن أفاضل علماء فاس مثل؛ حمودة بن حاج، حمدون بن عبد الرحمن، والطيب الكيراني، محمد بن عامر المعواني، وأبي بكر الأدريسي، وإدريس بن زيان العراقي، ومحمد بن منصور، ومحمد بن عمر الزروالي، ومحمد البازعي، والعربي بن أحمد الدرقاوي، وكان العربي الدرقاوي من شيوخ الطريقة الشاذلية، وتبحر ابن السنوسي في معرفة الطرق الصوفية إلى جانب التفقه في علوم الدين، وتحصل على إجازات من علماء راسخين وأصبح مدرسًا بالجامع الكبير بمدينة فاس ونال المشيخة الكبرى بها [(١)] وأقبل الناس عليه لما رأوا من صلاحه وتقواه وفهمه الدقيق لعلوم الشريعة، وروحه الفياضة، وعقله المتنور، وفكره الناضج، وخشيت حكومة السلطان سليمان من نفوذه وبدأت العراقيل، ووجد أن لا فائدة ترجى من بقائه بفاس وقرر الارتحال عنها بعد أن تبلورت أصول الدعوة في ذهنه وعزم على محاربة الأوهام والخزعبلات التي أبعدت الإسلام عن حقيقته، وحالت بينه وبين أتباعه من أن يحقق لهم ما حققه في عهده الأول من رفعة وتلك هي الوسيلة الوحيدة التي تمنح المسلمين القوة، وتمكن لهم من دفع عدوهم عنهم، كما أن تجربته مع السلطان أكسبته خبرة في التعامل مع الحكام في المستقبل، ولقد لاحظ في فاس تباعد الأمة عن دينها وعقيدتها وانحرافها عن كتاب ربها وسنة نبيها وكيف بدأ الغزو الأوروبي يؤثر على المدن المغربية؟ وكيف دخلت البلاد في الصراعات والخلافات الداخلية؟ ولعل الذي جعله يبقي في المغرب الأقصى مدة سبع سنين متتالية جامع القرويين الذي وجد فيه جماعة من العلماء الذين ذكرت بعضهم، وكان يتشوق إلى لقائهم [(٢)] ولقد تعمق أحساسه بالخطر الأوروبي وشعر بالأخطار التي كانت تتهدد هذه البلاد من الدول الصليبية، ولقد سمع بعض الناس يتحدثون عن النكبات التي حاقت بها من هذه الدول منذ قرنين من الزمن، حين احتل الإسبان أجزاء كثيرة منها، كالمرسي الكبير، ووهران، وعنابة وتنس ومدينة الجزائر، ومستغانم (مسقط رأسه) وما زالت أعمالهم الشنيعة وأفعالهم

(١) انظر: السنوسية دين ودولة، ص (١٤).

(٢) انظر: دراسات وصور من تاريخ الحياة الأدبية، للحاجري، ص (٢٧٨).

القبيحة يرويها جيل عن جيل من القتل الذريع، والسبي الشنيع، وإهدار كل حرمة، وتحويل المساجد إلى كنائس كانت تلك الأمور محل تأمل وتفكر من قبل ابن السنوسي [١] .

لقد كانت تجربة فاس ثرية بالنسبة لابن السنوسي وقد نقل لنا شكيب أرسلان عن أحمد الشريف السنوسي ما درسه جده في فاس والشيوخ الذين أخذ عنهم فقال: (ومنهم العلامة الهمام سيدي محمد بن الطاهر الفيلالي الشريف العلوي قرأت عليه «مختصر السعد»، و«جمع الجوامع»، و«السلم»، وجملة صالحة من مختصر الشيخ خليل، وهو يروي عن الحافظ بن كيران والعلامة الزروالي وشيخهم العلامة ابن الشقرون بأسانيدهم السابقة وغيرهم من أماثل علماء فاس . ومنهم العلامة المتقي المتفنن أبو المواهب سيدي أبو بكر بن زياد الإدريس حضرته في علوم كثيرة وقرأت عليه الفرائض والحساب والأربعين ومضاعفاتها والأسطرلابيين وصناعتها والعلوم الأربعة: الرياضة والهندسة والهيئة والطبيعة والأرثماطقيقي والمساحة والتعديل والتقويم وعلم الأحكام والنسب والوقف والتكسير والجبر، والمقابلة وغيرها. . .إلخ) [٢] ولقد بقي ابن السنوسي مهتمًّا بهذه العلوم وقام بتدريسها لبعض طلابه ومريديه .

ويمكن للباحث أن يلاحظ عدة عوامل أثرت في شخصيته لما كان في الجزائر، وظهور خطوط واضحة بعد انتهاء تجربة المغرب الأقصى في فاس، أما العوامل التي أثرت في شخصيته لما كان في الجزائر فمنها:

١- ولادته في بيت شريف مشهور بالعراقة والأصالة، وتأثره بتاريخ أجداده الأدارسة الذين حكموا المغرب، ولذلك صمم على السير في طريق أجداده ولقد برز اهتمامه بتاريخ أجداده في الكتاب الذي ألفه فيما بعد عنهم وسماه «الدرر السنية في أخبار السلالة الإدريسية» .

---

(١) المصدر السابق نفسه، ص (٢٧٩) .

(٢) انظر: الحركة السنوسية للدجاني، ص (٤٧) نقلاً عن حاضر العالم الإسلامي .

٢- نشأته في بيئة علمية حببت إليه العلم وفتحت عينيه على حقائقه الكثيرة، فأبوه وعدد من أجداده كانوا من الفقهاء والعلماء .

٣- تأثره بعمته فاطمة التي أشرفت على تربيته في طفولته الأولى وقد بقى ابن السنوسي في كهولته يذكر بعض توجيهاتها له .

٤- التقاليد والأعراف التي ورثتها أسرته ساعدت في صقل شخصيته، من ذلك اهتمام الأسرة بتربية علمية عملية فيها الدراسة وفيها الفروسية [١] .

٥- تأثر ابن السنوسي مما كان يراه من ظلم الولاة العثمانيين، ومن الثورات التي كانت تقوم بها القبائل ضدهم .

٦- لمس أطماع الدول الأوروبية في بلاده .

وأما الخطوط العريضة التي اتضحت في شخصيته بعد الإقامة بفاس فمنها:

١- الصوفية التي تعمق ابن السنوسي في دراستها وساعدته الظروف على ذلك حيث كانت فاس مركزًا نشطًا للطرق الصوفية، وميدانًا خصبًا لنشاطها، ومعلوم لدى الباحثين أن الشمال الإفريقي على وجه خاص حافل بالحركات الصوفية ولدى أهلها اهتمام كبير بها . وكان من الطبيعي أن يتأثر ابن السنوسي بالنظام المغربي للصوفية . ولقد استمر اهتمامه بالصوفية حتى آخر حياته وبقى خطها واضحًا في شخصيته حتى أنه نظم طريقة خاصة عرفت باسمه وكتب كتابًا سماه (السلسبيل المعين في الطرائق الأربعين) تحدث فيه عن الطرق الصوفية عامة ووصف الطريقة المثلى التي رضى بها والتي عرفت بنسبتها إليه [٢] وكانت تجربته في الصوفية قد أعطته خبرة في التعامل معها فهو لم يقبل الصوفية على إطلاقها، ولم يرفضها بالجملة، بل قيدها بالكتاب والسنة وجعل طريقته مبنية على (متابعة السنة في الأقوال والأحوال والأشغال بالصلاة على النبي في عموم الأوقات) [٣] وقد اهتم بالصوفية اهتمامًا كبيرًا وظهرت

---

(١) انظر: الحركة السنوسية ، للدجاني، ص (٤٣) .
(٢) إمام التوحيد محمد بن عبد الوهاب، للقطان، ص (١٠٩) .
(٣) انظر: السلسبيل، ص (٧) .

هذه النزعة في منهجه التربوي الذي جعله لأتباعه والذي سنفصله في الصفحات القادمة بإذن الله تعالى .

٢- اهتمامه بالدراسة الفقهية، فقد واصل ابن السنوسي في فاس دراسته الفقهية على المذهب المالكي ودرس كتب الفقه على يد شيوخه وقد ذكر في مقدمته «للموطأ» أنه أخذه على طريقتي المغاربة والمشارقة، وذكر اثنين من شيوخه المغاربة وهما محمد بن عامر المعداني، ومحمد بن عبد السلام الناصري، ولقد ظهرت سعة اطلاعه في الفقه المالكي وفقه المذاهب الأخرى في تأليفه، ولقد بقي اهتمامه بالجانب الفقهي حتى آخر حياته، واستمر على المذهب المالكي مع اجتهاده فيه ومخالفته للمالكية في مجموعة من المسائل سنبينها في الصفحات القادمة إن شاء الله، ونلاحظ بأن اهتمام ابن السنوسي بالتصوف والفقه أكسبت حركته طابعًا مميزًا، فهو لم يغلُ في صوفيته ولم يغرق في شطحاتها كما أنه لم يغل ولم يقف عند الحروف الفقهية ولم يتجمد في فهم أحكامها؛ بل زاوج بين دارستها، فأكسب صوفيته طابع السنة ولجمها بحدود الشرع وأعطى فقهه رونقًا وروحانية متألقة بعيدة عن الجمود .

٣- اهتمامه بالحركات الإصلاحية، والوقوف في وجه الحكام ضد انحرافهم، والوقوف معهم لتحقيق الإصلاح وتنظيم تكتل شعبي يسند هذه المطالبة ويعززها، فقد زاد هذا الاهتمام بفاس عاصمة الدولة المغربية ومركزها المهم في نشر الوعي، وإشعاع العلم [١] .

يقول الدكتور محمد فؤاد شكري: (ولما كان حبه لمنفعة المسلمين ورغبته في أن يرى العدل باسطًا جناحه على أهل السلطنة وعلى شعوب الإسلام طرًّا، هي كل ما يريد في حياته، فقد أكثر من الموعظة الحسنة في أثناء دروسه، وجرب مع الأهلين وأصحاب الشأن في فاس طرق الإرشاد بالحسنى تارة وبالشدة أخرى، ولكن دعوته إلى العدل والخير وجمع كل المسلمين وتطهير النفوس والابتعاد عن المنكر لم تثمر

---

(١) انظر: الحركة السنوسية ، للدجاني، ص (٥١) .

ثمـرتها، بل إن كل مـا حدث هو تنبـه حكومة السلطان مـولاي سليمـان إلى هذه الدعـوة وتلمس الخطر من جـانبهـا، خشـيـة أن تنقلب الدعـوة الدينية إلى أخـرى سياسية، قد تعصف بالسلطنة .

وعلى ذلك فقـد شددت الحكومة في مراقـبة السيد، فوجـد ألا فائدة ترجى من بقائه في فاس وقرر الارتحال) [١] .

رابعًا: الأسباب التي جعلت ابن السنوسي يغادر فاس:

في عام ١٢٣٥هـ [٢] غادر ابن السنوسي فـاس إلى الجزائر وقد ذكـر المؤرخون عدة أسباب جعلته يغادر فاس منها:

١- أن فتنًا كثيرة ثارت في فاس، حيث عمت الفوضى المدينة واضطر أهل الحل والعقـد أن يقوموا بضـبطها . ثم حدثت فـتنة أخرى بسبب نزاع جـرى بين القاضي والمفتي رفع أمره للسلطان سليمـان فأخر المفتي عن الفتوي، فغضب للمـفتي جماعة من المدرسين وطلبة العلم وتحزبوا على القاضي فكتبوا رسـمًا يتضمن الشهادة بجوره وجهله[٣] ثم اضطرمت نار الفـتنة حـتى انتـهت بخـروج أهل فـاس على السلطان سليمان، وعـزموا على بيعة المولى إبراهيم بن يزيد زوج ابنة الـسلطان، فامتنع أولاً فهددوه قائلين: «إن لم نبايعك بايعنا رجلاً من آل المولى إدريس ﵁» فخاف خروج الأمر من بينهم فوافق [٤]، وكان من العلمـاء الذين حضـروا البيعـة محمـد العربي الدرقاوي وهو أحد أساتذة ومشايخ ابن السنوسي، ولم يكن دور ابن السنوسي كبيرًا في تلك الأحـداث، وكـانت الأحـوال في فـاس تدعـو ابن الـسنوسي للمـغـادرة وخصوصًا بعد أن اسـتطاع السلطان سليمان استعادتها ودخـول شيخه الدرقاوي إلى السجن وتزعزع مـركز العلماء والطلاب الذين وقفوا ضـد السلطان سليمان ولا شك

---

(١) انظر: السنوسية دين ودولة، ص (١٤) .

(٢) انظر: سياحتي في صحراء إفريقيا الكبرى، لصادق المؤيد، ص (٦٦) .

(٣) انظر: الاستقصاء، للناصري، (٨ / ١٤٦) .

(٤) انظر: الاستقصاء للناصري، (٨ / ١٥٠) .

أن تلك الأحداث أكسبتـه خبرات كثيرة وأضافت إلى رصيده تجارب مـهمة في حياته المستقبلية [١] .

٢- ومن الأسباب التي شجعت ابن السنوسي على مغادرة فاس أنه كان قد أخذ حظًّا وافرًا من الدراسة على علمـائها وتاقت نفسه للأخـذ على علماء جدد، ولذلك نراه في طريق عودته من فاس يدخل في أعـماق صحراء الجزائر ليتـعرف على أشهر الزوايا وليقابل مقدميـها حتى بلغ عين مهدي [٢] ،مكث فيها مدة قـصيرة ثم قصد «الأغوات» التي كانت تمتاز بموقـعها في جنوب الجزائر بوصفهـا ملتقى القوافل الآتية من السودان الغربي . وفـيها مكث بعض الوقت يلقى دروسًا في الفقـه والشريعة ثم ارتحل منهـا إلى مسـعد ثم إلى جلفـة ثم إلى بوسـعده وهو في أثناء رحلتـه يوعظ ويدرس ويفقه الناس بأمور دينهم [٣] وكان لرحلته في جنـوب الجزائر أثر في نضوج شخصيتـه، وفي إعداده لما أخذ نفسه به، فها هو ذا يشـهد ذلك العالم الذي يختلف إلى حد بعيد عن العالم الذي عهده في مدن الجزائر وفي فاس بالمغرب الأقصى، وها هو ذا يرى ميادين جـديدة للدعوة والإصلاح تتفتح له، عالم بدوي بعـيد عن صور الحضارة وتعقيداتها، ثم هو في الوقت نفسه ملتقى الإسلام والوثنية .

وقد كانت تلك البوادي، على سكونهـا وهدوئها، تضطرب بألوان من الحركات الدينية والأعمـال التجارية، وكانت الزوايا الديـنية التي يقوم عليهـا أصحاب الطرق الصوفيـة هي أهم مراكز هذه الحركـات، أو لعلها المراكز الوحيـدة لها، وكانت هذه الزوايا، أو هذه المراكز الثقافية، تقع في الغالب على طرق التجارة التي تربط السودان بالشمال، وتنتقل بواسطتها السلع في قوافل ما تزال رائحة وغادية .

وفي هذه الزوايا يلتـقي رجـال القـوافل القـادمـون من الجنوب والعـائدون من الشمال، يجلسون إلى شيوخهـا، ويستروحون بالتلقي عنهم، والانغمار في جوهم،

(١) انظر: الحركة السنوسية، ص (٥٥) .
(٢) انظر: السنوسية دين ودولة، ص (١٤) .
(٣) انظر: الحركة السنوسية، ص (٥٧) .

وبتبادل الأحاديث المختلفة عن البلاد التي جاءوا منها أو مروا بها وبذلك كانت تلك الزوايا محلاً ثريًا غنيًا بالمعلومات [١] وأخبار الشعوب الإسلامية، وفي هذه الزوايا كان نشاط ابن السنوسي في السودان الغربي يقوم بواجب الدعوة إلى الله تعالى وقد أيقن أن من عوامل نهوض الأمة القيام بهذا الدور العظيم، فإن الإسلام الذي آمن به ابن السنوسي لا يكتفي بأن يكون في نفسه صالحًا مهتديًا، وإنما يريد منه أن يكون مصلحًا هاديًا، متسلحًا بالعلم، ومتحليًا بالحلم، ومتجملاً بالصبر، ومتحررًا من كل القيود التي تشده إلى الأرض، وتقعد به عن كلمة الحق، وإظهار الإسلام لكل أنواع البشر، وفي كل البقاع، لم يبال ابن السنوسي بالتعب والنصب في سبيل رسالته ودعوته بل كان محتسبًا الأجر والمثوبة عند الله تعالى وكان يرى أن شرفه منوط بأداء تلك الرسالة المقدسة .

وقد مكث في تلك الديار ما يقارب العامين معلمًا ومربيًا وداعيًا .

ولقد استفاد من هذه التجربة دروسًا عظيمة جعلته يركز في مستقبله على دعوة البادية لما رأى فيهم من صفاء الفطرة، وجمال الخلق، وحب التدين وبعدهم عن الفساد وتعقيد الحياة الاجتماعية، وسيطرة الأهواء السياسية كما لاحظ ذلك في المدن التي عاش فيها [٢] .

٣- ومن الأسباب التي جعلته يغادر فاس رغبته الملحة لحج بيت الله الحرام، وزيارة مسجد النبي ﷺ ولذلك غادر بلاد السودان الغربي في رفقة قافلة ذاهبة إلى المشرق[٣] .

خامسًا: رحلته إلى المشرق:

كان التفكير عند ابن السنوسي للسفر إلى مكة طبيعيًا، فهو من ناحية لا بد أنه تاقت نفسه إلى بيت الله الحرام وحلم طويلاً بالعيش في الأراضي المقدسة، وقضاء

---

(١) انظر: دراسات وصور، للحاجري، ص (٢٨١ ، ٢٨٢) .

(٢) دراسات وصور، للحاجري، ص (٢٨٢) .

(٣) المصدر السابق نفسه، ص (٢٨٣) .

فريضة الحج . كما أنه رأى في الإقامة بمكة فرصة للقاء كبار علماء العالم الإسلامي وقد استقرت في نفسه نصيحة أحد شيوخه إذ قال له: (إن الارتحال المستمر صعب فإذا أردت أن تستزيد من العلم فما عليك إلا السفر إلى مكة حيث يلتقي جميع علماء المسلمين) [١] . بالإضافة إلى التعرف على الشعوب الإسلامية عن قريب .

وقد ذكر بعض المؤرخين [٢] أن ابن السنوسي قبل أن يسافر إلى المشرق رجع إلى بلده مستغانم وفيها قام بإتمام أول زواج له إذ بنى باحدى بنات عمومته ثم نشب بينه وبين أقاربه الأدنين خلاف حول أملاكه واحتكم للقضاء فحكم له بالأملاك والريع ولأقاربه بالسجن فتنازل عن الريع وطلب إخلاء سبيلهم فكان له ذلك . ثم أنه بعد ذلك صفى أملاكه وانتقل إلى جهة قسطنطينية وجاء عند عرب اسمهم أولاد نايل كانوا في جنوب شرق القسطنطينية فبنى عندهم زاوية ومارس هناك الوعظ والتعليم والإرشاد .

وقرر ابن السنوسي بعد ذلك الارتحال إلى مكة وعرض على زوجته أن ترافقه فلم ترغب في ذلك، فرأى أن يطلقها لعلمه بطول المدة التي يرغب فيها بالانقطاع عن بلده [٣] وولد له من زواجه الأول طفل توفي وهو صغير ثم ماتت أمه بعد ذلك[٤] .

وغادر ابن السنوسي الجزائر ودخل تونس وقابس وجامع الزيتونة واستفاد من شيوخها واستفاد الطلاب منه وطلب منه التدريس ولبى الطلب، ثم واصل سيره ودخل طرابلس الغرب وكان ذلك في حكم يوسف القرمانلي الذي كان مستقلاً عن الدولة العثمانية، فأكرم نزله ومكث في مدينة طرابلس وضواحيها مدة للوعظ والإرشاد والتعليم ونفع العباد ولم يترك بها مسجداً معروفًا إلا ألقى فيه دروسًا، وتعلق به آل المنتصر وأصبحوا فيما بعد هم النائبون عنه في طرابلس، وسافر إلى

---

(١) انظر: الحركة السنوسية، ص (٥٩) .
(٢) منهم : أحمد الدجاني .
(٣) انظر: الحركة السنوسية ، للدجاني، ص (٥٨) .
(٤) انظر: الفوائد الجلية، (١ / ١٣) .

زليطن للوعظ والإرشاد والدعوة واستطاع أن يكسب لدعوته أنصارًا من مصراته وزليطن وطرابلس، ومن أشهر الأسر التي أصبحت من ركائز الدعوة السنوسية فيما بعد؛ آل المحجوب، وآل الآشهب، وآل الدردني، وآل عمران بن بركة، وآل يوسف، وآل ابن فرج الله وآل المقرحي وآل الثني وآل الغرياني وآل العيساوي وآل الغزالي وآل الهوني وآل الزناتي [١] وساعده على تعلق الناس به خلق كريم، وطلعة بهية، وقبول من رب العالمين .

ونستطيع أن نحدد تاريخ دخول ابن السنوسي طرابلس الغرب من حديث حفيده أحمد الشريف الذي تحدث عن اجتماع جده بأحد مريديه وهو عمران بن بركة (فكان اجتماعه به أثناء مروره عليهم قادمًا من المغرب إلى المشرق سنة ثمان وثلاثين بعد المئتين والألف في بلده زليطن بغرب طرابلس الغرب) [٢] .

ومن خلال مروره على طول الساحل الإفريقي تعرف على أحوال مسلمي المغرب وكون فكرة عن أوضاعهم، وأتاحت له تلك الرحلات التعرف على أناس كثيرين وعلى أماكن كثيرة، وقد استفاد من هذا التعارف فيما بعد عند عودته من الحجاز، وكان من طبيعة ابن السنوسي أن يوطد علاقاته بمن يتعرف عليهم ووثق صلته بأشخاص كثيرين، ونجح في كسب قلوب الكثيرين حتى أن رجلاً كعمران بن بركة كان يريد مرافقة ابن السنوسي ولكنه طلب منه التريث والانتظار حتى يرسل له [٣] .

وواصل ابن السنوسي سيره ودخل برقة وقبل وصوله إلى مدينة إجدابية مر على نجع شيوخ المغاربة الشيخ على لطيوش فأكرمه وقام بخدمته خير قيام دون سابق معرفة ورافقه إلى إجدابية وجهزه إلى أوجلة، ولم يمر ببنغازي ولا الساحل وتعرف على الشيخ عمر بوحوا الأوجلي وكان في رفقته عبد له، وعبد الله التواتي واستمر في رحلته مع الصحراء بواسطة القوافل حتى وصل القاهرة [٤] .

---

(١) المصدر السابق نفسه، (١ / ١٥،١٦،١٧) .

(٢) انظر: أحمد الشريف، ص (٨) نقلاً عن الدجاني، ص (٥٩) .

(٣) انظر: الحركة السنوسية ، للدجاني، ص (٦٠) .

(٤) انظر: الفوائد الجلية (١ / ١٥ إلى ٢١) .

سادسًا: دخوله القاهرة:

دخل ابن السنوسي مصر وكان الحكم آنذاك لمحمد علي باشا وكان صاحب الجولة والصولة، وكان ذلك في عام ١٢٣٩هـ/ ١٨٢٤م وكان محمد علي باشا قد قبض على زمام الأمور في مصر بقوة منذ سنة ١٨٠٥م وكانت فرصة لابن السنوسي ليتعرف على تجربة محمد علي باشا عن قرب، وقد لاحظ ابن السنوسي عدة أمور جعلته لا يرتاح إلى نوع الحكم الذي أقامه محمد علي باشا وطريقة الإصلاح وازدادت قناعة ابن السنوسي فيما بعد بخطورة حركة محمد علي باشا التي كانت سياسته تخدم أعداء الإسلام وهيأت سياسته المنطقة بأكملها لمرحلة استعمارية ما زالت آثارها تعاني منها الأمة حتى اليوم لقد استطاعت السياسة النصرانية الأوروبية أن تحقق أهدافها الآتية بواسطة محمد علي باشا:

١- تحطيم الدولة السعودية الأولى التي كادت أن تكون خنجرًا مسمومًا في ظهر الأطماع البريطانية في الخليج العربي خصوصًا والمشرق عمومًا .

٢- فتح الأبواب على مصراعيها لإقامة مؤسسات معادية للدين الإسلامي والمسلمين في محافل ماسونية وإرساليات تنشيرية وأديرة وكنائس ومدارس في بذر التيارات القومية المعادية للإسلام، وبث الأفكار المعادية لمصالح الأمة الإسلامية . وقد فصلت ذلك في كتابي «الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط» .

٣- إتاحة الفرصة لشركات أوروبية تتحكم في الاقتصاد .

٤- منح امتيازات واسعة للأوروبيين، ومنع أهالي مصر والشام من تلك الامتيازات.

٥- خنق التيار الإسلامي الأصيل، وضيق على العلماء والفقهاء ولم يسمح للمسلمين أن يتكتلوا من أجل أهدافهم النبيلة [(١)] .

وأما حالة الأزهر في ذلك الوقت فقد كان في انحطاط، فالعلوم التي تدرس فيه

---

(١) انظر: الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط، لعلي الصلابي، ص (٥٩٠) .

تراكم عليها الغبار لقدمها وفقدت لمعانها وبريقها لانعدام الإبداع فيها والتزام التقليد؛ أما علماء الأزهر فقد عمل محمد على باشا على إضعاف دورهم ووقعت بينهم المنافسات والضغائن واستعان بعضهم بالحكام واستعداء السلطة على بعضهم، وعمل محمد علي باشا على تقويض صف العلماء؛ كالخلاف الذي وقع بين الشيخ عبد الله الشرقاوي شيخ الأزهر، وبين بعض المشايخ الآخرين حيث ترتب على ذلك الخلاف صدور الأمر من محمد علي باشا إلى الشيخ الشرقاوي بلزوم داره وعدم الخروج منها ولا حتى إلى صلاة الجمعة [١]، وسبب ذلك كما يقول الجبرتي: (أمور وضغائن ومنافسات بينه وبين إخوانه . . . ، فأغروا به الباشا ففعل به ما ذكر فامتثل الأمر ولم يجد ناصرًا وأهمل أمره) [٢] .

وقد أصيبت العلوم الدينية في الأزهر بالجمود والتحجر نتيجة لعدة عوامل منها:

١- الاهتمام بالمختصرات:

(فأصبح الفقهاء ينقلون أقوال من قبلهم، ويختصرون مؤلفاتهم في متون موجزة، ويأخذون هذه الأقوال مجردة من أدلتها من الكتاب والسنة، مكتفين بنسبتها إلى أصحابها) [٣] .

ويذكر الإمام الشوكاني اهتمام الناس في عصره بهذه المختصرات والخطورة التي تنطوي على ذلك فيقول: (قد جعلوا غاية مطالبهم ونهاية مقاصدهم العلم بمختصر من مختصرات الفقه التي هي مشتملة على ما هو من علم الرأي والرواية، والرأي أغاب، ولم يرفعوا إلى غير ذلك رأسًا من جميع أنواع العلوم، فصاروا جاهلين بالكتاب والسنة وعلمهما جهلاً شديدًا، لأنه تقرر عندهم أن حكم الشريعة منحصر في ذلك المختصر، وأن ما عداه فضلة أو فضول فاشتد شغفهم به وتكالبهم عليه، ورغبوا عما عداه، وزهدوا فيه زهدًا شديدًا) [٤] .

---

(١) المصدر السابق نفسه، ص (٥٩٠) .
(٢) انظر: عجائب الآثار، (٣ / ١٣٤) .
(٣) انظر: واقعنا المعاصر، ص (٥٦) .
(٤) انظر: البدر الطالع بمحاسن ما بعد القرن السابع (١ / ٨٦) .

٢- الشروح والحواشي والتقريرات:

انتشرت الشروح والحواشي والتقريرات في تلك الفترة في الأزهر الشريف وفي عموم الأمة، فكانت كالأغلال التي كلبت العقول وأدت إلى جمود العلوم، وكانت توجد بعض الحواشي والشروح المفيدة ولكنها لا تكاد تذكر، وكانت مناهج التعليم بعيدة عن منهج أهل السنة والجماعة، وكان الأزهر مركزًا لعلوم المتكلمين البعيدة عن روح الإسلام وأصيبت المناهج الإسلامية بالإضافة إلى الجمود بموجة من الجفاف: (. . . وأصبحت الدراسات الإسلامية دراسة لا حياة فيها ولا روح، وجرت عدوى هذه الدراسات إلى جميع أبواب الفقه حتى الأبواب التي كانت يجب أن تكون دراسة الروح أهم عنصر فيها . . .) [١] .

٣- الإجازات:

من عوامل تدهور الحياة العلمية في الأزهر في تلك الفترة التساهل في منح الإجازات ؛ فكانت تعطى جزافًا، إذ كان يكفي أن يقرأ الطالب أوائل كتاب أو كتابين مما يدرسه الأستاذ حتى ينال إجازة بجميع مروياته، وكثيرًا ما أعطيت لمن طلبوها من أهل البلاد القاصية عن طريق المراسلة، فكان العالم في القاهرة يبعث إلى طالب في مكة بالإجازة دون أن يراه أو يختبره [٢] .

فكان ذلك التساهل من الأمور التي شغلت المسلمين عن تحصيل العلوم، كما كان ينبغي، وهكذا كان التساهل في منح الإجازات عاملاً مهمًّا من عوامل انحدار المستوى التعليمي وضعف العلوم الشرعية، حيث أضحى الهدف عند كثير من المنتسبين إلى العلم، حيازة أكبر عدد من هذه الإجازات الصورية التي لم يكن لها في كثير من الأحيان أي رصيد علمي في الواقع [٣] .

---

(١) المجتمع الإسلامي، محمد المبارك، ص (٢١٠) .
(٢) الانحرافات العقدية والعلمية، للزهراني (٢ / ٥٩) .
(٣) المصدر السابق نفسه (٢ / ٦٤) .

٤- رفض فتح باب الاجتهاد:

أصبحت الدعوى لفتح باب الاجتهاد تهمة كبيرة تصل إلى الرمي بالكبائر، وتصل عند بعض المقلدين والجامدين إلى حد الكفر، وكانت الدعوة إلى غلق باب الاجتهاد توارثها المتعصبون على مر العصور، وأصبح حرصهم في أواخر الدولة العثمانية ظاهراً ونافحوا من أجل عدم فتحه، ومقاومة كل من يحوم حوله مما شجع المغتربون بالسعي الدءوب لاستيراد المبادئ والنظم من أوروبا ولقد ترتب على إغلاق باب الاجتهاد آثار خطيرة لا تزال أضرارها تنخر في حياة المسلمين إلى يومنا هذا . (فحين يتوقف الاجتهاد مع وجود دواعيه ومتطلباته فما يحدث؟

يحدث أحد الأمرين:

إما أن تجمد الحياة وتتوقف عن النمو، لأنها محكومة بقوالب لم تعد تلائمها ؛ وإما تخرج على القوالب المصبوبة، وتخرج في ذات الوقت من ظل الشريعة؛ لأن هذا الظلم لم يمد بالاجتهاد حتى يعطيها، وقد حدث الأمران معًا، الواحد تلو الآخر .. الجمود أولاً ثم الخروج بعد ذلك من دائرة الشريعة) [١] .

لقد عانت الأمة من غلق باب الاجتهاد وكانت الدولة العثمانية في أواخر عهدها لم تعطِ هذا الباب حقه وكانت عجلة الحياة أسرع وأقوى من الجامدين والمقلدين الذين ردوا كل جديد، وخرج الأمر من أيديهم: (وهكذا توقفت الحركة العقلية عند المسلمين إزاء كل جديد تلده الحياة، والحياة ولود لا تتوقف عن الولادة أبدًا، فهي تلد كل يوم جديداً لم تكن تعرفه الإنسانية من قبل وكان من هذا أن مضى الناس - من غير المسلمين - يواجهون كل جديد، ويتعاملون معه، ويستولدون منه جديداً، وهكذا سار الناس من غير المسلمين قدمًا في الحياة ووقف المسلمون حيث هم لا يبرحون مكانهم الذي كان عليه الآباء والأجداد من بضعة قرون) [٢] .

---

(١) انظر: واقعنا المعاصر ، ص (١٥٩) .

(٢) انظر: سد باب الاجتهاد وما ترتب عليه، د. عبد الكريم الخطيب، ص (١٤٤) .

٥- التعصب المذهبي:

استمر التعصب المذهبي في الأزهر يضعف المستوى التعليمي، وانحدرت العلوم، وتكبلت العقول والأفهام وفرق بين كلمة المسلمين وأفسد ذات بينهم، وزرع العداء والشقاق بين أفرادهم وجماعتهم بعد أن تحزبوا طوائف وجماعات، كل طائفة تناصر مذهبها، وتعادي غيرها من أجله، وفي تلك الفترة تفاقم هذا التعصب وعم الأقطار الإسلامية ولم يسلم منه قطر ولا مصر ؛ فالجامع الأزهر كان ميدانًا رحبًا للصراعات المذهبية خصوصًا بين الشوافع والأحناف وذلك من أجل التنافس الشديد على مشيخة الأزهر [(١)] . إن العصبية المذهبية أوجدت حواجز كثيفة بين المسلمين في القرون الأخيرة ؛ فأضعفت شعورهم بوحدتهم الإسلامية اجتماعيًّا وسياسيًّا، وأورثت فيما بينهم من العداوات ما شغلهم عن أعداء الإسلام على اختلاف أنواعهم، وعن الأخطار المحدقة بالمسلمين والإسلام . . .) [(٢)] .

وكانت زيارته لمصر قد رسخت في نفسه ضعف دولة الخلافة من جهة، وزاد ضعفها بظهور حكومة محمد علي باشا على مسرح الأحداث في مصر وقد وصل إلى قناعة مهمة في الإصلاح والنهوض من أهمها:

١- أن المسلمين كانوا في حاجة ضرورية إلى العلماء الربانيين الذين يقومون بنشر الدعوة للدين القويم .

٢- أهمية إحياء مبدأ الشورى على مستوى الحكومات وخطورة الحكام المستبدين الذين يتحكمون في رقاب الأمة باسم الإسلام .

٣- خطورة جمود العلماء وتعصبهم وتقاعسهم في نشر العلوم النافعة بين جميع طبقات الشعب .

٤- أهمية تعلم الصنائع وتعميمها لسد حاجات الشعب، وتحبيب عوام المسلمين في الفروسية، والرياضة واستعمال السلاح .

---

(١) انظر: عجائب الآثار، (٢ / ٢٤٢) .

(٢) انظر: الانحرافات العقدية والعلمية (٢ / ٨٦) .

٥- خطورة التسويف وترك العمل الجاد الخلاق .

وقد عمل ابن السنوسي في تلك الفترة على إكمال فكره ورأيه وظهر بهذه النتيجة التي تقول ؛ أنه في حاجة ملحة إلى تحصيل علوم كثيرة غير العلوم العقلية والنقلية التي استفادها من فاس، واقتنع أن تفوق أوروبا هو وليد العلم الذي سبب لهم التفوق في مجال الصناعة والرياضة، والفنون الحربية العملية وقد لمس ذلك في المشاريع التي اشرفت عليها فرنسا وبريطانيا في مصر في زمن محمد علي باشا.

والنتيجة الثانية أن من أسباب عدم تقدم المسلمين وعدم اتحادهم ؛ اختلاف المذاهب وكثرة الطرق، والحكم الفردي الاستبدادي، وابتعاد الأمة عن روح الإسلام المتمثل في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ [(١)] .

وبعد هذه التجربة القصيرة في مصر قرر مواصلة سفره إلى الحجاز بعد أن أقام عامًا واحدًا وقد أحدثت زيارته لها آثاراً في نفسه من ذلك أنه ازداد إيمانًا بأن دولة الخلافة كانت في طريق الانحلال والاضمحلال، وقد ذكر المؤرخ التركي أحمد حلمي قوله: (وأحدثت هذه الزيارة في نفسه تبدلاً عظيمًا وانتقش في ذهنه أن الدولة العثمانية في طريق الانحلال والاضمحلال) [(٢)] .

لقد خبر ابن السنوسي أوضاع الدولة العثمانية في وطنه الأول الجزائر حيث تسلط الولاة الأتراك وحكمهم الاستبدادي، وعجز الدولة عن منعهم من الظلم، وجاء إلى القاهرة فرأى حكم محمد علي باشا وانفراده بشئون مصر، فزاد اقتناعًا بعجز الدولة وضعفها [(٣)] .

سابعًا: دخول الحجاز:

دخل ابن السنوسي الحجاز عام ١٢٤٠هـ/ ١٨٢٥م، ونزل بمكة المكرمة وكانت تلك الزيارة لمكة ذات أثر كبير في قيام الدعوة السنوسية وظهور شأنها، وساعد على هذا جملة أسباب:

---

(١) انظر: السنوسية دين ودولة ، ص (١٨) .

(٢) ، (٣) انظر: الحركة السنوسية ، ص (٦٥) .

١- استطاع ابن السنوسي أن يتحصل على أنباء عظيمة عن أحوال وأخلاق المسلمين الوافدين إلى مكة .

٢- أتيحت له فرصة طيبة للاحتكاك بعلماء وفقهاء ،مفكري الأمة، وتبادل معهم الآراء، والأفكار في كيفية النهوض وإعادة مجد الأمة .

٣- كانت مكة منبرًا مهمًّا للدعوة ولذلك اشتغل ابن السنوسي بنشر العلوم وتحصيلها والمناظرة فيها واجتهد في دراسة المذاهب الإسلامية حتى حذق مخاطبة جميع العالم الإسلامي .

٤- أتيحت له دراية بحركة الشيخ محمد بن عبد الوهاب عن قرب وعاشر أتباع الدعوة السلفية ومريديها وتتلمذ على علمائها وشيوخها ودرس الحركة السلفية دراسة واعية في مواقفها السياسية واجتهاداتها العملية .

٥- شيوخه في مكة:

أقبل ابن السنوسي في مكة على العلماء يتعرف عليهم ويأخذ عنهم، لقد كان تشوقه للعلم في أخذه يبدو جليًّا في أي مكان حل فيه، وكانت مكة تضم عددًا من العلماء المسلمين يمثلوا المذاهب والاتجاهات الفكرية المختلفة، ففيهم الصوفي وفيهم المذهبي وفيهم السلفي، وهذا جعله يطلع على معظم الاتجاهات في عصره، ومن أشهر العلماء الذين أخذ عنهم:

١- أبو سليمان عبد الحفيظ العجمي مفتي مكة وقاضيها .

٢- أبو حفص عمر بن عبد الرسول العطار، وقد ذكرهما في رسالته التي كتبها، كمقدمة لموطأ مالك باعتبارها العالمين الذين يروي الموطأ عنهما من المشارقة.

٣- أحمد الدجاني، حيث أخذ عنه ابن السنوسي عددًا من الطرق الصوفية .

٤- أحمد بن إدريس من أفضل شيوخ ابن السنوسي وقد تأثر به ابن السنوسي تأثرًا عظيمًا، وقد أخذ عنه ابن السنوسي عددًا من الطرق الصوفية، ودرس عليه

الحديث والسنة، ولد محمد بن إدريس سنة ١١٧٣هـ بميسورة [١] أصله من المغرب الأقصى وتلقى العلم على أكابر علمائها ثم هاجر إلى مكة واستقر في الحجاز، وأصبح من علماء وقته ومر هذا العالم بالجزائر وتونس وطرابلس وبنغازي سيراً على الأقدام، واستقر فترة من الزمن في بنغازي، ثم رحل إلى الإسكندرية بحراً، وأثنى على أهل بنغازي وأهل الجبل الأخضر لما رأى عندهم من محبة الخير والصلاح وقال فيهم : (هذه بلادنا فيه تحيا أورادنا، حيها سعيد وميتها شهيد، طوبى لمن أراد الخير لأهلها وويل لمن أراد الشر بأهلها) [٢] .

ودخل الحجاز واستمر يتنقل بين مكة والمدينة والطائف ما يقارب ثلاثين سنة واستفاد منه خلق كثير من أصقاع العالم الإسلامي، من مصر، والسودان، والهند، واليمن، وبلاد المغرب وغيرهم وكان دخول الحجاز عام ١٢١٣هـ [٣] .

وعندما دخل سعود بن عبد العزيز بن محمد بن سعود الحجاز عام ١٢٢١هـ لم يتعرضوا للشيخ أحمد ابن إدريس بأذى وكذلك أتباعه وقد وصف ابن إدريس بأنه ذو ميول سلفية .

قضى ابن السنوسي سنوات عديدة مع أستاذه ابن إدريس إلى أن اضطر الأخير إلى الارتحال من الحجاز: (وكان سبب الارتحال ما لقيه ابن إدريس من عنف السلطات الحكومية، ومعارضة علماء مكة الذين صاروا ينقدون السيد على اعتبار أنه كان لا يتفق في منهجه مع ما اعتاد عليه هؤلاء من أزمان طويلة حتى صاروا يعدونه مبتدعًا ثم انقلب نقدهم اضطهاداً اضطر بسببه السيد ابن إدريس لمغادرة مكة إلى صبيا العسير) وكانت (صبيا العسير) ضمن أملاك الدولة السعودية ومبادىء الدعوة السلفية متمكنة في نفوس أهلها وهذا ما كان يكرهه علماء الدولة العثمانية في مكة وأتباعها.

إن ارتحال أحمد بن إدريس إلى صبيا دليل على حسن الصلة التي بينه وبين أتباع

---

(١) انظر: الدجاني، ص (٦٧) .
(٢) انظر: الفوائد الجلية، ص (٢٤) .
(٣) المصدر السابق نفسه، ص (٢١ إلى ٢٣) .

حركة الشيخ محمد ابن عبد الوهاب [١] وسافر ابن السنوسي مع أستاذه إلى صبيا وأقام معه هناك حتى وفاته [٢] .

إن تتلمذ ابن السنوسي على أحمد بن إدريس أفاده كثيرًا وقد توثقت العلاقة بين ابن السنوسي وشيخه ابن إدريس وأصبحت علاقة قوية جدًّا يوضحها أحمد الشريف في كتابه «الأنوار القدسية» ما نقله عن ابن إدريس: (. . . أما ولدنا السيد محمد بن السنوسي فنحن أمرناه أن يدل الخلق على الله ويجذب الطالبين إلى الله إياكم ثم إياكم من كل ما يقطعكم عن صحبته فانه النائب عنا قد اختاره الله لذلك، وقد طلب منا مرارًا أن نجعل ذلك لمن يقوم به غيره فلم نر فيه المصلحة إلا هو . . . ونحن ما أقمناه حتى أقامه الله فقد قام امتثالاً لأمره فلم يكن له غرض لطلب دنيا ولا طلب جاه) [٣] .

لقد أخذ ابن السنوسي من شيخه الإذن لإعطاء العهود وتلقين الذكر فأذن له وأمره (أن يدل الخلق على الله ويجذب الطالبين إلى الله) [٤] ولم يلبث ابن السنوسي طويلاً بعد ذلك حتى بنى أول زاوية له في الحجاز وباشر الدعوة في حياة شيخه ابن إدريس، وشرع ابن السنوسي في إلقاء الدروس في مكة وتعليم من يجتمع حوله من المريدين وطلاب العلم، ويعتبر المؤرخون زاوية أبي قيس أول الزوايا التي أسسها ابن السنوسي بعد اعتزامه القيام بالدعوة واختياره لنظام الزوايا كوسيلة لنشر تعاليمه وأفكاره، ومكث في الحجاز في رحلته الأولى خمسة عشر سنة استطاع أن يجمع خلالها من التلاميذ والأتباع والمريدين أعدادًا كثيرة، مما حرك ضده عداوة شيوخ مكة وعلمائها الذين كانوا يخالفونه وينقدون اعتماده الصريح الخالص على الكتاب والسنة في دروسه واقتفاء السلف الصالح في إرشاده وتعليمه، وإقامته الحجة على أن الاجتهاد لم يغلق بابه، وزاد على ذلك أن السلطات الحكومية بدأت تشعر بخطورته،

---

(١) انظر: الحركة السنوسية، ص (١٠١) .

(٢) انظر: السنوسية دين ودولة، ص (٢١) .

(٣) انظر: الأنوار القدسية مخطوطة، ص (٦٨) .

(٤) المصدر السابق نفسه .

وخطورة الدعوة التي يحملها من جراء التفاف الناس حوله، وكان ابن السنوسي على اتصال مستمر بأبناء ابن إدريس في صبيا وهي تابعة للحركة السلفية، وكان العداء على أشده بين الحكومة العثمانية والأشراف بمكة وبين أتباع الشيخ محمد بن عبد الوهاب وهكذا كثرت الصعاب والعوائق في طريقه وفكر في الانتقال بالدعوة إلى مكان آخر، ولا شك أن إقامته الطويلة في مكة أثرت على جوانب كثيرة في تفكيره ووجهت اتجاهه الإصلاحي الوجهة التي سار عليها، فهناك في مكة أخذ كفايته على العلماء، ودرس معظم الاتجاهات الفكرية، والتقى بأستاذه ابن إدريس وكذلك بوفود الحجيج القادمين من مدن وقرى العالم الإسلامي وتعرّف على أحوالهم، وزاد فهمًا للداء الذي ينخر فيهم، وكانت هذه الجموع من الحجيج تربة خصبة استطاع أن يبذر فيها دعوته واختار منهم من يصلح لمعاونته [(١)] .

ولم ينس القضية الجزائرية وإذكاء جذوة الجهاد في نفوس أبناء الجزائر ضد فرنسا، وعندما قدم محيي الدين الجزائري برفقه ولده وأشراف قومه إلى مكة التقى بهم ابن السنوسي وأكرمهم غاية الإكرام، وبعد أن أرادوا السفر ودعهم وقال لهم: إن الدين الإسلامي يحتم على كل مسلم أن يدافع عنه بقدر استطاعته ويحرِّم على المسلمين الاستسلام للعدو الغاصب المعتدي والمنتهك لحرمات الدين والإسلام والمعطل لأحكام الله وإني استوصيك بولدنا عبد القادر هذا خيرًا فإنه ممن سيذود عن حرمات الإسلام ويرفع راية الجهاد فكان هذا سببًا في إيجاد روح الجهاد والمقاومة فيهما وتفكيرهما فيه، ومعلوم لدى الباحثين جهاد عبد القادر محيي الدين الجزائري في الجزائر [(٢)] .

زواجه الثاني:

وفي فترة إقامته في الحجاز تزوج ابن السنوسي زوجته الثانية السيدة خديجة الحبشية وقد قام بتزويجه أستاذه ابن إدريس الذي رآه يعيش عزبًا منذ طلاقه لزوجته

---

(١) انظر: الحركة السنوسية، ص (٧٢) .

(٢) انظر: الفوائد الجلية (١ / ٤٤) .

الأولى، وكانت السيدة خديجة تتصف بـالتقوى والصلاح . وقد قامت بدورها نحو زوجها فهيأت أسباب الراحة له ورافقته في رحلاته، ورضيت بأسلوب حياته الصعب الذي يتصف بالانتقال المستـمر والعمل المرهق . وقد توفيت فيما بعـد بالجغبوب بعد وفاة ابن السنوسي بحوالي عشرين سنة عام ١٢٦٩هـ [١] .

ثامنًا: رحلته من الحجاز إلى المغرب:

تضافرت عدة أسباب دفعت ابن السنوسي لمغادرة مكة منها ؛ توفي أستاذه أحمد ابن إدريس، عـداوة شيـوخ مكة وعلمـائهـا لما كان يطرحـه ابن السنوسي، خـوف الحكومة العثمانية من علاقته بأبناء أحمد بن إدريس في عسير وهي أرض تابعة لأتباع الحركة الوهابية، دعوة مريديه من أهالـي المغرب لزيارة بلادهم ، وأضاف عبد القادر ابن علي رغبة ابـن السنوسي للجهاد في بلاده ضد الفـرنسيين ؛ فعقد الـنية وصمم على السفر للاشتراك في جهاد فرنسا في الجـزائر، والتحق بركبه عدد كثير من أتباعه وإخوانه وعين الشيخ عبد الله التواتي على زاوية أبي قـيس بمكة للقيام بشئون الأتباع وكان سـفره ذاك في آخر عـام ١٢٥٥هـ في ٢٦ ذي الحجة حسـبما هو مـذكور في مذكرة مـرافقه الشيخ محمـد بن صادق البكري، ثم سافر إلى مصـر من مكة ومعه عدد كـبيـر من الإخوان وذلك آخـر عام ١٢٥٥هـ ودخلهـا أول عام ١٢٥٦هـ وزار الجامع الأزهر وألقى دروسًا نافعة ووقف أحد كبار مشايخ الأزهر وقال: (انصتوا أيها ابعلماء لقـد حل بين أظهركم عالم الأمة المحـمدية ونبراس الشريعة المـطهرة وشمس سماء المعارف الإلهية:

إذا صلصل الباز فلا ديك صارخ ولا فـاخت في أيكـــة يترنم

ألا وهو الشيخ الكامل سيدي محـمد بن علي السنوسي الحسني الإدريسي فارتج الجامع بعلمائه ولم يمكث الشيخ بمصر غير مدة قليلة ثم سافر) [٢] .

---

(١) انظر: الحركة السنوسية، ص (٧٢) .

(٢) انظر: رحلة الحشائشي، ص (١٥٠) .

وتعرض ابن السنوسي لهجوم الشيخ عليش المالكي بسبب دعوة ابن السنوسي لفتح باب الاجتهاد، وقد ذكر محمد عبده في كتابه الإسلام والنصرانية أن ابن السنوسي تعرض للقتل: (ألم يسمع السامعون أن الشيخ السنوسي كتب كتابًا في أصول الفقه زاد فيه بعض المسائل على أصول المالكية وجاء في كتاب له ما يدل على دعواه أنه ممن يفهم الأحكام من الكتاب والسنة مباشرة وقد يرى ما يخالف رأي مجتهد أو مجتهدين فعلم بذلك أحد المشايخ المالكية وكان المقدم من علماء الجامع الأزهر الشريف فحمل حربة وطلب الشيخ السنوسي ليطعنه بها لأنه خرق حرمة الدين وتبع سبيل غير سبيل المؤمنين، وربما كان يجترئ الأستاذ على طعن الشيخ بالحربة لو لاقاه وإنما الذي خلص السنوسي من الطعنة ونجى الشيخ المرحوم من سوء المغبة وارتكاب الجريمة باسم الشريعة هو مفارقة السنوسي للقاهرة) (١) .

وقد تعرض الشيخ ابن السنوسي في مصر اضطر على أثره أن لا يأكل شيئًا من الزاد سوى مقدار بسيط من الحليب صباحًا ومثله مساءً فقط وكان الذي يقدم له الحليب رجل تركي، فوضع له سمًّا في الحليب فلما شرب منه سقطت أسنانه في الإناء واشتد به الألم حتى يئس منه جميع الإخوان وأخيرًا منَّ الله عليه بالشفاء بعد معالجات، إلا أنه سبب له مضاعفات من جسمه تخرج على جلدة جبة (أي قشرة تشبه جبة الحنش وصارت له عادة يسلخها رأس كل عام وقت أخذه لذلك الحليب)، ولما تحسنت صحته أرسل للشيخ عبد الله التواتي في مكة ولما حضر إليه أرسله إلى قابس بتونس يرفقه بعض الإخوان ومعهم زوجته الحبشية وأمر بعض الأخوان أن يواصل رحلته إلى الجزائر (٢) .

وكان ابن السنوسي في سفره ذلك ذهابه إلى مصر قد قصد المدينة المنورة للوداع ثم نزل ببدر وكان يقصر ويجمع في الصلاة، وإن حصلت له إقامة ببلد في طريقه استمر على ذلك بقصر ويجمع إلى تسعة عشر يومًا، تارة يجمع جمع تقديم وتارة

---

(١) انظر: الإسلام في القرن العشرين، للعقاد، ص (١٣٠) .

(٢) انظر: الفوائد الجلية (١ / ٤٧ إلى ٥٠) .

جمع تأخير، وهو في عمله هذا يخالف المالكية ويتبع الأحاديث الواردة في قصر الصلاة وجمعها بعد أن اعتقد صحتها [١] .

وبعد الشفاء من مرضه اجتهد في الدعوة إلى الله وتعليم الناس وإرشادهم وأقام مداداً متفاوتة في عدد من المدن والقرى فترك في كل منها ركائز وأنصاراً، وقد تميز أسلوبه الدعوي بالبساطة وباتفاقه مع مستواهم العقلي [٢] .

وواصل ابن السنوسي رحلته براً من سيوه إلى جالوا ثم أوجلة وكان برفقته الشيخ عمر بوحوا، ومحمد الشفيع، والمهدي الفيلالي ثم توجه إلى برقة ونزل على نجع عائلة اللواطي من العواقير، ففرحوا وقاموا بإكرامه ورفقائه ورافقوه إلى منتجع قبيلة المغاربة فنزل على الشيخ على لطيوش فأكرم ابن السنوسي ورافقه إلى محل يسمى الهيشة ما بين سرت ومصراته وهناك قابله آل المنتصر ومعهم أعيان مصراته فدخل معهم إليها وبعد مدة قليلة واصل سيره إلى بلدة زليتن ومنها إلى طرابلس ونزل في بيت أحمد المنتصر وترك عنده بعض الإخوان وولي سفره إلى زوارة ودخل حدود تونس [٣] وشعرت المخابرات الفرنسية بخطورة ابن السنوسي منذ فترة طويلة وحاولت أن ترصد تحركاته مع الحجيج الجزائري والمغاربة عموماً، فبثت المخابرات الفرنسية عيونها وآذانها على طول الحدود وجاءته الأخبار بذلك وتقرر أن لا يواصل شخصياً سيره، وندب محمد بن صادق وحمّله بعض الأموال والأسلحة لتوصيلها إلى الأمير عبد القادر الجزائري [٤] وعاد إلى طرابلس، وتبنى ابن السنوسي دعم حركة الجهاد في الجزائر بالأموال والأسلحة والرجال ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، وقد أوفد في فترات متفاوتة عدداً من تلاميذه النجباء من أمثال محمد بن الشفيع، وعمر الفضيل المعروف بأبي حواء، والشيخ أبو خريص الكزة [٥]، وقد نقل محمد الطيب الأشهب عن دوفربيه الفرنسي ما يشير إلى اعتقاد الفرنسيين بتدخل ابن السنوسي في

---

(١) انظر: الحركة السنوسية ، ص (٧٥) .
(٢) انظر: الحركة السنوسية، ص (٧٦) .
(٣) ، (٤) انظر: الفوائد الجلية (١ / ٥٠) .
(٥) انظر: الحركة السنوسية، ص (٧٨) .

أعمال المقاومة في الجزائر ؛ فدوفربيه يقول: (إن السنوسية هي المسئولة عن جميع أعمال المقاومة التي قامت ضد فرنسا في الجزائر وأنها السبب في الثورات المختلفة التي قامت ضد فرنسا كثورة محمد بن عبد الله في تلمسان وصحراء الجزائر سنة ١٨٤٨-١٨٦١ وعصيان محمد بن تكوك في الظهرا عام ١٨٨١م .... إلخ) .

وقد بين المؤرخ الليبي عبد القادر بن علي الذي رافق أحمد الشريف السنوسي عقودًا من الزمن أن بعض الإخوان من السنوسية شاركوا في الجهاد الجزائري حتى أن بعضهم أكل تمرات غرس نواها وطلع وكبر وأثمر وأكل من ثمرها وهو في ميدان الجهاد [1] .

وقد عثر المؤرخ أحمد الدجاني على خطاب أرسله أحد تلاميذ ابن السنوسي من الجزائر إلى مدير غدامس[2] التركي (غدامس في ليبيا) وأرشدنا الخطاب إلى أن دعوة ابن السنوسي بلغت الجزائر وأن عددًا من أتباعه كانوا يقاتلون الفرنسيين فيها ومنهم مرسل الخطاب وتاريخ الخطاب سنة ١٢٦٨هـ . وقد كان ابن السنوسي في الحجاز في ذلك التاريخ . ومن بين ما جاء فيه: (... وأما أنا عبد الله حين قدمت بلاد وارقلة ففتح الله علينا بها وصارت محمدية بعد ما كانت في يد الرومي دمره الله وخليفة الرومي فيها، سبحان من حكم الضعيف في القوى وصار القوي من عبده مخذولاً مذمومًا، ولكن من بركة الشريف شيخنا سيدي محمد بن علي السنوسي ﷺ ونفعنا وإياكم به آمين . وصار عربان وأرقلة وقصورها وقبائل الشعامبة وقصور تغورت وعربانها والأرباع والخرزلية والحجاج وكثير من عربان الظهيرة وقصور بني مصاب كلهم تحت طاعة الله ورسوله وطاعتنا، والمجاهدون كل يوم في الزيادة ... وبعث لنا الرومي دمره الله هذه الساعة ثلاثة أمحل ... تلاقينا معهم وصرنا مثل الشامة البيضاء في ثور أسود فنصرنا الله نصرًا عزيزًا وأعلننا على أعدائه، ووقع القتال بيننا بالبارود والسيوف حتى كسرناهم كسرة عظيمة وقتلنا منهم نحو ثلاثمائة

---

(١) انظر: الفوائد الجلية (١ / ٥١) .

(٢) قريبة من حدود تونس والجزائر .

وستة وثمانون رجلاً وقلعنا من الخيل كثير والبنادق بلا عدد والخزنة والإبل والأخبية والحمد لله على ذلك . . . .) [١] .

إن الحقائق التاريخية تثبت للباحث اهتمام ابن السنوسي بالجهاد في الجزائر ضد فرنسا وحاول أن يشارك بنفسه إلا أن الظروف منعته من ذلك، وعمل على إرسال تلاميذه بالأسلحة والمال وتحريض أتباعه في الجزائر على القتال وقد استمر أتباع السنوسية والشعب الليبي في دعم حركة الجهاد حتى تم دحر الاحتلال الفرنسي من الجزائر وتحصلت الجزائر على استقلالها عام ١٩٦٢م .

تاسعًا: ابن السنوسي في طرابلس:

عاد ابن السنوسي من قابس إلى طرابلس مع صحبة مجموعة من الإخوان في عام ١٢٥٧هـ ونزل ضيفًا عزيزًا على عائلة المنتصر، وتخوف الوالي العثماني من ابن السنوسي واستطاع عميد عائلة المنتصر أن يقنع الوالي علي عشقر بأن ابن السنوسي من المخلصين والمحبين للدولة والخلافة، وعمل على جمع الوالي العثماني بابن السنوسي وقد تأثر الوالي بورعه وقد فصّل محمد الطيب الأشهب في هذه النقطة فقال: (فبعد أن وصل قابس عاد إلى طرابلس وذلك في أوائل ١٢٥٧هـ وكان حاكم طرابلس يومئذ علي باشا عشقر الذي وصلته أنباء مشوهة عن دعوة السنوسي وحركته التي قيل على لسان رواة الحاكم العثماني أنها ترمي إلى ما يبعث على قلق السلطات العثمانية وكان رواية هذه الاتهامات هو أحد شيوخ الطرق الصوفية سامحه الله .

فأمر على عشقر بالقبض على رفاق الإمام السنوسي الموجودين بمنزل الحاج أحمد باشا المنتصر ريثما يتسنى القبض على شخص الإمام . وتقدم المنتصر بوساطته في أن يبقى الإخوان السنوسيون في منزله وقدم بذلك ضمانًا شخصيًا متعهدًا أن يخبر الحكومة عن الإمام السنوسي حينما يعود . وشاء الله أن يصل الإمام فجأة وما كان يعلم عما حدث فلما علم أصر على رؤية الوالي، وهناك اجتمع بمجلس علمي وقف فيه الوالي على حقيقته فاعتذر له وانضم إليه اثنان في المجلس المقرحي

---

(١) انظر: نص الرسالة الكامل عن سجل رقم (١٩٦ / ٣ / ٥٠١) ، دار المحفوظات – طرابلس .

والقزيري . . .) [١] . وكان العلامة المقرحي من طليعة علماء طرابلس وقد كلفه علي عشقر باشا مع غيره من العلماء بمناقشة الإمام ابن السنوسي فما كاد يستمع إليه حتى تأثر به وأصبح من أتباعه ومريديه .

وكان رأي العلماء الذين ناظروا ابن السنوسي بأنه نعمة من الله ساقها إليهم وفرح الباشا بذلك واعتذر لابن السنوسي، وقال له هذه بلادك والأهل أهلك، فانفعهم بقدر استطاعتك ونحن في الحاجة الشديدة لأمثالك، فأقام ابن السنوسي في طرابلس مدة يعلّم الناس ويذكّرهم ويبصّرهم بأمور دينهم، وتعلق الناس به، وسارت إليه الركبان [٢] .

ويذكر بعض المؤرخين أن الوالي العثماني علي عشقر أخذ عن ابن السنوسي طريقته وصار من أتباعه، ويبدو أن الدولة العثمانية كانت في حاجة ماسة إلى يد قوية تستعين بها في ضبط الأمور على أساس استتباب الأمن وإخماد الفتن والمصادمات في داخل البلاد التي استمرت سبع سنوات مضت قريبًا [٣] وأن الأحداث في تلك السنة كانت على أشدها حيث كانت الثورة مشتعلة في جبل نفوسة بقيادة غومة المحمودي، وسيف النصر في سرت ضد الدولة العثمانية واستطاع غومه المحمودي وسيف النصر أن يستقل كل منهما بمنطقته لفترة من الزمن مقابل دفع مبلغ معين للولاة، ثم تفاقم أمرهما، فعمل الوالي العثماني على الخلاص منهما ونجح في القبض عليهما، فأما غومة فنفاه من طرابلس، وأما عبد الجليل سيف النصر فقطع رأسه [٤] .

ولذلك حرص الوالي العثماني على الاستفادة من نفوذ ابن السنوسي في ليبيا وخصوصًا بعد أن ظهر منه حرصه على الأمن واجتماع الكلمة، ونبذه للتنافر والخصام بين جميع المسلمين وشعوبهم [٥] وقد كانت نظرة الوالي العثماني تدل على بعده السياسي، وحرصه على الأمن واستقرار البلاد، وحبه للدعوة إلى الله تعالى .

---

(١) انظر: السنوسي الكبير، للأشهب، ص (١٠٤) .

(٢) انظر: الفوائد الجلية (١ / ٣٠) .

(٣) انظر: السنوسية دين ودولة، ص (٣٠) .

(٤) انظر: الحركة السنوسية، ص (٨٠) .

(٥) انظر: السنوسية دين ودولة، ص (٣٠) .

عاشراً: ابن السنوسي في برقة:

واصل ابن السنوسي سيره إلى سرت وبرفقته أمراء من آل المنتصر بأمر عميد الأسرة، وأعيان من مصراته ودخل سرت ووجد هناك كوكبة من الفرسان في انتظاره، هم بعض أعيان وشيوخ، ووجهاء برقة من العواقير والمغاربة وأهل الجبل الأخضر ومدينة بنغازي فرحبوا بسيادته ورافقوه في رحلته، ومر في طريقه بالكثير من القبائل وبعد وصوله إلى بنغازي تنافست بيوتات بنغازي البارزة في إكرامه، كعائلة الكيخية، وآل شتوان، وآل منينة وقام في بنغازي شهر رمضان كاملاً وبعد العيد جاء رجلان من قبيلة العواقير لشراء الكفن للشيخ أبي شنيف الكزة زعيم قبيلة العواقير عموماً الذي مرض مرضًا تحقق أقاربه منه بالموت، ولما وصل الرجلان إلى بنغازي دخلوا على الرجل الصالح علي خريبيش وكانت لهم به معرفة، وأخبروه بمرض الشيخ أبو شنيف وطلبوا منه الدعاء له بالشفاء، فقال لهم: هنا رجل صالح عالم نزوره أنا وأنتم ونطلب منه الدعاء له بالشفاء، فلما التقوا بابن السنوسي أظهر لهم عدم الانزعاج وأطال لهم في المجلس وهم كأنهم على نار فألحوا في طلب الأذن لهم بالخروج فقال لهم: ربما هذا المريض يدفن بعض الحاضرين ثم قال لهم: نخرج معكم إليه ففرحوا وفعلاً ترك بعض إخوانه وثقل أثاثه وخرج معهم مخفا وكان الشيخ أبي شنيف نازلاً بأهله بمكان يسمى الظاهر يبعد عن بنغازي بمسافة يوم كامل فلما وصل إلى الشيخ أبي شنيف وكان في حالة غيبوبة ومرضه في بطنه وهي منتفخة فوقف عليه ووضع يده الشريفة على بطنه فانتفشت كأنها قربة منفوخة وأفاق في الحال وتكلم، فعلت أصوات النساء بالزغاريد وسرت القبيلة بشفاء عميدها العظيم [١].

لا شك أن ابن السنوسي قد أخلص في دعوة الله لشفاء هذا المريض، وقرأ عليه بعض الأدعية النبوية المباركة وربما سورة الفاتحة وقرأ عليه القرآن الكريم وهذا جائز في الشرع، فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ؛ أن ناسًا من أصحاب رسول الله ﷺ كانوا في سفر ؛ فمروا بحي من أحياء العرب ؛ فاستضافوهم فقال لهم: هل

(١) انظر: الفوائد الجلية (١ / ٥٣).

فيكم راق؟ فإن سيد الحي لديغ أو مصاب ؛ فقال رجل منهم: نعم . فأتاه فرقاه بفاتحة الكتاب ؛ فلما علم النبي ﷺ بذلك تبسم وقال: (وما أدراك أنها رقية؟) ثم قال: (خذوا منهم واضربوا لي بسهم معكم) (١) وقد علّم رسول الله ﷺ الأمة كيف يفعلون مع مرضاهم، فكان ﷺ إذا أتي المريض يدعو له ويقول: (أذهب الباس، رب الناس واشف أنت الشافي، لا شفاء إلا شفاؤك لا يغادر سقمًا) (٢) .

لقد كانت حادثة شفاء زعيم قبيلة العواقير على يدي ابن السنوسي مدخلاً عظيمًا للدعوة إلى الله في قبائل برقة، واعتبره المؤرخ عبد القادر بن علي أول فتح لابن السنوسي في برقة والجبل الأخضر وأقام في نواجع العواقير ما يقرب من الشهر واجتمعت على سيادته الناس من أنحاء برقة لزيارته وطلب الدعاء منه (٣)، وقد انتشرت بين الناس كرامات نسبت لابن السنوسي، فمنها ما ذكره الحشائشي أن ابن السنوسي عندما قدم من المغرب إلى الحجاز على طريق قابس من أعمال تونس نزل بحي من أحياء العرب ولم يظهر الشيخ أنه من العلماء وليس معه إلا أربعة أنفار، فأكرم نزله رب الحي المذكور لما رأى عليه من المهابة، فلما أراد المسير من عنده أهداه رب المكان بغلته ليركبها بالطريق فأخذها الشيخ من عنده ولما ركبها في اليوم الأول من سفره عثرت به فسقط من أعلاها وانكسرت ذراعه الأيمن من حينه ورجع إلى رب الحي المذكور فتلقاه مذعوراً وفي الحال أحضر له أناسًا عالمين بجبر الكسر، فطفقوا يعالجون الشيخ بمطارق من الحديد تحمي في النار ثم تجعل على محل الألم ومع ذلك فإن النار لم تؤثر في ذراعه ؛ فتعجب الناس من ذلك وعرفوا فضله، ومن هنا أخذ الشيخ في الاشتهار (٤) .

إن المفتاح الكبير لقبائل برقة هو قناعتها بأن ابن السنوسي ولي من أولياء الله الصالحين ولذلك سمعت لنصائحه، وأطاعت أوامره، فأرشدهم إلى كتاب الله وسنة

---

(١) انظر: مسلم ، كتاب السلام، باب جواز أخذ الأجرة على الرقية (٤ / ١٧٢٧) رقم (٢٢٠١) .

(٢) انظر: مسلم ، كتاب السلام، باب استحباب رقية المريض (١ / ١٧٢٢) رقم (٢١٩١) .

(٣) انظر: الفوائد الجلية (١ / ٥٣) .

(٤) انظر: رحلة الحشائشي ، ص (١٤٥) .

رسوله ﷺ ، وعلماء الأمة يثبتون الكرامات للصالحين: (فأولياء الله المتقون هم المقتدون بمحمد ﷺ ، فيفعلون ما أمر به وينتهون عما عنه زجر، ويقتدون به فيما بين لهم أن يتبعوه فيه، فيؤيدهم بملائكته وروح منه، ويقذف الله في قلوبهم من أنواره، ولهم الكرامات التي يكرم الله بها أولياءه المتقين، وخيار أولياء الله كراماتهم لحاجة في الدين أو لحاجة بالمسلمين، كما كانت معجزات نبيهم ﷺ كذلك . وكرامات أولياء الله إنما حصلت ببركة أتباع رسول الله ﷺ . . . .) (١) .

(ومما ينبغي أن يعرف أن الكرامات قد تكون بسبب حاجة الرجل، فإذا احتاج إليها الضعيف الإيمان أو المحتاج، أتاه منها ما يقوي إيمانه أو يسد حاجته، ويكون من هو أكمل ولاية منه مستغنيًا عن ذلك، فلا يأتيه مثل ذلك لعلو درجته وغناه عنها، لا لنقص ولايته، ولهذا كان هذه الأمور في التابعين أكثر منها في الصحابة) (٢) ومن عقيدة أهل السنة والجماعة الإيمان بكرامات الأولياء (٣) .

إن ابن السنوسي صحت معرفته بالله ورسوله ودينه، وصدقت متابعته للشرع ظاهرًا وباطنًا، ونحسبه كذلك ولا نزكي على الله أحد، ولذلك فتح الله عليه بما لم يفتح على غيره، من إلهامات صحيحة، وفراسات صائبة، وأحوال صادقة، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [سورة النساء، آية ٦٦-٦٨] وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: (اقتربوا من أفواه المطيعين واسمعوا منهم ما يقولون فإنه تتجلى لهم أمور صادقة) (٤) .

وقال ابن عثمان النيسابوري: (من أمّر السنة على نفسه قولاً وفعلاً نطق بالحكمة، ومن أمر الهوى على نفسه قولاً وفعلاً نطق بالبدعة ؛ لأن الله تعالى يقول في كتابه ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾ [النور: ٥٤] (٥) .

---

(١) انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية (١١ / ٢٧٤) .
(٢) المصدر السابق نفسه (١١ / ٢٨٣) .
(٣) انظر: الانحرافات العقدية والعلمية (١ / ٥٠٨) .
(٤) مجموع فتاوى ابن تيمية (١٠ / ٤٧٣ ، ٤٧٤) .
(٥) انظر: الجامع لأخلاق الراوي، باب أدب الطلب (١ / ٨٠) .

وقال الكرماني: (من غض بصره عن المحارم، وأمسك نفسه عن الشبهات، وعمّر باطنه بدوام المراقبة، وظاهره باتباع السنة، وعود نفسه أكل الحلال لم تخطئ له فراسة)[١] بعد شهر من بقائه في نجع العواقير واصل سيره متوغلاً في برقة الحمراء ومنها الجبل الأخضر وبصحبته جمع غفير من الإخوان ومشايخ مختلف القبائل من الحاربي والعواقير حتى وصل إلى مكان يسمى ماسة وتقدم من ماسة إلى محل يسمى دنقلة حيث مكان الزاوية البيضاء بالقرب من ضريح الصحابي الجليل رويفع بن ثابت الأنصاري رضي الله عنه [٢] وقد شرع الإخوان السنوسيون في تأسيسها قبل مجيء ابن السنوسي وذلك بتوجيه منه، وهي أول زاوية يؤسسها ابن السنوسي خارج الحجاز ولها مقام كبير عند السنوسية ويطلق عليها أم الزوايا، وقد بنيت زاوية البيضاء خارج البلدة وعلى بعد حوالي ثلاثة كيلومترات منها ويلاحظ الباحث أن ابن السنوسي اختار لها موقعًا إستراتيجيًّا جيدًا يتميز بسهولة الدفاع عنه وصعوبة الوصول إليه . كما يلاحظ أيضًا أنه أحسن بناءها .

ولقد تميزت كل الزوايا التي أنشئت ببرقة بالموقع الاستراتيجي، كما أنها تتتابع بانتظام مما يدل على أن ابن السنوسي كان يرمي إلى جعلها كالقلاع لتقوم بصد المعتدين في الحروب لأنه كان يتوقع هجوم الأعداء عليها [٣] ولا ننسى زعيم البراعصة الشيخ أبو بكر بوحدوث الذي وقف بجاهه وماله ونفسه مع الحركة السنوسية، وكان من تواضعه يشارك العمال في كافة أعمالهم بنفسه فضلاً عن أتباعه وكان بجلالة قدره ممن يخلط الطين للبنائين الذين يبنون المسجد والزاوية البيضاء رغبة في الثواب [٤] .

وشرع ابن السنوسي من الزاوية البيضاء يعلم الناس ويذكرهم بالله ويرشدهم إلى طريق النجاة في الدنيا والآخرة، وبدأت القبائل تتوافد إليه وتطلب زيارته لها

---

(١) انظر: قواعد التحديث للقاسمي ، ص (١٤٩) .
(٢) انظر: الفوائد الجلية (١ / ٥٤) .
(٣) انظر: الحركة السنوسية ، ص (٨٣) .
(٤) انظر: الفوائد الجلية (١ / ٥٦) .

تبركًا به وتطلب إقامة زوايا لها أسوة بالزاوية البيضاء، فكان ﷺ يتوجه بنفسه إلى القبيلة أو المكان المطلوب إقامة الزاوية فيه وأحيانًا ينتدب بعض الإخوان لذلك وهكذا بدأت القبائل تتسابق والزويا تنتشر [١] .

وظل في نواحي برقة والجبل الأخضر يزور القبائل، ويؤسس الزوايا حتى تم تأسيس ما ينوف عن عشرين زاوية، كما كان طيلة هذه السنوات يتردد ما بين القبائل ويصلح ما بينها ويزيل ما تأصل بينهم من الأحقاد والمشاجرات التي طال أمدها رغم ضررها وكان يعظهم ويذكرهم ويرشدهم إلى إخوة الإسلام ورابطة الإيمان، ويحثهم على التعاون على البر والتقوى، ويأمرهم بترك العقائد الفاسدة والعادات القبيحة مثل: التبرج والاختلاط، وقتل النفس بأتفه الأسباب وعدم الانقياد لأوامر الدين والدولة، وكان يأخذ منهم العهود والمواثيق على أنهم ينقادون لأوامر مشايخ الزوايا ويرجعون إليهم في مختلف قضاياهم وحل مشاكلهم، ويدخلون أبناءهم في الزوايا ليتعلموا القرآن وأمور دينهم، كما كان يأخذ عليهم عهودًا باحترام الزوايا ومشائخها والإخوان وأن يبذلوا جهودهم لمساعدة الزوايا والإخوان فيما هو ضروري لبقائها عامرة وكل قبيلة تطالب إقامة زاوية لها تقيمها لهم بالشروط المتقدمة [٢] .

والزوايا التي تم تأسيسها خلال السنوات الأربع المتقدمة في الجبل الأخضر وبرقة هي (البيضاء، شحات، بنغازي، درنة، مارة، أم الرزم، العرقوب،توكرة، طلميثة، الطيلمون، الفائدية، المخيلي، القصور، المرج، أم ركبه في (فزان)، مرزق، زويلة، هون، سوكنه (في طرابلس) مزدة، طبقة الرجبان، تونين،مصراتة، زليتن، زلة، وفي تونس زوايا الجريد) .

وعلى الحركة الإسلامية المعاصرة في بلادنا وغيرها أن تراجع حساباتها وتتفقد الأماكن التي كانت منارات للعلم والتربية والدعوة، وتعمل على إحياء ما اندرس منها على منهج صحيح وسليم وقويم من عقيدة السلف، ومنهج أهل السنة

---

(١) المصدر السابق نفسه (١ / ٥٨) .

(٢) انظر: الفوائد الجلية (١ / ٥٩) .

والجماعـة، مع الاستفادة من خبـرات الحركات المعاصرة وتجـديد الوسائل، لعل الله ينفعنا وينفع بنا ويهدينا سواء السبيل . والقـصد من ذلك العمل على إحياء الإسلام في البوادي والأرياف والقبائل ولا نحصره في المدن الكبرى .

زواجه الثالث:

في أواخر عام ١٢٥٨هـ جمع ابن السنوسي إخوانه في ليلة من الليالي وقال لهم تعلمـون إخواني أنني تقـدمت بي السن (وكـان سنة آنذاك سبـعة وخـمسـون سنة) وضعف جسمي وقوتي بعد شـربي للسم ولم يبق لي مأرب في النساء غير أني رأيت سيـدنا محمـد ﷺ في منامي وقال لي: خـذ إحدى بنات هذا الرجل أي السـيد أحمد ابن فرج الله تأتيك بولدين يكونان من المهاجـرين والأنصار وإنني امتثالاً لأمره ﷺ أريد أن أخطب من أخينا السيد أحمد إحدى بناته، ثم عقد ﷺ على فاطمة وهي الوسطى من البنات [١] .

إن الرؤيا الصالحة في المنام بشرى تزف لعباده الصالحين، وأمر رسول الله ﷺ في المنام إذا لم يخالف الشريعة لا يوجد ما يمنع من تنفيذه وكانت بشرى صادقة وقد وقعت كما رآها ابن السنوسي .

إن أمر الرؤيا في حـياة ابن السنوسي واضح وجلي، ويسـتأنس بهـا في رحلاته وأعماله وبالنسـبة لرؤية رسول الله ﷺ في المنام فلا خلاف بين أهل العلم فـيها، فـعن أبي هريرة ﷺ أنه قـال: سـمـعت النبـي ﷺ يقـول: (من رآني في المنام فسيراني في اليـقظة ولا يتمثل الشيطان بي) [٢] وفي رواية عن أنس ﷺ قال: قال النبي ﷺ (من رآني في المنام فقد رآني، فإن الشيطان لا يتمثل بي) [٣] وفي رواية عن أبي قتادة ﷺ قال: (قال النبي ﷺ من رآني فقد رأى الحق) [٤] .

---

(١) انظر: الفوائد الجلية (١ / ٥٨) .

(٢) انظر: البخاري ، فتح الباري، كتاب التعبير، باب من رأى النبي ﷺ ، رقم (٦٩٩٣) .

(٣) المصدر السابق نفسه، رقم (٦٩٩٤) .

(٤) المصدر السابق نفسه، رقم (٦٩٩٥) .

المبحث الثاني
أسباب اختيار ابن السنوسي برقة مركزًا لدعوته

تمهيد

إن إقليم برقة أحد أقاليم ليبيا الثلاثة (برقة، طرابلس، فزان)، بل أكبر هذه الأقاليم من حيث المساحة (٧٠٠ ألف كيلو متر مربع) وإن لم يكن أكثرها سكانًا، ويمتد هذا الإقليم من هضبة السلوم شرقًا وحدود طرابلس غربًا، وكان يعرف عند الرومان بإقليم (سيرينة) التي سماها العرب (قيرين) أو (قرناه) ثم أصبح يعرف منذ الفتح الإسلامي بإقليم برقة [١] .

وسطح الإقليم متنوع بين سهل ساحلي يضيق في الجزء الأوسط بحيث يتكون من جيوب ساحلية تنحشر بين رءوس صخرية تصل إلى الساحل، ولكن في جناحي برقة: في البطانان شرقًا، وفي برقة البيضاء والحمراء غربًا، يتسع هذا السهل الساحلي بحيث يمتد عشرات الأميال إلى أن يلتقي بالصحراء [٢]، وإلى جانب هذا السهل الساحلي يوجد الجبل الأخضر الذي يرتفع عن مستوى سطح البحر بحوالي ألف متر وتكسوه الخضرة الدائمة، ويرتفع الساحل ارتفاعًا مباشرًا ولكنه ينحدر تدريجيًّا نحو الصحراء في الجنوب، وبه الأراضي الصالحة للزراعة المساحات الكبيرة التي ترويها مياه الأمطار الغزيرة .

وإلى الجنوب من الجبل الأخضر توجد الصحراء الواسعة التي تكون معظم مساحة الإقليم وهذه الصحراء مستوية وإن وجد بها بعض الكثبان والهضبات فهي مستوية أيضًا، وفي صحراء برقة توجد أودية عميقة بعضها يمتلئ بالماء فترة ما وبعضها يكون جافًا طول السنة [٣]، كما توجد بعض الآبار والينابيع المتناثرة وسط الصحراء تحيط بها واحات فقيرة مثل الجغبوب والكفرة، وجالو، وأوجلة [٤] .

---

(١) انظر: النجوم الزاهرة (٨ / ٢٨٢) .
(٢) انظر: د. نقولا زيادة: ليبيا ، ص (١) .
(٣) انظر: الجغرافيا السياسية لإفريقيا، د. فليب رفلة، ص (٣٣٨) .
(٤) انظر: في تاريخ العرب الحديث ، د. رأفت الشيخ، ص (٢٤٠) .

وسكان برقة يعيشون في تنظيم قبلي اتضحت صورته منذ الفتح الإسلامي، ثم عندما زحفت قبائل بني هلال، وبني سليم من مصر إلى المغرب منذ القرن الخامس الهجري - الحادي عشر الميلادي أصبحت هذه القبائل تنقسم إلى قسمين رئيسين: القبائل السعدية، وقبائل المرابطين ويذكر البعض أن السعديين هم قبائل بني سليم، وأن المرابطين هم بقية القبائل العربية اليمنية التي جاءت مع الفتح الإسلامي والتي اختلطت مع سكان البلاد وعربتهم، وأن ثمة قبائل من المرابطين لها شرف في النسب إلى بيت الرسول ﷺ ومن أهم القبائل السعدية؛ العبيدات، وعائلة فايد، والحاسة والبراعصة، والدرسة، والعبيد، وعرفة، والعواقير، والمغاربة، وأهم قبائل المرابطين: المنفة، والقطعان، والحوطة، والفواخر والزوية [١] .

وقبائل برقة تعيش نفس التنظيم القبلي العربي من حيث انقسامها إلى عشائر وبطون وأفخاذ، وللقبيلة أرض تملكها وتنتقل في أرجائها، وأفراد كل قبيلة متضامنون في أداء ما عليهم من واجبات وفي الحصول على ما لهم من حقوق، ولكل قبيلة رئيس أو شيخ له الرياسة العامة على أفرادها . ومنذ أيام الفتح الإسلامي حتى العصر الحديث كان الحكم في برقة يأخذ القبيلة بعين الاعتبار في تقسيم البلاد إلى وحدات إدارية، بحيث تكون القبيلة أساسًا لتطبيق النظام ومساعدة الحكام [٢].

كانت القبائل في برقة تعيش حياة غير مستقرة ؛ فيما عدا الواحات، وكثيرًا ما تتقاتل من أجل المراعي أو مياه الآبار [٣] .

وقد توفرت في برقة ظروف ملائمة لظهور الحركة السنوسية بوصفها حركة إسلامية شاملة منها :

١- أن برقة منفصلة عن الأقطار المجاورة بالصحاري والفيافي التي تحيط بها .

٢- تتألف برقة من قبائل عربية بدوية تربطها أنماط حياة اجتماعية متجانسة .

---

(١) انظر: في تاريخ العرب الحديث، ص (٢٤٠) .
(٢) المصدر السابق نفسه، ص (٢٤٠) .
(٣) المصدر السابق نفسه، ص (٢٤١) .

٣- يقوم النظام القبلي في برقة على (عصبيات) دموية مشتركة وتقاليد وأعراف متشابهة .

٤- لا تزال المناطق الريفية بعيدة عن سيطرة المدن .

٥- لم يمارس الحكام العثمانيون إلا سيطرة ضعيفة على المناطق الداخلية [١].

إن النظام القبلي في برقة كان حلقة مفقودة في خطة ابن السنوسي ووجد ضالته في ذلك المجتمع، فقد أوجد النظام القبلي القواعد السياسية التي أقيمت عليها الحركة السنوسية، إن النظام القبلي في برقة تميز بالتعقيد ووجود مؤسسات متطورة لها مصالحها الاقتصادية، وتركيبتها الاجتماعية ويرجع نجاح الحركة السنوسية في برقة في بعض جوانبه إلى التكيف مع هذا التركيب القبلي المعقد [٢]، إن الحركة السنوسية وجدت بنية اقتصادية، وتركيبة اجتماعية استطاعت أن تتفاعل معها الحركة، لقد استطاع ابن السنوسي أن يشيد على البناء القبلي تنظيمًا ارشاديًّا ووعظيًّا، ولم يكن من الممكن إقامة مجتمع جديد بدون ذلك البناء القبلي [٣] .

لقد وجد ابن السنوسي ضالته في قبائل برقة، ووجدت القبائل ضالتها المنشودة في دعوة ابن السنوسي .

كانت قبائل برقة قبل مجيء ابن السنوسي تتخبط في دياجير الظلام، حيث استفحل الجهل في تلك القبائل رغم اعتناقها الإسلام الذي تنتسب إليه اسميًّا وبالفطرة، ولم يبق لها من الإسلام إلا اسمه ومن القرآن إلا رسمه وإليك بعض الصور من هذا الانحراف الخطير:

١- اتخذت بعض القبائل مواقع من برقة لتأدية فريضة الحج بدلاً من الحج إلى بيت الله الحرام [٤] .

٢- كانت بعض القبائل لا ترى ضرورة صيام رمضان فتكلف ثلاثين شابًّا قويًّا،

---

(١) انظر: المجتمع الليبي، د. عبد الجليل الطاهر، ص (٢٤٤) .

(٢) انظر: المجتمع والدولة والاستعمار في ليبيا، د. علي حميدة، ص (١١٦).

(٣) انظر: المجتمع الليبي، ص (٢٥٣) .

(٤) انظر: السنوسي الكبير، محمد الطيب، ص (١١٦) .

فيصومون يومًا واحدًا، ويرون بذلك قد أدوا واجب الصيام على المسنين والعجزة وأرباب الأعمال من أهل القبيلة .

٣- كثر الأدعياء والدجالين الجهلة الذين يدعون لأنفسهم مقام الولاية والصلاح دون معرفة أصول الدين وعلى غير علم به، وكان حقهم غي هذا المقام هو بالتوارث خصوصًا إذا ما كان بين هؤلاء الأدعياء من له صلة بنسب شريف، ولهؤلاء مكانتهم في نظر العامة التي اعتقدت أنهم يتصرفون في ملكوت الله أحياء وأمواتًا، وأنهم في حالة الغضب أو الرضى يشقون ويسعدون .

٤- لقد غابت كثير من شعائر الدين بين تلك القبائل [١] .

٥- كانت القبائل يكثر بها الجهل قلما تجد من يعرف القراءة والكتابة، فكل من يصل إليه كتاب يذهب به إلى أقرب المدينتين إليه؛ بنغازي أو درنة لقراءته .

٦- كان القوي منهم لا يتورع في الحصول على ما تصبو إليه نفسه بالقوة حتى أن الضعيف لا يرى له حقًّا .

٧- كانوا لا يرون في شن الغارات والغزو والقتال عيبًا، فكل قبيلة من القبائل العربية تعمل ما يعزز مركزها ويقوي شوكتها في نظر القبيلة الأخرى .

٨- كانت الحروب تندلع بين القبائل بأقل الأسباب وأتفهها، فتارة من أجل شخص حلب ناقة غيرة بدون استئذانه، وتارة من أجل شخص ضاف آخر فلم يكرم وفادته، ومرة من أجل بهيمة أكلت زرعًا وحينًا من أجل رجل تزوج امرأة ولها ابن عم لا يريد زواجها منه . . . إلخ فبمثل هذه الأسباب كانت تقع الحروب الكثيرة التي جرت القبائل إلى هاوية الخراب والدمار، ولا يمر وقت طويل بدون حرب، ومن أهم الحروب التي وقعت ببرقة قبل مجيء ابن السنوسي حرب العبيدات وأولاد علي، وحرب قبائل الجبارنة مع الفوائد، ثم الجبارنة مع الحرابي المعروف بحرب (بياض)، وحرب المغاربة مع الزواوات، إلى غير ذلك من الحروب الكثيرة [٢] .

---

(١) المصدر السابق نفسه .
(٢) انظر: برقة بين الأمس واليوم، للأشهب، ص (١٦٢، ١٦٣) .

ولكن الدعوة السنوسية استطاعت أن تزكي النفوس، وتقوى الإيمان، وتنشر العلم، وتزيل الجهل، وتحارب الظلم، وتحبب العدل إلى نفوس تلك القبائل، وبعد فترة من الزمن أصبح من تلك القبائل علماء عاملون يدعون إلى الخير وبه يعدلون ولقد استطاع الشاعر أبو سيف مقرب حدوث البرعصى أن يصف الحالة التي كان عليها قومه وكيف تحولوا عنها نتيجة للدعوة السنوسية :

وكم من حريم قد أباحوا وأجحفوا ... بمال غني لا يخافون عاديًا
وكم جهول أسود اللون خلقة ... كساه لبوس العلم أبيض صافيًا
وكم بدوي في الفلا خلف نوقه ... يبول على الأعقاب أشعث حافيًا
تلافاه في مهوى الضلالة هاويًا ... فأصبح نجمًا بالهداية عاليًا
فتاهوا به فخرًا على كل حاضر ... ومن جاور الأعلى يحوز المعاليا[1]

وهذه قصيدة الشاعر الأديب الأستاذ أحمد شنيب المعروفة بـ (عقيدة وخلود) تصف حال المجتمع الليبي فتقول:

أرض الجدود وقد جفاك بنوك ... حتى استحل دم العروبة فيك
ما خطبهم باعوا الهداية بالدجى ... وتفرقوا، وبجهلهم خذلوك
وتشتتوا في الأرض لا من غاية ... غير التناحر والدم المسفوك
شعب تفرق شمله وقبائل ... لم يدركوا (التعارفوا) فرموك
يا وحيهم ما جاء عمرو غازيًا ... إلا لنشر الحق في ناديك
ودم الصحابة لم يرق عفوًا ولم ... يستشهد الأبرار حين غزوك
وهبوا حياتهم لنصرة ربهم ... والدين والقرآن كي يحموك
عادت عصور الجاهلية بينهم ... وتصدع الإسلام بين يديك
واحسرتاه على الحنفية كم غدت ... تبكي كرامة مجدها المهتوك
لا الدين أصبح يهتدي بجلاله ... لا السنة العصماء تسعد فيك
والمسلمون أذلة ليست لهم ... من دينهم غير اسمه يأسوك

---

(١) انظر: السنوسي الكبير، ص (٢٠) .

ساءت موازين الحياة وبالهوى ساسوا الأمور، وخسفهم ساموك
وتطلع الغرب الغريب توثبًا وأعد عدته لكي يرويك
أبناء روما في الشمال تحفزوا وبنوا فرنسا في الجنوب قلوك
الله يارض الجدود ومن سوى رب السماء من الأذى ينجيك
إن الذي بعث النبي محمدًا للتائهين أعز من يهديك
يا ابن السنوسي الكبير تحية من أمة في عصرها المنهوك
جاءت إليك تحط كل رجائها وتطوف حول ركابك المبروك
أو لست سيد عصره وأمامها والقائد الأعلى بغير شريك؟
في لينه حزم، وفي إيمانه كل اليقين بنصر خير مليك
وغناه في قصد، وفاقته على أسمى التجمل في أعف سلوك
يا أرض قرى خاطرًا وتقدمي بتحية الإكبار من هاديك
حملت آثامًا فجاء مطهرًا أكرم به من مؤمن يحبوك
وغدوت أشتاتًا فأقبل هاديًا ومبشرًا، وإلى العلا يدعوك
ويلم شعث المسلمين ويبتني ركنا يقام وأمة تفديك
ويعيد للدين القويم بهاءه ويقيل عثرة شعبك المملوك [١]

إن اختيار ابن السنوسي لبرقة كان قرارًا حكيمًا، يدل على معرفته للمنطقة جيدًا، فقد اتصفت برقة بفراغها السياسي وبجهلها العلمي وبكونها مخرجًا لأواسط إفريقيا [٢] .

وظل ابن السنوسي خمس سنين وقيل ستة في برقة، ينشئ الزوايا وينظمها، ويرسم مناهج الدعوة ومبادئها ويبث دعوته الإصلاحية عن طريق هذه الزوايا . ثم عاد بعد هذه السنوات الخمس إلى الحجاز، المركز الأول لدعوته، ومنذ ذلك الوقت

(١) انظر: المهدي السنوسي، للأشهب، ص (١٤٢ ، ١٤٣) .
(٢) انظر: الحركة السنوسية، ص (٨٨) .

كان للدعوة عنده مـركزان رئيسيان: شرقي في الحجـاز وغربي في برقة، وعن هذين المركزين أخذت الدعوة السنوسية تنتشر بواسطة الزوايا هنا وهناك (١).

إن سفر ابن السنوسي إلى مكة يدلـنا على إنه كان لديه مشروعات دعوية كـثيرة في العـالم الإسلامـي، وأن هدفه فـتح أراضي جـديدة لدعوته، لـقد اسـتطاع ابن السنوسي أن يرسي قواعد الدعـوة في برقة ويثبت أسسها، فغـادر برقة وهو مطمئن إلى أن دعوته ستنتشر، وقد خلف وراءه عددًا من الإخوان للإشراف على الحركة .

لقد كان ابن السنوسي يخطط في تنظيمه بحيث يكفل الاستمرار بغض النظر عن وجوده أو عدم وجوده (٢) .

* ■ *

(١) انظر: دراسات وصور، للحاجري، ص (٢٩٠) .

(٢) انظر: الحركة السنوسية، ص (٨٨) .

المبحث الثالث
إقامة ابن السنوسي في الحجاز وعودته إلى برقة

سافر ابن السنوسي إلى الحجاز، واستمرت مدة إقامته حوالي ثماني سنوات، وحفلت هذه السنوات بنشاط دعوي عالمي لابن السنوسي، دل على قدرته التنظيمية، وذكائه في تصريف شئون الحركة، وشرع في إنشاء الزوايا، وكثر دخول الناس في الدعوة، وتعرض لمتاعب من قبل بعض العلماء وقد تحدث الصادق المؤيد عن ذلك فقال: (مع أن المرحوم ابن السنوسي عندما كان في الحجاز لم يتعرض للهجوم على الطرق الصوفية الأخرى، فإنه أصبح هدفًا لنقمة الآخرين ونقدهم . ومع ذلك فقد توسع نفوذ السنوسية ودخلت الصحراء جزيرة العرب حيث اعتنقها عدد من القبائل كبني حارث وبني حرب، كما انتشرت الطريقة بواسطة الحجاج، وهذا سر انتشارها بسرعة خارقة في الحجاز واليمن على الخصوص .

وعلى الرغم مما وقع للسيد السنوسي من رقابة ومنافسة وعداء، فقد كان عدد المريدين في ازدياد، ولذلك أسس زوايا أخرى عدا الزاوية الرئيسية التي في جبل أبي قبيس في المدينة والطائف والحمراء وينبع وجدة) [١] .

وكانت كل زاوية من هذه الزوايا عمل خاص (فزاوية أبي قبيس فيها مسجد شريف ومدرسة للتعليم ومساكن لقبول الزوار والمسافرين، وتكتظ هذه الزاوية بالناس في موسم الحج خاصة . أما زاوية جدة فكانت تستقبل الوافدين من المنسوبين للطريقة وغيرهم وتتولى إسكانهم وإعاشتهم مجانًا، فهي محل ضيافة عامة) [٢] .

واستطاع ابن السنوسي أن يساهم في تربية وتعليم القبائل من الحجاز، وأرشدهم إلى دينهم وعمل ابن السنوسي بالإضافة إلى تأسيس الزوايا على تعليم مريديه بنفسه، فجلس في مكة يدرِّسهم الفقه والعلوم الأخرى . كما ألف لهم عددًا من

---

(١) انظر: الحركة السنوسية، ص (٨٩) .

(٢) انظر: سياحتي في صحراء إفريقيا، ص (٧٥) .

الكتب منها كتابه (بغية المقاصد وخلاصة الراصد) المسمى بالمسائل العشر . وقد انتهى من كتابته كما تشير إلى ذلك النسخة المطبوعة سنة ١٢٦٤هـ أي أثناء إقامته في الحجاز، ومنها رسالة كتبت مقدمة لكتاب «موطأ الإمام مالك» في أول سنة ١٢٦٧هـ (وذلك حين بداءته لقراءة الموطأ) بغية إعطاء طلابه فكرة عن الكتاب [١]، وربما قد كتب بعض مؤلفاته الأخرى في تلك الفترة، كإيقاظ الوسنان في العمل بالحديث والقرآن، والدرر السنية في أخبار السلالة الإدريسية، والسلسبيل المعين، وقد ظهر في كتبه هذه اتجاهه الصوفي واعتماده على الكتاب والسنة وقوله بالاجتهاد .

وكان طوال إقامته في الحجاز، يحرص على الحج كل عام، ويتصل بالناس ويدعوهم إلى دعوته ويضم من يستجيب منهم، وكان على اتصال مستمر بأتباعه في برقة يوجههم ويصدر إليهم تعاليمه وإرشاداته بواسطة الرسائل . ويذكر الأشهب: (أنه كان يندب سنويًّا من يزور مختلف الزوايا لإبلاغ توصياته وتوجيهاته) [٢] .

وكان ابن السنوسي قد ترك زوجته وولديها محمد المهدي ومحمد الشريف في برقة وكان على اتصال بهم عن طريق الرسائل، وكان قد عين عمران بن بركة ومحمد بن إبراهيم الغماري للاهتمام بشئون أهله وولديه، وقد ذكر عبد القادر بن علي، بأن ابن السنوسي عندما بشر بمولوده الجديد قال: (الآن ظهر الصباح وخفي المصباح) وكان يقصد بالصباح ابنه والمصباح نفسه [٣] .

وعندما بلغ محمد المهدي الخامسة من عمره (أرسل ابن السنوسي إلى الإخوان الكافلين له وقال لهم: أدخلوه الكتّاب وعلموه الوضوء والصلاة ففعلوا كما أمر) [٤] .

وعندما بلغ محمد المهدي السابعة من عمره أرسل إليهم، ليوجهوه إليه مع زوج خالته، فارتحل به، ولما اجتمع ابن السنوسي بولده سُر به سرورًا عظيمًا وطلب لوح

---

(١) انظر: النسخة المطبوعة من المسائل العشر .
(٢) انظر: السنوسي الكبير، ص (٤٣) .
(٣) انظر: الفوائد الجلية (١ / ٦٠) .
(٤) أحمد الشريف، مخطوط، ص (٧٦) .

قراءته فوجد أوله (وإنك لعلى خلق عظيم) فازداد سروراً، وزوَّره الروضة الشريفة ولقنه ما عنده من الدعاء ثم زوّره المآثر كلها التي بالمدينة، كمسجد المائدة ومسجد القبلتين وجبل أحد، وقبور شهداء احد، وقبر حمزة رضي الله عنه [١] .

وكان قبل مجيء ابنه قد تزوج ابن السنوسي زوجته الرابعة والأخيرة (ابنة حسن البسكري) . وكانت بدرنة مع أختها وأخواتها وتوفي والدها، فأرسل ابن السنوسي إلى ابن أخي حسن البسكري أن يأتي بالأم وبناتها، وكانت أكبر البنات تحت عبد الله البسكري ابن أخي حسن البسكري، فرحل بها إلى الحجاز وتزوجها ابن السنوسي ورزقت منه بولد وتوفي صغيراً ولم يفارقها حتي مات [٢] .

وعندما بلغ محمد المهدي التاسعة غادر والده المدينة إلى مكة وتركه مع زوجه أبيه البسكرية فاعتنت به كثيراً . وفي جمادي من سنة ١٢٦٩هـ طلب ابن السنوسي ابنه محمد المهدي من المدينة وأرسل يطلب من الإخوان في برقة بإرسال ابنه محمد الشريف .

وذكر أحمد الشريف رحلة والده فقال: (فارتحل محمد الشريف من الجبل وهو ابن سبع سنين ومعه والدته وجده السيد أحمد بن فرج الله ومروا على العقبة ثم منها إلى الإسكندرية ثم إلى كرداسة، ثم نزلوا بمصر ببيت الشيخ عمر الزروالي أقاموا بها أيامًا ثم إلى السويس وركبوا البحر قاصدين جدة . . وأتتهم ريح عاصفة قبل نزولهم قلعت بالمركب حتى أيقنوا الغرق . وتقطعت الأشرعة وآخر الأمر سلمهم الله ورمتهم الريح على الينبع فنزلوا بها وأقاموا أيامًا للاستراحة . ثم ارتحلوا إلى المدينة المنورة فزاروا الروضة الشريفة واجتمعوا بالباشا الذي رحب بهما وأعطاه ساعة تساوي مئة، وبعد ذلك بني جامع الزاوية التي بالمدينة بناءً متقنًا من نفسه جزاه الله خيرًا . وكان بالمدينة يومئذ السيد عبد الله التواتي وأكرمهم غاية الإكرام . وأقاموا بها ثلاثة أشهر ونصف، ثم ارتحلوا منها إلى مكة المشرفة منتصف ذي القعدة سنة

---

(١) انظر: أحمد الشريف، مخطوط، ص (٧٨) .
(٢) انظر: الحركة السنوسية، ص (٩٣) .

تسع وستين بعد المائتين والألف صحبة السيد التواتي . . وتخلف السيد عبد الله لوجع في رأسه وحمى معه آخر فناما ليستريحا ويلحقا بالقافلة، فلم يشعروا إلا وهبت الريح . . وقطاع الطريق قد أحاطوا برواحلهما لينبهوا ما عليها فقاموا إليهم للمدافعة عما أرادوه فضربوا السيد عبد الله بفأس على رأسه فسقط على الأرض وجرحوا صاحبه، واكتشف رجال القافلة الأمر بعد أن أرسلوا رسولاً ينظر سبب تأخر الرجلين، فتوقفوا لدفنه وساروا في خوف وحزن يحرسهم العسكر الذي أرسله الباشا إلى أن وصلوا مكة المكرمة [(١)].

وقد حزن ابن السنوسي على مقتل عبد الله التواتي الذي كان من أوائل رفاقه وكان المسئول الأول عن نشاط الحركة في الحجاز، وقد أمر ابن السنوسي بنقله إلى بدر، حيث دفن بجوار الشهداء رضي الله عنهم أجمعين [(٢)] .

كان عبد الله التواتي من كبار العباد في الحركة السنوسية وقد حدثني أستاذي في اللغة العربية الشيخ راشد الزبير السنوسي عندما كنا معًا في المعتقل السياسي بطرابلس الغرب بأن عبد الله التواتي كان يقول: والله لأزاحمنَّ أصحاب النبي ﷺ على أبواب الجنان بركبتي، وكان عبد الله التواتي شديد الإخلاص لابن السنوسي حتى أنه دعا الله أن يكون فداء له ولأنجاله [(٣)]، وقد أصاب قاتليه مرض مزمن وماتوا ميتة بشعة، وانتشر خبر وفاتهم بين قبائل الحجاز، فأصبحوا يتحاشون السنوسية وأتباعهم ولا يمسونهم بسوء أبدًا حتى أن أهل مكة والمدينة كانوا إذا أرادوا الحج أو الزيارة فلا يخرجون إلا مع الركب السنوسي لكي يأمنوا حياتهم وأمتعتهم [(٤)] .

أولاً: عودة ابن السنوسي إلى برقة:

بعد وصول محمد الشريف ابن السنوسي إلى مكة وكان بصحبته جده لأمه أحمد بن فرج الله ووالدته وعمران بن بركة الفيتوري، وكثير من الإخوان، وحج

---

(١) انظر: أحمد الشريف ، مخطوط، ص (٧٩) .
(٢) انظر: الفوائد الجلية، (١ / ٧٢) .
(٣) انظر: الحركة السنوسية، ص (٩٠) .
(٤) انظر: الفوائد الجلية ، (١ / ٧٣) .

الجميع من ابن السنوسي، وقدم من برقة في هذا الحج كثير من أعيانها ووجهائها ومشائخ القبائل منهم [١]، الشيخ أبو شنيف الكزة والشيخ عمر جلغاف، وعبد الله أبو سويحل، والحاج محمد كاهية وغيرهم ليلتمسوا من السيد عودته إلى البلاد المتعطشة لدعوته، فكان يعدهم خيرًا، ومما يلفت النظر أن الشيخ أبوشنيف الكزة الذي تجشم مشاق الطريق لرؤية السيد كان عمره يتجاوز المائة سنة، لقد كان شوق الإخوان في برقة إلى ابن السنوسي عظيمًا، فهذا أحمد الطائفي يرسل من درنه قصيده إلى ابن السنوسي جاء فيها:

يا من نأوا عني وشط مزارهم	وتجددت لبعادهم أحزاني
نار الجوي بين الجوانح أضرمت	والروح فارق بعدكم جثماني
لا كان يوم البين لا كان النوى	يا ليتني أدرجت في أكفاني
حر النوى أوهى قوى تجلدي	وأعل جسمًا طبه أعياني
وأطال سهري والخلائق هجع	وأثار وجدًا كامنًا بجناني
وسقى رياض الشوق يوم وداعهم	بسواكب العبرات من أجفاني
فطويت حينئذ بساط مسرتي	ونشرت بعدكم ردًا أحزاني [٢]

وبعد أن ألح زعماء برقة على رجوع الشيخ ابن السنوسي معهم، استخار الله سبحانه وتعالى وسأله إرشاده إلى الطريق التي يرضاها سبحانه وتعالى وفيها نفع للأمة المحمدية، فأراه الله ما ألهمه وقوى عزيمته على العودة إلى برقة، فرتب الأمور بالحجاز وعين مشايخ للزاويا وزودهم بما رآه وحرضهم على سلوك طريقته في إرشاد العباد ودلالتهم على الله والتمسك بسنة سيدنا رسول الله ﷺ وبذل النصح للمسلمين أينما كانوا وأناب عنه في زاوية أبي قبيس الشيخ محمد إبراهيم الغماري، وأبقى ابنيه ووالدتهم وجدهم في مكة وأمر محمد الغماري، وأحمد البقالي بتعليم ابنيه القرآن الكريم وغيره من العلوم وحمل معه جميع كتبه وأثاثه ورافقه جميع

---

(١) المصدر السابق (١ / ٧٨).

(٢) انظر: برقة العربية أمس واليوم، ص (١٦٨).

الإخوان الملازمين له، والأعيان والشيوخ القادمون من برقة وتوجه من مكة إلى المدينة وأقام بها ما يزيد عن مدة شهر [١]، وقد ذكر بعض المؤرخين أسباب خروجه من الحجاز، فقال بعضهم: كان لديه رغبة لزيارة الشام . وقد أثبت الملك محمد إدريس هذه الرغبة فقال: (إنه كان يفكر بزيارة الشام بعد إقامته الثانية وهم بالتوجه إليه، ولكن أهل برقة أصروا على اصطحابه معهم إلى الجبل الأخضر) [٢] . ويذكر الأشهب أنه عندما طالت مدة غياب ابن السنوسي في الحجاز (اشتد القلق في ليبيا لطول غيبته، وسافر إلى الحجاز أكثر من وفد ليبي ليلتمس منه أن يعود وكانوا يسافرون غالبًا في موسم الحج) [٣] . أما غرضه من زيارة القدس والشام، فأغلب الظن أنها كانت لزيارة المسجد الأقصى لنشر دعوته، ولكن هذه الزيارة لم تتم [٤] . وقد ذكر ابن السنوسي (كان العزم الذي خرجنا له زيارة القدس، ثم في أثناء السفر أتانا الإذن بالذهاب إلى هنا (يقصد برقة) [٥] .

وانفرد البستاني بالقول أنه خرج من مكة خائفًا من تهمة مشاركته مع الشريف عبد المطلب، شريف مكة، الذي عصى الدولة العثمانية: (لذلك خاف من الإقامة في مكة بعد هذه التهمة، فرحل منها عائدًا إلى الجبل الأخضر عن طريق مصر) [٦] إلا أن هذا القول يسقط ويتهاوى أمام حرص ابن السنوسي على الابتعاد عن الصدام مع السلطة العثمانية، وواصل ابن السنوسي سيره من المدينة متجهًا إلى مصر ودخلها عام ١٨٥٤م، وغادرها إلى الجبل الأخضر (ونزل بمحل يعرف بالغزيات وهو قصر قديم فرممه وأصلحه وسماه بالعزيات وأقام هناك سنتين) [٧] وكان في تلك الفترة يشرف بنفسه على تنظيم وإنشاء الزوايا، وكان يرسل مندوبين عنه لتفقد أحوالها، وكان كبار الإخوان يقدمون على العزيات لزيارة ابن السنوسي، فكان يسمع أخبار الزوايا، ويصدر إليهم تعليماته [٨] .

---

(١) انظر: الفوائد الجلية، (١ / ٧٩) .
(٢) انظر: الحركة السنوسية، ص (٩٦) .
(٣) انظر: السنوسي الكبير، ص (٤٣) .
(٤) انظر: الحركة السنوسية، ص (٩٧) .
(٥) المصدر السابق نفسه، ص (٩٦) .
(٦) انظر: البستاني، دائرة المعارف، مادة سنوسي .
(٧) المصدر السابق نفسه .
(٨) انظر: الحركة السنوسية، ص (٩٩) .

وبعد أن أقام ابن السنوسي عامين في العزيات عزم على التحول إلى الجغبوب، وكان قصده التوغل في الصحراء حتى يكون أكثر أمنًا [١] .

ثانيًا: أسباب اختيار الجغبوب:

إن اختيار ابن السنوسي للجغبوب كمقر لقيادة الحركة السنوسية دليل على بعد نظره، وثاقب فكره، ورجاحة عقله، وحسن تصرفه وقد ذكر المؤرخون أسباب ذلك الاختيار فقالوا:

١- أراد أن يجعل من الجغبوب مركزًا للتوفيق بين قبائل الصحراء المختلفة ونشر راية دعوة الإسلام بينهم جميعًا، وكان الجغبوب مركزًا أحسن اختياره، وكان صالحًا لأغراضه في وسط قبائل في الشرق والغرب، وكان النزاع بينهما مستمرًّا، ومن ثم أمن للحركة السنوسية أن تبسط نفوذها في المتنازعين، وأن تصلح ذات بينهم .

٢- الاهتمام بأبواب الصحراء المترامية الأطراف من نواحي الغرب والجنوب والشرق ولذلك كانت زاوية الجغبوب نقطة مهمة وأعقبتها عدة زوايا فيما بعد تخدم نفس الهدف، من أجل ضمان السلامة والأمن في الصحراء، وضمان المحافظة على طرق التجارة إذ كانت طرق القوافل تربط بين الجزائر وطرابلس، وتشاد، وبرقة ومصر .

٣- كان البدو في ليبيا يضطرون أحيانًا إلى ترك دواخل ليبيا بسبب خلاف يقع بين قبيلة وأخرى أو مع الدولة العثمانية، فتكون وجهة النازحين نحو الصحراء ولذلك فكر ابن السنوسي ونظر إلى هذا الأمر ببصيرة نافذة، فأوجد هذه الزوايا في المواقع البعيدة ليأوى إليه النازحون عن دواخل البلاد، فيجدوا أمنًا وأمانًا [٢] .

٤- ازدادت عداوة علماء إستانبول والقاهرة لأفكار ابن السنوسي الدعوية، فرأى أن يبتعد عن الساحل ويتوغل في الصحراء بعيدًا عن السلطات العثمانية .

---

(١) انظر: الحركة السنوسية، ص (١٠١) .

(٢) انظر: السنوسي الكبير، الطيب الأشهب، ص (١٠١،١٠٢) .

٥- كان ابن السنوسي قد شعر بدنو استيلاء النصارى الصليبيين على السواحل، فاختار الابتعاد إلى الجنوب والإقامة في الصحراء [١] .

وكان الجغبوب في تلك الآونة (واحة ملحة يأوى إليها الدعار واللصوص ولا تجسر القوافل أن تمر بها من جراء العبث في أنحائها . فلما اختارها (السيد) مقرًا له وبني بها زاويته الكبرى صارت مهد أمان ومركز عبادة، ومشرق أنوار ومعلم هداية ، فغرس بها الأشجار ونسق الجنان واستنبط العيون وتوسع في البناء، وأسس مدرسة لتخريج مريدي الطريقة أجلس للتدريس فيها جلة العلماء) [٢] .

(لم تكن الجغبوب مكانًا يصلح لحياة فخمة ولكنه مركز له عدة مزايا سياسية؛ فهو خارج قبضة الترك والفرنسيين والمصريين، وهو على خط الحج الرئيسي القادم من شمال إفريقيا الغربي عبر مصر إلى مكة، وهذا الخط مقطوع عند الواحة بخط تجاري آخر من الساحل إلى الصحراء إلى السودان ؛ وبالإضافة إلى ذلك فإنها كانت أكثر النقط توسطا في برقة التي تشكل شبه جزيرة حتى أنه منها ما يكون على مقربة من زواياه وطرابلس والصحراء الغربية في مصر والسودان) [٣] .

ثالثًا: الإخوان السنوسيون الذين حملوا مع ابن السنوسي الدعوة:

كان ابن السنوسي في تجواله بين الأقطار الإسلامية يقوم بدعوة الناس وتعريفهم بالإسلام، وسلك منهج القرآن الكريم في دعوته، فكان يقوم بوظيفته الدعوية امتثالاً لقوله تعالى: **﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾** [سورة البقرة، آية ١٥١] .

وتمثل هذه الواجبات الأمور التالية:

أ- تبليغ وحي الله إلى الناس، وتعريفهم به **﴿يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا﴾** وكان يقوم بالتبليغ بالأمور الآتية:

---

(١) انظر: حاضر العالم الإسلامي، شكيب أرسلان، (٢ / ١٤٢) .
(٢) انظر: السنوسية دين ودولة، ص (٣٦) .
(٣) انظر: بريتشارد، ص (١٥) ، نقلاً عن الحركة السنوسية، ص (١١٣) .

١- شرح أصول الإسلام وقواعده للناس .

٢- تفسير نصوص القرآن والسنة تفسيرًا لمنهج السلف، وملائمًا لعصره من حيث الأسلوب والوسيلة .

٣- جمع الناس على الإسلام ومبادئه وأخلاقه، وتوجيههم نحو الفهم والعمل.

٤- استهدف كل الناس بالدعوة سواء كانوا مشركين أو نصارى أو يهود أو ملاحدة، أو منافقين . . . . إلخ .

٥- بيان الأخطار التي تواجهها الأمة الإسلامية من أعدائها .

ب- تزكية الناس: حيث قام ابن السنوسي بتربية الناس على الصفات المحمودة، وتذكيرهم بخطورة الأخلاق الذميمة .

ج- التعليم، حيث قام ابن السنوسي بتعليم الناس القرآن والحكمة، ونقلهم من ظلام الجهل إلى نور العلم، ومن ضلال الباطل إلى هداية الحق .

واستطاع أثناء تحركه بدعوته أن يختار من بين المسلمين مجموعة خيرة من العلماء والفقهاء والدعاة، ممن اتصفوا، بالتميز الإيماني، والتفوق الروحي، والرصيد العلمي، والزاد الثقافي، ورجاحة العقل، وقوة الحجة، ورحابة الصدر، وسماحة النفس وأصبحوا من أعمدة الحركة السنوسية أثناء حياته وبعد وفاته، فبعضهم أصبح مشرفًا ومعلمًا في الزوايا المنتشرة في ليبيا وتشاد، والحجاز، ومصر، وبعضهم أصبح من أعضاء هيئة التدريس العلياء في الجغبوب، وكان هؤلاء الإخوان الذين ساندوا الحركة السنوسية منهم من هو من الحجاز، كالشيخ فالح الظاهري، ومحمد بن الصادق الطائفي ؛ ومنهم من هو من الجزائر، كأبي القاسم التواتي ؛ ومنهم من هو من تونس، كعلي بن عبد المولى ؛ ومنهم من هو من السودان، كالسيد محمد بن الشفيع ؛ ومنهم من هو من برقة، كعبد الرحيم المحبوب، ومنهم من هو من طرابلس كعمران بن بركة الفيتوري [1] .

---

(١) انظر: دراسات وصور، للحاجري، ص (٢٩٨) .

واختار ابن السنوسي من كبار علماء الحركة للتفرغ للتدريس في معهد الجغبوب (. . . وجلس كبار العلماء للتدريس بمعهد الجغبوب، حيث تدرس جميع أنواع العلوم [١]، فلا ينحصر التعليم على حفظ القرآن (وهذا شرط أساسي)، وبعض العلوم الدينية والعربية، كما هو الحال في كثير من المعاهد وقتذاك، وحتى الآن ؛ بل إن التعليم قطع بالجغبوب شوطًا بعيدًا وسار خطوات واسعة، فتناول أهم العلوم العقلية والنقلية، وكان يجلس للتدريس فطاحل العلماء والأعلام تحت إشراف السيد ابن السنوسي نفسه الذي يضع برامج التعليم ويقرها، فتخرج من هذا المعهد العدد الكبير بقسط وافر من العلوم . . . فمنهم العلماء والكتاب والمصنفون [٢] .

وقد ذكر محمد الطيب أسماء بعض العلماء الذين قاموا بإلقاء الدروس في معهد الجغبوب تحت إشراف ابن السنوسي فمنهم: عمران بن بركة الفيتوري، أحمد عبد القادر الريفي، فالح الظاهري، أحمد التواتي، عبد الرحيم أحمد المحبوب، محمد ابن أحمد الشفيع، أبو سيف مقرب حدوث البرعصي، حسين الموهوب الدرسي، محمد صادق الطائفي، أحمد الطائفي، محمد مصطفى المدني، محمد القسطيني، محمد حسن البكري [٣] .

لقد قام عدد كبير بنصرة وتأييد الحركة السنوسية من العلماء والفقهاء والقادة، والشيوخ، ومن أشهر هؤلاء الإخوان الذين ساندوا ووقفوا مع ابن السنوسي في حركته الواسعة:

١- محمد عبد الله التواتي، وهو من أوائل إخوان ابن السنوسي وتلاميذه، وقد قام بعدة أعمال كلفه بها ابن السنوسي في كل من الحجاز واليمن وليبيا، وقتل في الحجاز ودفن بزاوية بدر وقد مرّ ذكره .

٢- أحمد أبو القاسم التواتي من الجزائر وقد تولى مشيخة زاويا سيوة والزيتون وزوايا فزان، وكان أحيانًا ينتدبه ابن السنوسي للتفتيش على الزوايا ومراقبة أحوالها

---

(١) ، (٢) دراسات وصور، للحاجري، ص (٢٩٧) .

(٣) انظر: السنوسي الكبير، ص (٥٠) .

ومما قاله ابن السنوسي في حقه في كتاب أرسله إلى أعيان واحة سيوة قوله: (وولدنا الشيخ أحمد التواتـي قد أقمناه مقامنا، وما أرسلناه إلا لمنفعتكم خـاصة، وإلا فغيره يقوم مقامه، واسمعوا لنصيحته فإنه نصوح أمين وقد هدى الله به أممًا عديدة) [١] .

توفاه الله بزاوية الطيلمون وقد رثاه زميله العلامة فالح الظاهري بقصيدة عصماء مطلعها:

على مثل من أوقاته حلية الدهر بصـالح أعمال، دموعـك فلتجر

كما رثاه شاعر السنوسية أبو سيف مقرب بقصيدة مماثلة جاء فيها:

سل الدهر هل يبقي سعيد مخلدًا ولـو كان أبقاه لأبقى محمـدا

يكر علينـا ليلـه ونهـاره شجـاعين لا يثنيهـا من تجـلدا [٢]

ومنها:

ألا ليت شعري كيف صاروا بنعشه

إلى القبر وهو الطود ذو المجد والندى

حوى نعشه علمًا وفخرًا وسؤددًا

وحلمًا وتقـوى ما سـواها تـزودا

٣- على بن عبد المولى من تونس، تولى مشيخة الجـغبوب، وكان وكيل خاصة ابن السنوسي واستمر في عـهد محمد الثاني، وكان معروفـًا بالصلاح والتقوى توفي بالجغبوب .

٤- أحمـد بن فرج الله مـن طرابلس، وهو والد أم محـمد المهـدي، ومحـمد الشريف وقد توفاه الله بالبيضاء ودفن بمقبرة الصحابي رويفع بن ثابت الأنصاري ولم يترك عقبًا من الذكور .

---

(١) انظر: السنوسي الكبير، ص (٥٨) .

(٢) المصدر السابق نفسه، ص (٥٩) .

٥- محمد بن الشفيع من سنار السودان، كان من بين تلاميذ العلامة أحمد بن إدريس الفاسي دفين (صبيًا)، وتعرف على ابن السنوسي أثناء حضوره عند أحمد بن إدريس وسمع ما شهد به ابن إدريس لابن السنوسي، وقد تولى أعمالاً كثيرة منها مشيخة زاوية المدينة، والقيام بالتفتيش على الزوايا في كل من الحجاز وليبيا، وكانت آخر أعماله مشيخة زاوية سرت (خليج سدرى)، وكان من أجل العلماء علمًا وتقى وشدة في الحق وشجاعة [(١)] وكان يهابه حكام الأتراك وزعماء العرب لشدة تحرشه معهم في الحق رغم جميع المجاملات، وكانت له مواقف مشهورة مع الفريق الحاج رشيد باشا عندما كان هذا الأخير حاكمًا لبرقة ، وكان يحترم ويجل ابن الشفيع، وذات مرة سافر رشيد باشا إلى الجغبوب وكان يصحبه ابن الشفيع وشرع رشيد باشا يتلو القرآن وابن الشفيع يستمع حتى وصل القارئ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِلطَّاغِينَ مَآبًا﴾ [النبأ: ٢١-٢٢] فقال ابن الشفيع أتعلم يا رشيد أن جهنم خلقت لمن؟ فقال رشيد: الله أعلم يا سيدي فأجابه قائلاً: إنها لك ولأمثالك ما لم تأخذوا بكتاب الله، فضحك رشيد وقبل يد ابن الشفيع، وتوفي ابن الشفيع بسرت سنة ١٣٢٤هـ [(٢)] .

٦- أحمد المقرحي، وقد سماه ابن السنوسي بالمفرحي من بادية طرابلس وكان من طليعة علمائها الذين يرجع إليهم على باشا عشقر الحاكم العثماني، وفي بعض الروايات أنه تولى الإفتاء في ولاية طرابلس، وقد مر ذكر المناظرة التي قامت بين علماء طرابلس وابن السنوسي وقد توفي المقرحي بالزاوية البيضاء عام ١٢٦٣هـ ودفن بمقبرة رويفع الأنصاري ولم يترك عقبا .

٧- عمران بن بركة الفيتوري، من زليطن، أسندت إليه مشيخة الزاوية البضاء، وقام بالتدريس في معهد الجغبوب، وكان مدرسًا لمحمد المهدي السنوسي، وكان يتمتع بمكانة مرموقة بين زملائه وتلاميذه توفي بالجغبوب عام ١٣١٠هـ ورثاه شاعر الحركة السنوسية أبو سيف مقرب البرعصي بقوله:

---

(١) انظر: السنوسي الكبير، ص (٦٠) .

(٢) انظر: برقة العربية بين أمس واليوم، ص (١٤٣) .

لقد سرت يا مولاي للقبر نيرًا ... ولا عجب فلنيرات تسير
وان جار دهر في انتهابك واعتدى ... فما زال قدما يعتدى ويجور
له كلف بالأكرمين فكاسه ... تدر عليهم عاجلا وتدور
ويعتامهم بين الأنام فنبله ... يصيب وأما خليه فتغير
ألا أن للدنيا مصائب جمة ... ولكن مصابي بالكبير كبير
مصاب له فاضت نفسيات أنفس ... ولان له (رضوى) ولان (ثبير)
فيا واحدًا ضج الجميع لفقده ... وعج كبير بالبكاء وصغير
قضيت حميدًا وانقضى العلم والتقى ... وآضى جناح الدين وهو كسير[1]

وقد تزوج الإمام محمد المهدي كبرى بناته وتزوج محمد الشريف بالثانية، فأنجب منها المجاهد الإسلامي الكبير أحمد الشريف[2] .

٨- عبد الله بن محمد السني - من سنار السودان - كان من تلاميذ العلامة أحمد بن إدريس، وتولى أعمالاً كثيرة منها إلقاء الدروس في مختلف العلوم وتولى مشيخة زاوية مزدة حيث توفاه الله بها .

٩- فالح الظاهري - من الحمراء بالحجاز - ينتسب لبني حرب التحق بابن السنوسي سنة ١٢٤٣هـ في مكة وتفرس فيه ابن السنوسي نجابة وذكاء، كان من طليعة المدرسين بالمعهد الجغبوبي، زار إستانبول مندوبًا عن ابن السنوسي، كما زارها في عهد السلطان عبد الحميد ونزل في ضيافته معززًا مكرمًا، ثم زار الهند، وجلس للتدريس في جميع البلاد التي زارها، ومما يلي نذكر بعض ما ورد في رسالة منه إلى العلامة أحمد الريفي رحمهما الله: (وفي هذه السبع سنين، بعد قدومي من البلاد الرومية حصل لي من إفادة العلوم غطوس ما أفقت منه إلا وأعضائي بها خلل من طول الجلوس، لكنني ولله الحمد حصلت من تبليغ العلم إلى أهله غاية الأرب ؛ ولم يبق قطر من الأقطار إلا وحمل عني إليه دفتر (مفالحة) شيخنا الأستاذ، وهذا

---

(١) انظر: السنوسي الكبير، ص (٦١) .

(٢) انظر: برقة العربية بين أمس واليوم، ص (١٤٥) .

أقصى أمنيتي من كوني جعلت في الخافقين لشيخنا المذكور أعلى صيت حتى في الهند والسند . .) [(١)] كان العلامة فالح الظاهري متضلعًا في العلوم الدينية والفقهية والحديثية والتاريخية واللغوية وكان شاعرًا يقرض الشعر، توفاه الله سنة ١٣٢٧هـ بالحجاز [(٢)] وله عدة تآليف لم تطبع منها: «أنجح المساعي»، و«حسن الوفا لإخوان الصفا»، و«صحائف العامل بالشرع الكامل» [(٣)] .

١٠- عبد الرحيم بن أحمد المحبوب (البنغازي) تتلمذ على يد ابن السنوسي، وتولى مهامًّا كثيرة أسندت إليه منها، مصاحبة محمد المهدي من الحجاز إلى الجغبوب، وكان مفتشًا على الزوايا، وتولى مشيخة زاوية بنغازي، وانتدب لزيارة إستانبول في عهد ابن السنوسي، كما زارها في عهد محمد المهدي، وقام بإلقاء الدروس بمعهد الجغبوب توفاه الله بزاوية بنغازي ١٣٠٥هـ [(٤)] .

١١- حسين الغرياني، تتلمذ على يد ابن السنوسي وانضم إلى مجلس الإخوان وعرف عنه الصدق والإخلاص والحزم في جميع أعماله وتولى رئاسة الزاوية البيضاء ثم عين لرئاسة زاوية جنزور وعرف عنه الصلاح والتقوى والتفاني في عمله وتوفي بزاوية جنزور المعروفة باسم زاوية دفنه [(٥)] .

١٢- أحمد بن عبد القادر الريفي، من تلمسان بالجزائر، التحق بابن السنوسي سنة ١٢٦٧هـ فلازمه ملازمة صادقة وقام بكثير من أعمال الحركة السنوسية وأخذ عنه محمد المهدي السنوسي الكثير من العلوم، ثم أصبح المستشار الخاص لمحمد المهدي، وكان معروفًا بالحلم والورع ولين الجانب وذكر بعض المؤرخين أن محمد المهدي السنوسي كان يتلو القرآن الكريم، وعندما مر بقوله تعالى: **﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا (٦٣) وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا﴾** [الفرقان: ٦٣-٦٤] قال: إن معنى هذه الآية ينطبق على السيد أحمد

---

(١) انظر: السنوسي الكبير، ص (٦٢) .

(٢) المصدر السابق نفسه، ص (٦٢) .

(٣) انظر: برقة العربية أمس واليوم، ص (١٥٠) .

(٤) انظر: السنوسي الكبير، ص (٦٤) .

(٥) انظر: برقة العربية أمس واليوم، ص (١٥١) .

الريفي [1]، وكان مستشار الحركة السنوسية الخاص، وتولى رئاسة مجلس الإخوان بالجغبوب توفي عام ١٣٢٩هـ/ ١٩١١م، فشق موته على أفراد البيت السنوسي وجميع الإخوان وعامة أهل برقة ورثاه الشعراء والعلماء ومن بينهم تلميذه أحمد إدريس الأشهب حيث قال:

صبرت وما قلبي عليك بصابر ... فأنت أمام الأولياء الاكابر

تركت دموع العين تجري صبابة ... وسرت إلى أهل العلى والمقابر

مكثت بجغبوب وتاج ومكة ... وأنت تفيد القوم أهل المحابر[2]

١٣- محمد الصادق - من الطائف - التحق بابن السنوسي بالحجاز وأسندت إليه أعمال كثيرة، وقد أرسله ابن السنوسي إلى الجزائر أكثر من مرة بمهمات خاصة تتعلق بدعم حركة الجهاد في الجزائر، وتولى مشيخة زاويا الجريد بتونس كما كان حلقة الوصل بين المجاهدين في الجزائر والزوايا السنوسية، وقد توفي بالجريد .

١٤- محمد بن مصطفى حامد المدني - من تلمسان - التحق بابن السنوسي في الحجاز عام ١٢٦٧هـ، وتولى أعمالاً كثيرة في الحركة السنوسية منها تعليم القرآن الكريم، وإلقاء الدروس، والإشراف على شئون الطلبة والعمال في الجغبوب، ثم مشيخة زاوية تازربو حيث توفاه الله هناك .

١٥- عمر محمد الأشهب من زليطن - تعرف على ابن السنوسي مع زميله عمران بن بركة، تولى زاوية درنة، ومشيخة زاوية مارة، ثم مشيخة زاوية مسوس توفاه الله بها .

١٦- مصطفى المحجوب من مصراته، وقد تعرف على ابن السنوسي والتحق به في الزاوية البيضاء سنة ١٢٥٨هـ تولى مهامًا كثيرة آخرها مشيخة زاوية الطيلمون.

١٧- أحمد بن على أبو سيف من بادية طرابلس، تولى أعمالاً كثيرة منها التدريس ومشيخة زاوية مسوس، وزاوية مارة، وتوفي بالحجاز ١٢٩٤هـ .

---

(١) انظر: السنوسي الكبير، ص (٦٥) .

(٢) انظر: برقة العربية أمس واليوم، ص (١٦٩، ١٧٠) .

١٨- أبو القاسم العيساوي - جبل طرابلس - تولى مشيخة زاوية الرحبان، وانتدب إلى دار الخلافة .

١٩- محمد ابراهيم الغماري من المغرب الأقصى (مراكش) تولى أعمالاً كثيرة منها مشيخة الزاوية البيضاء والإشراف على صناعة تجليد الكتب الخاصة بمكتبة الجغبوب وتنظيمها .

٢٠- إبراهيم الغماري - مراكش - تولى مشيخة زاوية دريانة ضمن الأعمال المناطة به .

٢١- مصطفى الغماري - مراكش - تولى أكثر من زاوية بالحجاز حيث توفاه الله هناك .

٢٢- محمد حسن البسكري، كان يقوم بالسكرتيرية لمحمد المهدي فيما بعد .

٢٣- عمر أبو حواء الفضيل الأوجلي كان من أوائل رفاق ابن السنوسي، وقد اشتهر بالصلاح والتقوى والاستقامة، وقد ندبه ابن السنوسي إلى أكثر من مهمة في كل من الحجاز وليبيا والسودان وشمال إفريقيا، وقد تولى مشيخة زاوية الجوف بواحة الكفرة التي توفاه الله بها .

٢٤- مصطفى الدردفي - من مصراته - كان من رفاق ابن السنوسي تولى مشيخة زاوية شحات .

٢٥- محمد بن حمد الفيلالي - من المغرب - كان من رفاق ابن السنوسي، وقد انضم إليه من الجزائر، وتولى أعمالاً كثيرة منها رئاسة مجلس الإخوان في برقة وقد وصفه ابن السنوسي بالرئاسة [1] إلا أنه بعد سفر ابن السنوسي الأخير إلى الحجاز انفرد (بن حمد) في عمله وأساء التصرف واستبد عن رأي مجلس الإخوان، كما أخذ يهددهم ويهينهم بمختلف الإهانات وهم يتحملون ذلك ويرون طاعته مع الصبر على المكاره شيئًا ضروريًّا ؛ لأنه الوكيل عن ابن السنوسي، ولما ظهرت تصرفاته

---

(١) انظر: السنوسي الكبير، ص (٦٧) .

لابن السنوسي أمر بفصله ثم سافر إلى الحجاز وهناك استقبله ابن السنوسي وقال له: (أتعبتنا يا أخانا بن حمد فما من كلمة سوء وجهتها لأحد إخواننا إلا وقد وجهت لنا بالذات وما من ضربة سوط أصابت جسم أحدهم إلا وقد أصابتنا مباشرة) [١] .

٢٦- محمد أحمد السكوري - من صنهاجة بالمغرب- تولى مشيخة زاوية الواحات البحرية وأوفده ابن السنوسي في مهمة إلى الحجاز ثم ولاه مشيخة زاوية المرج، ورث عن أبيه ثروة ضخمة ومحبة البدو الذين عرفوا والده وأحبوه [٢] .

٢٧- المرتضى فركاش: ينتسب إلى نوح المسماري الشريف الحسني كان من كبار الشخصيات المحترمة بالجبل الأخضر يمتاز بين قبائل العرب بالدهاء وكثرة التجارب والمرونة وكرم الأخلاق وحسن التصرف وله شهرته الإصلاحية وقد ساعدته ثروته الطيبة وقتذاك على الاحتفاظ بمركزه الاجتماعي والأدبي وكان يعيش الحضر والبادية فيأوي مدينة درنة في وقت الصيف ويختلف إلى سكنى البادية في موسم الشتاء والربيع وعندما وصل ابن السنوسي إلى الزاوية البيضاء التحق به وأخذ في خدمته بكل إخلاص فنال حظوة عند سيادته وكان يلازمه في تنقلاته داخل برقة وحج معه البيت الحرام، وحفظ القرآن وتفقه في الدين بقدر الإمكان، أنجب أولادًا كانوا جميعًا في خدمة الحركة السنوسية، وكان لأمر هؤلاء الأولاد دورًا بارزًا في الجهاد ضد إيطاليا، وتميزت عائلة فركاش من بين قبيلة المسامير بخدماتها الجليلة للإسلام من خلال الحركة السنوسية، وارتبطت بصلات المصاهرة مع كثير من الإخوان منهم الأشهب، المحجوب، عبد المولى الغرياني[٣] .

٢٨- أبو سيف مقرب: هو من أشهر بيوتات السعادي ينحدر من عائلة طامية البراعصة وفي بيته رياسة قبائل البراعصة وهو من خيرة رجال الحركة السنوسية سلمه والده طفلاً لابن السنوسي، وكانت تبدو عليه أمارات الذكاء والنجابة، وكان من بين

(١) انظر: برقة العربية أمس واليوم، ص (١٥٣) .
(٢) انظر: برقة العربية أمس واليوم، ص (١٥٧) .
(٣) المصدر السابق نفسه، ص (١٥٨) .

العمال الذين قاموا ببناء زاوية البيضاء فزلقت رجله وتصادم رأسه بالحجر فشج حتى قيل أن دماغه ظهر للعيان فجيء إلى ابن السنوسي فضمد رأسه بقطعة من عمامته قائلاً هذا الرأس سيملؤه الله علمًا وحكمة) وصدقت فراسة ابن السنوسي ونبغ المصاب الذي كان أقرب إلى الموت منه إلى الحياة وأصبح من أبرز العلماء كما كان في طليعة أدباء الإخوان، وكان من كبار المدرسين في معهد الجغبوب توفى رحمه الله بزاوية الجوف (الكفرة) وصلى على جثمانه محمد المهدي الزعيم الثاني للحركة السنوسية وكان ذلك عام ١٣١٥هـ [١] .

٢٩- الحسين الحلافي - من المغرب - تولى من الأعمال مشيخة زاوية المخيلي.

٣٠- المختار بن عمور - من أشراف الجزائر - كان من تلاميذ ابن السنوسي، تولى مشيخة زاوية قفنطة .

٣١- محمد حيدر الهوني، اشتهر بإجادة تلاوة القرآن ترتيلاً حتى روى عن ابن السنوسي أنه كان يقول: (ياهوني قراءتك للقرآن تقول اسمعوني) .

٣٢- عمر جلغاف حدوث، من زعماء قبائل برقة - أخلص للحركة السنوسية، وكان ضمن الوفد الذي التمس من ابن السنوسي عندما كان في الحجاز أن يرجع إلى برقة، وكان ضمن مجلس الإخوان في البيضاء، وأوفده ابن السنوسي لتفتيش الزوايا والقيام ببعض المهام فيها .

٣٣- الفضيل أبو خريص الكزة - أحد زعماء قبائل برقة - انضم إلى ابن السنوسي، وكان حظه من التعليم قليلاً إلا أنه قام بمهمات كبيرة في السودان والحجاز والجزائر [٢] .

بالإضافة إلى هؤلاء كان مجموعة طيبة من أعيان وزعماء برقة من الحضر والبادية ومن بينهم الأمين بك شتيوي متصرف بنغازي، ومحمد بك كاهية وجميع

---

(١) انظر: برقة العربية أمس واليوم، ص (١٥٣) .

(٢) انظر: السنوسي الكبير، ص (٦٩) .

أفراد أسرته، والشيخ على القزيري، والحاج عبد الله بن شتوان، والشيخ محمد الأسمع والحاج سالم عثمان، وكبار عائلة منينة وابن زبلح، وهؤلاء من وجهاء وعيون بنغازي، أما من درنة فقد انضم إليه جميع أعيانها ورؤسائها منهم وقتذاك عائلة جبريل، وعائلة ساسي وستيته، ومن شيوخ البدو علي بك الأطيوش، والحاج محمد قادربوه، والشيخ حمد اللواطي، وأبو بكر بك حدوث وعمر جلغاف وعبد الله سويحل عمدة عائلة مريم وأضرابهم من الشيوخ والعمد والأعيان وعامة الأهالي هؤلاء جميعًا كانوا من أنصار الحركة السنوسية انصهروا في بوتقتها، وتبنوا تعاليمها، وأصبحوا من دعاتها .

كان هؤلاء الإخوان من شتى بقاع المعمورة فآخى بينهم ابن السنوسي وهم لم يتعارفوا قبله إذ لا صلة تربطهم غير الإسلام، فأصبحوا كجسد واحد غير قابل للتجزئة، جاءوا من تونس، والجزائر، ومراكش والريف وسوس الأقصى، وطرابلس الغرب وباديتها وبرقة وباديتها ومصر وصعيدها والسودان والحجاز واليمن ونجد، فأصبحوا لا هم لهم إلا خدمة الإسلام [١] .

رابعًا: الأخذ بأصول الوحدة والاتحاد والاجتماع عند ابن السنوسي:

لقد استطاع ابن السنوسي بتوفيق الله تعالى أن يجعل من الإخوان والقبائل في الصحراء الكبرى مجتمعًا متماسكًا، متوحدًا في عقيدته وتصوراته ،منهجه، فانعكس ذلك في توادهم وتراحمهم فيما بينهم وأصبحوا كالجسد الواحد، الذي يخفق فيه قلب واحد، وتسري فيه روح واحدة ويتأثر كل عضو فيه بما يصيب بقية الأعضاء، أو هو كالجدار المتين الذي تجتمع لبناته لتشكل فيما بينها وحدة واحدة متماسكة متراصة .

قال تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ [آل عمران، آية ١٠٣] .

---

(١) انظر: برقة العربية أمس واليوم، ص (١٥٩) .

إن طريق الوحدة والتعاون والتآخي والاجتماع على البر والتقوى الذي سلكه ابن السنوسي هو طريق أهل السنة والجماعة الذي التزموا في كافة أمورهم بما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه، في العقائد والأخلاق، والعبادة، والمعاملات، وكافة شئون الحياة، إن المنهج الذي اجتمع عليه الإخوان السنوسيون هو كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، لأن ذلك طريق الاعتصام بحبل الله وهذا الأصل من آكد الأصول في هذا الدين العظيم، ولذلك أمر الله تعالى ورسوله ﷺ بكل ما يحفظ على المسلمين جماعتهم وألفتهم، ونهى عن كل ما يعكر صفو هذا الأمر العظيم .

إن ما حصل من فرقة بين المسلمين وتدابر وتقاطع، وتناحر بسبب عدم مراعاة هذا الأصل، وضوابطه مما ترتب عليه تفرق في الصفوف، وضعف في الاتحاد، وأصبحوا شيعًا وأحزابًا، كل حزب بما لديهم فرحون .

وهذا الأمر وإن كان مما قدره الله عز وجل كونا، ووقع كما قدر، إلا أنه -سبحانه - لم يأمر به شرعًا، فوحدة المسلمين واجتماعهم مطلب شرعي، ومقصد عظيم من مقاصد الشريعة، بل من أهم عوامل النهوض، ونحن مأمورون بالتواصي بالحق والتواصي بالصبر قال تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ**﴾ [سورة الرعد، آية ١١] .

لقد تضافرت جهود دعاة الحركة السنوسية وقادتها وعلمائها وطلابها لإصلاح ذات البين إصلاحًا حقيقيًّا لا تلفيقيًّا، لأن أنصاف الحلول تفسد أكثر مما تصلح، وكأنهم اعتقدوا أن: (الجهاد نوعان: جهاد يقصد به صلاح المسلمين، وإصلاحهم في عقائدهم وأخلاقهم وآدابهم، وجميع شئونهم الدينية والدنيوية، وفي تربيتهم العلمية، وهذا النوع هو الجهاد وقوامه، وعليه يتأسس النوع الثاني، وهو جهاد يقصد به دفع المعتدين على الإسلام والمسلمين من الكفار والمنافقين والملحدين وجميع أعداء الدين ومقاومتهم وهذا نوعان: جهاد بالحجة والبرهان واللسان، وجهاد بالسلاح المناسب في كل وقت وزمان) [١] .

---

(١) انظر: وجوب التعاون بين المسلمين، للسعدي، ص (٥) .

(إن من أعظم الجهاد السعي في تحقيق هذا الأصل في تأليف قلوب المسلمين واجتماعهم على دينهم ومصالحهم الدينية والدنيوية) [١] .

إن الأخذ بالأسباب نحو تأليف قلوب المسلمين وتوحيد صفهم كانت من أهم أهداف الحركة السنوسية ؛ لأن قادة الحركة أيقنوا بأهمية هذه الخطوة في إعزاز المسلمين، وتحكيم شرع ربهم، وتقوية دولتهم .

إن ابن السنوسي عمل على وضع منهج سار عليه علماء الحركة من أجل توحيد المجتمع على كتاب الله وسنة رسوله ولذلك اهتم بالآتي:

أ - وحدة العقيدة:

أيقن ابن السنوسي أنه لا يمكن أن تقوم وحدة للمسلمين ما لم تجمعهم عقيدة واحدة، وكان يعلم بأن العقيدة تشكل أساسًا مهمًا في البناء الفردي والاجتماعي، وهي القاعدة التي تقوم عليها الأعمال والعلاقات فإن البناء لا يستقيم، ولا يستطيع أن يواجه الأعاصير والفتن حتى ينهار . وإن العقيدة التي تصلح لجمع شتات المسلمين هي ما كان منبعها كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ويمكن التدليل على كل أصل من أصولها، أو جزئية من جزئياتها، ثم إن السلف الصالح الذين استقاموا على عقيدة الإسلام الحق دونوا هذه العقيدة تدوينًا يميزها عن عقائد أهل الفرق والضلال [٢] .

إن سلامة الاعتقاد وصحته هي الطريق الوحيد لإقامة المجتمع المسلم المترابط المتآلف، ولا سبيل إلى اجتماع الأمة الإسلامية قاطبة، ووحدة صفها، وعزها وسعادتها في الدنيا والآخرة، إلا بالعودة الصحيحة إلى الإسلام الصافي النقي، الخالص من شوائب الشرك والبدع والأهواء والتعصب واتباع العوائد الفاسدة .

إن طريق النهوض بالأمة لا بد فيه من وحدة الصف الإسلامي، ووحدة الصف

---

(١) انظر: وجوب التعاون بين المسلمين، ص (٥) .

(٢) انظر: فقه التمكين في القرآن الكريم، للصلابي، ص (٢٥٥) .

ليس لها من سبيل إلا الإسلام الصحيح، والإسلام الصحيح مصدره القرآن الكريم والسنة النبوية، والطريق لفهم القرآن الكريم والسنة المطهرة هي طريق رسول الله ﷺ وأصحابه الكرام، والتابعون بإحسان، ومن سار على نهجهم وطريقتهم إلى يوم الدين .

قال تعالى: ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [سورة النساء، الآية ١١٥] .

وقال تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [سورة التوبة، الآية: ١٠٠] .

فوعد الله من اتبع غير سبيلهم بعذاب جهنم، ووعد متبعهم بالجنة والرضوان[١] .

وعن ابن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : «خير الناس قرني ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يجئ قوم تسبق شهادة أحدهم يمينه، ويمينه شهادته»[٢] .

وعن ابن مسعود ﷺ قال: «اتبعوا ولا تبتدعوا فقد كفيتم»[٣] .

وعنه ﷺ : «من كان متأسيًا فليتأس بأصحاب رسول الله ﷺ فإنهم كانوا أبر هذه الأمة قلوبًا، وأعمقها علمًا، وأقلها تكلفًا وأقومها هديًا، وأحسنها حالاً، قوم اختارهم الله لصحبة نبيه، وإقامة دينه، فاعرفوا لهم فضلهم واتبعوهم في آثارهم، فإنهم كانوا على الهدى المستقيم»[٤] .

لقد اهتمت الحركة السنوسية بجانب العقيدة وكانت رسالة أبي زيد القيرواني العلمية ضمن مقررات مناهج الحركة، وتعتبر هذه الرسالة من أنفع التآليف في الفقه

(١) انظر: فقه التمكين في القرآن الكريم، ص (٢٥٥) .
(٢) انظر: مسلم، كتاب الصحابة، باب فضل الصحابة، (٤ / ١٩٦٣) رقم (٢٥٣٣) .
(٣) انظر: الموطأ، رقم (١٦١٩) .
(٤) انظر: حلية الأولياء (١ / ٣٧٩) .

المالكي قاطبة، وذلك لمكانة مؤلفهـا العلمية من ناحية، ولسهولتها ويسـرها وجمعها لأصول العقيدة والفقه والآداب من ناحية أخرى .

وهى كما وصفها مؤلفها ابن أبي زيد في مـقدمتها: «جملة مختصرة من واجب أمور الديانة، مما تنطـق به الألسنة، وتعتقـده القلوب، وتعمله الجوارح، ومـا يتصل بالواجب من ذلك من السنن من مؤكدها ونوافلها ورغـائبها وشيء من الآداب منها، وجمل من أصول الفـقه وفنونه على مذهب الإمام مالك بن أنس رحـمه الله تعالى وطريقته، مع ما سهل سبيل ما أشكل من ذلك من تفـسير الراسخين وبيان المتفقهين لما رغبت فيـه من تعليم ذلك للولدان كما تعلمهم حروف القـرآن ليسبق إلى قلوبهم من فهم دين الله وشرائعه ما ترجى لهم بركته وتحمد لهم عاقبته» [1].

وهذا النص الكامل لمقـدمة أبي زيد القـيرواني في العـقيدة: (باب مـا تنطق به الألسنة وتعتقده الأفئدة من واجب أمور الديانات:

من ذلك الإيمان بالقلب والنطق باللسان بأن الله إله واحد لا إله غيره، ولا شبيه له، ولا نظيـر له، ولا ولد له، ولا والد له، ولا صـاحبـة، ولا شـريك له . ليس لولايته ابتداء، ولا لآخريته انقضاء، لا يبلغ كنه صـفته الواصفون، ولا يحيط بأمره المتفكرون، يعتبر المفكرون بآياته ولا يتفكرون في ماهية ذاته، ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شـاء وسع كرسـيه السمـوات والأرض، ولا يؤده حفظهمـا وهو العلي العظيم . . العالم الخبيـر المدبر القدير السميع البصير العلي الكبـير، وإنه فوق عرشه المجيـد بذاته وهو بكل مكان بعلمه، خلق الإنسـان ويعلم ما توسوس به نفـسه وهو أقرب إليـه من حبل الوريد، وما تسـقط من ورقة إلا يعلمـها ولا حبـة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كـتاب مبين. علـى العرش استـوى وعلى الملك احتوى وله الأسماء الحسنى والصفات العلى، لم يزل بجميع أسمائه وصفاته، تعالى أن تكون صفاته مخلوقة وأسماؤه محدثة. كلم موسى بكلامه الذي هو صفة ذاته لا

---

(١) انظر: شرح مقدمة ابن أبي زيد القيرواني، للأمين الحاج، ص (٩) .

خلق من خلقه وتجلى للجبل فصار دكًا من جلاله، وأن القرآن كلام الله ليس بمخلوق فيبيد ولا صفة لمخلوق فينفد، والإيمان بالقدر خيره وشره .. حلوه ومره .. وكل ذلك قدّره الله ربنا ومقادير الأمور بيده ومصدرها عن قضائه، علم كل شيء قبل كونه فجرى على قدره لا يكون من عبادة قول ولا عمل إلا وقد قضى وسبق علمه به ﴿أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤] يضل من يشاء فيخذله بعدله، ويهدي من يشاء فيوفقه بفضله، فكل ميسر بتيسيره إلى ما سبق من علمه وقدره من شقي أو سعيد، تعالى أن يكون في ملكه ما لا يريد أو يكون لأحد عنه غنى، خالق لكل شيء هو رب العباد ورب أعمالهم والمقدر لحركاتهم وآجالهم، الباعث الرسل فيهم لإقامة الحجة عليهم، ثم ختم الرسالة والنذارة والنبوة بمحمد نبيه ﷺ فجعله آخر المرسلين بشيرًا ونذيرًا وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا، وأنزل عليه كتابه الحكيم وشرع بدينه القويم وهدى به الصراط المستقيم، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من يموت كما بدأهم يعودون، وان الله سبحانه ضاعف لعباده المؤمنين الحسنات وصفح لهم بالتوبة عن الكبائر وجعل من لم يَتُب من الكبائر صائرًا إلى مشيئته ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ ﴾ [النساء: ٤٨] ومن عاقبه الله بناره أخرجه منها بإيمانه فأدخلها به جنته ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧] ويخرج منها بشفاعة النبي ﷺ من شفع له من أهل الكبائر من أمته .. وأن الله سبحانه قد خلق الجنة فأعدها دار خلود لأوليائه وأكرمهم فيها بالنظر إلى وجهه الكريم وهي التي هبط منها آدم نبيه وخليفته إلى أرضه بما سبق في سابق علمه، وخلق النار فأعدها دار خلود لمن كفر به وألحد في آياته وكتبه ورسله وجعلهم محجوبين عن رؤيته وإن الله تبارك وتعالى يجيء يوم القيامة والملك صفًا صفًا لعرض الأمم وحسابهم .

وتوضع الموازين لوزن أعمال العباد ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [الأعراف: ٨] ويؤتون صحائفهم بأعمالهم ... وأن الصراط حق يجوز بقدر أعمالهم فناجون متفاوتون في سرعة النجاة عليه من نار جهنم وقوم أوبقتهم فيها أعمالهم،

والإيمان بحوض رسول الله ﷺ ترده أمته لا يظمأ من شرب منه ويذاد عنه من بدل وغير، وأن الإيمان قول باللسان وإخلاص بالقلب وعمل بالجوارح يزيد بزيادة الأعمال وينقص بنقصها فيكون بها النقص وبها الزيادة ولا يكمل قول الإيمان إلا بعمل، ولا قول ولا عمل إلا بنية، ولا قول ولا عمل ونية إلا بموافقة السنة . وإنه لا يكفر أحد بذنب من أهل القبلة، وأن الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون وأرواح أهل السعادة باقية ناعمة إلى يوم يبعثون وأرواح أهل الشقاوة معذبة إلى يوم الدين . وأن المؤمنين يفتنون في قبورهم ويُسألون ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ﴾ [إبراهيم:٢٧] وأن على العباد حفظة يكتبون أعمالهم ولا يسقط شيء من ذلك عن علم ربهم وأن ملك الموت يقبض الأرواح بإذن ربه، وأن خير القرون الذين رأوا رسول الله وآمنوا به ثم الذين يلونهم.

وأفضل الصحابة الخلفاء الراشدون المهديون أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي رضي الله عنهم أجمعين .

وأن لا يذكر أحد من صحابة الرسول إلا بأحسن ذكر والإمساك عما شجر بينهم وأنهم أحق الناس أن يلتمس لهم المخارج ويظن بهم أحسن المذاهب، والطاعة لأئمة المسلمين من ولاة أمورهم وعلمائهم، واتباع السلف الصالح واقتفاء آثارهم والاستغفار لهم، وترك المراء والجدال في الدين وترك كل ما أحدثه المحدثون وصلى الله على سيدنا محمد نبيه وعلى آله وأزواجه وذريته وسلم تسليمًا كثيرًا) [١] .

هذه العقيدة السنية البهية كانت تدرس في مناهج الحركة السنوسية، ويتربى عليها القادة، والجنود، وكان علماء الحركة السنوسية يحاربون العقائد الفاسدة بين القبائل في الصحراء الكبرى، ويرشدون الناس إلى حرمة الغلو في تقديس المشايخ الأحياء والأموات، ولا تأذن لأتباعها أن يذكروا ميتًا عند قبره بغير الدعاء له والترحم عليه[٢] ويعلمون الناس أوامر القرآن والسنة الشريفة وأصول التوحيد، ويحرمون التضرع

(١) انظر: شرح مقدمة أبي زيد القيرواني، ص (١٦، ١٧، ١٨).

(٢) انظر: الإسلام في القرن العشرين، ص (١٣٢) .

للأولياء، ويربون الناس على أن يكون التعبد لله وحده [(١)] . كانت بعض القبائل في الصحراء الكبرى وإفريقيا قد انحرفت عن عقيدتها الصحيحة، فجاء إليهم علماء الحركة السنوسية يبينون لهم عقيدتهم ويتلون عليهم آيات الله التي تبين أن النافع والضار هو الله وحده ويفسرون لهم ذلك كقوله تعالى ﴿ **وَلا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُكَ وَلا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ** ﴾ [سورة يونس، آية ١٠٦] .

وقال تعالى ﴿**وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ**﴾ [سورة يونس، آية ١٠٧] .

وقال تعالي: ﴿**وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لاَّ يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ (٥) وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ**﴾ [سورة الاحقاف: آية ٥-٦] .

وقال تعالى: ﴿**أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ**﴾ [سورة النمل، آية ٦٢] .

كما قامت الحركة السنوسية بمحاربة عقائد الصوفية المنحرفة، كالاتحاد، ووحدة الوجود، والحلول ؛ إن عقيدة الاتحاد من عقائد الصوفية الفاسدة المتأثرة بالنصرانية المنحرفة، والديانة الهندية القديمة، ومعنى ذلك أن المخلوق يتحد بالخالق تعالى الله عن قولهم علوًّا عظيمًا قال تعالى: ﴿ **ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لا إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (١٠٢) لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ**﴾ [سورة الانعام، آية ١٠٢، ١٠٣] .

أما وحدة الوجود، فإنهم يعتقدون أن كل شيء في الوجود هو الإله سواء كان حيوانًا أو جمادًا، أو إنسانًا أو غير ذلك، وهي عقيدة فاسدة مضمحلة لا أساس لها من عقل ولا شرع ولكنها من وحي الشيطان، إن الحركة السنوسية حاربت هذا المعتقد

---

(١) انظر: انتشار الإسلام في القارة الإفريقية، حسن إبراهيم، ص (٤٧) .

الفاسد الباطل، وسارت على مذهب أهل السنة والجماعة الذي يقول بأن الله سبحانه بائن من خلقه لا يشبهه شيء من مخلوقاته متصف بصفات الكمال فله الأسماء الحسنى والصفات العلا: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] فهو المتفرد بالجلال المتصف بصفات الكمال المنزه عن النقائص والعيوب فمن اعتقد أن الله سبحانه تعالى متحد بمخلوقاته وأن العبد عين الرب، والرب عين العبد فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ وخالف الفطر والشرائع، وقد كفّر الله تعالى النصارى الذين قالوا: إن الله اتحد بعيسى عليه السلام فقال سبحانه : ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة:١٧] فكيف بمن يقول إن الله متحد مع جميع مخلوقاته فهو أولى بأن يكون كافرًا لأنه يعتقد إن الله متحد بجميع ما في هذا الكون [١] .

إن عقيدة وحدة الوجود عقيدة إلحادية بحته ليست من الإسلام في شيء، وأن علماء الحركة السنوسية، وقفوا ضدها بكل حزم وعزم قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [سورة الإخلاص: ١-٤] .

وحاربت الحركة السنوسية عقيدة الحلول التي تقول بأن الله يحل في الأشخاص تعالى الله عن قول الحلوليين علوًّا كبيرًا .

(والحقيقة أن القول بالاتحاد بين الخالق والمخلوق يأباه العقل الذي سلم من الشبهات ويدل دلالة واضحة على أنها باطلة؛ لأن أي إنسان تسمح له نفسه أن يدعي بأنه دخل به الإله وصار مع الله وحدة واحدة ولا يمكن أن يخرج مثل هذا الادعاء الباطل من إنسان له عقل سليم أو به ذرة من إيمان) [٢] .

لقد حاربت الحركة السنوسية العقائد الفاسدة، ودعت إلى العقائد الصحيحة، لتجتمع القبائل والشعوب الإسلامية عليها، كما حرصت على تحكيم كتاب الله وسنة رسوله على نفسها، ودعت غيرها بالالتزام بذلك .

---

(١) انظر: مظاهر الانحرافات العقدية عند الصوفية، إدريس محمود، ص (٢٨٥).
(٢) انظر: المؤامرة على الإسلام، للجندي، ص (٥٢) .

ب- تحكيم الكتاب والسنة:

أيقن ابن السنوسي وأخوانه من العلماء أن المسلمين لا يكون لهم شأن، ولا عز، ولا نصر، ولا فلاح في الدنيا، ولا نجاة في الآخرة، إلا بتحكيم كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، على مستوى الأفراد، والأسر، والجماعات، والقبائل، ومن ثم على مستوى الدولة .

واسترشد ابن السنوسي فيما ذهب إليه بقوله تعالى: ﴿**فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً**﴾ [النساء: ٥٩] .

وبقوله ﷺ في حجة الوداع: (يا أيها الناس: إني تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبدًا، كتاب الله وسنتي) [(١)] .

إن ابن السنوسي حرص على تحكيم شرع الله تعالى على نفسه وأسرته، ومجتمعه، وكان يرى أن ذلك خطوة أصيلة نحو وحدة الأمة واقترابها من نصر الله تعالى، وأن للتحاكم إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ؛ آثار دنيوية، كالاستخلاف، والتمكين، والأمن والاستقرار، والنصر والفتح، والعز والشرف، وبركة العيش ورغد الحياة، والهداية والتثبيت، وانتشار الفضائل، وانزواء الرذائل، وأما الآثار الأخروية ؛ كالمغفرة، وتكفير السيئات، والثواب العظيم عند الله تعالى، والحياة الحقة الدائمة وعلو المنزلة ومعية التكريم، وإليك هذه الرسالة التي أرسلها ابن السنوسي إلى أهل وجنقة في تشاد لتدلنا على ما ذهبنا إليه .

قال - رحمه الله - بعد البسملة: (إنه من عبد ربه سبحانه محمد بن علي السنوسي الخطابي الحسني الإدريسي . إلى المكرم الأجل العمدة الأفضل الفقيه النبيه ولدنا الشيخ فرج الجنقاوي وكافة جماعة بلد وجنقة كبيرًا وصغيرًا ذكرًا وأنثى سلم الله جميعهم وأنالهم من خير الدارين مرامهم آمين السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته وتحياته ومغفرته ومرضاته وبعد فالقصد المطلوب والأمر المرغوب هو السؤال

---

(١) انظر: مسلم، كتاب الحج، باب حجة النبي ﷺ (٢ / ٨٩٠) رقم (١٢١٨) .

عنكم وعن كليـة أحوالكم جعلهـا الله جارية على منهـاج كتابه وسنة نبـيه محـمد ﷺ وشـرف وكرم وعظم، وثانـيًا فـإنا ندعـوكم بدعاية الإسـلام من طاعـة الله ورسوله، قال تعالى في كتابه العزيز: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ [النساء: ٥٩] وقال تعالى: ﴿مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠] وقال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٧٠] والطاعة هي امتثـال أمر الله ورسوله من إقامـة الصلوات الخمس وصيام شـهر رمضان، وأداء زكـاة الأموال، وحج بيت الله الحرام، واجـتناب ما نهى الله عنه من الكذب والغـيبة والنـميمـة وأكل أموال الناس بالباطل وشـرب الخمر وقتل النفس بغـير حق . وشهادة الزور، وغيـر ذلك مما حرم الله ورسوله فبذلك تنالون الخير الأبدي والربح السرمدي الذي لا يعترّيه خسران ولا يحوم حول حماه حرمان، وقد طلب منا أناس من ذلك الطرق أن نبعث معهم بعض إخواننا يذكرون عـباد الله ويعلمونهم ما فرض الله ورسـوله عليهم، ويهدونهم إلى سبيل الرشاد، وعزمنا على ذلك لكون هذه الوظيـفة هي التي أقامنا الله عليها، ننبه الغـافل، ونعلم الجـاهل، ونرشد الضـال . ولكن نحن الآن بالحـرمين الشـريفين، وعندمـا قدمنا لهـذه النواحي اشـتغلنا بدلالة العـبـاد إلى الله، وما رأينا أحـدًا من ناحيـتكم حتى نوجه مـعه من يعلم الناس دينهم الذي ارتضاه، والآن فـإن أتباعنا - جماعـة زوية - الذين هم أهل تزور (موقع) المعلومة عندكم قـدموا إلينا وتابوا على أيدينا وطلبـوا منا بناء زاوية بموقع تزور المـذكورة . وقـصدنا فـي ذلك مجـاورتكم وتعليمكم أنتم وأبـناءكم كتاب الله وسنة نبـيه محمـد ﷺ وإصلاح ذات البين . بينكم وبين هؤلاء العربان الذين يـغيرون عليكم ويأخذون أبناءكم وأمـوالكم عاملين بقوله تعالى: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾ [الحجرات: ٩] ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٢] . وبقوله تعالى: ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٤] فبذلك يحصل التعاون على البر والتقوى كما

أمر الله بذلك في قوله: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة:٢] وبقوله ﷺ: «كونوا عباد الله إخوانًا وعلى الدين أعوانًا» وأما الفتنة والمنازعة لا خير فيها؛ بل لقد نهى الله عنها في كتابه العزيز بقوله: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦]، وإن شاء الله إذا امتثلتم أمرنا وتبعتم نصحيتنا فسيقدم عليكم بعض أبنائنا يعلمون أبناءكم كتاب الله، ويعلمون رجالكم سنة رسول الله ﷺ ولا تخافون بعد ذلك إن شاء الله من أحد، وترون فضل الله ورحمته ما ليس عليه من مزيد، وبلغوا سلامنا وكتابنا هذا إلى كل من حولكم ممن يريد طاعة الله ورسوله واتباع الكتاب والسنة، وربنا تبارك وتعالى يجعلكم هادين مهديين دالين على الخير وبه عاملين بمنه وكرمه آمين، ودمتم بخير عافية، ونعم متواترة ضافية)[1].

وهذه الرسالة تعطينا منهجية ابن السنوسي في دعوته وأسلوب عرضه، وطريقة خطابه، وجزالة ألفاظه، وروعة بيانه.

ج- صدق الانتماء إلى الإسلام:

أيقن ابن السنوسي أن من أسباب جمع صفوف الأمة وتحقيق الوحدة بينها الدعوة إلى الالتزام بالإسلام عقيدة وشريعة ومنهج حياة، والاعتزاز بالانتساب إلى هذا الدين، ونبذ كل ما يخالفه ويضاده.

لقد تربي أتباع السنوسية على أن الإسلام منهة للحياة، والعبودية لله معلم كبير في حياة المسلم، والمسلمون، وفق هذا المنهج والفهم يشكلون أمة واحدة في مقابلة التجمعات البشرية، ولقد تربى أتباع السنوسية على الاعتزاز بالانتساب إلى الإسلام: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [سورة فصلت: آية ٣٣].

لقد كان الانتماء إلى الإسلام في التربية السنوسية فوق الانتماء للأوطان، والأقوام، والنعرات الجاهلية.

---

(١) انظر: السنوسي الكبير، ص (١٥٢).

د- طلب الحق والتحري في ذلك:

إن هذا الأصل العظيم ألا وهو طلب الحق والتحري للوصول إليه، يقوي وحدة صف العاملين لتحكيم شرع الله، وهي من أهم سمات الربانيين الذين صفت نفوسهم وتطهرت قلوبهم بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ . إن الله تعالى في كتابه الكريم، يبين أنه لا توجد منزلة ثالثة بين الحق والباطل، فقال سبحانه وتعالى: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلالُ﴾ [سورة يونس، آية ٣٢] .

قال القرطبي - رحمه الله -: («قال علماؤنا»: حكمت هذه الآية بأنه ليس بين الحق والباطل منزلة ثالثة في هذه المسألة التي هي توحيد الله تعالى، وكذلك هو الأمر في نظائرها، وهي مسائل الأصول فإن الحق فيها في طرف واحد) [١] .

ولذلك نجد ابن السنوسي وهو المالكي المذهب والثقافة يخالف مذهب مالك في بعض المسائل عندما تبين له أن الحق خلاف مذهب الإمام مالك، فكان يقبض في صلاته، ويقنت بعد الركوع، ويقصر في الصلاة أثناء السفر . . . إلخ وقد حذا أتباعه حذوه وهذا يدلنا على تحري ابن السنوسي وأتباعه للدليل الشرعي والتمسك به، ونقد كثيراً من آراء التصوف المخالفة لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، وكانت وسائل الوصول إلى الحق، تقوى الله، والتجرد والإخلاص .

هـ- تحقيق الأخوة بين أفراد المجتمع:

أيقن ابن السنوسي أن بتحقيق الأخوة بين القبائل، وأتباع الحركة، تتحقق وحدة الصف، وقوة التلاحم، ومتانة التماسك بين أفراد الحركة، كما كان على علم بأن الأخوة منحة من الله عز وجل، يعطيها الله للمخلصين من عباده والأصفياء والأتقياء من أوليائه وجنده وحزبه قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ (٦٢) وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [سورة الأنفال: آية ٦٢-٦٣].

---

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن (٨ / ٣٣٦) .

إن الأخوة في الله بين أتباع الحركة السنوسية أورثتهم شعوراً عميقًا، وعاطفة صادقة، ومحبة وودًّا واحترامًا فيما بينهم، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠] .

إن الأخوة في الله ملازمة للإيمان، ولا يذوق حلاوة الايمان إلا من أشرب هذه الأخوة ولذلك حرص عليها السنوسيون وأتباعهم قال رسول الله ﷺ : (ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان، أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار) [(١)].

لقد حرص السنوسيون أن يطبقوا تلك الصورة الجميلة لأصحاب رسول الله ﷺ ، قال تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ [سورة الفتح، آية ٢٩] .

إن الأخوة في الله من أهم الأسباب التي جعلت الحركة السنوسية تصمد في وجه أعتى المحن التي تعرضت لها .

❊ ■ ❊

(١) انظر: البخاري ، كتاب الإيمان، باب حلاوة الإيمان، (١ / ١١) .

■ الفصل الثاني ■

البعد التنظيمي، والمنهج التربوي والبعد السياسي عند ابن السنوسي

المبحث الأول

البعد التنظيمي عند ابن السنوسي

إن البعد التنظيمي يظهر في شخصية محمد بن علي السنوسي في بناء الزوايا التي يتربى فيها أتباعه والمنهج التربوي الذي سار عليه، فأما الزوايا فهي ركيزة نظام الحركة السنوسية وهي التطبيق العلمي لأفكار ابن السنوسي التي دعا إليها .

إن نظام الزوايا، كان معروفًا في العالم الإسلامي، والشمال الأفريقي خصوصًا فكلمة الزاوية تطلق عند الطرق الصوفية على مكان يختلي فيه أتباع الطريقة والقائمون عليها بأنفسهم ويتقربون إلى الله بالعبادة ليلاً ونهارًا منقطعين عن الناس وعن الحياة مكتفين بكفالة الناس لهم، على يد رجال القوافل الذين يضربون في الطرق الصحراوية، وينزلون بهذه الزوايا التي غالبًا ما كانت مواقعها في أماكن خلوية بعيدة عن العمران، أو ما يوقف على الزاوية من أوقاف يحتسبها مشايخ القبائل المجاورة للزاوية تقربًا إلى علمائها المشرفين على طريقتها الصوفية .

أما الزوايا السنوسية فهي تختلف عن غيرها من الزوايا الأخرى من حيث الشكل والمضمون؛ أي من حيث مواقعها وبنائها، ومن حيث تنظيمها ورسالتها (١) لقد استطاع ابن السنوسي بعقليته التنظيمية أن يطور مفهوم الزوايا بحيث أصبحت تمثل النواة الأولى لمجتمع تحكمه سلطة وعليه واجبات ؛ اجتماعية واقتصادية وسياسية ودعوية وجهادية؛ وقد تحدث ابن السنوسي في إحدى رسائله عن الزاوية فقال: (والزاوية في الحقيقة إنما هي بيت من بيوت الله ومسجد من مساجده . . . والزاوية

---

(١) انظر: في تاريخ العرب الحديث وجهاد الأندلسيين، د. رأفت، ص (٢٥٥) .

إذا حلت بمحل نزلت فيه الرحمة وتعمر بـها البلاد ويحصل بها النفع لأهل الحاضرة والباد، لأنها ما أسست إلا لقراءة القرآن ولنشر شريعة أفضل ولد عدنان)[١] .

وقال في رسالة أخرى: (وأما نحن فقد ألفنا ما أعتدناه ورضيت به نفوسنا فنريد أن تكون تلك العمارة مستمرة ونفوس سكانها مستقرة ليحصل المقصود منه (يعني الزاوية) ويدوم، من تعلم العلم وتعليمه، وإقراء القرآن وتفهيمه، وإقامة شعائر الدين للوافدين عليها والمقيمين بها) [٢] . وقال في رسالة ثالثة: (رتبنا لكل واحدة خليفة يقوم فيها بما ذكر من الجمعة، وتعليم القرآن ودرس العلم ودلالة الخلق على دينهم وعودتهم إلى ربهم . . وبذلك تبتهج الأرض حولها بأنواع الأشجار ويكثر بها السكان لكثرة الثمار وتنتشر العمارة وتتسع الإدارة) [٣] .

لقد استطاع ابن السنوسي أن يؤسس تنظيمًا هرميًّا للحركة فكان تشكيله كالآتي:

١- شيخ الطريقة أو رئيس النظام وهو الرئيس الأعلى لها .

٢- مجلس الإخوان (الشورى)، ومهمته مساعدة شيخ الحركة في تعيين شيوخ الزوايا.

٣- شيوخ الزوايا .

٤- الإخوان ومهمتهم كسب الأعضاء العاديين إلى الحركة [٤] كما أصبحت في أواخر حياة ابن السنوسي زاوية الجغبوب تمثل عاصمة الحركة، وجعل في البناء التنظيمي في الحركة زاويا رئيسية أو زاويا عليا، يرأسها شيوخ الحركة السنوسية الكبار، كزاوية أبي قبيس بمكة، وزاوية البيضاء، وزاوية درنة، وزاوية بنغازي، وكان لها الإشراف على ما حولها من الزوايا، كما كانت مجالس الدرس فيها أعلى مستوى وأكثر تنوعًا واستجابة للحاجات الدينية والعقلية [٥] .

---

(٢) انظر: السنوسي الكبير، ص (١٤٣) .

(١) انظر: الحركة السنوسية، ص (٢٣٧) .

(٢) المصدر السابق نفسه، ص (٢٣٧) .

(٣) انظر: تاريخ ليبيا المعاصر، محمود عامر، ص (١٣٣) .

(٥) انظر: تاريخ المغرب العربي الحديث (ليبيا) ، محمود عامر، ص (١٣٣).

استطاع ابن السنوسي أن يربط بين جميع زوايا الحركة برباط متين من المخابرات والمخاطبات ولجان التفتيش، وفق نظام دقيق تلتقى أسبابه عند الزاوية الكبرى المركزية، وكانت تلك الزاوية قد انتشرت في تونس والجزائر وبرقة ومصر والحجاز واليمن، والسودان الغربي (تشاد)، وكانت تقارير هذه البلاد ترد أولاً إلى بنغازي ثم ترسل إلى الجغبوب بواسطة الهجن وبسرعة عظيمة (١) .

وكانت العقلية التنظيمية عند ابن السنوسي تهتم بالتخطيط السليم، والإدارة الناجحة، وكان تخطيطه يعتمد على تحفيزه لأتباعه والاستعداد لما سيواجههم في المستقبل وكان فهمه لقوله تعالى ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ [سورة القصص، آية ٧٧] . وقوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ﴾ [سورة الأنفال، آية ٦٠] .

وجعلت من الزوايا خلايا حية تمتد منها الحياة الصالحة إلى سائر جسم الأمة الإسلامية، فأصبحت مراكز تربية وتهذيب وتعليم، وإيقاظ للعاطفة الدينية السليمة، وتوجيه الحياة العاملة توجيهًا سديدًا ؛ فأصبحت مراكز إصلاح إنساني متكامل، من الناحية الدينية والعقلية والاجتماعية والاقتصادية (٢) .

إن البناء التنظيمي للزوايا في الحركة السنوسية يدلنا على أن ابن السنوسي استفاد من سنة الأخذ بالأسباب استفادة كبيرة، وكان مقتنعًا بأن نهوض الأمة يستلزم من العاملين من أجل هذا الهدف أن يستوعبوا سنة الأسباب، وأن يحسنوا التعامل معها، بحيث يستطيعون أن ينزلوها على أرض الواقع .

إن مفهوم التوكل عند ابن السنوسي، يعني الأخذ بالأسباب المادية المتاحة مع الاعتماد على الله سبحانه وتعالى، ولذلك استطاع أن يبني البناء التنظيمي البديع المتين، وفق أسس ونظم رائعة وإليك تفصيلها:

---

(١) انظر: السنوسية دين ودولة، ص (٥٠) .
(٢) انظر: دراسات وصور، ص (٢٨٦) .

أولاً: الأسلوب الذي تبني به الزاوية:

تبني الزاوية بالاتفاق بين أحد القبائل التي ترغب في بنائها مع ابن السنوسي ويكون البناء وفق الأسلوب الآتي:

١- تبنى الزاوية في قطعة من الأرض المختارة بالاتفاق مع القبيلة التي تملك الناحية ومع ممثل ابن السنوسي أو ابن السنوسي نفسه .

٢- يعين ابن السنوسي لهذه الزاوية رئيسًا يلقب بـ (الشيخ) إذا كانت الزاوية قد بنيت، وأن لم تكن فيختط الشيخ زاويته في الموضع المتفق عليه وتكون أرضها وقفًا، وعادة تكون على ربوة عالية تشرف على ما حولها ويتوخى فيها المناخ الصحي [١] .

٣- تكون تكاليف بناء مسكن الشيخ والمسجد والمدرسة من الأهالي .

٤- للزاوية حرم كبير يحيط بها من الجهات الأربع ؛ يكون آمنًا لمن دخله واستجار به، ولا يجوز أن يطلق داخله الرصاص، أو يشهر السلاح، وكذلك المشاجرة وإعلاء الصوت بالغناء أو الخصام، كما يمنع فيه رعاية الحيوانات [٢] .

٥- من المألوف أن يرسل ابن السنوسي عدداً من (الإخوان) بينهم من يشتغل بالبناء والعمارة والتجارة وكل المهارات التي تحتاج إليها القبيلة في تشييد الزاوية [٣]، ومن الطبيعي أن يستغرق البناء وقتًا يطول أكثر من العام ومن ثم يهتم الشيخ ورجال القبيلة ببناء المسجد أولاً ثم دار لإقامة الشيخ وأسرته، ويتبع ذلك استكمال بقية البناء لتشمل الزاوية في النهاية بيوتًا لوكيل الزاوية ومعلم الأطفال ومساكن للضيوف والخدم ومخزنًا لحفظ المؤن وإسطبلاً وبستانًا ومتجرًا على الأقل وحجرة خاصة بالفقراء الذين لا عائل ولا مأوى لهم، وفرنًا لسد حاجة السكان بالخبز [٤]، وتقوم حولها مبان أخرى يقوم بإنشائها أغنياء الأهالي ليأووا إليها في موسم الصيف، ويكون لها متسع من الأراضي الزراعية والآبار الجوفية والصهاريج لحفظ الماء [٥] .

---

(١)، (٢) انظر: السنوسي الكبير، ص (٣١) .
(٣) انظر: المجتمع الليبي، ص (٣١٤) .
(٤) انظر: السنوسي الكبير، ص (٢٤) .
(٥) المصدر السابق نفسه، ص (٢٥) .

ثانيًا: مواقع الزوايا:

تميزت مواقع الزوايا، بصفات سياسية وتجارية، وعسكرية ؛ فمن الناحية السياسية نجد الزوايا تنشر في الدواخل أكثر من انتشارها في السواحل، وذلك راجع إلى حرص ابن السنوسي على الابتعاد عن نفوذ السلطة الحكومية، ولذلك فضل ابن السنوسي أن يتوغل بزواياه في الصحراء، وحرص على أن يوضح غرضه الدعوي من بناء الزوايا لسلطات الحكم العثماني في ليبيا تفاديًا للصدام بها، فكتب إلى مصطفى باشا حاكم فزان عند بناء زاوية هناك: (أن الزاوية في الحقيقة إنما هي بيت من بيوت الله ومسجد من مساجده، والزاوية إذا حلت بمحل نزلت فيه الرحمة، وتعمر بها البلاد ويحصل بها النفع لأهل الحاضرة والبادية؛ لأنها ما أسست إلا لقراءة القرآن، ولنشر شريعة أفضل ولد عدنان) (١) . وأوضح نفس الغرض الديني للزاوية للمشير محمد أمين باشا والي طرابلس الغرب العثماني فقال: (وأما نحن فقد ألفنا ما اعتدناه ورضيت به نفوسنا فنريد بذلك أن تكون تلك العمارة مستمرة ونفوس سكانها مستقرة، ليحصل المقصود منها ويدوم من تعلم العلم وتعليمه وإقراء القرآن وتفهيمه، وإقامة شعائر الدين للوافدين عليها والمقيمين بها) (٢) .

وإلى جانب الأهمية السياسية لمواقع الزوايا، فقد كانت لهذه المواقع أهمية تجارية واقتصادية بصفة عامة، فقد أقيمت معظم الزوايا في طريق تجارة القوافل، وكان هناك ثلاثة طرق رئيسية في الأراضي الليبية الطريق الأول للقوافل يتجه جنوبًا من الساحل الليبي عبر واحة فزان إلى بحيرة تشاد، والطريق الثاني ينعطف جنوبًا غربًا عبر غدامس وغات إلى تمبكتو، والطريق الثالث يسير جنوبًا شرقًا عبر واحة الجفرة ثم سواكن وزيلا إلى واداي ودارفور الغني بخصبه وثروته، والمتتبع لمواقع هذه الزوايا في الأراضي الليبية مثلاً يلاحظ ارتباطها بطرق قوافل التجارة مما جعل ابن السنوسي يستخدم زواياه والقبائل التي توجد الزوايا في أراضيها لاستغلال التجارة وتنشيطها،

---

(١) انظر: السنوسي الكبير، ص (٢٤) .
(٢) المصدر السابق نفسه، ص (٢٥) .

مما كان له أثر كبير في تحريك عجلة البـلاد الاقتصادية، بسبب دور الزوايا في تشجيع تجارة القوافل التي كانت تعـتبر حتى بداية القرن العشرين موردًا هامًـا في حياة البلاد الاقتـصادية[١]، زد على ذلك الاهتمـام بالزراعة الذي حث عليـه ابن السنوسي أهل القبيلة أو القبائل الواقعة في أراضيها الزاوية أو الزوايا [٢] .

ولا تقل الأهمية العسكرية لمواقع الزوايا عن الأهميتين السياسية والاقتصادية فقد وجدنا معظم الزوايا تقـام على مناطق مرتفعة حصينة حتى يمـكن للإخوان السنوسية الدفاع عنها ضد المغيرين من الداخل أو الأعداء من الخارج، ومن ثم بنيت الكثير من الزوايا على أنقاض الأطلال الإغريقيـة والرومانية فيما مضى والعثمـانيين فيما بعد . من الضروري بناء مـحطات وقرى لتـثبيت سيـادتهم بصد الهـجمات التي تقـوم بها القبائل المتوغلة في الصـحراء، هذا إلى جانب أن ابن السنوسي اتبع في إنشاء الزوايا نظامًا خاصًّا يدل على الأهميـة العسكرية للمـواقع التي اختارها للزوايا، فـبدأ من مواقع على شاطئ البحر المتوسط وبنى بـهذه المواقع الحصينة زوايا تبعد كل زاوية عن التي تجاورها مسافة ست ساعات، ثم أنشأ خلفـها زوايا مقابلة لها تبعد كل منها عن الأخرى المسـافة نفسـها، حتـى إذا هوجمت الزاويا الأمامـية التي بالشـاطئ استطاع الأخوان وأهل الزاوية أن ينتقلوا بسـهولة إلى الزوايا الخلفية [٣]، وبمعنى آخر استطاع ابن السنوسي أن يقيم من الزوايا خطوط دفاع متـتالية تساند الخط الثاني الخط الأول، ويساند الخط الثـالث الخط الثاني، وهكذا، وكل هذا تم بدون أن يثـير ابن السنوسي ثائرة أو شكوك الحكومة العثمانية [٤] .

يقـول بريتشـارد: (إن من درس توزيع الزوايا السنوسـيـة في برقة يلاحظ أنهـا أقيمت وفق خطة سـياسية اقـتصادية، فقد بنى عـدد كبير منها على مـنشآت يونانية ورومانية، وأسست على طرق القوافل الهامة وفي مواقع دفاعية قوية) [٥]

---

(١) انظر: دراسات في التاريخ اللوبي، مصطفى بعيو، ص (٦٠) .

(٢) انظر: في تاريخ العرب الحديث، ص (٢٥٨) .

(٣) انظر: السنوسية دين ودولة، ص (٢٢) .

(٤) انظر: في تاريخ العرب الحديث ص (٢٥٨،٢٥٩) .

(٥) انظر: عشر سنوات في بلاط الأندلس، ص (٧٨) .

وقال شكيب أرسلان: (وأغلب هذه الزوايا مختار لها أجمل البقع وأخصب الأرضين وفيها الآبار التي لا تنزح من كثرة مائها، وفي الجبل الأخضر هي بجانب عيون جارية وأنهار صافية، وقلّ إن مررت بزاوية ليس لها بستان أو بساتين، فيها من كل أنواع الفواكه) (١) .

ثالثًا: وظائف الزاوية:

كانت الأعمال التي تقوم بها الزوايا كالآتي:

١- التنفيذ العلمي لأحكام ومبادئ الحكم الشرعي بين المواطنين، والتربية الدينية والخلقية للأتباع والإخوان وإعداد الدعاة .

٢- الدعوة إلى الالتزام بالفضائل وتجنب الرذائل والقدوة الحسنة التي وجدها الناس في شيوخ الزوايا .

٣- الاهتمام بدعوة الشعوب الوثنية وهذه وظيفة الزوايا المتغلغلة في الصحراء الكبرى والتي وصلت في قلب إفريقيا الغربية والسودان ولقد اهتدت هذه القبائل إلى الإسلام طائعة مختارة .

٤- تنقية الإسلام مما علق به على يد الغلاة من المتصوفة من بدع وتعاليم تبعده عن سماحة عقيدته، وأصوله المحكمة .

٥- قامت بدور تعليمي، فقد كانت أشبه بالمراكز الإسلامية المنتشرة في العالم، وكانت الزاوية تمثل مدرسة قرآنية لتحفيظ الأطفال القرآن الكريم ومبادئ الدين الإسلامي واللغة العربية، ومن يتميز من الأطفال يلتحق بعاصمة الزوايا سواء كانت البضاء أو الجغبوب التي صارت مناخ العلوم ومنبع القرآن الكريم، والتي حوت مكتبتها ثمانية آلاف مجلد من تفاسير وأحاديث وأصول وتوحيد وفقه وغير ذلك من العلوم المعقولة والعلوم الطبيعية (٢) .

---

(١) انظر: حاضر العالم الإسلامي، (١ / ٢٩٨) .

(٢) انظر: في تاريخ العرب الحديث، ص (٢٦٢) .

وكانت المناهج التربوية في الزوايا تشتمل على جميع العلوم الإسلامية من تفسير، وحديث، وفقه، وأصول الفقه، والفرائض، والتصوف، والتوحيد والنحو والصرف والبلاغة والأدب وغيرها .

٦- كانت الزوايا تدرب تلاميذها على إتقان الحرف والصناعات، مثل صناعة البارود والأسلحة .

٧- قامت الزوايا بدور اجتماعي مهم، ألا وهو ماضمنته للقبائل من أمن وطمأنينة ومصالحة بين القبائل، وتشجيعها على الاستقرار، إذ بحكم استقرار هذه الزوايا اضطرت كل قبيلة أن تحافظ على صلتها الدائمة بزاويتها الخاصة بها، وقد اقتضى منها هذا الموقف عدم البعد عنها حتى يسهل لها الاتصال بها كلما دعت الضرورة إلى ذلك، وبمرور الزمن تعودت القبيلة نوعًا من حياة الاستقرار والإقامة بعد أن كانت لا تعرف لذلك سبيلاً .

٨- شجعت الزوايا الحركة التجارية والزراعية، وعمرت الطرق بالقوافل المحملة بالمواد والسلع، وكانت تقوم بتقديم مساعدات وتسهيلات لراحة المسافرين التجار، مما شجع على التبادل التجاري بين منتجات الزاوية وبين ما تحمله القوافل من سلع لا تتوفر في أرض الزاوية .

٩- قامت الزوايا بدورها الجهادي في مواجهة الغزو الفرنسي المتقدم وسط إفريقيا وفي الكفاح ضد الاحتلال الايطالي في ليبيا، ولولا الله ثم استعداد الزوايا الجهادي لما استطاع الليبيون أن يصمدوا ضد إيطاليا أكثر من عشرين سنة [١] .

رابعًا: السلطة في الزاوية:

تتألف السلطة في الزاوية من شيخ الزاوية وهو المسئول الأول، ومن مجلس يضم وكيل الزاوية وشيوخ وأعيان القبيلة المرتبطة بها ووجهاء المهاجرين، ومهمة هذا المجلس هي النظر في مشاكل الأهالي وفض المنازعات، وشيخ الزاوية يطلق عليه

(١) انظر: في تاريخ العرب الحديث، ص (٢٦٣، ٢٦٤) .

اسم المقدم - وهو كما يقول أرسلان (القيم على الزاوية الذي يتولى أمور القبيلة ويفصل الخصومات ويبلغ الأوامر الصادرة من رئيس النظام، ويليه وكيل الدخل والخرج وإليه النظر في زراعة الأراضي وجميع الأمور الاقتصادية، وبالإضافة إلى هذين هناك الشيخ الذي يقيم الصلاة في مسجد الزاوية ويعلم أطفال القبيلة ويعقد فيها عقود النكاح ويصلي على الجنائز) [١] .

ولا يخطب هذا الشيخ الجمعة لأنها من مهام شيخ الزاوية (مقدمها)، ومن مهام شيخ الزاوية التي ذكرها بريتشارد (هو الذي يمثل رئيس النظام، ويقود رجال القبيلة في الجهاد، ويصل بين القبيلة ورجال الإدارة العثمانيين، ويقوم بضيافة المسافرين ويشرف على حصاد الزرع ويؤم صلاة الجمعة ويساعد في الوعظ والتعليم) [٢] .

خامسًا: طريقة فض المنازعات في الزاوية:

يتخذ رئيس الزاوية مجلسًا من الشيوخ والأعيان، فيدرسون القضية من كل وجوهها، فما كان يفض منها بطريقة شرعية يصدر رئيس الزاوية التي يتولى فيها منصب القضاء الحكم في القضية، وما كان يفض بطريقة التقاليد المتبعة والعادات فيحسم أيضًا بذلك، ومنها ما يفض بطريقة الصلح فيتفق المجلس على ما يجب إجراؤه ويصبح الأمر نافذ المفعول . وكل مشكلة عويصة تحدث بين القبائل ويخشى بسببها وقوع الفتن والفساد يتعاون رئيس الزاوية بشيوخ القبائل وأعيانها ورؤساء الزوايا أو الزاوية المتاخمة له ويضرب لذلك موعد يحدد زمانه ومكانه وهناك يحسم بدون عناء، وما صعب من ذلك وتشعبت المداولة فيه، والأخذ والرد بين رؤساء الزاوية والشيوخ يرفع إلى الجغبوب حيث يصدر القرار النهائي [٣] .

وقد عثر المؤرخ أحمد الدجاني على وثيقة بتاريخ ٩ رجب ١٢٩٧هـ تتحدث عن خصام وقع بين أهالي هون وسوكنه استطاعت زاوية هون السنوسية أن تزيل

---

(١) انظر: حاضر العالم الإسلامي (١ / ٢٩٨) .

(٢) انظر: عشر سنوات في بلاط الأندلس، ص (٨٠) .

(٣) انظر: المجتمع الليبي، ص (٣١٥) .

الأشكال، والوثيقة مقدمة من ثمانية عشر رجلاً من أعيان هون إلى متصرف فزان يخبرونه بانتهاء الخلاف [١] .

سادسًا: أراضي الزاوية:

كانت أراضي الزاوية موقوفة عليها فلا تباع ولا تشترى وتبقى مرتبطة بالزاوية . ويتم وقفها عادة بعد امتلاكها الذي يكون عن طرق مختلفة، منها الهبة والتبرع ومنها الشراء ومنها إحياء الأراضي البور، وإصلاح الآبار الخربة، ومنها نزعُ المواقع المتنازع عليها بين الأفراد والجماعات برضا المتخاصمين وتحويلها للزاوية [٢] وقد ذكر المؤرخ الدجاني إحدى الرسائل التاريخية تبين كيف تتحول الأرض المحيطة بالزاوية إلى وقف . والوثيقة هي عبارة عن رسالة بعث بها أحد الإخوان إلى أحد علماء طرابلس يحدثه فيها عن بعض مسائل تتعلق بالحركة، ويرد فيها «وأيضًا نخبركم أنه في محل ببرقة يقال له أجدابية قصرين معلومات، والعرب الذين بجوار ذلك هم المغاربة وزاوية راغبين في الأستاذ أن ينشئ لهم زاوية هناك، وكتبوا حججًا في إعطاء تلك الأرض ومهدوا إلى كل المشايخ وأرسلوا منهم واحد مخصوص إلى حضرات جنابه رضي الله عنه (يعني ابن السنوسي) [٣] والقصد لا يتعدى على الأرض، وتاريخ الرسالة ١٥ محرم ١٢٧٦م أي قبل وفاة ابن السنوسي بشهر، فالأرض في هذه المثل أعطيت للزاوية هبة وتبرعًا من مشايخ القبيلتين، ثم صدر فيها مرسوم بتحويلها إلى وقف [٤] . وكانت مساحة أراضي الزاوية كبيرة نسبيًا وتصل أحيانًا إلى «٢٥٠٠» هكتار بعضها مزروع والبعض الآخر يترك للرعي . وقد ذكر ريتشارد أن مجموع أراضي الزاوية في برقة يبلغ نصف مليون هكتار [٥].

ويقوم بزراعة الأرض سكان الزاوية تحت إشراف شيخها ويساعدهم في الزرع

---

(١) انظر: الحركة السنوسية، ص (٢٣٩) .

(٢) المصدر السابق نفسه، ص (٢٤٠) .

(٣) انظر: دار المحفوظات بطرابلس نقلاً عن الحركة السنوسية، ص (٢٤١) .

(٤) المصدر السابق نفسه، ص (٢٤١) .

(٥) انظر: عشر سنوات في بلاط طرابلس، ص (٧٧) .

والحصاد رجال القبيلة، وقد ذكر شكيب أرسلان أن من عادة سكان الزوايا أن يتبرع كل فرد من أفراد القبيلة بحراثة يوم وحصاد يوم ودراسة يوم في أرض الزاوية، ولذلك يسهل العمران بدون نفقة كبيرة (١) .

وكانت الزوايا مختلفة من حيث الكبر وعدد السكان، وذلك بحسب أهميتها، وكان يبلغ عدد السكان في أصغر الزوايا حوالي الخمسين بما في ذلك الأطفال والنساء، ويصل العدد في زوايا إلى المائة، أما الزوايا الكبيرة، كالجغبوب فيتجاوز الألف، ولم تكن «الزاوية» مقصورة في تنظيماتها على هذا العدد من سكانها وإنما على القبيلة التي تقيم في منطقتها، فسلطاتها تسيِّر شئون أفراد القبيلة الذي يبلغ عددهم أضعاف عدد سكان الزاوية (٢) .

سابعًا: موارد الزاوية:

تتكون موارد الزاوية المالية من الزراعة وتربية المواشي والهبات الخيرية والزكاة الشرعية(٣) . وقد كانت الهبات الخيرية تقدّم من أهالي القبيلة . كما كانت الزاوية تجبي الزكاة من القبيلة رسميًّا، بعد أن أعفت السلطات العثمانية الزوايا من الضرائب، وأعطت لها حق جباية الزكاة، وكانت «الزاوية» تنفق بعض هذه الموارد على احتاجاتها وفق نظام معروف فيها، أما ما يتبقى فيبعث إلى المركز الرئيسي حيث يتصرف فيه رئيس النظام (٤) .

ثامنًا: التعليمات الخاصة بنظام الزوايا:

كانت هناك تعليمات وأعرف وعادات تلتزم الزوايا بتطبيقها، ومن ذلك ما ذكره الأشهب من أن شيخ الزاوية لا يتزوج إلا بعد استشارة رئيس النظام وأخذ موافقته وتكون الزاوية ملزمة بنفقات هذا الزواج والإنفاق على الزوجة وأولادها . أما في

---

(١) انظر: حاضر العالم الإسلامي (١ / ٢٩٨) .
(٢) انظر: الحركة السنوسية، ص (٢٤٢) .
(٣) انظر: السنوسي الكبير، ص (٣٣) .
(٤) انظر: الحركة السنوسية، ص (٢٤٢)، ومعنى رئيس النظام شيخ الطريقة.

حالة ما إذا تزوج الشيخ بأخرى فنفقات ذلك على حسابه الخاص، كذلك حدد بدقة ما يأخذه شيخ الزاوية سنويًّا :

١- يتألف كساء شيخ الزاوية سنويًا من عشر بدل وتتكون البدلة من (قميص وسروال وغطاء الرأس وحذاء) شريطة أن لا يكون منها حرير أو جوخ، وكذلك حرامين صيفي ومثلهما شتوي وبرنس، ولشيخ الزاوية الحق في شراء سلاحه وفرسه الخاصين به من أجود الأنواع، وله أيضًا مهر ونفقات زوجة واحدة، وإذا ما أراد أن يتزوج مثنى أو ثلاث أو رباع فيكون ذلك على نفقته الخاصة .

٢- لشيخ الزاوية الحق في تعيين معلم الصبيان والمنادي للصلاة (المؤذن) وعدد من الخدم والعمال حسب مقتضيات الضرورة وتكون نفقاتهم وأجورهم من موارد الزاوية .

٣- من واجبات شيخ الزاوية إحضار الطعام الكافي لعشرة أشخاص يوميًّا في موعدي الغذاء والعشاء وذلك باسم الضيوف المحتمل مجيئهم للزاوية، فإن نقص هذا العدد فعلى شيخ الزاوية أن يكمل العدد من الفقراء ومجاوري الزاوية، وإذا تجاوز الضيوف هذا العدد فعليه إحضار ما يكفي في وقته، ولا يتجاوز الطعام نوعًا واحدًا إلا في الحالات الخاصة .

٤- إذا تجاوز عدد الضيوف خمسة أشخاص ورأى الشيخ أن ينحر لهم فله ذلك.

٥- لشيخ الزاوية الحق في أن يختص بالعشر من محصولات الزاوية وذلك للإنفاق منها في حالاته الخاصة، وفيما يترتب عليه لأقاربه الذين لا حق لهم من موارد الزاوية .

٦- على الشيخ أن يحتفظ بما يكفي لنفقاتها سنويًّا من مجموع الواردات وإرسال الباقي منها إلى المركز الرئيسي .

٧- لا حق لشيخ الزاوية أن يضيف أقاربه على حساب الزاوية، وتفاديًا لضيق ذات يده فقد منح عشر الواردات، وسمح له بامتلاك المواشي وتعاطي الزراعة لحسابه

الخاص كي يواجه بذلك نفقاته الخاصة التي لا حق له في أخذها من أموال الزاوية ، وله الحق في أن ينحر لنفسه وزوجته الأولى وأولاده منها شاتين أسبوعيًّا .

٨- للعمال وخدم الزاوية الحق في أكل اللحم كل يوم جمعة من الأسبوع .

٩- لكل زاوية حدود تفصل بينها وبين الزاوية المتاخمة لها، ولا يجوز لشيخ الزاوية أن يتعدى هذه الحدود .

١٠- على شيوخ الزوايا أن يجتمعوا سنويًّا (كلهم أو بعضهم) إذا ما رأوا وجوب ذلك، وعليهم أن يتشاوروا في تحديد موعد الاجتماع ومكانه إن لم يكن أحد شيوخ الزوايا هو الداعي لعقد الاجتماع .

١١- إذا التجأ شخص أو أشخاص إلى إحدى الزوايا لسبب ما فعلى الزاوية والحالة هذه حمايته والسعي لإزالة السبب الذي دفعه للالتجاء بموجب نصوص الشريعة أو ما يتفق عليه من العرف والتقاليد المتبعة .

١٢- تتكون موارد الزاوية من الزراعة وتنمية المواشي والهبات الخيرية والزكاة الشرعية [١] .

تاسعًا: أسماء بعض الزوايا التي أنشأها ابن السنوسي:

١- زاوية أبي قبيس بمكة المكرمة وهي أولى الزوايا السنوسية على الإطلاق، تم تأسيسها عام ١٢٤٢هـ، وكان أول شيخ لها العلامة عبد الله التواتي، ومن بين من تولى مشيختها السادة: مصطفى الغماري، حامد غانم المكاوي، علي حامد، الشارف حامد، الصادق السنوسي حامد .

٢- زاوية المدينة المنورة، تم إنشاؤها عام ١٢٦٦هـ وكان أول شيخ لها هو العلامة محمد الشفيع، ومن بين من تولى مشيختها، العلامة مصطفى الغماري، ومحمد عبد الله الزاوي، عبد السلام فركاش .

٣- زاوية جدة (الحجاز) .

---

(١) انظر: السنوسي الكبير، ص (٣٢،٣٣) .

٤- زاوية الطائف (الحجاز) .

٥- زاوية منى (الحجاز) .

٦- زاوية بدر (الحجاز) .

٧- زاوية البيضاء (برقة) أنشئت عام ١٢٥٧هـ وهي أول مركز رئيسي في ليبيا وكان أول شيخ لها هو العلامة محمد بن حمد الفيلالي ومن بين من تولى مشيختها الأعلام ؛ عمران بن بركة الفيتوري، حسين الغرياني، محمد بن إبراهيم الغماري، العلمي الغماري، محمد العلمي الغماري .

٨- زاوية مارة (برقة) وكان أول شيخ لها هو العلامة عمر الأشهب، وكان من بين من تولى مشيختها ؛ أحمد علي أبو سيف، أحمد بن إدريس الأشهب، عبد الله أبو يوسف .

٩- زاوية درنة (برقة) وكان أول شيخ لها هو العلامة عمر الأشهب، ومن بين من تولى مشيختها ؛ مفتاح خوجة، السنوسي الغرياني عبد الرحمن العجال .

١٠- زاوية الجوف (واحة الكفرة) كان ابن السنوسي قد عهد ببنائها إلى المشايخ الحاج مصطفى أبو شايدة، الحاج محمد أبو حليقة، عقيلة الحليق وذلك عقب إجلاء قبائل التبو البربرية بضغط من قبائل زوية، العربية، وكانت الكفرة يومذاك مأوى للدعارة واللصوص ومعقل حصين لقطاع الطريق، وكان يتناوب غزوها ثلاث قبائل كل منها يدعي ملكيتها وهي:

قبائل الجهمة من مصر، وقبائل التبو من شمال السودان، وقبائل زوية من برقة وبذلك فقد كونت خطرًا على السابلة وقوافل التجارة إلى أن أنشئت بها زاوية السنوسية ؛ فأصبحت دار أمن وسلام ومشرق الهداية والعرفان، وفي وصفها قال العلامة محمد عبد الله السني من قصيدة عصماء امتدح بها محمد المهدي السنوسي:

طابت وطاب بها المأوى لذي شجن ... دار السلامة للإسلام مهتجر

تأوي الوفود لها من كل ناحية ... مأوى الحجيج إذا ما جاء يعتمر

وكان أول شيـــخ لها هو عــمر أبو حواء الفضيل، ومن بين من تولى مشيــختها عبد الهادي الفضيل ثم محمد عمر الفضيل .

١١- زاوية قـفنطة (برقة) وكـان أول شيخ لـها هو المخـتار ابن عـمور وبقـيت مشيختها في عقبه .

١٢- زاوية شحات (برقة) أنشئت عام ١٢٦١هـ وكان أول شيخ لها هو العلامة مصطفى الدردفي، ومن بين من تولى مشيختها، محمد الدردفي، رافع بدر فركاش، مصطفى محمد الدردفي .

١٣- زاوية العرقوب (برقة) وكان أول شيخ لها هو محمد الجبالي .

١٤- زاوية مسوس (برقة) وكان أول من تولاها بالوكالة الشيخ فهيد العاقوري، وكان أول شيخ لهـا هو أحمد على أبو سيـف، وفي سنة ١٢٧١هـ تولى مشيخـتها العلامة عمر الأشـهب إلى سنة ١٢٩٧هـ حيث توفاه الله فتولى مشيخـتها ابنه السيد السنوسي الأشهب وبعد وفاته سنة ١٣٣٢هـ تولى مشيخـتها ابنه محمد يحيى، وفي سنة ١٣٦٧هـ تولى مشيختها محمد عثمان أبو عريقب .

١٥- زاوية الطيلمون (برقة) كان أول شيخ لها هو مصطفى المحجوب ثم العلامة على المحجوب، فالسيد أحمد محمد المحجوب .

١٦- زاوية القـصور (برقة) كـان أول شيخ لهـا هو العلامـة محـمد المبـخوت التواتي، ثم محمد مقرب حدوث، فالشهيد الكبير عمر المختار .

١٧- زاوية المرج (برقة) كـان أول شيخ لها هـو أحمد بن سـعد، فالسـيد علي العابدي، فالعلامة مـحمد السكوري، فالعلامة محمد بن عبـد الله التواتي، فعمران السكوري، فابنه أحمد .

١٨- زاوية بنغازي (برقـة) وكان أول من تولى مشـيختهـا هو العلامة عـبد الله التواتي، فالعلامة عبد الرحيم بن أحمد المحجوب، وكان من تولى مشيختها السادة: محمـد أبو القاسم العيسـاوي، فالسيد صالح العـوامي، فالعلامة أحـمد أبو القاسم العيساوي .

١٩- زاوية مرزق (فزان) كان أول شيخ لها هو العلامة أحمد أبو القاسم التواتي.

٢٠- زاوية واو (فزان) وكان أول شيخ لها هو العلامة أحمد أبو القاسم التواتي، ومن بين من تولى مشيختها بالوكالة العلامة، محمد بن الشفيع ثم أسندت مشيختها إلى محمد على بن عمر الأشهب، فابنه نجم الدين .

٢١- زاوية زويلة (فزان) كانت تحت إشراف العلامة أحمد أبو القاسم التواتي .

٢٢- زاوية هون (واحة الجفرة) كان أول من تولى مشيختها أحمد بن علي بن عبيد .

٢٣- زاوية مزدة (طرابلس) كان أول شيخ لها هو العلامة عبد الله السني، وقد بقيت مشيختها في عقبه .

٢٤- زاوية طبقة (طرابلس) وكان أول شيخ لها هو العلامة محمد الأزهري وبقيت مشيختها في عقبه .

٢٥- زاوية العزيات (برقة) أنشئت سنة ١٢٧٠هـ وكان من بين من تولى مشيختها عمر جالو .

٢٦- زاوية المخيلي (برقة) وكان أول شيخ لها هو العلامة الحسين الحلافي وتعاقب ورثته على مشيختها .

٢٧- زاوية تازربو (واحات الكفرة) وكان من بين من تولى مشيختها العلامة محمد المدني .

٢٨- زاوية ربيانة (واحات الكفرة) وكان أول شيخ لها هو حسين بازامه وبقيت مشيختها في عقبه .

٢٩- زاوية دريانة (برقة) وكان أول شيخ لها هو العلامة إبراهيم الغماري فابنه السيد حسن، فالسيد محمد الحسن الغماري .

٣٠- زاوية سيوة (مصر) كان أول شيخ لها هو العلامة أحمد أبو القاسم التواتي.

٣١- زاوية الزيتون (سيوه) تابعة لمشيخة أحمد أبو القاسم التواتي .

٣٢- سوكنة (واحات الحضرة) .

٣٣- زاوية الرجبان (طرابلس) وكان أول شيخ لها هو العلامة أبو القاسم العيساوي وبقيت مشيختها في عقبه .

٣٤- زاوية الواحات البحرية (مصر) وكان أول شيخ لها هو العلامة محمد السكوري.

٣٥- زاوية الداخلة (مصر) وكان أول شيخ لها هو العلامة حسين الموهوب الدرسي .

٣٦- زاوية حوش عيسى (مصر) .

٣٧- زاوية الفيوم (مصر) .

٣٨- تونين غدامس (طرابلس) وكان أول شيخ لها هو الشريف الغدامسي .

٣٩- زاوية طلميثة (برقة) وكان من بين من تولى مشيختها محمد الكليلي .

٤٠- زاوية توكره (برقة) وكان من بين من تولى مشيختها، عبد الله الجيلاني، عبد الله عمر الفضيل، يونس الموهوب .

٤١- زاوية أم ركبة (برقة) وكان من بين من تولى مشيختها، علي بن عبد الله.

٤٢- زاوية الفايدية (برقة) وكان أول شيخ لها هو العلامة إسماعيل الفزاني وبقيت مشيختها في عقبه .

٤٣- زاوية ترت (برقة) وكان أول شيخ لها هو عبد القادر الغزالي وبقيت مشيختها في عقبه .

٤٤- زاوية أم الرخم (مصر) .

٤٥- زاوية النجيلة (مصر) .

٤٦- زاوية الحقنة (مصر) .

٤٧- زاوية دفنه (برقة) وكان أول شيخ لها هو العلامة حسين الغرياني وبقيت مشيختها في عقبه .

٤٨- زاوية أم الرزم (برقة) كان أول شيخ لها هو المرتضى فركاش فابنه المرتضى الثاني، فالأمين فركاش، فمحمد الأمين فركاش .

٤٩- زاوية مصراته (طرابلس) وكان أول شيخ لها خليفة شنيشح .

٥٠- زاوية زليتن (طرابلس) .

٥١- زاوية زلة (طرابلس) .

٥٢- زاوية الجريد (تونس) وكان أول شيخ لها هو العلامة محمد بن الصادق[١] .

هذه بعض المراكز الإصلاحية التي تمكنت من ذكرها والتي أنشئت في زمن ابن السنوسي، ولا أزعم أني أستطعت حصرها كلها، وهذا يدلنا على انتشار الحركة وتوسعها وإقبال الناس عليها، وقوة نظامها، وحسن إدارتها .

إن القدرة التنظيمية عند ابن السنوسي تظهر للباحث في ركيزتها الأولى ألا وهي نظام الزوايا، حيث طور الزوايا المتعارف عليه في الشمال الإفريقي .

إن ديننا الإسلامي حثنا على النظام في كل شيء، فلا بد إذًا من تعويد النفس وضبطها على النظام، فالمسلم لا يتربي تربية منظمة، إلا إذا كان في جماعة منظمة ذات ارتباط ونظام ودقة في كل شيء وفي كل أمر، كما أن هذه الجماعة لها هدف جماعي، يتحقق بتعاون الفرد وإخوانه في بوتقة الطاعة والنظام .

ويلاحظ الباحث أن جل الزوايا ترتكز في الصحارى، وهذا برجع إلى اهتمام ابن السنوسي بالبوادي، لأنه أراد أن يعمل بحرية بعيدًا عن متناول يد السلطة، فأوغل في الأماكن، ولأنه رأى في أهل البادية تربة خصبة يزرع فيها أفكاره

(١) انظر: السنوسي الكبير، ص (٣٣ إلى ٣٨) .

الإصلاحية ووجد فيهم نفوسًا متهيئة لحمل الدعوة، كما كانوا أكثر استجابة واندفاعًا من غيرهم لحمل تعاليم الحركة، لذلك وقع اختيار ابن السنوسي على برقة كمركز لنشاطه حيث كانت تقطنها عدة قبائل بدوية تحمست للدعوة الإسلامية وكانت مؤسسات الحركة تناسب البادية واحتياجات أهلها، فأوجد الزوايا السنوسية ونظمها لتكفي حاجات المحيطين بها التعليمية والقضائية، والاقتصادية، والسياسية، والتربوية، ولذلك نجحت الحركة في البوادي، ولم تنتشر الدعوة في المدن، فأهل المدن لم يكونوا بحاجة إلى مؤسسات الحركة، فعندهم المؤسسات الحكومية التي تؤدي لهم الخدمات التعليمية والقضائية والاقتصادية، والسياسية، ولذلك نلاحظ أن الزوايا التي أسست في المدن لم تكن تقوم بوظائفها، كما تقوم بها زوايا البادية، كما أنه كان دورها كحلقة وصل بين الحركة في البادية والحضر، كزوايا بنغازي، ودرنة، وطرابلس [١] .

إن الاهتمام بدعوة القبائل مهم جدًا، وحصر الدعوة في المدن وطبقات معينة من المجتمع يتنافي مع أصول دعوة الإسلام الخالدة ولذلك لا بد من الاهتمام بالبدو والأرياف وكل طبقات المجتمع لتوصيلها دعوة الله تعالى .

(.. كثيرًا ما حصرت الدعوة الإسلامية الحديثة في المدن حتى أن بعض العاملين في الحقل الإسلامي لا يعرفون شيئًا عن قرى مدينتهم ولا عن ريفها ولا عن القبائل البدوية الموجودة حولها إن كانت وهذا إخلال بواجب شرعي ..) [٢] .

(إن التخطيط للعمل الإسلامي للريف والقبائل البدوية مهمٌ جدًا وأعظم شيء نخدم به في هذا المجال هو العثور على ناس من أهل القرى ومن البدو يدرسون الدراسة الشرعية الإسلامية ليرجعوا إلى أهليهم دعاة، وإنه لأجر كبير أن يتولى بعض أغنياء المسلمين الإنفاق على أمثال هؤلاء، فهذا النوع من التخطيط يحقق [٣]

---

(١) انظر: الحركة السنوسية، ص (٢٦٤) .
(٢) انظر: جند الله تخطيطًا، ص (١٣٥) .
(٣) المصدر السابق نفسه، ص (١٣٥) .

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة، آية: ١٢٢] .

ومن التخطيط الذي ينبغي أن يسعى إليه أن توجد العلاقات والصداقات بين أهل المدينة وأهل الريف بحيث تكون زيارات متبادلة ينزل فيها عند أخيه الحضري وينزل الحضري فيها عند أخيه الريفي والأصل في هذا الحديث الشريف «زاهر باديتنا ونحن حاضرته» [1] .

إن زاهرًا الأشجعي صحابي جليل كان رسول الله ﷺ يحبه ويمازحه وهو من أهل البادية، وعندما يأتي للمدينة على ساكنها أفضل الصلاة والتسليم ينزل عنده .

لقد تحدث الدعاة عن ضرورة الاهتمام بالأرياف والقبائل والمقصود من الحديث أن أهل البادية أصحاب فطرة سليمة، ومحبة للدين عظيمة ويحتاجون للإرشاد والتوجيه، والتعليم، والتربية، ثم ينتظر منهم بعد ذلك خير عظيم في مجالات عديدة، وهذا ما حدث مع ابن السنوسي عندما اهتم بالقبائل والبوادي .

* ■ *

(١) المصدر السابق نفسه، ص (١٣٥) .

المبحث الثاني
المنهج التربوي

انتهج ابن السنوسي منهجًا تربويًّا استمده من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، ومن خبرته بالطرق الصوفية التي درس جلها، وانتقد أخطاءها، وعمل على طريقة خاصة يسلكها أتباعه وفي كتابه السلسبيل نلاحظ أنه كانت لديه ملاحظات على عدد من الطرق، وحدد معالم الطريقة التي تتقيد بالكتاب والسنة، إن ابن السنوسي كان يؤمن بالصوفية الموافقة للكتاب والسنة، والصوفي الحقيقي في رأيه من يتقيد بالكتاب والسنة، وقد قال في ذلك: «فاعلم أن سبيل القوم اتباع النبي ﷺ في الجليل والحقير وأعمالهم موزونة بميزان الشريعة» [١] .

وقد فصل رحمه الله تعالى في تدريج المريد في مراتب السلوك قال بعون الله وتوفيقه:

الخطوة الأولى: (يتعين على المريد أن يصحح عقيدته بميزان اعتدال أهل السنة والجماعة كثر الله سوادهم وأدام إمدادهم) [٢] .

ولقد بينت مجملها عندما تحدثت عن رسالة أبي زيد القيرواني كجزء من المنهج الذي كان يتعلمه أتباع الحركة السنوسية .

إن منهج أهل السنة والجماعة يبين المفهوم الصحيح لتوحيد الله عز وجل لأنه اعتمد على كتاب الله عز وجل وسنة رسوله ﷺ ، وقد تتبع علماء أهل السنة والجماعة نصوص الكتاب والسنة وخرجوا بالنتيجة التالية ألا وهي: أن توحيد الله سبحانه وتعالى يعني إفراد الله سبحانه وتعالي في توحيد ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، وقد قسموا التوحيد إلى ثلاثة أقسام وهي:

---

(١) انظر: الحركة السنوسية .

(٢) انظر: السلسبيل المعين في الطرائق الأربعين، ص (٨) .

١ - توحيد الربوبية:

ومعناه إفراد الله بالخلق والرزق والملك والتدبير والتصريف ولا يشاركه فيها أحد من خلقه وهذا مركوز في الفطرة لا يكاد ينازع فيه أحد حتى المشركين الذين بعث فيهم رسول الله ﷺ كانوا يقرون بذلك ولا ينكرون ولا يجعلون أحدًا من آلهتهم شريكًا لله في ربوبيته .

قال تعالى: **﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ﴾** [يونس: ٣١] .

وقال تعالى: **﴿قُل لِّمَنِ الأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٤) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ (٨٥) قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (٨٦) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ (٨٧) قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٨) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ﴾** [المؤمنون: ٨٤- ٨٩] .

ولكن لما وجد في الناس من ينازع في توحيد الله بالربوبية ويجعل لغير الله عز وجل شيئًا من الشركة معه في الخلق والرزق أو التدبير لم يهمل القرآن الكريم الاحتياج له بل قرره أبدع التقرير [١] في قوله تعالى: **﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾** [المؤمنون، آية: ٩١].

٢- توحيد الألوهية:

هو إفراد الخالق جل وعلا بالعبادة وإخلاص الدين له وحده [٢] .

قال تعالى:

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ (النحل: ٣٦) .

---

(١) انظر: مظاهر الانحرافات العقدية عند الصوفية، لإدريس محمد (١/ ١٩٥) .
(٢) المصدر السابق نفسه (١/ ١٩٩) .

وقال ﷺ: (أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله) (١) . ولهذا كان الصحيح أن أول واجب على المكلف شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله (٢) .

٣- توحيد الأسماء والصفات:

هو الإقرار بأن الله بكل شيء عليم وعلى كل شيء قدير، أنه الحي القيوم الذين لا تأخذه سنة ولا نوم له المشيئة النافذة والحكمة البالغة، وأنه سميع بصير رؤوف رحيم على العرش استوى وعلى الملك احتوى وأنه الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون إلى غير ذلك من الأسماء الحسنى والصفات العلى (٣) ، والقاعدة في هذا الباب عند أهل السنة أن يصفوا الله بما (وصف الله من نفسه وسماه على لسان رسول الله ﷺ سميناه كما سماه ولم نتكلف منه صفة ما سواه لا هذا ولا هذا لا نجحد ما وصف ولا نتكلف معرفة ما لم يصف) (٤) .

أما طريق الراسخين في العلم في هذا الباب: «والراسخون في العلم الواقفون حيث انتهى علمهم الواصفون لربهم بما وصف من نفسه التاركون لما ترك من ذكرها لا ينكرون صفة ما سمى منها جحداً ولا يتكلفون وصفه بما لم يسمع تعمقاً؛ لأن الحق ما ترك وتسميته ما سمى ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً﴾ [النساء: ١١٥] (٥) .

الخطوة الثانية:

(أن لا يقدم المريد على فعل شيء حتى يعلم حكم الله فيه، فيتعلم ما يحتاج إليه من المسائل الفقهية المتعلقة بظاهر البدن على مذهب من المذاهب الأربعة) (٦) .

---

(١) انظر: صحيح مسلم مع النووي (١/ ٢١٢) .
(٢) انظر: مظاهر الانحرافات العقدية عند الصوفية (١/ ٢٠١) .
(٣) انظر: مظاهر الانحرافات العقدية عند الصوفية (١/ ٢٠٤) .
(٤) مجموع الفتاوى لابن تيمية (٥/ ٤٤) .
(٥) المصدر السابق نفسه (٥/ ٤٦) .
(٦) انظر: السلسبيل المعين في الطرائق الأربعين، ص ٨ .

ولهذا كان أتباع الحركة السنوسية يتدارسون رسالة أبي زيد القيرواني في العقائد وفي الفقه المالكي، وأضاف ابن السنوسي بعض الكتب المهمة في هذا الباب، كصحيح البخاري، والموطأ وبلوغ المرام .

١- صحيح البخاري:

إن الإمام البخاري - رحمه الله - واحد من أعظم علماء هذه الأمة، الذين رفع الله لهم ذكرهم، وأجرى ألسنة الخلق بالثناء عليهم والدعاء لهم .

سبق الجميع في العناية بحديث رسول الله ﷺ، ووقف عمره عليه، فأصبح أمير المؤمنين في الحديث، وترك للمسلمين من بعده أصحّ كتاب بعد القرآن الكريم، كان آية في الحفظ، وغاية في الشجاعة والسخاء والورع والزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة [١] .

- مكانة الجامع الصحيح بين كتب السنة الستة:

اتفق علماء هذه الأمة على أن جامع البخاري أجل وأعظم من جميع كتب السنة .

قال العلامة القسطلاني: «أما فضله: فهو أصح الكتب المؤلفة في هذا الشأن، والمتلقى بالقبول من العلماء في كل أوان . فقد فاق أمثاله في جميع الفنون والأقسام، وخص بمزايا من بين دواوين الإسلام، شهد له بالبراعة والتقدم الصناديد العظام، والأفاضل الكرام، ففوائده أكثر من أن تحصى وأعزز من أن تستقصى»[٢] .

وقال البخاري: «ما وضعت في الصحيح حديثًا إلا اغتسلت وصليت ركعتين، وأرجو أن يبارك الله تعالى في هذه المصنفات» [٣] .

وقال ابن تيمية: «ليس تحت أديم السماء كتاب أصح من البخاري ومسلم بعد القرآن»[٤] .

---

(١) انظر: الإمام البخاري، د . تقي الدين الندوي، صفحة الناشر .
(٢) المصدر السابق نفسه، ص ٨٨ .
(٣) انظر: الإمام البخاري، ص ٨٨ .
(٤) المصدر السابق نفسه، ص ٨٩ .

إن كتاب الصحيح للبخاري جمع بين الفقه والحديث وعلوم متعددة . إن وضعه في المنهج التربوي عند ابن السنوسي يدل على حرصه على اتباع النبي ﷺ .

٢- موطأ الإمام مالك:

إن حب ابن السنوسي للإمام مالك بن أنس وكتابه الموطأ يظهر للباحث جليًا في المقدمة التي كتبها لطلابه، والتي تدلنا على قدرة ابن السنوسي في تعليم وتفهيم تلاميذه، فيقدم لهم المادة الغزيرة بأسلوب سلس بسيط مليء بالعلوم التاريخية والفقهية، والحديثة، والتربوية .

ولقد تحدث عن مدح العلماء للموطأ فقال: فاعلم أن كتاب الموطأ لإمام دار الهجرة المجمع على جلالته من أجل المصنفات، وأنفس المؤلفات (١) .

وعن محمد بن حرب المدني (.. ثم إن مالكًا عزم على تصنيف الموطأ فصنفه، فعمل من كان بالمدينة يومئذ من العلماء الموطآت، فقيل لمالك: شغلت نفسك بعمل هذا الكتاب، وقد شركك فيه الناس، وعملوا أمثاله، فقال: ائتوني بما عملوا، فأتى بذلك فنظر فيه، ثم نبذه فقال: لتعلمن أن لا يرتفع إلا ما أريد به وجه الله . قال فكأنما ألقيت تلك الكتب في الآبار، وما سمع لشيء منها بَعْدُ ذكرٌ يذكر ..) (٢) .

وذكر سبب وضعه فقال: فقد روى أبو مصعب أن أبا جعفر المنصور قال لمالك: ضع للناس كتابًا أحملهم عليه، فكلمه مالك في ذلك، فقال: ضعه فما أجد اليوم أعلم منك، فوضع الموطأ فما فرغ منه حتى مات أبو جعفر .

وفي رواية أن المنصور قال له: ضع هذا العلم ودوّن فيه كتابًا، وتجنب فيه شدائد ابن عمر، ورخص ابن عباس، وشواذ ابن مسعود وأقصد أواسط الأمور وما أجمع عليه الصحابة والأئمة (٣) ، وقد ذكر ابن السنوسي ما رأى في الموطأ من البَشائر فقال: عن مصعب بن عبد الله الزبيري قال: سمعت أبي يقول: كنت جالسًا مع مالك بن

---

(١) انظر: مقدمة الإمام مالك لابن السنوسي، ص ١٣ .
(٢) انظر: مقدمة الإمام مالك لابن السنوسي، ص ١٦ .
(٣) المصدر السابق نفسه، ص ١٧ .

أنس في مسجد رسول الله ﷺ ، إذ أتاه رجل، فقال: أيكم مالك؟ فقالوا: هذا، فسلم عليه واعتنقه وضمه إلى صدره، وقال: والله لقد رأيت رسول الله ﷺ البارحة جالسًا في هذا الوضع، فقال: ائتوني بمالك فأتى بك ترتعد فرائصك، فقال: ليس بك بأس يا أبا عبد الله، وكناك، وقال: اجلس، فجلست، قال: افتح حجرك، ففتحه فملأه مسكًا منثورًا وقال ضمه إليك وبثه في أمتي، قال: فبكى مالك وقال: الرؤيا تسر ولا تغر، وإن صدقت رؤياك فهو العلم الذي أودعني الله تعالى [1] .

إن في الروايات السابقة معاني تربوية عميقة كان أتباع الحركة السنوسية يتربون عليها منها:

١- إخلاص الأعمال لوجه الله، وأن دوامها وقبولها من شروطه هذا الركن الأصيل، وأن العلماء المخلصين، يتكفل الله بحفظ علمهم ونشره بين الناس .

٢- إن منهج الاعتدال، والحكمة، والاستقامة المتمثل في الوسطية التي سار عليها الإمام مالك، كانت منهجية أصيلة في حياة ابن السنوسي وإخوانه .

٣- إن ابن السنوسي كان يرى أن الرؤى الطيبة لعباده الصالحين تسر ولا تغر، وأحب أن يغرس هذا الفهم في أذهان تلاميذه، ولذلك ساق لهم رؤيا ذلك الرجل للإمام مالك .

وقد أفرد ابن السنوسي في مقدمته للموطأ بابًا في التعريف بمؤلف الموطأ الإمام مالك وثناء الناس عليه، ونقل قول النووي: (قد اجتمعت طوائف العلماء على إمامة مالك وجلالته، وعظم سيادته وتبجيله وتوقيره، والإذعان له في الحفظ والثبات، وحديث رسول الله ﷺ ، فقد جمع بين شرفي الحديث والفقه، فهو إمام الأئمة وشيخهم، قد روى عنه سائر الأئمة خصوصًا الأربعة أما أبو حنيفة فبلا واسطة، فقد حكى غير واحد أنه لقى مالكًا وأخذ عنه . . . وأما الشافعي فأمره مشهور معه، حتى قال ابن الأثير: كفى مالكًا شرفًا أن الشافعي تلميذه، وكفى الشافعي شرفًا أن مالكًا شيخه .

---

(١) انظر: مقدمة الإمام مالك، ص ٢٠ .

وأما الإمام أحمد فقد أخذ عن الشافعي، فهو شيخه بواسطة، ومناقب هذا الإمام وفضائله ﷺ تخرج عن أن تحصى، ولا يمكن فيها الحصر ولا الاستقصاء (١) .

وذكر ابن السنوسي المناقب التي اجتمعت لمالك ولم تجتمع لغيره وأسند هذا القول للذهبي فقال:

١- طول العمر وعلو الرواية .

٢- الذهن الثاقب والفهم وسعة العلم .

٣- اتفاق الأئمة على أنه حجة صحيح الرواية .

٤- إجماعهم على دينه وعدالته واتباعه السنن .

٥- تقدمه في الفقه والفتوى، وصحة قواعده (٢) .

وذكر ابن السنوسي كلامًا يكتب بماء الذهب أسنده إلى مالك، ليتربى عليه إخوانه وتلاميذه منه:

قول مالك: لا يؤخذ العلم من أربعة، ويؤخذ ممن سواهم: لا يؤخذ من سفيه، ولا من صاحب هوى يدعو إلى بدعته، ولا من كذاب يكذب في أحاديث الناس، وإن كان لا يتهم في حديث رسول الله ﷺ ، ولا من شيخ له فضل وصلاح وعبادة، إذا كان لا يعرف ما يحمل وما يحدث به (٣) .

وقال مالك: قلّما كان رجل صادق، ولا يكذب في حديثه، إلا مُتّع بعقله ولم تصبه مع الهرم آفة، ولا خرف (٤) .

ومن قوله: القول بالباطل بُعدٌ عن الحق، ولا خير في شيء وإن كثر من الدنيا يفسد دين المرء ومروءته (٥) .

---

(١) انظر: مقدمة الإمام مالك، ص ٢٨ .

(٢) المصدر السابق نفسه، ص ٢٩ .

(٣) انظر: مقدمة المؤطأ لابن السنوسي، ص ٣٠ .

(٤) انظر: مقدمة المؤطأ، ص ٣٠ .

(٥) المصدر السابق نفسه، ص ٣٠ .

لقد كان كتاب الموطأ حافلاً بالحديث، والآثار وقد جعله ابن السنوسي ضمن منهجه العلمي التربوي لأتباعه .

٣- بلوغ المرام:

وهو كتاب جامع للأحكام، ألفه العلامة أحمد بن علي بن محمد أبو الفضل الكناني الشافعي المعروف بابن حجر العسقلاني، وقد نال كتاب بلوغ المرام رضا العلماء، فهو كتاب مفيد مع صغر حجمه حوى ما يغني عن التطويل، وأقبل عليه العلماء قديمًا وحديثًا فلا تجد حلقة عالم إلا وكتاب بلوغ المرام على رأس القائمة وأقبل عليه الطلاب بالحفظ والتداول واستغنوا به عن غيره من أمثاله فصار له القبول وعليه إقبال حتى استفاد منه في كل عصر الجم الغفير، وقد جعله ابن السنوسي ضمن منهجه التربوي التعليمي، ويتعلم الطالب من هذا الكتاب :

- بين مؤلفه مرتبة الحديث من الصحة والحسن والضعيف بما يغني الطالب عن الرجوع إلى غيره .

- اقتصر من الحديث على الشاهد من الباب بما لا يخل بالمعنى المقصود، فخلص من هذا الإيجار والفائدة.

- انتقى أحاديث الكتاب من دواوينه المشهورة وأمهاته المعتبرة التي أشهرها مسند أحمد والصحيحين والسنن الأربع .

- يصدر الباب - غالبًا - بما في الصحيحين أو أحدهما ثم يتبعها بما في السنن أو غيرها لتكون الأحاديث الصحيحة هي العمدة في الباب والمرجع في المسائل والباقي مكملات ومتممات .

- رتب المؤلف كتبه وأبوابه وأحاديثه على كتب الفقه ليسهل على الطالب مراجعته.

- جعل في آخره نخبة طيبة من أحاديث جامعة في الآداب ليستفيد منه الطالب في الأحكام والسلوك[1].

---

(١) انظر: توضيح الأحكام من بلوغ المرام، عبد الله البسام، ص ٢٢، ٢٣ .

هذه بعض الكتب القيمة التي جعلها ابن السنوسي في منهجه العلمي التربوي .

الخطوة الثالثة: (ثم يتوجه إلى تزكية النفس وتهذيب الأخلاق وتصفية القلب وتنقية السر):

إن دعوة ابن السنوسي إلى تزكية النفس وتهذيب الأخلاق من صميم القرآن الكريم والهدي النبوي الشريف .

قال تعالى: **﴿وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾** [سورة النور: آية ٢١] .

جاءت هذه الآية بعد قصة الإفك، وبعد الآيات التي نهت عن إشاعة الفاحشة في الذين آمنوا، وبعد النهي عن اتباع خطوات الشيطان، وجاءت قبل قوله تعالى: **﴿وَلا يَأْتَلِ أُوْلُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُوْلِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾** [سورة النور: آية ٢٢] .

وذلك يؤكد ما يلي:

١- أن موانع التزكية من القوة بحيث تستحيل معها التزكية لولا فضل الله، وهذا يقتضي شيئين: بذل جهد في التزكية، وسؤال الله إياها والاعتماد عليه فيها، وفي الحديث: «اللهم آتِ نفسي تقواها وزكّها أنت خير من زكّاها أنت وليها ومولاها»(١) .

٢- أن من تزكية النفس العفو والصفح عمن أساء إلينا؛ لأن الأمر جاء بمناسبة الحديث عن مسطح بن أثاثة الذي كان ينفق عليه أبو بكر رضي الله عنه، والذي خاض في الإفك، فمنع عنه أبو بكر رفده، فجاءت الآية واعظة، وفَاء أبو بكر إلى سيرته، وما أرقاه من مقام!! وما أعلى ما يراد بكلمة التزكية!! .

٣- إن من تزكية النفس عدم اتباع خصوات الشيطان لأنه يأمر بالفحشاء والمنكر،

---

(١) رواه مسلم .

وإذن فالتزكية تعني - تجنب الفحشاء والمنكر، وتجنب خطوات الشيطان، وأولى خطواته الحسد والكبر، فقد حسد آدم وتكبر عن السجود له .

٤- عدم محبة إشاعة الفاحشة في الذين آمنوا، وعدم السير في طريق ذلك بشكل مباشر أو غير مباشر .

٥- إمساك اللسان عن الأعراض، وترك المشاركة في كل ما يؤذيها إلا إذا توفرت شروط شهادة وتعيَّنت [١] .

هذه القضايا الخمس لها صلة بالتزكية، فالتزكية باب واسع وقد تحدث ابن السنوسي عن النفس البشرية وأنواعها وأمراضها وكيفية علاجها حديث العالم الخبير في تحقيقها فمن حديثه عن:

- النفس الأمارة قال:

وهي صاحبة الجهل والبخل والحرص والكبر والغضب والشره والشهوة والحسد وسوء الخلق والخوض فيما لا يعني من الكلام وغيره والاستهزاء والبغض والإيذاء باليد واللسان وغير ذلك من القبائح . . . فكن أيها الأخ منها على حذر ولا تنتصر لها إن أحد آذاها بل كن معينًا له عليها وتخلص من هذه الآفات . . بالذكر الكثير القوي وتقليل الطعام والمنام، وحساب النفس كل ساعة، وخوفها بالموت، وعذاب القبر وما بعده من الأهوال إلا إذا أوصل الخوف إلى درجة القنوط فيجب عليك حينئذ تذكر أسباب الرجاء وسعة رحمة الله تعالى وعليك بالتذلل، والخضوع، والتضرع، له تعالى، واطلب الخلاص بلطفه وإحسانه من الأوصاف الذميمة والتحلي بالصفات الحميدة كالصدق والتواضع، والمحبة، والإخلاص، والخمول، ونحو ذلك لأنك إذا اشتغلت في خلاص نفسك من الآفات وتبدلت بالأوصاف الحميدة شاهدت بعض العجائب المكنونة والأسرار المخزونة في صدفة البشرية، وأقبل على من لا غنى لك عنه بمعاملات الإحسان قبل أن تساق إليه بسلاسل الامتحان، وقد قال لك: من

---

(١) انظر: المستخلص في تزكية الأنفس، سعيد حوى، ص ١٥٤ .

تقرب إليّ بشبر تقربت منه ذراعًا الحديث ؛ فاترك التواني وأعرض عما يشغلك عن مولاك واستغن بالقناعة بما في يدك ودع اللذات الفانية لأهلها ولا تسوف التوبة والإقبال على الله تعالى فإنك لا تدري ما بقي من عمرك، وقد نقل السنوسي الإجماع على أن التوبة واجبة على الفور، ويلزم من تأخيرها تضاعف الذنوب على من لم يتب وليس هذا التضاعف، كتضاعف الحسنات، بل إذا لم يتب صار عليه ذنب الفعل وذنب ترك التوبة وهذان الذنبان تجب التوبة منهما أيضًا، وإذا لم يتب منهما على الفور صارا أربعة وعلى هذا القياس، وإذا نظرت بعين الإنصاف والشفقة على نفسك رأيت احتياجك إلى التوبة أشد من احتياجك إلى المأكل والمشرب، والمسكن لأنها قد حجبتك عن مطالعة الغيوب وحالت بينك وبين كل محبوب، وعلامة خلاص النفس من الآفات المارة أن يكون الخلق كلهم عنده على السوية، لا يحبهم محبة طبيعية تميله إليهم في منكر، ولا يكرههم كراهة تغير باطنه عليهم في معروف ويستوي عنده جميع المأكل، وجميع الملابس، فمن رأى في نفسه شهوة لبعض دون بعض، وجب عليه المجاهدة، إلى أن يستوي ذلك عنده وإلا كان حيوانًا في صورة إنسان بل الحيوان خير منه؛ لانه ليس عليه تكليف ولا حساب ولا عقاب [(١)] وما قاله ابن السنوسي آنفًا تفسير لقوله تعالى: ﴿**وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾ (سورة يوسف: آية٥٣) .

- النفس اللوامة:

وقد تحدث ابن السنوسي عنها فقال: وهي التي لها رغبة في المجاهدة وموافقة الشرع ولها أعمال صالحة من قيام، وصيام، وصدقة، وغير ذلك من أفعال البر يدخل عليها العجب والكبر وكذا الرياء الخفي ؛ بأن يحب صاحبها أن يطلع الناس على ما هو عليه من الأعمال الصالحة، كالإخلاص وغيره ويحمده عليها مع أنه يخفيها عنهم ويعمل لله، ويكره هذه الخاصة لكن لا يمكنه قلعها بالكلية، والخلاص من ذلك الرياء يكون بالفناء عن شهود الإخلاص بشهود أن المحرك والمسكن هو الله

---

(١) انظر: المسائل العشر لابن السنوسي، ص ٢٨٠، ٢٨١ .

تعالى شهود ذوق، ويشهد أن المنة لله تعالى عليه حيث فتح له أبواب العبادات، ومكنه من الدخول إلى حضرته وأهله للقبول في خدمته، والخلاص من الأولين، يكون بالمجاهدة، وهي ترك العادات، ومعظمها يكون بستة أشياء. تقليل المنام وتقليل الكلام، والاعتزال عن الأنام، والذكر المدام، والفكر التام، فمن فعلها بصدق نقلته إلى الباقي والمطلوب من هذه الأشياء الاعتدال، ولذا لم يقولوا ترك الطعام بل لا يأكل حتى يجوع وإذا أكل لم يشبع . . . فعالج نفسك بالشريعة وخلصها من أمراضها وأعظمها الكبر والعجب اللذان هما أصل الغضب الذي ينشأ عنه الحقد الذي يتفرع عنه الحسد ولا يزول الكبر والعجب إلا إذا انقطع المدد عنهما وهو امتلاء البطن، وللحسد أسباب أخر، كحب الرياسة، وخبث النفس وكثيراً ما تكون هذه الأسباب بين أهل الطريق المتصوفين فيتمنى زوال ما على أخيه من المشيخة أو الخلافة وما هو عليه من الاستقامة والتوجه إلى الله تعالى إذا عرفت ذلك فعليك بمعرفة أربعة أشياء، والتأمل فيها . الأول: أنه تعالى لا يعجزه شيء . الثاني: إحاطة علمه بكل شيء، الثالث: أنه تعالى أرحم الراحمين، الرابع: أن جميع أفعاله خير ؛ فإن تحقق الأول يزيد همتك بالتوجه إليه والطلب منه مع اليقين بالإجابة والطلب على هذا المنوال لا يرد أصلاً، وتحققك بالثاني والأخير يحقق لك مقام التوكل والرضى والشوق والمحبة وغير ذلك وتحققك بالثالث يدفع عنك خوف الإنس والجن [1]، وهذا شرح لقوله تعالى: ﴿وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾ (سورة القيامة، آية ٢) .

وقال ابن السنوسي عن النفس المطمئنة:

- النفس المطمئنة:

وهي التي لا تفارق الأمر التكليفي شبراً ولا تتلذذ إلا بأخلاق المصطفى ﷺ ولا تطمئن إلا باتباع أقواله وتتلذذ بصاحبها أعين الناظرين وأسماع السامعين وعلم معنى قوله تعالى ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ ؛ فيجب عليه الاجتماع مع الخلق في بعض الأوقات ليفيض عليهم بما أنعم الله به عليه من علم الصدور، لا علم السطور،

---

(١) انظر: المسائل العشر، ص ٢٨٥ .

وليكن في بقيـة الأوقات مع الله ليـرقى إلى المقامات البـاقية وليكثـر من الذكر ولا يلتفت إلى ما يظهر من أنوار أو كمالات أو كرامات لأن حضرة القرب لا يدخلها إلا العبيد الخلص، وكـل ما سوى الله قاطع عن المقصود، فهـو فتنة فلا تقف عنده وإن إلى ربك المنتـهى ومن وصل إلى حـضـرة القرب صـارت الكرامـات طوع يده ومن تعرض لكرامة أولاً فقد طلب الشيء قبل أوانه، فيعـاقب بحرمانه فيكون مشتغلاً بما لا يعني والإنسان مدة حيـاته متعرض للمحن فينبغي التـحرز من الآفات إلى الممات وإياك وحب الرياسـة والشهـرة والتـعرض للمـشيـخة والإرشـاد [١] ، وتحدث ابن السنوسي عن النفس الكاملة فقال:

- **النفس الكاملة:** وهي التي لا يفتـر صاحبها عـن العبادة إما بجمـيع البدن أو باللسان، أو بالـقلب، أو بعضو من الأعـضاء وصاحـبها كـثيـر الاستغـفار، كثـير التواضع، سروره ورضاه في توجه الخلق إلى الحق، وحزنه في ضد ذلك، وهو كثير الأوجاع قليل القوى قليل الحركـة ليس في قلبه كراهة لمخلوق من المخلوقات مع أنه يأمر وينهى ولا تأخذه في الله لومة لائم ويظهر الكراهة لمستحقيها والمحبة لمستحقها، فيضع كل شيء في محله متى ما وجه هـمته إلى كون من الأكوان أوجده الله تعالى على وفق مراده وذلك لأن مراده في مراد الحق سبحانه وتعالى[٢] .

لقد كـان ابن السنوسي مربيًـا من الطراز الأول وكان عليـمًا بأمـراض النفوس، وخبيرًا بعلاجـها، ولقد نجح في تربية أصحابه على الأخلاق الرفيـعة، وحقق نجاحًا باهرًا، ورسم لأتباعـه طريقة تعتمـد على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ لـقد تحدث ابن السنوسي عن الأسباب التي تعين العبد على تصفية نفسه وتزكيتها فقال:

الخطوة الرابعة:

ومن أسبـاب حصولهـا طيب المطعم فإن من أكل حرامًـا فَعَله [٣] في ظاهره أو

---

(١) انظر: المسائل العشر، ص ٢٩٠ .

(٢) المصدر السابق نفسه، ص ٢٩١ .

(٣) غير واضحة من الاصل ولعل معنى الكلمة أثر في ظاهره وباطنه .

باطنه لا محالة، ومن أسبابه سماع أحاديث الترغيب والترهيب، وحكايات الشيوخ في مجاهداتهم وشريف معاملاتهم ؛ فإنها جند من جنود الله، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى: ﴿وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ [هود: ١٢٠] وليشتغل المريد بالأعمال المسرعة به إلى حضرة الفلاح والفوز بالكمال، كالصلاة على النبي ﷺ ، فقد قال بعضهم إنها لا يدخلها الرياء، وبعضهم إنها مقبوله مطلقًا وهي على هذا من الغنائم الباردة المبذولة لسالكي طريق المجاهدة في الله . . .) [1] .

١ - طيب الطعام والابتعاد عن الحرام:

إن ابن السنوسي يبين لأتباعه أن من أسباب تزكية النفوس، والتخلق بالأخلاق الرفيعة، وتصفية القلوب، أن يحرصوا على طيب الطعام، وأن يبتعدوا عن الحرام .

إن آيات القرآن الكريم، وأحاديث النبي ﷺ ، ناطقة بربط قبول سائر العبادات من دعاء وصلاة، وصيام، وزكاة، وحج، وصدقة، وغير ذلك من صالح الأعمال بتحري الحلال من الكسب:

-الدعاء:

ففي الدعاء، وهو مخ العبادة، يقول تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُم يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦].

وعباد الله الذين استجابوا له، هم من يفعلون الحلال ويتركون الحرام، فيكونون أهلاً للإجابة قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [سورة غافر، آية ٦٠] .

وإجابة الدعاء منوطة بأكل الحلال، وترك الحرام، وتوقي الشبهات . أخرج مسلم بسنده عن أبي هريرة ﷺ عنه قال: قال رسول الله ﷺ : «يأيها الناس إن الله طيب لا يقبل إلا طيبًا، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين . فقال: ﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ (سورة المؤمنون، آية ٥١) .

---

(١) انظر: السلسبيل العين: ص ٩ .

وقال: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ﴾ [سورة البقرة، آية ١٧٢] ثم ذكر الرجل يطيل السفر، أشعث أغبر، يمد يده إلى السماء، يارب يارب ومطعمه حرام، ومشربه حرام وملبسه حرام، وغذي بالحرام، فأنى يستجاب لذلك؟) [١] ولا شك أن قبول الدعاء من الوسائل المهمة في تزكية نفس العبد، وتهذيب أخلاقه، وحياة قلبه .

- الصدقة:

والله تعالى طيب لا يقبل إلا طيبًا، والحرام سواء أكان مالاً أم متاعًا أم غير ذلك، غير طيب، لأنه خبيث، ومن مصدر خبيث غير مشروع، فهو بالتالي غير مقبول .

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَلا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ ﴾ [سورة البقرة، آية ٢٦٧] .

وكذلك الشأن في سائر العبادات، فكيف يقبل الله تعالى الصلاة ممن تغذى بالحرام، وكانت أنفاسه التي يناجي بها ربه، تمتد طاقتها من الحرام، وكل جسم غذي بالحرام فالنار أولى به [٢] .

إن من وسائل تزكية النفوس العبادات عندما يتقبلها الله، ويجعل لها آثارها في نفس العبد وقلبه، وعقله، وجسده .

٢- سماع أحاديث الترغيب والترهيب:

فإن لها أثرًا في تزكية النفوس، وإحياء القلوب، فعن ابن عباس ﷺ قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: قال الله تعالى: (يا ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي . يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك، يا ابن آدم إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئًا لأتيتك بقرابها مغفرة) [٣] .

---

(١) انظر: مسلم (٢/ ٧٠٣) رقم ١٠١٥ .

(٢) انظر: طلب الرزق بين الحلال والحرام، احمد الطويل، ص ١٤٧ .

(٢) انظر: الدرامي (٢/ ٣٢٢) حسنة الألباني رقم ١٢٧ .

وأما في الترهيب، فعن أنس ﷺ قال: خطب رسول الله ﷺ خطبة ما سمعت مثلها قط فقال: (لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيرًا فغطى أصحاب رسول الله ﷺ وجوههم ولهم خنين)[١] .

إن ابن السنوسي - رحمه الله - يرى أن لأحاديث الترغيب والترهيب أثرًا في تزكية النفوس، كما يرى لسير وتراجم الصالحين أثرًا في صفاء القلوب، وتطهير النفوس، بل يرى أن تلك السير جند من جنود الله يثبت الله بها من يشاء من عباده.

٣- المسارعة للخيرات:

يرى ابن السنوسي أن من وسائل التزكية المسارعة في الخيرات والأعمال الصالحة، كالصلاة على النبي ﷺ ، ويراها من الغنائم الباردة لسالكي طريق المجاهدة في الله .

قال تعالى: **﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾** [سورة الأحزاب، آية ٥٦] .

إن صلاة الله وملائكته على النبي ﷺ معناها الثناء عليه، وإظهار فضله، وشرفه، وإرادة تكريمه وتقريبه، وقد جاءت الأحاديث الصحيحة في فضل الصلاة على النبي ﷺ ومنها ؛ عن يعقوب بن زيد بن طلحة التميمي قال: قال رسول الله ﷺ : (أتاني آت من ربي فقال: ما من عبد يصلي عليك إلا صلى الله عليها بها عشرًا) فقام إليه رجل فقال: يا رسول الله أجعل نصف دعائي لك؟ قال: إن شئت .

قال: ألا أجعل ثلثي دعائي؟ قال: إن شئت .

قال: ألا أجعل دعائي كله . قال: (إذن يكفيك الله هم الدنيا وهم الآخرة)[٢].

قال ابن السنوسي: إذا أكثر السالك من الصلاة على النبي ﷺ أنقذه الله بها

---

(١) انظر: البخاري، كتاب الرقاق (١١/ ٣١٩) .

(٢) انظر: مسلم، ابو داود (١٥١٦) .

من المهالك وأخذ بناصيته إلى أحسن المسالك، ودعا ابن السنوسي تلاميذه إلى دراسة سيرته ﷺ وبيان أحواله، وحياته [١] .

إن الصلاة على النبي لها ثمرات كثيرة وفوائد عظيمة منها:

- امتثال أمر الله سبحانه وتعالى، وموافقته سبحانه في الصلاة عليه ﷺ ، وموافقة ملائكته فيها .

- حصول عشر صلوات من الله عز وجل على المصلي بالصلاة مرة واحدة على النبي ﷺ

- أنها سبب لشفاعته ﷺ إذا قرنها بسؤال الوسيلة أو أفردها .

- أنها سبب لكفاية العبد ما أهمه .

- أنها تقرب صاحبها من طريق الجنة .

- أنها سبب لإبقاء الله سبحانه الثناء الحسن والبرعة للمصلى؛ لأن المصلي طالب من الله أن يثني على رسوله ويكرمه ويشرفه ويبارك عليه وعلى آله، وهذا الدعاء مستجاب فلا بد أن يحصل للمصلي نوع من ذلك، والجزاء من جنس العمل .

- أنها سبب لدوام محبة العبد لرسوله ﷺ ، وزيادتها وتضاعفها، وذلك عقد من عقود الإيمان الذي لا يتم إلا به [٢] .

هذه بعض الأصول التي توضح منهج ابن السنوسي التربوي، وقد ألزم أتباعه بأوراد الطريقة، فهي عبارة عن تلاوة القرآن الكريم، ثم الاستغفار والتهليل والصلاة على النبي ﷺ [٣]، وقراءة بعض الأدعية التي تحمل في طياتها معاني التوسل والتضرع إلى الله وحمده جل جلاله وتسبيحه [٤] .

---

(١) السلسبيل المعين، ص ٨ .
(٢) انظر: البحر الرائق، أحمد فريد، ص ١٢١ .
(٣) انظر: الحركة السنوسية، ص ٢٤٩ .
(٤) انظر: السنوسي الكبير، ص ٩٩ .

وكان أتباع الحركة السنوسية يحافظون على أورادهم، ولم تكن معهم موسيقى، ولا حركات راقصة، وكانوا بعيدين عن الأعمال البهلوانية، كأكل الزجاج، وطعن الصدور بالسيوف واللعب مع الأفاعي (١) .

وكان ابن السنوسي يلقن طريقته للمريدين بقصد تعليمهم الشريعة الغراء ويلح عليهم بالتمسك بأحكامها، ويأخذ عليهم العهد بأن لا يخالفوا في أعمالهم الشرع الحنيف (٢) .

خامسًا: ابن السنوسي ونقده لأخطاء الصوفية:

لقد وقعت كثير من الطرق الصوفية في انحرافات كثيرة، وقد تعرض ابن السنوسي لبعض الطرق ووضح الأخطاء التي وقعت فيها ؛ ففي حديثه عن الطريقة الصديقية يقول: (دخل الغلط في الأخلاق على جماعة من هذه الطائفة وذلك من قلة معرفتهم بالأحوال واتباعهم حظوظ النفس، ولكنهم لم يتأدبوا بمن يروضهم ويخرجهم من الرعونات ويجرعهم المرارات ويدلهم على المناهج الرضية في علاج عيوب النفس وطريق دوائها؛ فمثلهم كمثل من يدخل بيتًا مظلمًا بلا سراج إلا من أراد الله هدايته بجذب عنايته فالله هو الولي الحميد) (٣) .

وانتقد ابن السنوسي بعض دخلاء المتصوفة: (. . . ومنها ما كثر به تبجح كثير من بعض المتنسكين، من دخلاء المتصوفة، وغلاة المتورعين، من الإعجاب بأعمالهم، والتمدح بأحوالهم، وكونهم مخصوصين بينابيع الإمداد، ومواهب الكرامة، لا يبالون بمن عداهم ولو كانوا على محض الاستقامة . . .) (٤) .

وعمل على تصحيح مفاهيم الإسلام التي انحرفت بعض طرق الصوفية عنها، كالعبادة، والتوكل، والجهاد .

---

(١) انظر: الحركة السنوسية، ص ٢٥١ .

(٢) المصدر السابق نفسه، ص ٢٥٢ .

(٣) انظر: الحركة السنوسية، ص ١٤٣ .

(٤) انظر: المسائل العشر، ص ٩ .

أ - العبادة:

إن من عوامل النهوض التي سار عليها ابن السنوسي تصحيح مفهوم العبادة في أذهان أتباعه ونجد ذلك في قوله لبعض تلاميذه وإخوانه (لأي شيء نأمركم بقراءة النحو؟ لإصلاح ألسنتكم لكتاب الله وحديث الرسول ﷺ) ثم قال: (بالكم تقولون الذي يقرأ النحو ما نوصله إلى الله . بالكم تقولون الذي يخدم الحجر والطين ما نوصله إلى الله، بالكم تقولون الذي يرعى الإبل ما نوصله إلى الله، وهكذا وعدّ أشياء كثيرة) (١) .

وقد اتضح مفهوم العبادة الشامل عند أتباع الحركة السنوسية، وكان طلاب الزوايا في يوم الخميس من كل أسبوع يخصصونه للشغل بالأيدي، فيتركون الدروس كلها ويشتغلون بأنواع المهن من بناء ونجارة، وحدادة، ونساجة، وغير ذلك، لا تجد فيهم إلا عاملاً بيده، وكان محمد المهدي السنوسي الزعيم الثاني للحركة يشوق الطلبة والمريدين إلى القيام بالحرف والصناعات، ويقول لهم جملاً تطيب خواطرهم وتزيد رغبتهم في حرفهم حتى لا يزدروا بها أو يظنوا طبقتهم هي أدنى من طبقة العلماء فكان يقول لهم: (يكفيكم من الدين حسن النية والقيام بالفرائض الشرعية، وليس غيركم بأفضل منكم) . وأحيانًا يدمج نفسه بين أهل الحرف ويقول لهم وهو يشتغل معهم: (يظن أهل الوريقات والسبيحات أنهم يسبقوننا عند الله، لا والله ما يسبقوننا) (٢) .

إن مفهوم العبادة عند السنوسية وافق تعريف ابن تيمية عندما قال: (العبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه: من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة، فالصلاة والزكاة والصوم والحج، وصدق الحديث وأداء الأمانة، وبر الوالدين، وصلة الأرحام، الوفاء بالعهود، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والجهاد للكفار والمنافقين، والإحسان إلى الجار . . . . وأمثال ذلك من العبادة) (٣) .

---

(١) انظر: الحركة السنوسية، ص ١٥٧ .

(٢) انظر: الحركة السنوسية، ص ١٩٣ .

(٣) انظر: الفتاوى (١٠/ ١٥٠) .

ب- التوكل:

كان ابن السنوسي يحب للمسلم أن يعيش من عمل يده وعرق جبينه ليغرس في نفسه حب التعفف وقد روى كبار الإخوان عن ابن السنوسي أنه كان يقول: (الذهب في الأرض، فغوصوا لاستخراجه بالمحراث) وكان يقول: (الدرر في غرس الشجر أو تحت ورق الشجر) ويقول: (اليد العليا خير من اليد السفلى والاستقامة كنز لا يبلى والعفة حسب دائم) (ومن مد يده متسولاً قصر لسانه) [1] . إن مفهوم التوكل على الله يكون في كل الأمور، وهذه التوجيهات تدلنا على فهم ابن السنوسي لمفهوم التوكل، فدعا إلى مباشرة الأسباب مع تفويض الأمر لله تعالى، وحارب التواكل الذي انتشر في كثير من الطرق الصوفية .

ج- الجهاد:

قامت بعض الحركات الصوفية بصرف الناس عن القتال في سبيل الله وجهاد أعداء الأمة الإسلامية، وعمل ابن السنوسي على تربية أتباعه على الاستعداد للجهاد في سبيل الله، وكان كثيراً ما يدعو للجهاد ويأمر به ضد كل معتد على أرض المسلمين، فقد قام بتنبيه وتحذير الليبيين من غزو الطليان لليبيا قال مرة للشيخ الكاسح أحد زعماء قبيلة العواقير (ماذا أعددت يا شيخ الكاسح للنابلتان إذا غزو بلادك ليأخذها؟) فقال له الشيخ الكاسح أعددت له جرابًا من البارود وشيئًا من الرصاص، فقال له ابن السنوسي إذا كنت وأنت شيخ القبيلة ولم يوجد عندك إلا هذا المقدار القليل فماذا يوجد عند أفراد القبيلة؟) وأخبره ابن السنوسي أن النابلتان آت للبلاد لا محالة وسيصيبكم منهم أذى كبير وإن الله مع الصابرين ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار)، وكان ابن السنوسي يُفَهِّم ذلك لكل من يجالسه من الإخوان ورؤساء الزوايا، وشيوخ القبائل والأعيان، ويأمرهم أن يحذروا من ذلك وأن يحتاطوا له، وأن يأمروا معلمي الصبيان بإلقاء الدروس في هذا الشأن، وكان يأمر رؤساء الزوايا باقتناء جميع أنواع السلاح ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، ويحتفظوا به في مخازن خاصة [2]

---

(١) انظر: برقة بين الأمس واليوم، ص ١٨٧، ١٨٨ .

(٢) السابق ص ١٧٩ .

وذات مرة قال لأحد شيوخ القبائل، أن النابولتان سيغزو هذا البلد ويقف أهلها للدفاع عنها موقفًا مشرفًا، وسيتخذ جميع الوسائل لإخضاعهم، ومن بين هذه الوسائل سيقدمون الأموال للإغراء فماذا أنتم فاعلون في هذه الحالة؟ فقال الشيخ: أننا سنأخذ المال ونثنى عليهم نقاتلهم، فكان جواب ابن السنوسي: من يقبل هديتهم لا يقاتلهم، وقد صحّ ذلك كله فعلاً [1]

وكان يتصيد الفرص لبيان أهمية الاستعداد، وجمع الذخائر، والاحتفاظ بها لوقت الحاجة، فعندما وصل إلى العزيات عام ١٢٦٩هـ قادمًا من الحجاز وأخذت وفود القبائل تتوافد على زيارته من جميع أنحاء برقة وطرابلس زرافات ووحدانا، وكان من تقاليد البدو في مثل هذه الحالة أنهم يطلقون الأعيرة النارية من بنادقهم دليلاً على فرحهم وابتهاجهم، وفي ليلة من الليالي كان يتصدر مجلسًا من الإخوان وشيوخ الزوايا وزعماء العشائر وذلك بعد صلاة العشاء، فسمع طلقًا متواصلاً من البارود، وسأل عن السبب فقيل له إن (مزار) من قبائل العواقير قد وصل الآن ؛ (وكلمة مزار تطلق عند البادية على الزائرين) فقال: لقد نبهنا أكثر من مرة للمحافظة على الرصاص والبارود، والعناية بإدخال الأسلحة كي لا تستعمل إلا عند الحاجة، وإن الوقت الذي ندخر له السلاح لآت، ونود من إخواننا وشيوخ العشائر أن يواصلوا إسداء النصح بذلك، فأجابه محمد بن الشفيع بقوله: أتنتظر غزوًا خارجيًّا قريبًا؟ فالتفت ابن السنوسي عنه إلى الشمال - وكان يستقبل القبلة - وقال وقد تقطب وجهه: أكاد أقول لكم إنني أرى العدو رأي العين ؛ ومن مد الله في عمره منكم سوف يقاتله وهو آت من هنا وأشار إلى جهة البحر، فاصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون، ثم استشهد بالآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلا تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ﴾ [الأنفال: ١٥-١٦] الآية .

وأصبح أتباع الحركة السنوسية يستعدون لأعدائهم، الذين أخبر شيخهم بأنهم قادمون، وسنرى بإذن الله معاركهم البطولية ضد فرنسا وبريطانيا، وإيطاليا في الجزء الثاني من هذه الدراسة .

---

(١) انظر: السنوسي الكبير، ص ١٤٤، نابلتان أي ايطاليا .

المبحث الثالث
البعد السياسي عند ابن السنوسي

يظهر البعد السياسي عند ابن السنوسي في تعامله الحكيم مع الدولة العثمانية، حيث رأى في الدولة العثمانية دولة الخلافة، ضرورة لازمة لوحدة الأمة، والدفاع عن كيانها، وأنه لا بد من معاضدتها والوقوف بجانبها، رغم ما كان يعتقده في الأصل من أن الخلافة تكون بيد قرشي، ومع هذا فإنه لم يشأ أن يثير موضوع الخلافة من هذه الناحية؛ لأنه يعلم يقينًا أن إثارة هذا الموضوع معناه فتح باب للنزاع لا يعود إلا بضرر على السنوسية وعلى المسلمين أجمع، ويبدو أنه اعتبر من الأحداث التي عاصرها في صراع حركة الشيخ محمد بن عبد الوهاب مع الدولة العثمانية واقتنع بأن أخف الضررين في هذه المسألة الحية الواقعية عدم معاداة الدولة العثمانية ولذلك نجد ابن السنوسي يعمل على توثيق علاقته بحكام الأقاليم الليبية في طرابلس وفزان وبنغازي، وتولدت علاقة وثيقة بين الولاة العثمانيين وابن السنوسي مبنّية على الاحترام، والتقدير، فقد جاء في رسالة بعث بها ابن السنوسي لوالي طرابلس محمد أمين باشا بعد تأسيس الزاوية البيضاء: (ثم إننا نحن وعصابة المهاجرين بحمد الله في عافية وما ذكرتم من كونكم إلى لقائنا بالأشواق وأخذكم من عهود الود بأشد وثاق، فهذا محقق لدينا، وواجب المكافأة علينا، ويؤكده دوام اعتنائكم بنا وبأصحابنا وملاحظتكم لنا وشفقتكم علينا، وتوصيتكم أتباعكم على ما يتعلق بمحلنا من خدمة وعمارة، وغير ذلك مما لا يقدر على مكافأتكم عليه إلا الله سبحانه، هذا مع بعد المسافة واشتغالكم بمصالح الدولة العلية وقيامكم بأعباء سياسة الرعية، فإن هذه الزاوية وإن نسب إنشاؤها لمن قبلكم فإنما تمام أمرها واستمرار انتظامها بشمول نظركم، فأنتم لذلك منا بمرأى ومسمع، ومذكورون مع الحاضرين في كل مجمع . . . والإخوان المهاجرون دائمًا لكم داعون) ثم يتحدث عن عمله وعمل الإخوان في نشر العلم وإقامة شعائر الدين ثم يقول: (ثم ما ذكرتم من توجيه النجل الناجب إلى ولاية بنغازي للقيام بمصالح الدولة السنية فنعم ما فعلتم ونرجو

أن يكون على قدومكم في طرق السداد والرحمة للعباد، فأوصوه بذلك، وادعوا له به فإن رضاء الحق في رضائكم عليه . ونحن والإخوان عليه راضون، وله راعون وبالسيرة الحسنة موضون . جعله الله وارث كمالكم بعد طول الأعمار، وجمع لكم بين عز هذه الدار وتلك الدار . . . فنوصيكم وأنفسنا بوصية الله سبحانه للنبين والمرسلين الأولين والآخرين . ﴿**وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ**﴾ [النساء: ١٣١] وأن تتخلفوا بمحض الرحمة لعباد الله . قال العلي الشأن: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ**﴾ [النحل: ٩١] وقال ذو الشمائل الحسنة: (عدل ساعة خير من عبادة سبعين سنة . الراحمون يرحمهم الرحمن . ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء . والجزاء من جنس العمل، وإنما هي أعمالكم ترد عليكم وكما يدين الفتى يدان، نسأل الله سبحانه لنا ولكم وللمسلمين أن يؤتينا من لدنه رحمه ويهيئ لنا من أمرنا رشدًا ويحل علينا رضوانه الأكبر الذي لا سخط بعده أبدًا إنه جواد كريم رؤوف رحيم وعلى جنابكم السلام وهو الختام) [(١)] .

فالباحث يلمس ودًّا قويًّا بين ابن السنوسي والوالي، ويستنتج منه رضا الوالي وتأييده لحركة ابن السنوسي ونجد رسالة أخرى بعث بها ابن السنوسي إلى محمد باشا صالح حاكم بنغازي يعهد فيها للوالي بمهمة رعايا الزوايا وحمايتها وإصدار الأوامر باحترامها وذلك قبل سفر ابن السنوسي للحجاز . وقد جاء في الرسالة: (. . . فلما حان سفرنا وجب علينا أن نرد الأشياء إلى محلها والأمانات إلى أهلها، وذلك أن هذه الزاوية التي حدثت بمهمة حضرتكم ومنّة جناب والدكم (هنا بياض في الأصل) . . . وكل من الزوايا حوله عربان وعلم جنابكم محيط بأحوالهم وتعدى بعضهم على بعض فضلاً عن غيرهم . . . وقد سبق من جنابكم وجناب الأكرام الوالد حمى حرمها وصيانة حرمها . . وإذا تأكد وشاع عن سفرنا ما هو الواقع من انتسابها لجنابكم، وعلم الجميع بذلك بعزيز خطابكم لا يستباح لها حصن ولا تحضر لها ذمة وتصير حرمًا آمنًا . . .) [(٢)] .

---

(١) انظر: السنوسي، ص ١٣٩، ١٤٠ .

(٢) المصدر السابق نفسه، ص ١٤٣، ١٤٤ .

وهذه الرسالة وجهها ابن السنوسي إلى حاكم إقليم فزان فقال بعد البسملة والديباجة الأولى: (ولدنا مصطفى باشا قائم مقام فزان حالاً . أدام الله بقاءه وزاده عزًا وإجلال .

وبعد إهداء تحيات عطرة تليق بعزيز الجناب، ورفع أكف الضراعة مستمطراً وأكف الإنعام وسوابغ الآلاء مدى الدهور والأحقاب وأنه قد وصل مشرفكم الكريم، وحمدنا الله تعالى على ما أنتم عليه من الفضل الجسيم . وأسفر عن مكارمكم الفائقة . . . باستنشاق ريا مننكم الرائقة إنكم للفضل أهل ولعمل الصالحات مأوى ومحل إذ أن مقاصدكم كلها صالحة . وفضائلكم لدى الخواص والعوام واضحة وقد أخبرنا ولدنا الشيخ أحمد بن أبي القاسم التواتي عن جميع خيراتكم تفصيلاً . وتتابع ذلك منكم بكرة وأصيلاً . زادكم الله عزًّا ورفعة وجعلكم تحت كنفه في عز دائم ومنعة . وأفاض عليكم من نوره الأسنى، وأمدكم من فيوضاته المباركة الحسنى فأبشر بحول الله وقوته بالعز الأبدي والفخر الدائم السرمدي وقد وجهنا ولدنا الشيخ محمد بن الشفيع يذكر عباد الله في تلك الناحية . ويكون مقامه بزاوية (واو) حتى يرجع إليها الشيخ أحمد بن أبي القاسم التواتي لأن مرادنا أن يأتينا من هناك ببعض كتب غير موجودة في خزانتنا ويرجع إن شاء الله عاجلاً . وها نحن داعون لكم بصالح الدعوات في الخلوات والجلوات وأوقات الإجابات وعلى الله القبول وهو المرجو منه والمأمول وسلام السلام يخصكم ويعم سائر اللائذين بجنابكم) [١] .

ومن خلال الرسائل نستنتج أن ابن السنوسي استطاع أن يقيم علاقات متينة مع الولاة العثمانيين، ويبدو أن الحكومة العثمانية قررت أن تكسب ابن السنوسي لصفها، وخصوصًا بعد أن قدم للقبائل خدمات عظيمة في مجال الدعوة، والتعليم، والإرشاد، وعالج ظاهرة خروج القبائل عن الدولة بحكمة نادرة، فكانت القبائل تقبل نصائح ابن السنوسي ويطيعون العثمانيين بناءً على توجيهاته، ولذلك تركت الدولة الدواخل في يد الحركة السنوسية، وبدأت الحركة تتحول إلى إمارة منضوية

(١) انظر: السنوسي الكبير، ص ١٤١ .

تحت لواء الخلافة العثمانية وقام ابن السنوسي بإرسال مندوب عن الحركة السنوسية إلى إستانبول وقام بهذه المهمة الشيخ عبد الرحيم المحبوب شيخ زاوية بنغازي حيث قابل السلطان عبد المجيد وحصل منه على (فرمان) عام ١٨٥٦م يعفى ملاك الزوايا من الضرائب ويسمح لها بجبي نقود من أتباعها، ونخرج من ذلك كله بأن علاقة ابن السنوسي بالدولة كانت طيبة وحسنة طول إقامته الأولى في برقة . وقد أشار صادق المؤيد لهذا الفرمان الذي لم نعثر على صورة له . ثم سافر الشيخ أبو القاسم العيساوي من طرابلس إلى إستانبول وحصل على (فرمان) آخر من السلطان عبد العزيز يؤكد الفرمان الأول، وأتى به إلى حاكم طرابلس [١] .

وقد وجد المؤرخ أحمد الدجاني في دار المخطوطات في طرابلس (مرسوم ولائي) من والي طرابلس إلى متصرف الجبل يؤكد على ما تحصل عليه أبو القاسم العيساوي من فرمان من إستانبول وقد جاء فيه بعد التحية «وبعد فإن الشيخ العالم . . . السيد الحاج بلقاسم العيساوي دام موقرًا مرعيًا بيده أوامر من أسلافنا الوزراء العظام تشعر بكونه أتى بفرمان عالى الشأن في تعظيمه وإجلاله وتوقيره واحترامه لما تحقق من حسن سيرته وخلوص طريقته وسريرته وفضله وسلوكه مسلك أستاذه ذي الهداية والإرشاد موصل السالكين لإدراك المراد، صاحب المقام الأنور الباهر، والنسب العالي الطاهر والكرامات والأسرار السابقة في جميع الأقطار، عين أعيان الأخبار محمد بن علي السنوسي الخطابي الإدريسي . . . كما تشعر بأنه أسس زاوية باسم أستاذه المشار إليه، قاصدًا بذلك نشر العلوم وتعليم أولاد المسلمين وظهور طريقة الأُستاذ ليعم النفع والإرشاد، كما تشعر بأن يكون من سائر المأمورين ورفع مقامه وزيادة تعظيمه واحترامه والنظر إليه بعين الكمال والوقار والإجلال ووقاية الطلبة والمهاجرين بالزاوية المذكورة . . وعدم التعدي على الزوار الوافدين عليها . . وإجراؤه هو ووالده وإخوته على ما هم عليه وأن لا يقاسون بغيرهم من حيث المطالبة الميرية والأعشار الشرعية وأن لا يطالب بميري ولا أعشار . .) [٢] .

---

(١) انظر: الحركة السنوسية، ص ١٠٥ .

(٢) انظر: دار المحفوظات طرابلس تاريخ البيورلدي عام ١٢٨٧هـ .

إن ابن السنوسي استطاع أن يصل إلى أهدافه، وأن يوسع نفوذ دعوته، ويكسب معاضدة الدولة العثمانية له سواءًا عن طريق باشواتها في ليبيا أو السلاطين العثمانيين في إستنابول، فقد استطاع أن يتحد مع الدولة العثمانية في السعي الدءوب من أجل تحقيق أهداف الإسلام الكبرى، وقد نظر ابن السنوسي إلى دولة الخلافة، كواقع موجود لا تسمح الظروف بتغييره، بل الصواب العمل على الحفاظ عليه وعدم الاصطدام به ، لذلك جعل علاقته بها طيبة . أما الدولة العثمانية فكانت ترى في الحركة بعض الفوائد استطاعت تحقيقها، كما أن الحكام العثمانيين اقتنعوا أن ابن السنوسي لم يكن يطمع في الخلافة، وقد سئل ملك ليبيا السابق محمد إدريس السنوسي -رحمه الله - هل كان جده يهدف إلى إقامة دولة إسلامية؟ فأجاب بالنفي وذلك لأن جده ما كان يريد الاصطدام بالدولة العثمانية التي وقفت منه موقفًا طيبًا عندما أعفى السلطان عبد المجيد الإخوان مع دفع الأموال الأميرية، ولأنه كان يخشى أن يكون حاكمًا؛ لأن الحاكم يظلم أحيانًا وهو يعلم وأحيانًا دون أن يعلم [١] .

إن ابن السنوسي مع قناعته بأحقية القرشي بالخلافة لم يَر إثارة موضوع الخلافة، لأنه رأى أن ذلك من غير المناسب وليس من مصلحة المسلمين إثارة مثل هذا الخلاف، ولذلك ركز على جوانب الإصلاح الأخرى، فصار هدفه إيجاد مجتمع مسلم يتألف من أفراد فهموا الإسلام وتربطهم شريعة الله، وذلك حتى يستطيع هذا المجتمع أن يقوم بواجباته نحو الإسلام، من رد الاعتداء، وإقامة شرع الله، ودعوة الناس إلى الإسلام. . . ولا بد وأن ينتهي الأمر بإصلاح السلطة وحل مسألة الخلافة .

وقد اختار ابن السنوسي طريق التعليم والإرشاد طريقًا لإصلاح المجتمع [٢] ولذلك كانت خطواته الحركية والدعوية محسوبة، فلم يصطدم بالدولة، ولا بالعلماء، ولا غيرهم وإنما سعى لتحقيق أهدافه بالوسائل السلمية، وأقام زوايا لتكون بمثابة خلايا حية، تمتد منها الحياة إلى سائر جسم الأمة الإسلامية [٣] .

---

(١) انظر: الحركة السنوسية، ص١٦٣ .

(٢) المصدر السابق نفسه، ص ١٦٤ .

(٣) المصدر السابق نفسه، ص ١٠٢ .

إن ابن السنوسي لم يترك فرصة تمر إلا واتخذها لتعزيز مركز دولة الخلافة والأخذ بيدها، وكان يرى أن طرق الإقناع هي خير الوسائل لبلوغ الأهداف السامية، ولم يستعن ابن السنوسي بأي دولة أجنبية، أو تعاون مع أي منها، أو ارتمى في أحضانها، أو قام بتشجيع الثورات التي لا تأتي بفائدة مرجوة للمسلمين .

إن خطواته الدعوية الحكيمة قد أغضبت بعض الخائفين على ملكهم من الحكام والجامدين من العلماء، والمفكرين من دهاة الاستعمار ودعاته، واستطاع ببعد نظره، وحكمته أن يتغلب عليهم، وأن يرسم خطوطًا متينة سار عليها أتباعه من بعده [١] .

وقد تكلمت جريدة (الماتين الفرنسية) عام ١٩١٢م، عن البعد السياسي عند ابن السنوسي فقالت: «لم يكن مجيء السنوسيين إلى طرابلس وتوطينهم فيها من قبيل المصادفات والاتفاق، فهؤلاء أدركوا من زمن طويل أن الأوروبيين سيستولون على طرابلس الغرب بعد استيلائهم على الجزائر، ومراكش، فأرادوا أن يقعوا وراء ساحل طرابلس كالبنيان المرصوص ليدافعوا عن بيضة الإسلام عندما تطلق أوروبا أساطيلها بسهولة على تلك السواحل» [٢] .

لقد كان ابن السنوسي لا يفرق بين الدين والدولة، بل كان يرى أن الدين والدولة كل لا يتجزأ، ولهذا كانت نظرته إلى الحياة نافذة، استمدها من دينه الذي يدعو إلى الشمول، ولو كان البعد السياسي غائبًا عن ابن السنوسي، لما حاربته حكومة السلطان مولاي سليمان في مراكش، ولما ناصبه العداء حكام الجزائر، ولما أوجس منه حاكم مكة خيفة، ولما تحرش به بعض علماء مصر، ولما اهتمت بشأنه دولة الخلافة، ولما فزعت منه دولة الاستعمار رعبًا وفي مقدمتها فرنسا، ولو كان كمثل شيوخ الطرق الصوفية التقليدية لبقي معززًا محترمًا ولعاش عيشة الخنوع والاستسلام [٣] .

يقول الأستاذ عباس محمود العقاد - رحمه الله - (وكان الشيخ السنوسي -

---

(١) انظر: السنوسي الكبير، ص ١٠٨، ١٠٩ .
(٢) المصدر السابق، ص ١١٦ .
(٣) انظر: السنوسي الكبير، ص ٩٧ .

بخلاف الغالب على مشايخ الطرق - خبيرًا بأحوال السياسة العالمية فوقر في ذهنه أن النابلطان أي الإيطاليين مغيرون لا محالة على برقة في يوم قريب فأوغل بمقامه إلى واحة الكفرة على طريق السودان ليشرف من ثم على تعليم أهل الصحراء جنوبًا وشمالاً وشرقًا وغربًا ويهيئ في جوف الصحراء ملاذًا لمن تقصيهم غارات المستعمرين على السواحل ومدن الحضارة) [١] لقد اعتبر الأوربيون الحركة السنوسية عقبة كأداء في طريق تحقيق أهدافهم الاستعمارية، ولهذا نجد الكاتب الفرنسي دوفريه في غير اعتدال يصاب بحمى الهذيان، فيقول إن السنوسية خطر عام، خطر على أوروبا، وخطر على الدولة العثمانية، وخطر على شمال أفريقيا وخطر على مصر [٢] .

أما السياسي الفرنسي المعروف المسيو هانوتو فيقول: (لقد أسس الشيخ السنوسي في جبهة ليست بعيدة عن الأصقاع التي تلي أملاكنا في الجزائر وطرابلس وبنغازي مذهبًا خطيرًا له أتباع وأنصار متعددون، ومقر هذا الشيخ بلدة جغبوب الواقعة على مسيرة يومين من الواحة التي كان قائمًا بها هيكل البرجيس آمون: إلى أن قال: ومن مذهب الشيخ السنوسي وأتباعه التشديد في القواعد الدينية، ولقد لبثوا زمنًا طويلاً لا يرتبطون بعلاقة مع الدولة العثمانية غير أن هذا لم يمنع السنوسيين من مد حبل الدسائس التي أوقفت بعثاتنا عن كل عمل مفيد لفرنسا في إفريقيا الجنوبية، ولم يكن الأمر قاصرًا على وسط القارة الأفريقية فإنه يوجد بالآستانة نفسها والشام وبلاد اليمن وكذلك مراكش عصابات خفية ومؤامرات سرية تحيط بنا أطرافها، وتضغط علينا من قرب ويخشى أن تعرقلنا إذا ما أغمضنا الطرف عنها [٣].

وقد وصف الفرنسيون اتباع الحركة السنوسية بأنهم أشد صلابة من الحجر الصلد [٤] .

واستدل العلامة محمد رشيد رضا على صدق الحركة السنوسية بما كانت تقوم به

---

(١) انظر: الإسلام في القرن العشرين، ص ١٣٢ .

(٢) انظر: السنوسي الكبير، ص ٤٤ .

(٣) انظر: السنوسي الكبير، ص ٤٤ .

(٤) انظر: السيد محمد رشيد رضا لمحمد أحمد درنيقة، ص ٢٠٢ .

فرنسا من عداوة ومحاربة لهذه الحركة التي أقضت مضاجعها، ولم تكتم فرنسا رغبتها في القضاء على شيخ السنوسية واستئصال قوته [١] .

وقد امتدح محمد رشيد هذه الحركة بقوله: (استطاعت دولة فرنسا إفساد بأس جميع الطرائق المتصوفة في إفريقية واستمالة شيوخها بالرشوة إلا الطريقة السنوسية) [٢] .

إن البعد السياسي عند ابن السنوسي، يتضح للباحث في حملة التوعية التي قام بها ضد الغزو القادم للأمة من قبل الأوروبيين، وتنظيمه للزوايا، وتعبئة الأنصار ؛ بغرس الثقة في دينهم وعقيدتهم، والثقة بقيادتهم، وتأخير الصدام مع الأوروبيين حتى يكتمل البناء .

وتحدث آدمز عن ابن السنوسي وختم كلامه قائلاً: (وعلى أية حال فإن ابن السنوسي كان يتمتع بقدرة تنظيمية غير عادية، وبحس عملي دقيق للأحداث) [٣] .

ووصفه ستودار بأنه (كان رجلاً شديد الهيبة، بعيد الهمة، عظيم الاقتدار على التنظيم والإصلاح) [٤] .

وقال فيه المؤرخ التركي أحمد حلمي: (إن من يمعن النظر في عظمة المقتصد وجلالته وفي قدرة الوسائط وفقدانها وجسامة المشكلات التي اقتحمها المؤسس وقاسها على الجمعيات الأوروبية والشرقية لا يمكنه إلا أن يقف موقف الدهشة أمام عظمة هذا الرجل وبعد غور دهائه) [٥] .

أما محمد الطيب فيقول في شخصية ابن السنوسي: (أمة قوية لا يتطرق إليها الضعف والوهن، فكان عدواً للجهل وخصمًا للاستكانة، وضدًا للأفكار العقيمة) [٦] .

---

(١) المصدر السابق، ص ٢٠٣ .

(٢) انظر: السيد محمد رشيد رضا لمحمد أحمد درنيقة، ص ٢٠٣ .

(٣) انظر: الحركة السنوسية، ص ١٦٥ .

(٤) المصدر السابق نفسه، ص ١٦٦ .

(٥) انظر: برقة العربية أمس واليوم، ص ١٧٨ .

(٦) انظر: برقة العربية أمس واليوم، ص ١٧٧ .

أما الزعيم الليبي السياسي الكبير بشير السعداوي فيقول: (مهما أوتي المؤرخون والكتّاب والشعراء من قوة في البيان وإبداع في البلاغة وهم يتناولون الحقائق عن سيرة السيد السنوسي وأهدافه السامية التي يرمي إليها قد حقق جزءً منها، فلا يستطيعون إيفاء المقام حقه ولن يصلوا إلى معرفة هذا المصلح الإسلامي العظيم، كما ينبغي وكلما توالت الأيام والسنون، فهي تثبت لنا عظمة السنوسي، ونبل مقاصده السامية التي تصلح من شأن المسلمين) [١] .

وأما سالم بن عامر فيصف السنوسية فيقول: (هي طريقة أسست على حكمة علمية واجتماعية وإن أسس هذه الجمعية السنوسية هي الأخوة والتعاون إلى أن يقول: إن الجمعية السنوسية مع أنها طريقة مخصوصة فهي جمعية سياسية أفكارها ومقاصدها معلومة لدى خواص الإخوان والخلفاء، والمشايخ والزعماء . . .) [٢] .

❊ ■ ❊

(١) المصدر السابق نفسه، ص ١٨٤ .
(٢) المصدر السابق نفسه، ص ١٧٨ .

■ الفصل الثاني ■
أسلوبه الدعوي وثروته الفكرية، وصفاته الربانية

المبحث الأول
الأسلوب الدعوي عند ابن السنوسي

كان أسلوب ابن السنوسي في الدعوة إلى الله مستمدًا من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ومن رسالته إلى شيخ زاوية المدينة ابن الشفيع نلاحظ ذلك حيث قال: (... وحسنوا أخلاقكم ولينوا جانبكم للكبير والصغير، قال تعالى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: ٨٣] وقال جل وعلا: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥] وقال ﷺ: ارفقوا فإن الرفق ما كان في شيء إلا زانه، وإن الحمق ما كان في شيء إلا شانه، وارفعوا همتكم عن الخلق)، وقال ﷺ: «ازهد في الدنيا يحبك الله وازهد ما في أيدي الناس يحبك الناس»، عليكم بالمناصحة والمذاكرة وإرشاد عباد الله إليه والمدارسة والاجتماع والتحابب والتوادد فيما بينكم، ولا تباغضوا ولا تدابروا ولا تقاطعوا وكونوا عباد الله إخوانا وعلى البر أعوانا) [١].

ولذلك نجد دعاة الحركة السنوسية يتخذون الرفق واللين في دعوتهم منهجًا، وتعلموا ذلك من مؤسس الحركة ونلاحظ ذلك في عدة أمور منها:

أولاً: التعامل مع الطرق الصوفية:

تميز زعماء الحركة السنوسية بالحلم والرفق ولذلك تجنبوا الاصطدام مع الطرق الصوفية في ليبيا، والحجاز، ومصر، وغيرها، فبدلاً من كسب عدائهم، عملوا على نصحهم والتعاون معهم في أمور الخير، وشيئًا فشيئًا دخل بعض زعماء الطرق الصوفية في ليبيا في بوتقة الحركة السنوسية، وبقيت الطريقة الصوفية المدنية تتمتع بنفوذ محدود لدى قسم القبائل البدوية [٢]، وكانت معاملة السنوسية لباقي الطرق

---

(١) انظر: جامعة السيد محمد بن على السنوسي الإسلامية من رسالة ١٢ ربيع ١٢٢٤هـ .

(٢) تاريخ ليبيا المعاصر، محمود عامر، ص ٣٢ .

فيهـا رفق وتسامح ونصح، واستطاعت أن تبين لأتبـاع الطرق الأخرى الأخطاء التي وقـعت فيـها، كـالغناء، وهز وضرب الدفـوف، وسـارت بمنهجـية حكيـمة حـتى استطاعت أن تهيمن على البوادي، والواحات، والمناطق الداخلية، وأصبح ولاء تلك الأماكن لفكر الحركـة السنوسية، وأصبح نشاط الطرق الأخرى مـحصوراً في المدن، كبنغازي، وطرابلس وغيرها، بعيدة عن الصـراع السياسي العالمي، بعكس السنوسية التي استطاعت أن تصبح حركة سياسية مـؤثرة، ومن أشهر الطرق الصوفية في ليبيا، العروسية، والعيساوية، القادرية، المدنية، السعدية والطيبية، والعزوزية [١].

ثانيًا: عتق ابن السنوسي للعبيد من الأفارقة:

كان ابن السنوسي يهـتم اهتمامًا كـبيراً بدعوة القبـائل الوثنية في إفريقـية، فمن وسائـله في نشر الإسـلام بقلب إفريقـية، أنه اشـترى مـرة قافلة من العـبيـد، كان المستعمرون قد خطفوهم ليعـرضوهم في سوق الرقيق، ولكن ابن السنوسي أعتقهم جميـعًا وأكرمهم وعلمـهم الإسلام، وبث فيه حـبه وتقديره، ثم تركهم لـيعودا إلى قبائلهم وذويهم دعاة يتحدثون عن طغيان المسيحيين وبر المسلمين، فكانوا دعائم مهمة لنشر الإسلام بين أهليـهم وقبائلهم [٢]، وكان يشتري العبـيد من القبائل التي كانت تغـير على القـوافل ليعـتقـهم، وعمل على دعـوة القبـائل إلى الالتزام بـالإسلام، وتخليص العبيد من العبودية وكان ابن السنوسي يشرف بنفسه على تربيتهم وتعليمهم ثم يرسلـهم إلى قـبـائـلهم، ودعـوة الزنوج إلـى الإسـلام، وبفـضل الـله ثم هذا الأسلوب، أصـبحت قـبائـل (واداي في تشاد يرسلون أبنـاءهم لتعلم الإسـلام في الجغبوب وغيرها من الزوايا السنوسية) [٣] .

ثالثًا: التعامل مع القبائل وتوظيفها للدعوة:

اهتم ابن السنوسي في دعوتـه بزعماء القبـائل، واستطاع أن يجعل من بعـضهم

---

(١) انظر: المجتمع الليبي، ص ٣٢٥ .
(٢) انظر: موسوعة التاريخ الإسلامي، محمود شاكر (٤٣٧) .
(٣) انظر: السنوسية دين ودولة، ص ٣٩ .

دعاة إلى الله، كما رأينا في سيرة مرتضى فركاش، وأبو بكر بوحدوث وغيره، واهتم بتوصيل الدعوة إلى الأحياء البدوية، ونظم أمر الدعاة المكلفين بهذه المهمة وحرص على أن يضرب أروع الأمثلة في العفة، والاستغناء عما في أيدي الناس من متاع الدنيا، وقام بإرسال الكثيرين من المرشدين والوعاظ إلى مواطن البدو البعيدة، فكان يرسل بعض إخوانه إلى جهات خاصة، ويحدد لهم مادة عملهم ثم يرسل بمن يخلفهم، ليعود الأوائل لأخذ الراحة .

وكانت إحدى البعثات مؤلفة من السيد مرتضى فركاش، حسين الغرياني، فقاما بالدعوة إلى الله بين القبائل، ومن شدة فرح البدو بهم أهدوا إليهم هدايا من الإبل والبقر والغنم، ولما أكملوا مدتهم ورجعوا إلى ابن السنوسي، وعلم بما حدث احمر وجهه، وظهرت على وجهه علامات التأثر، وقال لهما: ما جئت لأُجمع مالاً ولا لأرغب في الدنيا ولم أرسلكما لتجمعا لي مالاً ولكنني جئت لأنشر علمًا ودينًا، فارجعا بكل ما معكما لتسلمانه إلى أصحابه بالعدد، وقال لدعاته: لا تشقا على أحد ولا أود أن يتكلف أحد بضيافتكما فخذا أمتعتكما وكل ما يلزمكما ولا تتقبلا من الأهالي شيئًا إلا (الزبدة) واللبن (الممخوض) .

وقام الشيخان مرتضى فركاش، وحسين الغرياني، بإرجاع الهدايا إلى أصحابها، فكل من يعطيانه ما كان جاد به يتكدر ويتأثر ويقول لعل ابن السنوسي رفض قبول ما قدمته لشيء في نفسه عني، فيقنعانه بأن ابن السنوسي تمام رضاه في أن تقبل ما جدت به وأن ترسل بابنك إلى الزاوية ليتعلم وأن تحضر معنا دروس الوعظ والإرشاد[1]، وانتشر بين البدو أن ابن السنوسي أمر دعاته بأن لا يشقا على أحد في إكرامهما، فتحايل البدو في إكرام الدعاة إلى الله، فأسلوب ابن السنوسي لم يقتصر على الزوايا، بل أرسل الدعاة إلى القبائل البعيدة لتعم دعوة الإسلام المباركة كل الناس [2] واستطاع ابن السنوسي أن يقنع القبائل البدوية بأهمية الدعوة إلى الله،

(١) انظر: برقة أمس واليوم، ص ١٦٥ .
(٢) انظر: برقة أمس واليوم، ص ١٦٦ .

وخصوصًا تلك التي كانت تتعامل في التجارة مع وثنيي إفريقيا لنشر الدعوة هناك، ومن أشهر تلك القبائل التجارية الصحراوية، أولاد سليمان الطوارق، التبو، المجابرة، الزوية [١] .

رابعًا: ضرب الأمثال عند ابن السنوسي:

استخدم ابن السنوسي وسيلة ضرب الأمثال في أسلوب دعوته وقد استنتج هذه الوسيلة من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، قال تعالى: **﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ﴾** [البقرة، آية: ٢٦]، وإن لضرب الأمثال في القرآن الكريم، والسنة فوائد كثيرة ومنافع جمّة منها:

١- تقرير الحقائق تقريرًا واضحًا جليًّا .

٢- تقريب المراد وتفهيم المعنى وإيصاله إلى ذهن السامع .

٣- تشويق السامع وترغيبه إلى الإيمان والخير والحق المعروف والفضيلة .

٤- تنفير السامه وترهيبه من الكفر والشر والباطل والمنكر .

٥- تذكير السامع ووعظه ليعتبر وينزجر .

٦- تشبيه شيء بشيء في حكمه وتقريب المعقول من المحسوس أو أحد المحسوسين من الآخر واعتبار أحدهما بالآخر .

٧- تأتي لإثارة الانفعالات المناسبة للمعنى المراد، وظهور ذلك على وجه السامع، ولذا فقد اختير لها لفظ الضرب، لأنه يأتي عند إرادة التأثير وهيجان الانفعال، كأن ضارب المثل يقرع به أذن السامع قرعًا ينفذ تأثيره وأثره إلى قلبه وينتهي إلى أعماق نفسه [٢] .

---

(١) انظر: المجتمع والدولة والاستعمار في ليبيا، ص ١٣١ .

(٢) انظر الحكمة والموعظة الحسنة، د . أحمد المورعي، ص ٢٧٤ .

ولذلك استخـدم ابن السنوسي ضـرب الأمثـال في الدعوة والإرشـاد والوعظ والتذكير التي تؤثر في القلوب والنفوس أثرًا بليغًا في قبول الدعوة، وتوصيل المفاهيم إلى الناس ومن ذلك حديثه للإخوان أثناء بناء الجغبوب حيث كان يشرف بنفسه على العمل ويخطط بناء السور على شكل مربع ثم يخاطب الحاضرين فيقول لهم:

«الطير له عقل أم لا؟ فقالوا: لا عقل له فقال: هو لا يضع بيضه إلا فوق جبل شامخ حـتى لا يلحقـه ذيب، ولا ثعلب ولا غيرهمـا» . وقال: اليـربوع له عقل؟ فقالوا له: لا . فقـال: هو يجعل في حجرة طربقة: وهي النافـقاء، فإذا دخل عليه الحنش الأسود عليهـا من هنا وقال: «تلقونها أحـسن المحلات إذا أتى الحنش الأسود عليها من هنا» وأشار بأصبعه السبابة من المشرق إلى المغرب»[١] .

ويلاحظ الباحث أن ابن السنوسي اسـتخدم لغة الحوار والاسـتجواب، وفي هذا الأسلوب دعـوة للتفكيـر، وتشـجيـعًا على المناقـشـة وتعويد الإخـوان على العطاء والمشاركـة وإبداء الرأي، وإن هذا الأسلوب في الحوار والمناقـشة يثـير الانتبـاه لتلقي المعلومات، ويذهب السآمة، ويزيل ما يصـيب النفس من ملل نتيجة الإلقاء الطويل، ويشوق الذهن، وينشط العقل لمواصلة السعي، وبهذا الأسلوب استطاع ابن السنوسي أن يركز على بعض الحقائق لترسيخها في الـنفوس وتثبيتها في القلوب وتحذير إخوانه من الخطر الداهم على بلادهم، والدعوة للاستعداد لمواجهة هذا الخطر .

لقد أشار إلى مجيء الطليان في قوله: إذا أتى الحنش الأسود عليها من هنا .

خامسًا: استخدام القصة عند ابن السنوسي:

إن من طبيعة النفوس البشرية إذا خوطبت تلقائيًّا بكلام نظري مجرد يتبع آخره أوله، فإن جهـدها التفكيري يضعف، واسـتعدادها النفسي يذبل، فـلا تعود تعي أو تفهم شيئًا مما يقال لها، ولذلك استخدم ابن السنوسي الأسلوب القصصي في تجسيد الأحداث على شكل أشخـاص، يتحرك معها القلب، وتنشط لهـا الآذان والعقول، فهي تثير الانتباه والحواس لمتابعة أحداث القصة . ماذا سيحدث؟ .

(١) انظر: الحركة السنوسية، ص ١٥٤ .

إن القصة تعتبر من أنجح الأساليب للتقويم والنصح والإرشاد، فأسلوبها له تأثيراته النفسية، وانطباعاته الذهنية، وحججه المنطقية والعقلية في نفوس المدعوين، فهي تستولي على قلوبهم استيلاءً أشبه بالقهر وما هو بالقهر، وأفعل من السحر وما هو بالسحر لما لها من سرعة نفاذ، وقوة تأثير، واستمرار أثر [١] .

إن الغرض الأكبر من الأسلوب القصصي للدعاة، أخذ العبرة والعظة، قال تعالى: ﴿ **لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ** ﴾ [يوسف، آية: ١١١] .

ولذلك كان ابن السنوسي يكثر من استخدام القصة لتفهيم إخوانه وأتباعه، باعتبارها أسلوبًا مهمًّا، ووسيلة تعليمية ناجحة، ومن ذلك قصة حكاها لابنه وإخوانه يبين لهم فيها أهمية القيادة في الجماعة، وضرورة المحافظة على القائد الذي هو بمثابة الرأس من الجسم والقصة كما قالها محمد المهدي السنوسي: «كنت جالسًا مع سيدي ﷺ وتكلم معي طويلاً في الرحلة مقبلاً لجهة الجنوب ثم حكى لي حكاية بأنه كان كبير قوم ارتحل هو وقومه من مكان إلى مكان، فبينما هم في أثناء الطريق وإذا بالعدو قد ظهر عليهم فالتفتوا إلى جميع الجهات ينظرون ملجأ يأوون إليه، فلما لم يروا شيئًا قالوا لم يبق إلا القتال، وكبير القوم معه ولد، فصار الولد كلما رأى العدو آتيًا من جهة حوّل أباه إلى جهة أخرى، فقال له بعض القوم: أنت ما شغلك إلا أبوك . قال لهم: نعم رجل كألف وألف خفاف كاف . فقال ﷺ صدق الولد، متى كان الرأس موجودًا، فالذي يذهب يأت الله بمن يكون مثله أو فوقه أو دونه» [٢] .

سادسًا: استعماله للشدة في موقف الشدة:

كان الأصل في أسلوب ابن السنوسي استعماله اللين والرفق، ومعاملة الناس بالحسنى والتودد إليهم وكسب قلوبهم، ولكن في بعض الأحوال والظروف كان

---

(١) انظر: الحكمة والموعظة الحسنة، ص ٢٨٨ .

(٢) انظر: الحركة السنوسية، ص ١٥٤ .

يستخدم الشدة لكونها أنسب، وأوقع، وأعمق أثرًا، فكان يقدر للأمور قدرها ويعطي كل موقف من اللين والرفق أو الشدة والحزم، قال الشاعر:

فقسا ليزدجروا ومن يك حازمًا فليقس أحيانًا على من يرحم [١]

قال بعض المفسرين في قوله تعالى: ﴿ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾ [البقرة: ٨٣].

إن القول الحسن ليس هو عبارة عن القول الذي يشتهيه المدعو ويوافق هواه ويحبه بل القول الحسن هو الذي يحصل انتفاعه به سواء حصل عن طريق اللين، والرفق أو الشدة والحزم، وعلى هذا قد تكون الشدة من القول الحسن [٢] .

لذلك كان ابن السنوسي ضابطًا لأتباعه يحسن توجيههم ولا يتهاون في معاقبة المنحرف منهم . وقد حكى أحمد الشريف في رحلته عن أحد شيوخ الحركة واسمه المدني التلمساني، أنه كان مقدم إحدى الزوايا في الصحراء "فثار بها للجهاد في كافر وأمه جاءا سائحين، الكافر يداوي الرجال وأمه كحالته تداوي النساء، فلم يشعرا إلا والمجاهد قد قام عليهما ومعه المعاون سيدي عبد الهادي الفاسي خرجا بسلاحيهما حامل غدرية عربية وبندقية قصيرة والمعاون متقلدًا سيفًا قد أخرج من نصله قدر ثلاثة أصابع لإرهاب العدو، فصادفا حاكم البلاد وهو تركي ؛ فقال لهم القائم للجهاد: اليوم يخرج النصراني من البلاد، فقال له: أمهله اليوم وغدًا يخرج فقال المجاهد لا بد أن يخرج اليوم، فتلطف التركي معه فلم يفد . واشتد الخصام بين القائد التركي وبين الشيخ وتراشقا بالكلام وحدثت فتنة عظيمة ؛ فلما وصل الخبر إلى ابن السنوسي أرسل إليهما وعندما وصل المعاون قبل القائم فهجره أيامًا حتى قدم مقدم الزاوية فخاصمهما وقال لهما: أنا أرسلتكما للقراءة والدلالة على الخير أو أرسلتكما حاكمين؟ ولم يرجعا إلى محلهما) [٣] .

فهذه الحادثة تعطي للباحث فكرة عن ضيق أفق مقدم الزاوية وعن موقف ابن

---

(١) انظر: شرح الحماسة للمرزوقي (٣/ ١١٢١) .

(٢) انظر: مفاتيح الغيب للرازي (٣/ ١٦٨) .

(٣) انظر: الرحلة، لأحمد الشريف، مخطوط ص ٢٠ .

السنوسي من انحرافه، وعن الأسلوب الذي اتبعه في عقابه ؛ فهو يهجر المعاون أيامًا دلالة على شدة غضبه ثم يخاصم الاثنين، ويبين لهما انحرافهما عن مهمتهما كدعاة ويعزلهما عن عملهما، وموقفه الشديد هذا لا يستغرب لأن تصرفهما كان يخالف كلية خطة ابن السنوسي في الدعوة إلى الله بالحكمة وعدم الاحتكاك بالسلطة [١] .

سابعًا: من رسائل ابن السنوسي الدعوية:

كانت رسائل ابن السنوسي التي يبعث بها إلى الإخوان أو لغير الإخوان، تتجلى فيها شخصيته الدعوية، ففي رسالة بعث بها في محرم ١٢٧٦هـ إلى شيخ زاوية الطيلمون مصطفى المحجوب يقول موصيًا الإخوان: (والوصية لكم بالوقوف في باب الله بالجد والاجتهاد، ودلالة الخلق إلى سبيل الرشاد، بالقول والعمل، والتخلي عن التواني والكسل، وابذلوا الوسع في حصاد الزرع والدراس والتحفظ عليه من التشتيت بأيدي الناس، ومثلكم لا يؤكد عليه ولا يحتاج إلى توصية فيما هو بين يديه، جعلك الله دليلاً للسعادة مراعيًا قوله تعالى: ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس:٢٦] [٢] .

فكان ابن السنوسي - رحمه الله - في هذه الرسالة يحث إخوانه على الجد والاجتهاد، ودعوة الناس إلى سبيل الرشاد، بالقول والعمل، ويدعوهم إلى ترك التواني والكسل، وأن يستعدوا للآخرة، كأن آجالهم تأتي غدًا، والعمل للدنيا، كأنما يعيشون أبدًا، ولذلك حثهم على حصاد الزرع، والدارس، والتحفظ عليه من التشتيت بأيدي الناس، ويطلب منهم الإحسان في أعمالهم الدنيوية والأخروية .

هذه بعض الخطوط العريضة التي تبين لنا أسلوب ابن السنوسي الدعوي .

* ■ *

(١) انظر: الحركة السنوسية، ص ١٥٥ .
(٢) انظر: الحركة السنوسية، ص ١٥٨ .

المبحث الثاني
الجانب الفكري عند ابن السنوسي من خلال كتبه

إن فهم أفكار ابن السنوسي يمكننا الوصول إليها من خلال مؤلفاته التي ضمنها آراءه في عدد من المواضيع، وهذا مهم لفهم الحركة السنوسية لم يستطع المؤرخون أن يحصروا عدد الكتب التي ألفها ابن السنوسي، ذلك أن الكثير منها فقد، وطبع بعضها، ولا يزال البعض الآخر، كمخطوطات، وحاول الدكتور محمد عبد الهادي شعيرة إجراء بحث عن (سيرة ابن السنوسي الكبير وفقد المصادر) [١]، وقد اختلف مؤرخو الحركة في ذكر الكتب التي ألفها ابن السنوسي ؛ فزيادة نقولا يذكر أن السنوسي الكبير كتب تسعة كتب أحدها كان شعرًا [٢]، أما محمد فؤاد شكري، فيذكر أسماء خمسة كتب مطبوعة وثلاثة لم تطبع [٣]، وأما الأشهب فيقول ثمانية كتب طبعت وتسعة لم تطبع [٤]، وأما إسماعيل باشا البغدادي في كتابه (هداية العارفين في أسماء المؤلفين وآثار المصنفين) نسب لابن السنوسي خمسة وثلاثين مؤلفًا بين كتاب ورسالة ذكر أسماءها [٥]، ولقد ضاعت كتب كثيرة لابن السنوسي نتيجة لاحتلال ايطاليا للكفرة، ونتيجة لاحتراق المكتبة في مدينة سلوق.

وعلى أية حال فإن الكتب المطبوعة من مؤلفات ابن السنوسي هي:

١- كتاب المسائل العشر المسمى بغية المقاصد في خلاصة الراصد . مطبعة المعاهد بالقاهرة: آخر ١٣٥٣هـ.

٢- السلسبيل المعين في الطرائق الأربعين: وهو بهامش الكتاب السابق .

٣- المنهل الروي الرائق في أسانيد العلوم وأصول الطرائق، الطبعة الأولى ١٣٧٣هـ/ ١٩٥٤م مطبعة حجازي القاهرة .

---

(١) نشر البحث في مجلة كلية الآداب في الجامعة الليبية المجلد الأول، ص ١٨٩ .

(٢) انظر: برقة الدولة العربية الثامنة، ص ٧٣ .

(٣) انظر: السنوسية دين ودولة، ص ٤١ .

(٤) انظر: السنوسي الكبير، ص ٨١ .

(٥) انظر: الحركة السنوسية، ص ١٣١ .

٤- إيقاظ الوسنان في العمل بالحديث والقرآن، الطبعة الأولى ١٣٥٧هـ/ ١٩٣٨م، مطبعة حجازي القاهرة .

٥- الدرر السنية في أخبار السلالة الإدريسية، الطبعة الأولى ١٣٤٩هـ مطبعة الشباب بالقاهرة ، الطبعة الثانية ١٣٧٣هـ مطبعة الشباب بالقاهرة .

٦- رسالة المسلسلات العشرة في الأحاديث النبوية، ١٣٥٧هـ ، مطبعة الشباب بالقاهرة .

٧- رسالة مقدمة موطأ الإمام مالك، الطبعة الأولى ١٣٧٤هـ مطبعة الشباب القاهرة .

٨- شفاء الصدر بأري المسائل العشر [1] (الأري: العسل)، ١٣٦٠هـ مطبعة المحمودية .

أما الكتب التي لم تطبع وورد لها ذكر في الكتب المطبوعة مما يؤكد وجودها فهي:

١- الشموس الشارقة في أسانيد شيوخنا المغربة والمشارقة: ورد ذكره في (المنهل الروي) ص(٦) يسميه ابن السنوسي (فهرستنا الكبرى)، وورد ذكره أيضًا في هدية العارفين تحت اسم (الشموس الشارقة في تراجم مشايخي المغاربة والمشارقة) .

٢- الدور السافرة في عوالي الأسانيد الفاخرة: ورد ذكره في (المنهل) صفحة (٦) وهو فهرسة صغرى منتخبة من الكبيرة . وورد في هداية العارفين بعنوان (البدور السافرة في اختصار الشموس الشارقة) .

٣ - الكواكب الدرية في أوائل الكتب الأثرية: ورد ذكره في (المنهل) صفحة (٧). وورد في هداية العارفين بنفس العنوان مجردًا من (ال التعريف) . وهو كتاب يتناول ذكر الكتب التي درسها ابن السنوسي، وأسماء العلماء الذين أخذ عنهم. وقد ذكر مؤلفه أبوابه في كتابه (المنهل) باعتباره سار على نهجه في تأليفه .

---

(١) انظر: السنوسي الكبير، ص ٨١ .

٤- سوابغ الأيد بمرويات أبي زيد: ورد ذكره في (المنهل) وفي هداية العارفين . وموضوعه فهارس المشايخ الذين درس عليهم ابن السنوسي .

٥- رسالة جامعة في أقوال السنن وأفعالها، وهي منظومة توجد - كما يقول الأشهب - بمكتبة الملك . ولا يرد لها ذكر في (هداية العارفين) .

٦- هداية الوسيلة في اتباع صاحب الوسيلة . وهي منظومة وتوجد بمكتبة الملك وقد وردت في (هداية العارفين) .

٧- طواعن الأسنة في طاعني أهل السنة .

٨- رسالة شاملة في مسألتي القبض والتقليد، ويقول الأشهب: إنها موجودة بمكتبة الملك .

٩- رسالة السلوك، موجودة بمكتبة الملك، وردت في هداية العارفين بعنوان (منظومة السلوك. . .) .

١٠- شذور الذهب في محض محقق النسب، موضوعه تاريخ أسلاف ابن السنوسي [١] .

هذه أهم الكتب التي ألفها ابن السنوسي وقد شملت هذه المؤلفات عدداً من المواضيع، وكان أكثرها يتناول مباحث فقهية وصوفية، وفيها كتاب أو كتابان يتناولان مواضيع تاريخية، ونكتفي باختيار ثلاثة نماذج من تأليفه لنسلط عليها الأضواء ونأخذ فكرة موجزة عنها:

أولاً: المنهل الروي الرائق في أسانيد العلوم وأصول الطرائق:

إن هذا الكتاب يعطي الباحث فكرة عن العلوم التي درسها ابن السنوسي، والطرق التي تعرف عليها، والعلماء الذين أخذ عنهم في الحالين، ويظهر من عرض الكتاب أن ابن السنوسي كان بحراً في العلوم، وأن دراسته جمعت الجانبين الفقهي

---

(١) انظر: السنوسي الكبير، ص ٨٣ .

والصوفي [1]، وقد بين سبب كتابة هذا الكتاب فقال: (فقد وقع الاجتماع في بعض ما قدر لنا من الرِّحل حال الترحال من محل إلى محل بجماعة وافرة وعصابة فاخرة ذوي علوم زاخرة، وخيم عاطرة، فكم فيها جهابذة نحارير وأئمة نقد فائق التحارير ما بين مريد السلوك إلى عرفان مالك الملوك، ومريد الأخذ والإجازة رائم التبرك بأسانيد من أجازه، في أقطار واسعة برحابها الشاسعة منهم زمر بنواحي الأعراض وأطراف الجريد وآخرون بطرابلس الغرب وآخرون مراسلون من تونس وما حواليها من البلاد . . . وآخرون بالمعمور من زوايا برقة القافرة . . فحصلت بيننا وبين من أمكن الاجتماع به منهم المؤاخاة الأكيدة والخلة السديدة مع تواتر المزاورات ولذيذ المحاورات ؛ فتشوقت إذا ذاك أنفسهم الزكية . . إلى الأخذ والإجازة بما لها من القوانين المستجازة ؛ فطلبوا لذلك من هذا العبد الحقير، البائس الفقير الإجازة والإخبار بجميع مروياته ؛ وما وصل إليه من هذا الشأن ولا من فرسان ذلك الميدان بل لا أرى نفسي أهلا لأن يجاز فضلاً عن أن يستجاز كما قيل:

فلست بأهل أن إجاز فكيف أن ... أجيز ولكن الجنون فنون

ولكنهم لعظيم فضلهم وعلو مكانتهم، وجزالة قدرهم، وشغوف استكانتهم، لا يستطاع ردهم، ولا يخيب قصدهم، فكان كالمسوغ لذلك الخطب الهائل، لعاري الأهلية ذي الجيل العاطل ؛ تمثلاً بما قيل:

فتشبهوا إن لم يكونوا مثلهم ... إن التشبه بالكرام رباح

إذ ما لا يدرك كله لا يترك قلّه، استرواء بالثمد الضنين عند فقد المعين ويرحم الله القائل:

لعمر أبيك ما نُسِبَ المعُلاّ ... إلى كرم وفي الدنيا كريم

ولكن البلاد إذا اقشعر ... وصوّح نبتها رُعى الهشيم

---

(١) انظر: الحركة السنوسية، ص ١٣٩ .

وما أشبه الحال بقول القائل:

إذا غاب ملاح السفينة وارتمت بها الريح يومًا دبرتها الضفادع

ثم يقول، فاستخرت الله تعالى واجزتهم بجميع ما يصح لي وعني روايته [1].

إن الكلام السابق الذي ذكرته يدل على تواضع ابن السنوسي وهضمه لنفسه، وحبه لأخوانه وتلاميذه.

إن ذلك الكتاب فيه اثنا عشر بابًا في أشهر الكتب في شتى العلوم، ومقدمة، وخاتمة، ويعطينا فكرة واضحة عن العلوم التي درسها، وقد أخذ ابن السنوسي أسانيد الكتب الأئمة العشرة عن شيوخه، وهي، موطأ الإمام مالك، ومسانيد الأئمة الثلاثة، مسند الإمام أبي حنيفة، ومسند الإمام الشافعي، ومسند الإمام أحمد، والكتب الستة، صحيح البخاري، وصحيح مسلم، وسنن أبي داود، وسنن الترمذي، وسنن النسائي المجتبي، وسنن ابن ماجة، وفي الباب الثاني ذكر بعض مشاهير السنن وهي عشرة، سنن الإمام الشافعي، وسنن أبي عثمان سعيد بن منصور الروزي البلخي الخراساني، وسنن النسائي الكبرى وسنن الكشّي، وسنن البيهقي الكبرى والصغرى، وسنن الدراقطني، والسنة للحافظ أبي بكر الضحاك، والسنة للحافظ أبي القاسم هبة الله الطبري، والسنة للإمام أحمد بن حنبل، وثالث باب منه على بعض مشاهير المسانيد وهي عشرة، مسند أبي داود الطيالسي ومسند عبد بن حميد أبي يعلى الموصلي، ومسند ابن أبي أسامة، ومسند ابن الزبير الحميدي، ومسند الحميدي، ومسند الفردوس، ومسند ابن أبي شيبة، ورابع باب منه على بعض مشاهير الصحاح الزائده على الستة أو السبعة أو الثمانية السابقة وهي عشرة، صحيح ابن حبان، وصحيح ابن خزيمة، صحيح الحاكم، وصحيح الإسماعيلي، وصحيح أبي عوانة، وصحيح الدارمي، وصحيح ابن نعيم المستخرجان على الصحيحين البخاري ومسلم، وصحيح ابن الجارود، وصحيح الضياء المقدسي المسمى بالمختارة، وخامس باب منه على بعض مشاهير المعاجم وهي عشرة، معاجم الطبراني

---

(١) انظر: المنهل الروي الرائق، ص ٦، ٧.

الثلاثة، ومعجم أبي يعلى الموصلي، ومعجم ابن جميع الغساني، ومعجم ابن قانع البغدادي، ومعجم الإسماعيلي، ومعجم التنوخي، ومعجم الحاكم، ومعجم الصحابة للبغوي، وسادس باب منه على بعض مشاهير الجوامع وهي عشرة، جامع الأصول الرزين العبدري، جامع الأصول لابن الأثير الجزري، وجامع عبد الرزاق الصنعاني، وجامعا السيوطي الكبير والصغير، وذيله وجامعهما للمتقي المسمى بكنز العمال الجامع للجامع الصغير، والذيل له المسمى بمنهاج العمال، والجامع المسمى بمجمع الزوائد للإمام الهيثمي، والجامع المسمى بجمع الفوائد من جامع الأصول، ومجمع الزوائد لابن سليمان الروداني، والجامع المسمى بكتاب الأصول إلى الأحاديث الزائدة على جامع الأصول، وسابع باب منه عل بعض مشاهير المختصرات وهي عشرة، مختصر جامع الأصول المسمى بتجريد الأصول للبارزي، ومختصر جامع الأصول أيضًا المسمى بتيسير الوصول للربيع الشيباني الزبيدي، ومختصره أيضًا لمحمد طاهر الصديقي الفُتّني ومختصر البخاري ومسلم، بالجمع بينهما للحميدي، ومختصر بهما بالجمع بينهما للصاغاني المسمى بمشارق الأنوار، ومختصر البخاري للشرجي، ومختصره للسندي، ومختصرهما، ومختصر مسلم للمنذري، ومختصر مسلم للسلمي، ومختصر أبي داود للمنذري، وثامن باب منه على بعض مشاهير كتب الأحكام الجامعة وهي عشرة، كتابا الأحكام الكبرى والصغرى لعبد الحق الأشبيلي، وكتاب المنتقى لمجد الدين عبد السلام بن تيمية الحراني، وكتاب الأموال للقاسم بن سلام الأزدي، وكتاب الآثار لمحمد بن الحسين الشيباني، وكتاب بلوغ المرام لابن حجر العسقلاني، وكتاب الأعلام لشيخ الإسلام زكريا الأنصاري، وعمدة الأحكام لعبد الغني المقدسي والمصابيح للبغوي، ومشكاة المصابيح للخطيب التبريزي، وتاسع باب منه على بعض المشاهير كتب السير والشمائل وهي عشرة، الشفا للقاضي عياض، الخصائص الكبرى للسيوطي، كتاب الشمائل للترمذي، دلائل النبوة للبيهقي، سيرة ابن هشام، تهذيب سيرة ابن إسحاق، تهذيبهما للسلمي، سيرتا ابن سيد الناس الكبرى والصغرى ؛ الاكتفاء للكلاكي، سيرة

الحلبي، المواهب اللدنية للقسطلاني، وعاشر باب منه على بعض مشاهير الأربعينات والأجزاء والمصنفات، فمن الأربعينات الأربعون للقاضي عبد العزيز ابن جماعة الكناني، والأربعون النووية، والأربعون المكية، والأربعون الباجورية، والأربعون الشحامية، والأربعون الجوزقية، والأربعون الهاشمية، والأربعون المنذرية، والأربعون السلمية، .... ومن المصنفات، مصنف أبي بكر بن أبي شيبة ومصنف عبد الرزاق الصنعاني، ومصنف وكيع بن الجراح، ومصنف حماد بن سلمة الرفعي، وحادي عشر باب منه على خمسة أنواع مشتملة على ما يزيد على مائة كتاب ...، وثاني عشر باب منه على نحو أربعين تفسيراً وهي على قسمين القسم الأول في تفاسير السلف مما غالبه مأثور، والثاني في تفاسير الخلف ؛ فالأول، كتفسير ابن جريح الذي هو أول ما صنف في التفسير، وتفسير الإمام مالك بن أنس راوية الجعابي، وتفسير السفيانين الثوري وابن عيينة، وتفسير الإمام أحمد، وتفسير ابن أبي شيبة ابن جرير الطبري، وتفسير ابن راهوية، وتفسير ابن مردويه، وتفسير عبد بن حميد، وتفسير وكيع، وتفسير أبي العالية، وتفسير مجاهد، وتفسير الضحاك، وأضرابهم ؛ والقسم الثاني، كتفسير ابن عطية والقرطبي، والبغوي، والثعالبي، وتفاسير الواحدي الثلاثة، والكشاف للزمخشري، ومختصر الكواشي، وتفسير الديريني والبيضاوي، والنسفي وأبي الليث السمرقندي، والبكري، والقشيري، والحاتمي، والغزالي، والحداد، والغزنوبي، وأبي حيان البحر والنهر، والجلالين، والدر المنثور للسيوطي، وابن جُزَيّ والثعالبي، وأبي السعود وأضرابهم (١) .

إن ابن السنوسي - رحمه الله تعالى - اجتهد في طلب العلم، وشد الرحال إلى العلماء، وقد ذكر في كتابه المنهل الروي الرائق، أسماء العلماء والشيوخ، والفقهاء الذين أخذ عنهم، ولازمهم، ولقد كان على يقين راسخ أن الدعوة إلى الاصلاح والنهوض بالأمة تحتاج إلى العلم الرباني الذي هو ركن من أركان الحكمة ولذلك حرص على الوصول إليه، وطرق أسبابه والتي من أهمها:

---

(١) انظر: المنهل الرائق، ص ٨، ١٢ .

١- أن يسأل العبد ربه العلم النافع، ويستعين به تعالى، ويفتقر إليه، وقد أمر الله نبيه محمد ﷺ بسؤاله أن يزيده علمًا إلى علمه [١]، فقال تعالى: ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ [سورة طه، آية ١١٤] .

٢- ومنها: الاجتهاد في طلب العلم، والشوق إليه، والرغبة الصادقة فيه ابتغاء مرضاة الله تعالى، وبذل جميع الأسباب في طلب علم الكتاب والسنة [٢]، وما أروع ما قال الشافعي:

أخي لن تنال العلم إلا بستة ... سأنبيك عن تفصيلها ببيان

ذكاء، وحرص، واجتهاد، وبلغة ... وصحبة أستاذٍ وطول زمان [٣]

٣- ومنها: اجتناب جميع المعاصي بتقوى الله تعالى فإن ذلك من أعظم الوسائل إلى حصول العلم .

قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا ﴾ (سورة الأنفال: ٢٩) .

٤- منها: عدم الكبر والحياء عن طلب العلم، قال مجاهد: (لا يتعلم العلم مستحٍ ولا مستكبر) [٤].

٥- ومنها، بل أعظمها ولُبُّها: الإخلاص في طلب العلم، قال ﷺ : (من تعلم علمًا مما يبتغي به وجه الله - عز وجل - لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضًا من الدنيا لم يجد عرف الجنة يوم القيامة) [٥] يعني: ريحها.

٦- العلم بالعمل[٦]: لأن العلم لا يكون ركنًا من أركان الحكمة ودعائمها إلا بالعمل، والإخلاص، والمتابعة .[٧]

هذه بعض الأسباب التي اتخذها ابن السنوسي حتى وصل إلى ما وصل إليه،

---

(١) انظر: تفسير الإمام البغوي (٣/ ٢٣٣) .

(٢) انظر: تفسير السعدي (٥/ ١٩٤) .

(٣) انظر: ديوان الشافعي، ص ١١٦ .

(٤) انظر: البخاري مع الفتح، كتاب العلم، باب الحياء في العلم (١/ ٢٢٨) .

(٥) انظر: أبو داود، باب في طلب العلم لغير الله (٢/ ٣٢٣) .

(٦) انظر: الحكمة في الدعوة إلى الله، سعيد القحطاني، ص ٥٣ .

(٧) المصدر السابق نفسه، ص ٥٣ .

وكان عظيم الاحترام للعلماء، ويرى لا وصول إلى العلم النافع بعد توفيق الله إلا من خلالهم وما أجمل ما قاله السخاوي: (من دخل في العلم وحده خرج وحده) أي من دخل في طلب العلم بلا شيخ خرج منه بلا علم [(١)] .

ثانيًا: الدرر السنية في أخبار السلالة الإدريسية:

وهذا الكتاب ألفه ابن السنوسي في التاريخ، ويتحدث عن ملوك الأدراسة الذين حكموا المغرب والدول التي أقاموها . وفي مقدمته يتحدث عن فضل علم التاريخ، فنقل ما قاله المقريزي: (لا خفاء أن معرفة علم التاريخ المشتمل على علم الأنساب من الأمور المطلوبة، والمعارف المندوبة، لما يترتب عليه من الأحكام الشرعية والمعارف الدينية. . .)[(٢)]، وذكر أن من الصحابة كان أبو بكر ﷺ نسابة قريش، ومن أعلم الصحابة في معرفة القبائل وأصولها، وفروعها، وتحدث عمن ألف في علم التاريخ. وذكر منهم ؛ عبيد القاسم بن سلام، والبيهقي، وابن عبد البر، وابن حزم وغيرهم، ثم قال: وذلك دليل شرفه ورفعه قدره) [(٣)] ، وهذا الكتاب يحتوي على مقدمة وست دول، الدولة الأولى الفاسية وما في أيالتها، الدولة الثانية التلمسانية وما في نواحيها، الدولة الثالثة الغمارية وما في حكمها، الدولة الرابعة السبتية وما في حكمها، الدولة الخامسة الأندلسية وما في حكمها، الدولة السادسة الصحراوية وما في حكمها) [(٤)] ثم أشار إلى المراجع التي تعين الطالب على الإلمام بهذه الدول فقال: (وسترى لك واحدة بيانًا شافيًا على ما عند صاحب القرطاس والمغرب، وما في العبر لابن خلدون التونسي، وما في سلاسل الفصول لابن خلدون التلمساني وما في عمدة الطالب لابن عنبة) [(٥)] .

قام ابن السنوسي في هذا الكتاب بسرد أخبار هذه الدول، وتطرق إلى تاريخ

---

(١) انظر: كتب في الساحة الإسلامية، عائض القرني، ص ٩ .
(٢) انظر الدرر السنية في أخبار السلالة الأدريسية، ص ٥ .
(٣) المصدر السابق نفسه، ص ٧ .
(٤) انظر: الدرر السنية في أخبار السلالة الادريسية، ص ٩ .
(٥) المصدر السابق نفسه، ص ٩ .

الفتح في المغرب، وإلى مجيء إدريس الأكبر إليـه، ثم ختم كتابه بذكر أسماء حكام المسلمين من عهد الراشدين [١] وذكر خامسهم الحسن بن علي رضي الله عنه . ثم أثبت ذكر خلفاء بني أمـية جمـيعًا، حـتى إذا فرغ من ذلك أتبعـهم بخلفاء بني العـباس [٢]، ونلاحظ في مقدمة الكتاب اعتقاد ابن السنوسي بوجوب كون الأئمة من قريش وكان أسلوبه في كتـابه هذا الكتاب على منوال أساليب مـؤرخي المسلمين عامة، وهو فـيه يقـوم بالسـرد دون التحليـل والتعليل، ومـادة الكتـاب تدل على غـزارة اطلاع ابن السنوسي[٣] وتذوقه للشعر حيث نجد مقتطفات جميلة من الأشعار، كقول إدريس بن إدريس لنفسه:

لو مال صبري بصبر الناس كلهم　　لكل في روعتي وظل في جزعي
بـــات الأحبة واستبدلت بعدهم　　همًّا مقيـمًا وسلمًا غيـــر مجتمع
كأنني حـين يجري الهـم ذكرهـم　　على ضميـري مجبول على الفزع
تأوى الهموم إذا حركت ذكرهم　　إلى جوارح جســم دائم الجـزع[٤]

وكقــول أبي محجن الثقـفي الذي تمثل به أبو المهاجر ديـنار قبل استشـهاده مع عقبة:

كفى حزنا أن تطعن الخيـل بالقنا　　وأتــرك مشـــــدودًا على وثاقيا
إذا قمت عناني الحديـد وأغلقت　　مصـــارع أبـــواب تضم المناديا [٥]

وكقول الإمام ابن غازي:

وفتح الغرب لسـوس الأقصى　　موسـى وطـارق بمـا لا يحصى
وجـــاءنا إدريس عـــام قعب　　وبنيت فاس في عـــــام قضب [٦]

---

(١) انظر: الحركة السنوسية، ص ١٤٠ .
(٢) انظر: السنوسية دين ودولة، ص ٤٢ .
(٣) انظر: الحركة السنوسية، ص ١٤١ .
(٤) انظر: الدرر السنية، ص ١٢ .
(٥) المصدر السابق نفسه، ص ٣٠ .
(٦) المصدر السابق نفسه، ص ٤١ .

وكقول الحسين بن علي ﷺ:

وإن تكن الدنيا تعد نفيسة ... فإن ثواب الله أعلى وأنبل
وإن تكن الأرزاق قسمًا مقدرًا ... فقلة حزم المرء في الكسب أجمل
وإن تكن الأموال للترك جمعها ... فما بال متروك به المرء يبخل [(١)]

وكقول الفقيه أبي عبد الله المغيسي في وصف فاس متشوقًا إليها حين ولي القضاء بمدينة أزمور، حيث قال:

يافاس حيا الله أرضك من ثرى ... وسقاك من صوب الغمام المسبل
يا جنة الدنيا التي أربت على ... حمص لمنظرها البهي الأجمل
غرف على غرف ويجري تحتها ... ماء ألذ من الرحيق السلسل
وحدائق من سندس قد زخرفت ... بجداول كالأيم أو كالفيصل
وبجامع القروي شرف ذكره ... أنسى بذكراه بهيج مؤمل
وبصحنه زمن المصيف محاسن ... فوق العش الغرب منه استقبل [(٢)]

كما أن في هذا الكتاب يتعرض لذم المبتدعة، كالرافضة والمعتزلة، والجبرية، وقال: ذكر أهل العلم من فضائل المغرب أن الله حماه من فرق المبتدعة، كالمعتزلة، والرافضة، والجبرية [(٣)]، كما يعرّض بمذهب محمد بن تومرت عندما تعرض لشيوخه ورحلته في طلب العلم حيث قال: (.. وذهب إلى رأيهم في تأويل المتشابه من الآيات، والأحاديث، بعد أن كان أهل المغرب بمعزل عن أتباعهم في التأويل، والأخذ برأيهم فيه اقتداء بالسلف في ترك التأويل، وإقرار المتشابهات، كما جاءت، فمنع أهل المغرب من ذلك وحملهم على القول بالتأويل، والأخذ بمذاهب الأشعرية في كافة العقائد، وأعلن بإمامتهم، ووجوب تقليدهم وألف العقائد على رأيهم مثل (المرشدة) [(٤)] في التوحيد، وكان من رأيه القول بعصمة الإمام عليّ رأي الإمامية من

(١) انظر: الدرر السنية، ص ٧٢ .
(٢) المصدر السابق نفسه، ص ٩٩ .
(٣) المصدر السابق نفسه، ص ٩٠ .
(٤) لقد ذكرت تفنيد عقائد المرشدة في كتابي دولة الموحدين، ونقلت، ما قاله ابن تيمية في الفتاوى .

الشيعة، وألف في ذلك كتابه في الإمامة الذي افتتحه بقوله (أعز ما يطلب) وصار هذا المفتتح لقبًا على ذلك الكتاب . . .) [(١)] .

إن ابن السنوسي في دراسته الطويلة لم يهمل الجانب التاريخي، لقناعته الراسخة، بأهمية هذا العلم في تحقيق الفوائد التربوية، وإدراك السنن الربانية، ومعرفة معالم تاريخ الإنسانية، ومعرفة تاريخ الأنبياء، ومعرفة سيرة النبي ﷺ ، ومعرفة تاريخ الخلفاء الراشدين، وسير العلماء والمجاهدين والدعاة، وأثر الإسلام في حياة البشر، والتعرف على بعض الحقائق في حياة البشر، ككون الإنسان يحتاج إلى التذكير، ولا بد من الصبر على المشاق لحقيق الأهداف النبيلة .

ثالثًا: إيقاظ الوسنان في العمل بالحديث والقرآن:

تحدث ابن السنوسي في هذا الكتاب عن وجوب العمل بالحديث والقرآن الكريم، وقد صنفه في مقدمة ومقصد، وخاتمة، أما المقدمة، فقد بين فيها جلالة مقدار الأئمة، فقال: اعلم أنه يجب على المسلمين، بعد موالاة الله ورسوله موالاة المؤمنين، وبالخصوص موالاة العلماء العاملين، الذين حازوا بوراثة الأنبياء كل فخر، وصاروا نجوم هدى يقتدى بهم في ظلمات البر والبحر، وأجمع العلماء على هدايتهم ودرايتهم، إذ كل أمة بعد بعث محمد ﷺ علماؤها شرارها، إلا المسلمين ؛ فعلماؤهم خيارهم، فإنهم خلفاء الرسول في أمته والمحيون لما مات من سنته، بهم قام الكتاب وقاموا به، وبهم نطق وبأسراره نطقوا كل بحسبه، فلا يجوز لأحد أن يعتقد أن أحدًا من الأئمة المقبولين عند الأمة قبولاً عامًّا يتعمد مخالفة الرسول ﷺ في شيء من سنته جل أو دق كيف وهم محيوها والمتفقون اتفاقًا يقينيًّا على وجوب اتباعها وأنه يؤخذ من قول كل أحد ويترك إلا قوله ﷺ [(٢)] .

إن ابن السنوسي سار على منهج، أهل السنة والجماعة في نظرته إلى علماء الأمة قال الطحاوي – رحمه الله –: (وعلماء السلف من السابقين، ومن بعدهم من

---

(١) انظر: الدرر السنية، ص ١١٩ .

(٢) انظر: إيقاظ الوسنان، ص ١٢ .

التابعين، أهل الخير والأثر، وأهل الفقه والنظر، لا يذكرون إلا بالجميل، ومن ذكرهم بسوء فهو على غير السبيل) .

ثم اعتذر للعلماء الذين خالفوا ما صح عن النبي ﷺ ، وقال لا بد أن لهم عذرًا، وجماع الأعذار ثلاثة:

١- عدم اعتقاده أن النبي ﷺ قاله .

٢- عدم اعتقاده أنه أراد تلك المسألة بذلك القول ترجع إلى عشرة أسباب هي ؛ عدم بلوغ الحديث، عدم ثبوته، وضعفه بالأسباب المعروفة من فن مصطلح الحديث، أو اشتراط ما لا يشترط غيره، أو عدم الدلالة منه، أو عدم اعتبارها، أو معارضتها، بما يدل على أنها غير مرادة، أو معارضة الحديث بما يدل على ضعفه أو نسخه أو تأويله بما يصلح كونه معارضًا أو بما ليس من جنس المعارض، وشرع ابن السنوسي في ضرب الأمثلة من حياة الرسول ﷺ ، واجتهادات الصحابة الكرام [١] ثم تحدث عن إمكانية أن يقع العلماء والفقهاء والقضاة وكذلك أعيان العلماء في الأخطاء المخالفة للسنة، فقال: (.. فإنا لا نعتقد عصمة القوم بل نجوز عليهم الذنوب ونرجو لهم مع ذلك أعلى الدرجات لما اختصهم الله به من الأعمال الصالحة والأحوال السنية وليسوا بأعلى درجة من الصحابة التي كانت بينهم وغيرها ويؤيد ذلك تحذير سلف الأمة من الصحابة، والتابعين، وتابعيهم ولا سيما الأئمة الأربعة من مخالفة الحديث وحضهم على وجوب العمل به مع مخالفة (رأي كائن من كان) [٢] واستدل بأقوال بعض الصحابة في هذا المعنى منها:

- عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (تمتع رسول الله ﷺ) فقال عروة: (نهى أبو بكر وعمر عن المتعة)، فقال: أقول قال رسول الله ﷺ ، ويقولون قال أبو بكر وعمر (يوشك أن ينزل عليهم حجارة من السماء) وذكر أقوالاً للصحابة في هذا المعنى ثم بين أن حافظ المغرب ابن عبد البر وصلها في مؤلفاته

---

(١) انظر: إيقاظ الوسنان، ص ١٢ إلى ٢٢ .

(٢) المصدر السابق نفسه، ص ٢٣ .

بأسانيد جيدة حذفها ابن السنوسي من باب الاختصار، وذكر أقوال الأئمة الأربعة وبين أن قولهم إذا خالفه سنة الرسول، فهو مردود ومن ذلك:

- قيل لأبي حنيفة رضي الله عنه إذا قلت قولاً وكتاب الله يخالفه قال: اتركوا قولي لكتاب الله، فقيل إذا كان خبر رسول الله يخالفه فقال: اتركوا قولي لخبر الرسول فقيل إذا كان قول الصحابي يخالفه قال: اتركوا قولي لقول الصحابي [١] .

- قال مالك ابن أنس: (إنما أنا بشر أخطئ وأصيب، فانظروا في رأيي فكل ما وافق الكتاب والسنة فخذوه وكل ما لم يوافق الكتاب والسنة فاتركوه) [٢] .

- وأما الشافعي فسأله رجل عن مسألة، فقال: يروى عن النبي ﷺ أنه قال (كذا وكذا) فقال له السائل: يا أبا عبد الله أتقول بهذا فارتعد الشافعي واصفر وحال لونه وقال: (ويحك وأي أرض تقلني وأي سماء تظلني إذا رويت عن رسول الله شيئًا ولم أقل نعم على الرأس والعين نعم على الرأس والعين، قال وسمعته يقول: ما من أحد إلا وتذهب عليه سنة لرسول الله ﷺ وتعزب عنه، فمهما قلت من قول أو أصلت من أصل وفيه عن رسول الله ﷺ خلاف ما قلت فالقول ما قال رسول الله ﷺ وهو قولي) [٣] .

إن ابن السنوسي من خلال بحثه النزيه خرج بنتيجة مفادها أن ما خالف الكتاب والسنة، والإجماع من أقوال المجتهدين وآرائهم ليس مذهبًا لهم، ويتعين على المتمسكين بمذاهبهم أن يعتنوا بالكتاب والسنة وأقوال العلماء ليعلموا بذلك ما هو مذهب لإمامهم خلاف ما لهج به المتأخرون من فقهاء المذاهب الأربعة من اقتصارهم على المختصرات الخالية من الدليل، وإعراضهم كل الإعراض عن كتب الحديث، وأصول الحديث، والفقه ؛ فهم على هذا أجهل الناس بمذاهب أئمتهم [٤] .

---

(١) انظر: ايقاظ الوسنان، ص ٢٣ .

(٢) المصدر السابق نفسه، ص ٢٤ .

(٣) المصدر السابق نفسه، ص ٢٥ .

(٤) انظر: المصدر السابق نفسه، ص ٢٧ .

ونقل قولاً للإمام أحمد، قال: قال ناصر السنة الإمام أحمد بن حنبل لأبي داود وقد سأله أيتبع الأوزاعي أم مالكًا قال: (لا تقلد دينك أحدًا من هؤلاء ما جاء عن النبي ﷺ وأصحابه فخذ به) وذكر أن الرجل مخير في التابعين، وقد فرق رحمه الله بين التقليد والاتباع فقال أبو داود: سمعته يقول الاتباع أن يتبع الرجل ما جاء عن النبي ﷺ وأصحابه ثم هو فيمن بعد من التابعين مخير، وقال لأبي داود: لا تقلدني ولا تقلد مالكًا ولا الشافعي ولا الأوزاعي، ولا الثوري، وخذ من حيث أخذوا، وقال من قلة فقه الرجل أن يقلد دينه الرجال [١].

إن ابن السنوسي في كتابه إيقاظ الوسنان حارب التقليد الأعمى والتعصب؛ لأنه رأى أن ذلك من أعظم أسباب التفرق والانحراف عن منهج الله الرباني، ومن أهم العوامل التي أدت إلى انتشار البدع والأهواء بين الناس، وفشت في أوساطهم، وحالت بينهم وبين سماع الحق والهدى، وتركوا بسببها طريق الكتاب والسنة المطهرة.

إن التقليد الأعمى والتعصب، يؤديان إلى مهاري الردى، ويقودان صاحبهما إلى مسالك الغواية والضلال، ويصدان عن اتباع النور والهدى، فتكون نتيجته تخبطًا وانتكاسًا في الدنيا، وهلاكًا وخسرانًا في الآخرة [٢].

لقد انتشر مرض التعصب والتقليد في شعوب الأمة الإسلامية، لا سيما في العصور المتأخرة فأصبح هو الأساسي والأصل، ونتج عن تفشيه نتائج وخيمة وأمور جسيمة [٣].

لقد حارب ابن السنوسي التقليد والتعصب ورأى أن تلك الخطوة مهمة للأخذ بأسباب النهوض.

لقد تعرض ابن السنوسي في كتابه إيقاظ الوسنان، لمن أعمته العصبية عن الحق وزعم: (إن الكتاب والسنة مشتركان بين اثنتين وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة وهي منحصرة في مقلدي الأربعة) [٤].

---

(١) انظر: إيقاظ الوسنان، ص ٢٩.
(٢) انظر تفسير ابن كثير (٢/ ٢١٣).
(٣) انظر: فقه التمكين في القرآن الكريم، لعلي محمد الصلابي، ص ٢٥١.
(٤) انظر: إيقاظ الوسنان، ص ٣١.

وناقش من قال بذلك القول وطرح عليه أسئلة منها ما هو رأيه في من تمسك بالكتاب والسنة، من أصحاب القرون المفضلة الثلاثة؟ فإنهم ما قلدوا الأربعة حتى يخرجهم الاستثناء عن الحكم بما قبله ويرد على أصحاب ذلك الزعم بقوله تعالى: **﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾** [آل عمران:١٠٣] **﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا﴾** [آل عمران: ١٠٥] **﴿فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ﴾** [البقرة: ٢١٣].

وفسر حبل الله بكتابه، واستدل بأحاديث شريفة، وبين أن الفرقة الناجية ما كانت على ما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه [١] . وقال: فإن من توهم أن مذاهب الأئمة الأربعة هي ما كان عليه وأصحابه، كان ملتزمًا أن كل ما خالفهم من الصحابة ومن بعدهم، وأصحاب المذاهب المشهورة مخطئ في جميع ما خالفهم فيه، وهم المصيبون في كل خلاف ؛ فانظر هل يستند هذا إلى نقل أو يقبله عقل [٢]؟ .

وردّ على من كفر مسلمًا بشبهة، وقال: وأعجب من هذا كله التكفير المرتب على الشبهة التي ستراها في عبث [٣] الحق غثاء دون مبالاة بقول الصادق ﷺ : (من كفر مسلمًا فقد كفر)، وبقوله: (إذا قال الرجل لأخيه يا كافر فقد باء بها أحدهما) وذكر أقوال العلماء فقال: قال الرافعي في العزيز نقلاً عن التتمة فإنه إذا قال لمسلم يا كافر بلا تأويل كفر؛ لأنه سمى الإسلام كفرًا، ومثله للنووي في الروضة نقلاً عن المتولي، واعتمد ذلك المتأخرون كابن الرفعة، والقمولي والنشائي والأسنوي والأذرعي، وأبي زرعة، وصاحب الأنوار، وشارح الأنوار وغيرهم ؛ جزموا به من غير عذر ولم ينفرد المتولي بذلك بل سبقه إليه ووافقه عليه جمع من الأصحاب منهم؛ الأستاذ أبو إسحاق الإسفرائيني، والحليمي، والشيخ نصر المقدسي، والغزالي، وابن دقيق العيد، بل قضية كلام هؤلاء أنه لا فرق بين أن يؤول أو لا كما تدل عليه عباراتهم التي ذكرها عنهم العلامة ابن حجر في الأعلام ؛ وقال فيه ما نصه ووقع في الحديث روايات لا بأس بالإشارة إليها فقد روى مسلم: (إذا

(١-٢) إيقاظ الوسنان، ص ٣٢ .

(٣) ربما في ميزان الحق .

كفّر المسلم أخاه فقد باء بها أحدهما) وفي رواية له (أيما رجل قال لأخيه كافر فقد باء بهما أحدهما إن كان كما قال وإلا رجعت عليه)، وفي رواية أيضًا (ليس من رجل ادعى لغير أبيه وهو يعلمه إلا كفر ومن دعا رجلاً بالكفر أو قال عدو الله، وليس كذلك إلا حار عليه) وفي رواية أبي عوانة، فإن كان كما قال وإلا باء بالكفر، وفي رواية (إذا قال أخيه يا كافر، فقد وجب الكفر على أحدهما) ومعنى كفّر الرجل أخاه وصفه بالكفر ونسبه إليه في خبر كرأيت كافرًا أو نداء كيا كافر، أو اعتقاده الكفر فيه، كاعتقاد الخوارج كفر المؤمنين بالذنوب، وليس من ذلك تكفير جماعة من أهل الأهواء لما قام عندهم من الدليل على ذلك، ومعنى باء بها أحدهما: رجع بكلمة الكفر انتهى من الأعلام بإيجاز، وذكر فيها وجوهًا في تأويل الحديث إلى أن قال: الثالث أنه محمول على الخوارج المكفرين للمؤمنين، وهذا نقله القاضي عياض وهو ضعيف لأن المذهب الصحيح المختار الذي قاله الأكثرون، والمحققون، إن الخوارج لا يكفرّون كسائر أهل البدع، .... وفي الدرة البهية في جواب سؤال عمن كفّر مسلمًا بنحو هذا ما نصه، مع تغيير يسير في اللفظ: لم يدر هذا القائل مقدار ما قال، ولم يتنبه لما يلزمه في هذا الضلال من الوبال وقد ورد (إذا قال الشخص للشخص يا كافر فقد باء بها أحدهما) ثم تعجب منه كيف يتجرأ على تكفير المسلمين بما ذكر فكأنه، يريد قصر الإسلام على نفسه، وأنه ليس لمحمد ﷺ أمة ناجية غيره وغير من وافقه على ما قال وليته اعتبر بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾ [النساء: ٩٤] وقد تحرزت الأمة قديمًا وحديثًا من تكفير المسلم وحذروا من المبادرة فيه مهما أمكن، فقال حجة الإسلام الغزالي: الذي ينبغي أن يميل إليه المحصل الاحتراز من التكفير مهما وجد إليه سبيلا فإن استباحة الدماء والأموال من المصلين إلى القبلة المصرحين بقول لا إله إلا الله خطأ والخطأ في ترك الكافر في الحياة أهون من الخطأ في سفك محجمه من دم مسلم .... وقد قيل لمالك أيكفر أهل الأهواء؟ فقال هم من الكفر فروا، وقد سئل تقي الدين السبكي رحمه الله: عن حكم تكفير غلاة المبتدعين فقال: اعلم أيها السائل أن كل من خاف من الله عز وجل استعظم القول بالتكفير لمن يقول: لا إله إلا الله محمد رسول الله إذ

التكفير أمر هائل عظيم الخطر لأن من كفّر شخصًا، فكأنه أخبر أن عاقبته في الآخرة الخلود في النار أبد الآبدين، وأنه في الدنيا مباح الدم والمال، ولا يمكن من نكاح مسلمة ولا تجري أحكام المسلمين لا في حياته ولا بعد مماته، والخطأ في ترك ألف كافر أهون من الخطأ في سفك محجمة من دم امرئ مسلم وفي الحديث (لأن يخطئ الإمام في العفو أحب إلى الله من أن يخطئ في العقوبة)، فما بقي الحكم بالتكفير إلا لمن صرح بالكفر واختاره دينا وجحد الشهادة، وخرج من دين الإسلام جملة [١] .

وذكر ابن السنوسي حكاية لطيفة تدل على أبعاد عميقة لفهم قضية التكفير وهي: أن شخصًا بمصر وقع في عبارة موهمة للتكفير فأفتى علماء مصر بتكفيره، فلما أراد قتله قال السلطان هل بقي أحد من العلماء لم يحضر قالوا نعم (الشيخ جلال الدين المحلى شارح المنهاج)، فأرسل إليه السلطان، فحضر فوجد الرجل في الحديد بين يدي السلطان، فقال الشيخ: مال هذا؟ فقالوا: كفر ؛ فقال: ما مستند من أفتى بتكفيره، فبادر الشيخ صالح البلقيني، وقال قد أفتى والدي شيخ الإسلام الشيخ سراج الدين في مثل ذلك بالتكفير ؛ فقال: يا ولدي أتريد أن تقتل مسلمًا موحدًا يحب الله ورسوله لفتوى أبيك حلوا عنه الحديد ؛ فجردوه وأخذ الشيخ جلال الدين بيده وخرج والسلطان ينظر ؛ فما تجرأ أحد يتكلم [٢] .

ثم بعد ذلك دخل ابن السنوسي في الباب الأول، وتحدث فيه على وجوب التمسك بالكتاب والسنة، وبين أن دلالة الكتاب والسنة واحدة، وذكر أدلة وجوب اتباعهما، وتقديمهما على رأي كل مجتهد، وتحدث عن عمل الأصوليين، والمحدثين، والفقهاء بالحديث، وطريقة كل قوم، أما في الباب الثاني ؛ فبين حقيقة الاجتهاد وأنواعه، وفيما يشترط في المجتهد من الشروط الوصفية والإيقاعية، ووضح حرمة الاجتهاد مع النص في كل ما عمّ وخص، ورد زعم من قال بانقطاع ودعوا أنه إجماع، وذكر الأدلة الشرعية التي تذم التقليد المذموم، وفنّد دعوة القائلين في انحصار التقليد للأئمة الأربعة .

(١-٢) انظر: إيقاظ الوسنان، ص ٣٧ .

إن دعوة ابن السنوسي لفتح باب الاجتهاد للقادرين عليه، ومحاربة التقليد المذموم، تعني أنه بذلك حارب أسباب الفرقة الداخلية، كالجهل، واتباع الهوى، والابتداع، فالجهل من أعظم أسباب الوقوع في المحرمات جميعها من كفر وفسوق وعصيان، ومن أعظم الجهل القول على الله بغير علم، وقد جعله الله عز وجل أعلى مراتب المحرمات، وأعلى درجة من الإشراك به سبحانه قال تعالى: **﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾** (سورة الأعراف، آية ٣٣) .

إن ابن السنوسي دعا الناس، بأن يأخذوا الحق ويبحثوا عنه من مصدره الصحيح، كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وبين في كتابه النفيس إيقاظ الوسنان في العمل بالحديث والقرآن، أن أي حكم لم يقم عليه دليل ولا برهان من وحي الله؛ فإنه باطل مرفوض، وعلاج مرض الجهل بالدواء الناجع ألا وهو العلم بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ. إن من أخطر الأمور أن يكون على مقدمة الحركات الإسلامية، قيادة تجهل كتاب الله، وسنة رسوله ﷺ، ولا تعطي للعلماء أي وزن أو اهتمام، بل تعمل على تهميشهم والنيل منهم، وتجعل من عقولها وأهوائها مصادر للاجتهادات الحركية، والفكرية، والسلوكية، ومن المعلوم أن ما سوى الشرع موزون وليس بميزان، ومحكوم وليس بحاكم [(١)] .

إن كتاب ابن السنوسي إيقاظ الوسنان في العمل بالحديث والقرآن يدل الباحث على تأثره بالمنهج السلفي ويظهر فيه تأثره بأفكار ابن تيمية الذي نادى قبله بستة قرون بالتمسك بالكتاب والسنة، وحارب التقليد الأعمي والتعصب المذهبي، ويبدو أن اطلاعه على كتب ابن تيمية كان في زمن إقامته في الحجاز، كما تعرّف على آرائه من خلال احتكاكه بدعاة السلفية، من تلاميذ الشيخ محمد بن عبد الوهاب الذين تبنوا كتب ابن تيمية وابن القيم، وكتب أهل السنة والجماعة عمومًا، ولو قارن الباحث بين كتاب رفع الملام عن الأئمة الأعلام لابن تيمية، وإيقاظ الوسنان لوجد تأثر الثاني بالأول، ظاهر العيان .

---

(١) انظر: فقه التمكين، ص ٢٤٥ .

إن ابن السنوسي لم يكتفِ في دعوته لفتح باب الاجتهاد ومحاربة التقليد بالقول، ولكنه قرن قوله بالعمل، حيث خالف مذهبه المالكي في عدة مسائل منها ؛ رفع اليدين في الصلاة، حكم القبض، حكم السكتات الثلاث، حكم الاستعاذة، حكم البسملة للفاتحة والسور، حكم التأمين، حكم التكبير لقيام الثالثة، حكم السلام، والخروج من الصلاة، حكم القنوت، ورفع اليدين فيه حال الدعاء، حكم تطويل الصلاة، وتقصيرها المشروعين [١] ، والمتطلع على كتابه المسائل العشر يرى قوته في إقامة الحجة على ما ذهب إليه من خلال أحاديث الرسول ﷺ وأقوال العلماء، ويذكر أدلته التي خلف فيها المذهب الملكي .

لقد نال ابن السنوسي رضى علماء المسلمين بسبب اجتهاده في الدين وعدم تقيده بمذهب من المذاهب، حيث جعل رائده العمل بالكتاب والسنة ولم يقدم عليهما أقوال العلماء والفقهاء، وبسبب دعوته المخلصة التي أثرت في قبائل ليبيا، والصحراء الكبرى وإفريقيا، والتي أصبحت فيما بعد كتائب للجهاد في سبيل الله تعالى [٢] .

إن كتاب إيقاظ الوسنان في العمل بالحديث والقرآن يوضح لنا معالم سلفية سنية في منهج الحركة السنوسية .

كانت خاتمة كتاب إيقاظ الوسنان في سنن أهل الله وسبيل عملهم فبين فيها مجموعة من الأصول والقواعد في علم التصوف منها:

● إن حكم أهل السلوك في هذا حكم المحدثين في العقائد والفروع وهي عقيدة السلف [٣] .

● (الطرق كلها مسدودة إلا على من اقتفى أثر الرسول ﷺ) [٤]، ونسب هذا القول للجنيد وقال أيضًا: علمنا مقيد بالكتاب والسنة فمن لم يستمع الحديث ويجالس الفقهاء ويأخذ أدبه من المتأدبين أفسد من يتبعه .

---

(١) انظر: المسائل العشر، ص ٥ إلى ٧٤ .

(٢) انظر: السيد محمد رشيد رضا، محمد درنيقة، ص ٢٠٣ .

(٣) انظر: إيقاظ الوسنان، ص ١٢٨ .

(٤) انظر: المصدر السابق، ص ١٣٠ .

وقال سهل بن عبد الله التستري: بنيت أصولنا على ستة أشياء كتاب الله وسنة رسوله وأكل الحلال وكف الأذى، واجتناب الآثام وأداء الحقوق (١) .

وقال أبو عثمان الجبري: من أمر السنة على نفسه قولاً وفعلاً نطق بالحكمة . ومن أمر الهوى نطق بالبدعة (٢) .

وقال أبو العباس بن عطاء الله : من ألزم نفسه آداب السنة نوّر الله قلبه بنور المعرفة (٣) .

ثم بين ابن السنوسي أنه لا مقام أشرف من متابعة الحبيب ﷺ في الأفعال والأقوال والأوامر والأخلاق (٤) .

وبين خطورة الهوى واستدل بقول ابن عطاء في حكمه: لا يخاف عليك أن تلتبس الطرق عليك وإنما يخاف عليك من غلبة الهوى عليك (٥) .

وقال أيضًا: (تمكن حلاوة الهوى من القلب هو الداء العضال) وقال بعضهم (نحت الجبال بالأظافر أيسر من زوال الهوى إذا تمكن) (٦) قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [الجاثية: ٢٣] .

وبين ابن السنوسي: أن كل طريق لم يمشِ فيه الشارع ﷺ فهو ظلام ولا يكون أحد ممن يمشي فيه على يقين من السلامة، وعدم العطب لأنه ﷺ هو الإمام وهو النور، والمأموم إذا خرج عن اتباع إمامه وتعد ما حده له مشي في الظلام بقدر بعده عن شعاع نور إمامه ولهذا تجد كلام أئمة المذاهب كلهم نورًا صرْفًا لا إشكال فيه لقربهم من رسول الله ﷺ بخلاف غيرهم ولهذا المعنى أشار ﷺ بقوله: (رحم الله أمرأ سمع مقالتي فوعاها فأداها كما سمعها) يعني حرفًا بحرف من غير زيادة على ما شرعته أو نقص عنه فسّر ﷺ بأن الابتداع هو الزيادة على التشريع (٧) .

(١-٢) انظر: إيقاظ الوسنان، ص ١٣٠ .
(٣-٦) المصدر السابق نفسه، ص ١٣١ .
(٧) إيقاظ الوسنان، ص ١٣٢، ١٣٣ .

لقد كان التصوف عند ابن السنوسي وسيلة لتربية النفس وتزكيتها، والسمو بها نحو المعالي، وكان تصوفه له مقياس دقيق (كتاب الله وسنة رسوله ﷺ)، فاهتم ابن السنوسي بالعلم الرباني، وتربية النفس، وهذا يظهر من خلال دراسة كتابه ايقاظ الوسنان في العمل بالحديث والقرآن، وقد ختم ذلك الكتاب بهذه العبارات الجميلة (والله الهادي إلى الصواب لا رب غيره لا خير إلا خيره عليه توكلت وإليه أنبت وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه الذين نالوا ذرى المجد بصحبته، وبلغوا كمال الكرم والشرف برؤيته نسأل الله عز وجل أن يحشرنا في وفدهم إليه وأن ينيلنا مما أعده لهم لديه، إنه كريم رحيم حليم عظيم) [١] .

من خلال ما سبق نرى أن ابن السنوسي كان جريئًا في طرح أفكاره التي كانت على جانب كبير من الأهمية بالقياس إلى عصره الذي تجمد فيه الفكر، وتأخر فيه العلم، وابتعد الناس عن كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، وكانت دعوته للتمسك بالكتاب والسنة مبنية على علم غزير، وحجج دامغة، وبراهين ساطعة، وكان متأدبًا غاية التأدب مع العلماء، فهو لا ينكر فضل الأئمة ولكنه يأبى الوقوف عند حدود ما قالوه ما دام بالإمكان الرجوع إلى النبع والاطلاع على أحاديث قد لا يكونون وصلوا إليها، وما دام بالإمكان التفكير والاستنباط مع ملاحظة تغير الظروف [٢] .

كان ابن السنوسي المؤرخ يمتاز بغزارة معلوماته، ويعتز بتاريخ أجداده، ويؤمن بضرورة حصر الإمامة في قريش ومع هذا ساند الدولة العثمانية حرصًا على وحدة الأمة، ودحر أعدائها وكان أسلوبه في كتابة التاريخ على نمط مؤرخي المسلمين، ويقتصر على سرد الحوادث .

كان ابن السنوسي فقيهًا متصوفًا، اهتم بالعلوم الفقهية، وغاص في معرفة حقائق النفوس البشرية، واستنبط منهجًا تربويًا لعلاج الأمراض النفسية، والرقي بها نحو الكمالات الإنسانية مسترشد بكتاب الله وسنة خير البرية .

---

(١) انظر: إيقاظ الوسنان، ، ص ١٣٩ .

(٢) انظر: الحركة السنوسية، ص ١٥١ .

المبحث الثالث
من أهم صفات ابن السنوسي

إن ابن السنوسي في سيرته العطرة اتصف بصفات الدعاة الربانيين، من الصدق، والإخلاص، والدعوة إلى الله على بصيرة، والصبر، والرحمة، والعفو، والعزيمة، والتواضع، والإرادة القوية التي تشمل قوة العزيمة، والهمة العالية، والنظام والدقة، والزهد، والورع، والاستقامة ... إلخ، ونحاول في هذا المبحث أن نركز على بعض الصفات التي تميزت بها شخصيته الفذة .

أولاً الحلم:

إن الحلم ركن من أركان الحكمة، وقد وصف الله نفسه بصفة الحلم في عدة مواضع من القرآن الكريم، كقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [سورة آل عمران، آية ١٥٥] .

وقد بلغ ﷺ في حلمه، وعفوه الغاية المثالية، ولكن ابن السنوسي شديد الاقتداء في كل أحواله وأقواله، وأفعاله برسول الله ﷺ ، وكانت له مواقف كثيرة تدل على حلمه، وضبطه لنفسه منها، ما ذكره أحمد الشريف في رحلته ﷺ أن رجلاً من الطريقة الدرقاوية، أساء الأدب مع ابن السنوسي

أثناء نزوله بسيوه، وقال لابن السنوسي: نحن نكسر رءوس الرجال، فسمع بذلك أصحاب السنوسي وأرادوا أذيته (يعني الرجل) فقال لهم الأستاذ: اتركوه عنكم واختفى الرجل خوفًا من الإخوان [١] .

ثانيًا: العفو والصفح عند المقدرة:

ومن الصفات التي ظهرت في شخصية ابن السنوسي، حبه للعفو والصفح، فعندما نشب خلاف حول أملاكه مع بني عمه في الجزائر، وطالب أبناء عمه بحقوقه، فامتنعوا ورفع عليهم قضية وكسبها، ولم يدفع أولاد عمه المستحقات التي

---

(١) انظر: الحركة السنوسية، ص ١٥٥،١٥٦ .

له، وقامت الحكومة بسجنهم، تنازل عن طلبه [١]، وعندما ناصبه العداء بعض العلماء تعصبًا واندفاعًا وجمودًا، واتهموه بالكفر، والمروق عن الإسلام، فقال ابن السنوسي عمن تولى الهجوم عليه: عفى الله عن الشيخ عليش سامحه الله [٢] .

ثالثًا زهده:

كان ابن السنوسي زاهدًا في الدنيا، راغبًا في الآخرة، حريصًا على دعوة الناس للحق، ولم يحرص على جمع الأموال وحطام الدنيا الفاني وله أشعار تدل على زهده، وعلى حقيقة نفسه المنصرفة إلى الله، المقبلة على متاع الروح، الزاهدة في لذائذ الدنيا ومتعها، وذلك إذ يقول:

إلا إنما الدنيا غضارة أيكة ... إذا اخضر منها جانب جف جانب
هي الدار ما الآمال إلا فجائع ... علينا ولا اللذات إلا العطائب
وما لذة الأولاد والمال والمنى ... لدينا ولا آمال إلا المصائب
فلا تكتحل عيناك يومًا بعبرة ... على ذاهب منها فإنك ذاهب

ومن أشعاره في التعبير عن زهده في الدنيا:

وهبني علمت الكيمياء ونلتها ... وأتقنتها صبغًا وأتقنتها صنعًا
ولخصت تسيير الكواكب كلها ... ببحثي وتدقيقي ونلت بها مسعى
وملكت أموال البرايا بأسرها ... وجالت يدي في أصفهان إلى صنعا
أليس مصيري بعد ذلك كله ... إلى تحت هذا التراب في حالة شنعا
فقل للذي يمسى ويصبح همه ... لغير رضا الرحمن: يا خيبة المسعى [٣]

رابعًا تواضعه:

ومن الصفات البارزة في شخصية ابن السنوسي صفة التواضع، فعندما دخل

(١) المصدر السابق نفسه، ص ٥٨ .
(٢) انظر: السنوسي الكبير، ص ٢٦ .
(٣) انظر: دراسات وصور للحاجري، ص ٣٠٣ .

مكة، كان يسقي الناس ماء زمزم واتخذها حرفة وصار ملازمًا لها فترة من الوقت، قربة إلى الله [(١)]، وقد ذكر ابن علي في فوائده الجلية أن ابن السنوسي كان ناذرًا لله تعالى وقف نفسه على خدمة الكعبة المشرفة، تقربًا إلى الله تعالى وتواضعًا، ومجاهدة لنفسه، وكان عازمًا على المضي، غير أن الله تعالى رفع قدره وهيأه لما هو أعم وأنفع، ومن تواضع لله رفعه الله [(٢)] وقام بالوفاء بنذره واشترك في خدمة الحرم بقدر ما يسر الله له [(٣)] .

لقد كان ابن السنوسي غاية في التواضع، وفي رسالة من رسائله إلى أحد أخوانه تظهر هذه الصفة جلية حيث يقول: (والذي أوصى به نفسي وإخواني هو تقوى الله، وصية الله في الذين خلوا من قبل ﴿**وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ**﴾ [النساء: ١٣١]؛ باتباع أوامره، واجتناب نواهيه، والوقوف عند حدوده بإعمار الظواهر بالمجاهدات، وإعمار البواطن بالمشاهدات، . . . .) [(٤)]

فنلاحظ أن ابن السنوسي قرن نفسه بإخوانه مما يدل على تواضعه وجعل نفسه كأي واحد منهم، ومقامه منهم أوضح من الشمس في رابعة النهار .

خامسًا العفة والترفع عما في أيدي الناس:

من الصفات البارزة في شخصية ابن السنوسي العفة والترفع عما في أيدي الغير فعندما حجت إلى مكة والدة عباس باشا حفيد محمد على باشا حاكم مصر، وسمعت بتقوى ابن السنوسي، وولايته ذهبت لزيارته في الزاوية فلم تجده، وجدت الشيخ عبد الله التواتي، فسألته: أنت الشيخ؟ فأجابها: بالنفي، وأخبرها أن الشيخ في الطائف ؛ فقصدت الطائف وطلبت مقابلته بإلحاح ؛ فقابلها على مضض ؛ فحدثته عن ابنها عباس وكيف يضطهده عمه إبراهيم باشا، وكيف أنها تخشى عليه من عمه ؛ ثم سألته أن يدعو لابنها فدعا له بالتوفيق ؛ فرغبت هي أن تقدم لابن السنوسي هدية فمدت له صرة مملوءة ذهبًا فرفضها ؛ فلما ألحت أخبرها أنه لا يأخذ

---

(١) انظر: السنوسي الكبير، ص ١١ .

(٢) انظر: الفوائد الجليلة (١/ ٢٠) .

(٣) المصدر السابق نفسه (١/ ٢١) .

(٤) انظر: السنوسي الكبير، ص ٩١ .

شيئًا وأن بإمكانها أن تعرض الصرة على التواتي في زاوية أبي قبيس ؛ فعادت إلى مكة وقدمتها للتواتي ؛ فرفضها حيث وصلته تعليمات من شيخه بالرفض، ولما ألحت طلب منها أن توزعها على الفقراء لأن أتباع الزاوية ليسوا بحاجة، وعندما عادت إلى مصر توفي محمد على وإبراهيم في سنة واحدة ؛ فخلا كرسي الولاية واحتله ولدها [1]، وقد ربى ابن السنوسي أتباعه على العفة والترفع عن ما في أيدي الناس، وقد ذكرت قصة مرتضى فركاش وحسين الغرياني مع البدو الذين أهدوا إليهم إبلاً وبقرًا وغنمًا، وكيف ردها ابن السنوسي وبين لهم: أن مهمة بعثاتنا تنحصر في تلقين قواعد الدين، والتعريف به، لا لأن تقبل الهدايا والهبات والتبرعات وطلب منهم أن لا يرهقوا البدو حتى بتكاليف الضيف، وكان يزود الدعاة بجميع ما يلزمهم [2] وكان يحث إخوانه من العلماء والشيوخ والدعاة، أن يتعلقوا بالله وحده حيث يقول: (. . . وورد من أحب شيئًا كان له عبدًا، تعس عبد الدينار، وتعس عبد الدرهم، تعس عبد الخميلة، تعس عبد الخميصة، تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش، وفي الحكم ما أحببت شيئًا إلا وكنت له عبدًا، وهو لا يحب أن تكون لغيره عبدًا، وإياك أن تطلب على عملك جزاء آجلاً أو عاجلاً، فيكون درى يقينك في الله آفلا، أو تشهد أن لك في ذلك العمل أثر، فتشرك بخالق القوى والقدر، فإن الإخلاص له مراتب، فرتبة إخلاص العوام عدم طلب الثناء والسمعة، ورتبة إخلاص الخواص عدم طلب الجزاء الآجل أو المقامات المرتفعة، ورتبة إخلاص خواص الخواص التبري من الحول والقوة، . . .) [3]

لقد كان ابن السنوسي يحذر من الانكسار في حب الدراهم والدينار، وكان يريد من إخوانه أن يتجردوا في أعمالهم ويجعلوها لله وحده .

سادسًا قوة الحجة، والقدرة على الإقناع والمناظرة:

عندما وجه علي عشقر والي طرابلس اتهاماته لابن السنوسي، استطاع ابن

---

(١) انظر: الحركة السنوسية، ص ٩٧ .

(٢) انظر: السنوسي الكبير، ص ٨٧ .

(٣) المصدر السابق نفسه، ص ٨٩ .

السنوسي أن يبدد جميع الاتهامات، وطلب من الوالي العثماني أن يجمعه مع العلماء في طرابلس، وتألف مجلس الوالي من كبار العلماء منهم، أحمد المقرحي، وكان من أبرز العلماء وأقربهم مكانة عند الوالي العثماني، والشيخ القزيري البنغازي، وأخذ أعضاء المجلس العلمي يناقشون ابن السنوسي، وجاء رده حاسمًا، وشاملاً، بل ومحرجًا لبعض العلماء، فأيقنوا أنهم أمام محيط من العلوم الراسخة، والحجج الدامغة، والبراهين الساطعة، ومن ذلك الحين انضم الشيخ أحمد المقرحي، والشيخ على القزيري إلى الإخوان وتجردوا لخدمة الحركة السنوسية، وانضم أيضًا الوالي علي عشقر وأصبح من أتباع الطريقة السنوسية [١] .

وكان من أساليبه في الإقناع، ضرب الأمثلة العلمية الحية، وكان ذات مرة في مجلسه بمكة يحف به بعض الزوار، فدخل شخص أجنبي له مظهره الملفت للنظر، وحيا الحاضرين ثم وجه سؤالاً علميًّا معقدًا إلى ابن السنوسي، كأنه يريد منه التعجيز، وكان ابن السنوسي مشغولاً بعمل باشره، وطلب السائل سرعة الجواب بصورة لفتت نظر الحاضرين، ففهم ابن السنوسي السائل وطمأنه بسرعة الإجابة، واستدعى تلميذه عبد الله التواتي وكان يقوم بنصيبه في العمل، وكان يومها يقوم بـ (عجن الطين) أثناء القيام بعملية بناء زاوية مكة، وكان يرتدي لباس العمال، ولما استدعاه ابن السنوسي جاء مسرعًا بملابس العمل وقد علق الطين الذي كان يقوم بعجنه في رجليه وهندامه، فقال له ابن السنوسي أجب سائلنا هذا عن سؤاله، كذا وكذا، واسترسل عبد الله في الإجابة الشاملة من ذاكرته، ولم يترك ثغرة في السؤال، وجاء بمختلف الأقوال في المسألة ثم ردها إلى حقيقتها، فتعجب الناس، وتحير السائل ثم اقتنع وقال: لا يصح أن يكون مثل هذا الرجل الفاضل عاملاً وبهذه الصورة، فمن حقه أن يتصدر المجالس، فأجابه ابن السنوسي بقوله إن جماعتنا كلهم على هذا الغرار، ومن لم يصل منهم إلى هذا المستوى، فهو في طريقه إليه وهذا العمل الذي تعيبه عليهم لم يكن معيبًا لهم أو لينقص من شأنهم وقيمتهم، إنهم

---

(١) انظر: السنوسي الكبير، ص ١٠٤ .

يعملون كما يأمر الإسلام لرفعة شأن المسلمين، وإننا نعدهم لمجد الإسلام، ولرفعة شأنه، فاعتذر السائل على ما ظهر منه [١] .

سابعًا شعوره بالمسئولية:

كان ابن السنوسي يستشعر مسئوليته وواجبه المنوط به نحو عباد الله والأمانة التي تحملها لهدايتهم وإرشادهم، فكان ذلك دافعًا له للقيام بواجبه وأداء رسالته، وكانت هذه الصفة واضحة في شخصيته، وكان يستشعر بأنه مأمور بواجب الدعوة إلى الله، وفي خطواته التي سار عليها، وشعوره بهذه الصفة، جعلته لا يعرف المستحيل، وكان لا يأمر بأمر إلا وقد نفذه على نفسه وأحب الناس إليه، وأقربهم منه [٢]، وكان يقول لإخوانه ليس هناك على همة العاملين ما يسمونه مستحيلاً إذا ما أخلصوا في عملهم وصدقت عزيمتهم، واتخذوا من القرآن الكريم دليلاً، وعرفوا معانيه وتدبروها كما يجب أن يتدبروها [٣] .

ثامنًا حليته:

كان أزهر اللون مدور الوجه أقنى الأنف خفيف العارضين واللحية، أشقر الشعر معتدل القامة، رقيق الحاجبين أزجهما، واسع الثغر، فصيح اللسان، جهوري الصوت مع رقة فيه، واسع العينين وفي إحداهما انكسار لا يكاد يظهر، طويل العنق، عريض الصدر والمنكبين من رآه مرة هابه وإذا خالطه وكلمه ألفه وأحبه [٤] .

تاسعًا هوايته:

كان يهوى اقتناء الخيل، ويحسن ركوبها، إلى درجة عالية من المهارة، وكان يستطيع التقاط بعض الشيء من الأرض من على ظهر الجواد في أثناء عدوه، كما كان يستطيع الوقوف على رجليه، وعلى رأسه على ظهر الجواد أثناء عدوه، ويستطيع

---

(١) انظر: السنوسي الكبير، ص ٩٨، ٩٩ .

(٢) انظر: برقة العربية أمس واليوم، ص ١٨٠ .

(٣) انظر: السنوسي الكبير، ص ١١٧ .

(٤) انظر: الفوائد الجليلة (١/ ٨٩) .

إصابة ما يريده من المرمى، وكـان يشجع أتباعه وإخوانه على تعلم الفـروسية ويقول لهم: إن ذلك من صميم السنّة [١] .

وفاته:

كان ابن السنوسي يشعر بالمرض منذ مدة، وكان يصارعه بالصبر، وقوة العزيمة، فلم يركن للراحـة، ويخضع لـوطأة المرض، وشرع في إتمام مـا عزم على إقـامتـه، وحاول أن يتغلب على المتاعب والأمراض وكان يمهد الأمور لتولي ابنه محمد المهدي أمر زعـامة الحـركة السنوسـية، ونجح في ذلـك، وأقنع الإخوان، وزعـماء القبـائل بذلك، واشتد عليه المرض في شهر شعـبان ١٢٧٥هـ حتى صار يغيب عن إحساسه، وكـان يقول: (أهل اللـه حملونا شـيـئًا كـثيـرًا لو نزل على الجـبـال الراسيـات لما أطاقته)[٢]، ثم ارتفع بعد ذلك المرض منتصف محرم عام ستة وسبعين ثم تزايد عليه الألم، والأسقام، وصار يغيب أحيانًا، ويفـيق أحيانًا إلى أن دعاه مولاه يوم الأربعاء من صفر الخير بعد طلوع الشمس [٣]، وهكذا أنتقل إلى جوار ربه .

وقبل الدفن اجتمع الإخوان في المسجد يوم الخميس، وقام فيهم عمران بن بركة خطيبًا فألقى كلمة قال فيها: (. . . حـمدًا لمن قضى على جميع العباد بالموت وسدد سهمه للإصابة في جميع الوقت، فلا حيف عن سلوك سبيله ولا مناص، ولا محيد عن الوقـوع في شـركه، ولا خـلاص، فلم ينج منه أمـيـر ولا وزير، ولا غني ولا فقيـر، ولا شريف، ولا وضيع، ولا دنيء ولا رفـيع، حكم بذلك على سائر رسله وأنبيـائه وأهل حضرتـه من أصفيـائه وأوليائه، وعلى الموت نفســه بعد إبقـاء المقادير بالموت فلا محيط عنه ولا فوت وجعله منة يفـتدى بها من أسرار الأكدار وجُنة يتقى بها من سهام الاغترار، . . . .) [٤] وبعد أن دفن ابن السنوسي رحمه الله، تولى أمر الحركة ابنه من بعده (محمد المهدي)، فقام بإرسال خبر وفاة ابن السنوسي إلى شيوخ

(١) انظر: الفوائد الجليلة (١/٨٩) .

(٢) انظر: الحركة السنوسية، ص ١٢٤ .

(٣) المصدر السابق نفسه، ص ١٢٤ .

(٤) المصدر السابق نفسه، ص ١٢٤ .

الزوايا في مختلف الأقطار وكان فيها: (... إنه من عبد ربه سبحانه محمد المهدي ابن السيد محمد بن علي السنوسي الخطابي الحسن الإدريسي إلى الأجلاء والأبرار الأصفياء الأخيار أخينا السيد محمد بن إبراهيم الغماري وأخينا إسماعيل بن رمضان، وأخينا وهبة، وكافة إخواننا أهل مكة سلمهم الله آمين السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ومغفرته، ومرضاته وبعد، فقد وصلتنا كتبكم التي أرسلت باسم الوالد رحمه الله تعالى وسقى ثراه وأكرم نزله ومثواه ، وكنا قبل هذا أرسلنا إليكم كتبنا وأخبرناكم فيها بما قدره الله وقضاه وأبرمه في أزله وأمضاه ونسأله تعالى أن يجعلنا من عباده الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون . واستطرد محمد المهدي في رسالته إلى أن قال: كونوا على ما كنتم عليه من الدلالة على الله تعالى بالحال وبالمقال وصابروا، ورابطوا وتواصوا بالصبر، واذكروا عباد الله فيه وجاهدوا في الله حق جهاده، وكونوا يداً واحدة على من سواكم، وفي الله إخوانا وعلى البر والتقوى أعوانا، ولا تعاونوا على الإثم والعدوان وسلموا منا على كافة الإخوان والمحبين من أهل مكة والمعابد والوادي والطائف وغيرهم) [1] .

وقد رثاه الشعراء وهذه قصيدة عبد الرحيم المحبوب يبكي فيها ابن السنوسي حيث يقول:

ما بال عينك لا بالنوم تكتحل ... ودمعها لا يزال اليوم ينهمل
كأنها سمات بالشوك أو كحلت ... من الغضي بشواظ كان يشتعل
تخالها مزنة قد لاح بارقها ... فاخضل الأرض منها صيب هطل
والوجه أسفع والأعضاء ناحلة ... والقلب في شراك الأحزان مختبل
والجنب إذ تدعه حال لمضطجع ... كان الوطأ له السعدان والأسل
تئن في لجج الأحلاك من نكد ... منه ترى راحة أن يحضر الأجل
أمن تذكر أوزاراً سفت لها ... أو زار بالطيف من تهوى ولم يصل
أم ذا لفقد حبيب كنت تألفه ... وازور دهرك أم قد خانك الأمل؟

(١) انظر: السنوسي الكبير، ص ١٣٨ .

يالهف نفسي على ما كان مسكنهم ... قلبي وهم أن مضوا سفر به مهل
كانوا الغياث للمهوف ومتجعا ... للمجدين إذا ما مسهم محل
شدوا الرحال ولم يستأذنوا أحدا ... وضل شوقًا لم يبكيهم الطلل
تبكيهم السنة الغراء من عصر ... ما أن بمثلهم قد مسها ثكل
يبكيهم ما حوى (كشف الظنون) وما ... يروى (الجوامع) مع ما ساره المثل
مع ما روى (حجة الإسلام) من حكم ... وأعلن الشيخ من رمز له قفل
من (للصحاح) (وشمس العلم) بعدهموا ... أو (للشفاء) و (للقاموس) يحتفل
من (للجلالين) و (الكشاف) ينقذه ... (البحر) و(النهر) و (الأنوار) ينتخل؟
من (للعلوم) على أقصى تنوعها ... من (للحلوم) إذا أشفت بها العلل؟
من (للمكارم) و (الآثار) يؤثرها ... عن الجدود الآلى سارت بهم مثل؟
والغور والنجد من أرض الحجاز وما ... ضاهي (قبيسًا) بها من فقدهم عطل[1]

إلى أن قال:

فالصبر أولى وعند الله محتسب ... أن المصائب أن تعظم لها بدل
توارت الشمس عن عين الحسود بها ... أو ذاك رفق ببدر ناله الخجل
وذاك عام شروع الخطب قلت إذن ... ما بال عيناك لا بالنوم تكتحل[2]

وهذه قصيدة ألقاها شاعر ليبيا أحمد رفيق المهدوي عام ١٩٥٦م بمناسبة مرور مائة عام على وفاة ابن السنوسي:

خلدوا ذكرى أمام المصلحين ... سيد المجتهدين العارفين
الإمام، ابن السنوسي، الذي ... فاق صنف العلماء العاملين
عبقري قد تسامى للعلا ... بجلال العلم والدين المتين
وبإصلاح ترى آثاره ... لم تزل تهدد على مر السنين

---

(١) انظر: السنوسي الكبير، ص ١٣٢ .
(٢) المصدر السابق نفسه، ص ١٣٣ .

نشــــر الدين بعـــزم صـــارم وجـــهـــاد كـــجـــهـــاد المرسلين
وهدى قـــومًـا على غـيـــر هدى بين جـــهـل وضــلال عـــائشين
في صــحـــارى يـلفح القـيظ بهـــا كـــشـواظ النار فـــيـهـــا الســاكنين
وبـلاد في غـــمـــــار مـطبـق بظـلام البـــؤس، والغـــيم المشين
عـــمــــهــــا دينـا ودنيا فـــغـدا أهلـهــا من عـلمـــاء المسلـمين!
وبنى فـــيـــهـــا (زوايا) أصــبــحت منـهـــلا عـــذبا لورد الظـامـــئين
ومـــنـارات تـــشع الـــعـــلـم مـــن قـــابس عـن نور رب الـعـــالمين
بالتـــآليف التـي من فـــيـــضـــهـــا (سلسـبيل) (المنهـل) الصـافي المعين
و (شـــفـــاء الصـــدر) من رين الهـــوى و (بإيـقـــاظ لوسنان) مـــهين
وشــــرح لعـلـوم وضــــحـت مـــا عـصى من مـشكلات الأولين
بيـنت مـــا جـــاءنا عن جـــده من علـوم، وأحــــاديث، وديـن
هـذه آثـاره مـن عـــلـمــــه كلهـا تدعـــو إلـى الحق اليــقين[1]

هذا ما استطعت جمعه وتلخيصه عن ابن السنوسي رحمه الله تعالى، وما أردت بالكتابة عن حياته إلا إحياء سير المصلحين، والدعاة العاملين، والعلماء الراسخين، لتعلم الأجيال الصاعدة أن لها تاريخًا عريقًا ضاربًا في أعماق الزمن يزخر بأمجاد الإسلام، وأن ابن السنوسي ممن واصلوا نهج الصحابة والتابعين في الدعوة إلى الله، وأن سيرته ليست عنا ببعيدة، لعل هذه الصفحات المشرقة تصل إلى قلوب دعاة الإسلام في ليبيا، وفي الأمة، فيقتبسوا من سيرته ما يحثهم على مواصلة السير لدعوة الله، والجهاد في سبيله، وما أردت بذلك إلا وجه الله تعالى هو حسبي عليه توكلت وإليه أنبت، انتهيت من هذه الترجمة في العشر الأواخر من شهر رمضان، فاستبشرت بذلك خيرًا، وتذكرت رؤيا رأيتها عندما كنت في المعتقل السياسي بطرابلس الغرب عام ١٩٨٣م، حيث رأيت ابن السنوسي في منامي وقدم لي كأسًا مملوءة بالحليب فشربته، فإني أحمد الله على أن وفقني لكتابة هذا الكتاب، والفضل

(١) الملك إدريس عاهل ليبيا، تأليف دي كاندول، ص ١٥٩، ١٦٠، أشرف على الترجمة محمد عبده غلبون .

لله وحده من قبل ومن بعد، وأختم هذا الكتاب بهذه الأبيات التي سليت بها نفسي، عندما حذرني بعض الأخوة من نشر ما يتعلق بأمجاد السنوسية، لأن ذلك يثير أعداءهم ضدي، وأنت لا حول لك ولا قوة، فأجبتهم ما أردت بكتابي إلا نصرة الإسلام، وقلت لهم بأن هذه الأمجاد ليست خاصة بالسنوسية بل هي لكل مسلم وتلوت قول الله تعالى: ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف: ٦٤].

أما الأبيات فهي:

لا تطلبن من غير ربك حاجة ... إن كنت بالرحمن ذا إيمان

ومن الذي يستبدل الضعفاء ... والفقراء والبخلاء بالرحمن

أو يشتري الظلمات بالأنوار أو ... يرضى يعود بأخسر الخسران

فوض إلى المعبود أمرك كله ... وافزع إلى المولى بغير توانِ

واقرع إذا نام الأنام وغلقوا ... أبوابهم لا بالنوال الهاني

باب الذي بسط اليدين بليله ... ونهاره لتدارك العصيان

ويداه مبسوطتان للإحسان ما ... قبضت يد خوف من النقصان

باب الذي إن لم تسله فضله ... يغضب فكيف يرد بالحرمان

باب المجيب إذا دعاه مرتج ... لاج إليه ماله من ثاني

باب الذي يغنيك عن زيد وعن ... عمرو وعن ثان وعن أعوان

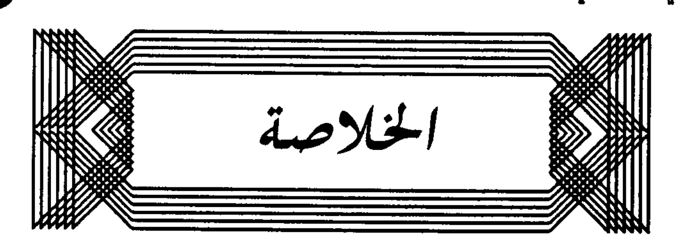
باب الذي لا خير إلا عنده ... بيده كل منى وكل أمان

باب الذي يرجى لكل ملمة ... لعظائم الآلام والحدثان

الحي قيوم الخلائق كلها ... الواسع الرُّحْمى عظيم الشان

سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك

* ■ *



الخلاصة

١- أصيبت الدولة العثمانية في القرنين الماضيين بداء الأمم كالحسد والبغضاء، واستبداد الملوك، وخيانة الأمراء، وغشهم للأمة وإخلاد الشعب إلى الراحة، والدعة وكان شر ما أصيبت به الدولة الجمود في العلم، وفي صناعة الحرب، وفي تنظيم الجيوش .

٢- كانت الأحزاب العلمانية، والجمعيات السرية، والعصبيات القومية تنخر في كيان الدولة، فظهرت الدعوة إلى القومية الطورانية، والعربية، والكردية .... وبدأت الثورات تتفجر في البلدان، والحركات الانفصالية تتكاثر، والدول الأوروبية تدعمها وتستعد لتقسيم تركة الرجل المريض .

٣- أصبحت الأمة تعاني من الآثار التي ترتبت عن ابتعادها عن شرع الله، وأصيبت الناحية الاجتماعية، بتفشي الجهل، والمظالم بين الناس، وصراع الأمراء، والولاة على حطام الدنيا الزائل، وأصبحت الأمة في ليل حالك، وظلام دامس .

٤- جمد المسلمون في علوم دينهم فليس لديهم إلا ترديد بعض الكتب الفقهية، والنحوية، والصرفية، ونحوها، وجمدوا على فقه المذاهب، وجل همهم التعمق في الحواشي، وحفظ المتون، دون القدرة على الاجتهاد .

٥- أصبح لكل مذهب من المذاهب الفقهية مفتيًا وإمامًا، وتعددت الجماعات في المسجد الواحد، كل ينتصر لمذهبه، وكل يصلي خلف إمام مذهبه، وبذلك يقف المسلمون لصلاة الجماعة وراء أكثر من إمام حسب المذاهب المتواجدة في ذلك المسجد.

٦- انتشر التصوف المنحرف في أرجاء البلاد الإسلامية، شرقها، وغربها، عربيها، وعجميها، وضاع مفهوم العبادة الصحيح، ومفهوم الولاء والبراء، وانحرفت الأمة عن كتاب ربها وسنة رسولها ﷺ .

٧- بدأت الدول الأوروبية تستقطع من العالم الإسلامي بلدانا كلما أتيحت لها الفرصة .

٨- اهتز العالم الإسلامي لاحتلال الصليبيين لأجزاء من الوطن الإسلامي اهتزازًا عنيفًا، كما تأثر باحتكاكه بالغرب، واطلاعه على تقدمه، من هذا التحدي نبعت حركات الإصلاح .

٩- تتابعت حركات الإصلاح في العالم الإسلامي منذ النصف الثاني للقرن الثامن عشر، بتأثير عوامل عديدة منها: إحساس بعض العلماء الربانيين بسوء الأوضاع في العالم الإسلامي واحتلال أجزاء منه .

١٠- قامت حركة الشيخ محمد بن عبد الوهاب في نجد، وكان الدافع لها إحساس مؤسسها بانحطاط المسلمين، وتأخرهم .

١١- تعد حركة الشيخ محمد عبد الوهاب البداية الحقيقية لما حدث في العالم الإسلامي من يقظة جاءت بعد سبات طويل، وما تمخض عنها من صحوة مباركة، ورجعة إلى الدين .

١٢- ظهر الإمام محمد بن علي السنوسي بدعوته الإسلامية بعد وفاة محمد بن عبد الوهاب بعشرات السنين .

١٣- ولد الإمام محمد بن علي السنوسي عام ١٢٠٢هـ صبيحة يوم الإثنين الموافق الثاني عشر من ربيع الأول عند طلوع الفجر، ولذلك سماه والده محمدًا تيمنًا باسم النبي ﷺ .

١٤- بعد وفاة والده تولت عمته فاطمة تربيته وتنشئته تنشئة صالحة، وكانت من فضليات أهل زمانها، ومتبحرة في العلوم، ومنقطعة للتدريس والوعظ .

١٥- بعد وفاة عمته عام ١٢٠٩هـ بسبب الطاعون تولى تربيته ابن عمه الشيخ محمد السنوسي الذي تولاه بعد وفاة عمته وأتم على ابن عمه حفظ القرآن الكريم برواياته السبع مع علم رسم الخط للمصحف، والضبط، وقرأ عليه الرسالات الآتية، مورد الظمآن، المصابيح، العقيلية، الندى، الجزرية، الهداية المرضية في القراءة المكية، حرز الأماني للشاطبي .

١٦- بعد وفاة ابن عمه ١٢١٩هـ، جلس للأخذ من علماء مستغانم لمدة سنتين كاملتين، ثم توجه إلى بلدة مازونه ومكث بها عامًا ثم رحل إلى مدينة تلمسان وأقام بها ما يقارب من السنة وتتلمذ على كبار شيوخها .

١٧- كان تفكيره في حال الأمة مبكرًا، واجتهد في البحث عن العلل والأسباب التي أدت إلى التدهور والضعف المخيف في كيان الأمة، وذكر أن من أسباب هذا الضياع، فقدان القيادة الراشدة، وغياب العلماء الربانيين، وانعدام الغيرة الدينية، والانشغال بالخلافات التي فرقتهم شيعا وجماعات .... إلخ.

١٨- رأى ابن السنوسي أن الإيمان هو القضية الأولى والأساسية، لهذه الأمة، فإذا تخلف المسلمون عن غيرهم في وسائل الحياة الحرة الكريمة ؛ فمرد ذلك إلى انحرافهم عن فهم الإسلام فهمًا سليمًا .

١٩- ولا سبيل إلى إصلاح حالهم ومآلهم إلا بالإيمان على الوجه الذي بينه الله في كتابه، ورسوله ﷺ في سنته، وهو أن يكون طاقة دافعة إلى العمل، وقوة محركة للبناء، وحافزًا طبيعيًّا للتفوق .

٢٠- رأى أهمية العلم في نهوض الأفراد والجماعات والأمم، لأن العلم ظهير الإيمان، وأساس العمل الصالح، ودليل العبادة .

٢١- سافر إلى فاس ليزداد في طلب العلم وبقي في المغرب الأقصى سبع سنين متتالية، وكانت تجربته في فاس ثرية .

٢٢- وبعد ذلك ترك المغرب الأقصى وتوجه نحو المشرق، فمر بتونس وليبيا ثم دخل القاهرة وكان ذلك عام ١٢٣٩هـ / ١٨٢٤م .

٢٣- كانت زيارته لمصر قد رسخت في نفسه ضعف دولة الخلافة من جهة، وزاد ضعفها بظهور حكومة محمد علي باشا على مسرح الأحداث في مصر وقد وصل إلى قناعة مهمة في الإصلاح والنهوض .

٢٤- لقد خبر ابن السنوسي أوضاع الدولة العثمانية في وطنه الأول الجزائر حيث تسلط الولاة الأتراك وحكمهم الاستبدادي، وعجز الدولة عن منعهم من الظلم،

وجاء إلى القاهرة فرأى حكم محمد علي باشا وانفـراده بشئون مصر، فزاد اقتناعًا بعجز الدولة وضعفها .

٢٥- دخل ابن السنوسي الحـجاز عـام ١٢٤٠هـ/ ١٨٢٥م، ونزل مكة وكـانت تلك الزيارة لمكة ذات أثر كبير في قيام الدعوة السنوسية وظهور شأنها .

٢٦- اهتم ابن السنوسي بالقضية الجزائرية، وعمل على إذكاء جذوة الجهاد في نفوس أبناء الجزائر ضد فرنسا، وحرص على المشاركة فيه بنفسه وأعد لذلك العدة إلا أن الظروف، والعـوائق التي كانـت في طريقه منعتـه من ذلك، وعمل على إمـداد تلاميذه بالأسلحـة والمال، وحرض أتباعه على القـتال، واستمر أتبـاع السنوسية، والشعب الليبي في دعم حركة الجهاد حتى تم دحر الاحتلال الفرنسي .

٢٧- إن المفتاح الكبير لقبائل بـرقة، هو قناعتها بأن ابن السنوسي ولي من أولياء الله الصالحين، ولذلك سمعت لنصائحـه، وأطاعت أوامره، فأرشدهم إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ .

٢٨- كانت زاوية البيضاء في الجبل الأخـضر أول الزوايا التي أسسها ابن السنوسي، وشرع يعلـم الناس فيهـا، ويذكرهم بالله ويرشـدهم إلى طريق النجاة فـي الدنيا والآخرة، وبدأت القـبائل تتوافـد إليه تطلب زيارته لهـا تبركًا به، وتطلب اقـامة الزاوية فيـه، وأحيانًا يـنتدب بعض الإخوان لذلك وهكذا بدأت الـقبائل تتـسابق والزوايا تنتشر .

٢٩- توفرت في قبائل برقة ظروف ملائمة لظهور الحـركات السنوسية بوصفها حركة إسلاميـة شاملة منها ؛ انفصـالها عن الأقطار المجاورة بالصحـاري والفيافي التي تحيط بها، تتألف تلك القـبائل من قبائل عربية بدوية تربطها أنماط حياة اجـتماعية متـجانسة، ويقوم ذلك النـظام على عصبيـات دموية مشـتركة، وتقاليـد وأعراف متشـابهة، كانت بعيدة عن سيطرة المدن، كـانت القبضة العثـمانية عليها ضعـيفة . . . إلخ .

٣٠- ظل ابن السنوسي خـمس سنين ينشئ الزوايا وينظمها، ويـرسم مناهج الدعوة ومبادئها، ويبث دعوته الإصلاحية عن طريق الزوايا .

٣١- عاد بعد هذه السنوات الخمس إلى الحجاز، المركز الأول لدعوته، ومنذ ذلك الوقت كان للدعوة مركزان رئيسيان ؛ شرقي في الحجاز وغربي في برقة، وعن هذين المركزين أخذت الدعوة السنوسية تنتشر بواسطة الزوايا هنا وهناك .

٣٢- طالت مدة غياب ابن السنوسي في الحجاز واشتد القلق في ليبيا لطول غيبته، وسافر إلى الحجاز أكثر من وفد ليبي ليلتمس منه أن يعود وكانوا يسافرون غالبًا في موسم الحج .

٣٣- رجع ابن السنوسي إلى ليبيا واختار الجغبوب كمقر لقيادة الحركة السنوسية .

٣٤- استطاع ابن السنوسي أن يختار من بين المسلمين مجموعة خيرة من العلماء، والفقهاء، والدعاة ممن اتصفوا، بالتميز الإيماني، والتفوق الروحي، والرصيد العلمي، والزاد الثقافي، ورجاحة العقل، وقوة الحجة، ورحابة الصدر، وسماحة النفس، وأصبحوا من أعمدة الحركة السنوسية أثناء حياته وبعد وفاته .

٣٥- قام عدد كبير بنصرة وتأييد الحركة السنوسية من العلماء، والفقهاء والقادة والشيوخ ومن أشهر هؤلاء الإخوان الذين ساندوا ووقفوا مع ابن السنوسي في حركته الواسعة ؛ محمد عبد الله التواتي، أحمد أبو القاسم التواتي، علي بن عبد المولى، أحمد بن فرج الله، محمد بن الشفيع، أحمد المقرحي، وعمران بن بركة الفيتوري وغيرهم كثير .

٣٦- استطاع ابن السنوسي بتوفيق الله تعالى أن يجعل من الإخوان والقبائل في الصحراء الكبرى مجتمعًا متماسكًا، متوحدًا في عقيدته وتصوراته ومنهجه، فانعكس ذلك في توادهم وتراحمهم فيما بينهم، وأصبحوا كالجسد الواحد الذي يخفق فيه قلب واحد، وتسري فيه روح واحدة، ويتأثر كل عضو فيه بما يصيب بقية الأعضاء .

٣٧- إن الأصول التي تساهم في توحيد المجتمع هي ؛ وحدة العقيدة، وتحكيم الكتاب والسنة، وصدق الانتماء إلى الإسلام، طلب الحق والتحري في ذلك، وتحقيق الأخوة بين أفراد المجتمع .

٣٨- يظهر البعد التنظيمي في شخصية ابن السنوسي في بناء الزوايا التي يتربى فيها أتباعه والمنهج التربوي الذي ساروا عليه .

٣٩- كان نظام الزوايا معروفًا في العالم الإسلامي، والشمال الإفريقي واستطاع ابن السنوسي بعقليته التنظيمية أن يطور مفهوم الزوايا بحيث أصبحت تمثل النواة الأولى لمجتمع تحكمه سلطة وعليه واجبات ؛ اجتماعية، واقتصادية، وسياسية، ودعوية، وجهادية .

٤٠- انتهج ابن السنوسي منهجًا تربويًّا استمده من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ومن خبرته بالطرق الصوفية التي درس جلها، وانتقد أخطاءها، وعمل على طريقة خاصة يسلكها أتباعه .

٤١- إن الصوفي الحقيق في رأيه من يتقيد بالكتاب والسنة وقد جعل للمريدين مراتب في السلوك يتدربون عليها أولها ؛ تصحيح العقيدة بميزان أهل السنة والجماعة، أن يتعلم المريد ما يحتاج إليه من المسائل الفقهية المتعلقة بظاهر البدن على مذهب من المذاهب الأربعة، أن يتوجه المريد إلى تزكية النفس، وتهذيب الأخلاق، وتصفية القلب وتنقية السر . . إلخ.

٤٢- يظهر البعد السياسي عند ابن السنوسي في تعامله الحكيم مع الدولة العثمانية، حيث رأى في الدولة العثمانية - دولة الخلافة - ضرورة لازمة لوحدة الأمة، والدفاع عن كيانها، وأنه لا بد من معاضدتها والوقوف بجانبها، ويظهر أيضًا في حملة التوعية التي قام بها ضد الغزو القادم للأمة من قبل الأوروبيين وتنظيمه للزوايا، وتعبئة الأنصار ؛ بغرس الثقة في دينهم وعقيدتهم، والثقة بقيادتهم، وتأخير الصدام مع الأوروبيين حتى يكتمل .

٤٣- كان أسلوب ابن السنوسي في الدعوة إلى الله مستمدًّا من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، وقد نجح في إرشاد الطرق الصوفية المنحرفة، وتعامل مع الرقيق من الأفارقة بأسلوب رفيع، فاشتراهم وأعتقهم، وعلمهم ثم أرسلهم دعاة إلى قبائلهم، واهتم بدعوة القبائل وزعمائها، واستطاع أن يجعل منهم دعاة إلى الله

تعالى واعتمد في أسلوبه على ضرب الأمثال، واستخدم القصة، واستعمل الشدة في محلها .

٤٤- إن فهم أفكار ابن السنوسي يمكننا الوصول إليها من خلال كتبه، ومن أهمها ؛ كتاب المسائل العشر، السلسبيل المعين، إيقاظ الوسنان في العمل بالحديث والقرآن، ورسالة مقدمة موطأ الامام مالك وغيرها .

٤٥- كانت كتب ابن السنوسي في أكثرها تتناول المباحث الفقهية، والصوفية وفيها كتابًا، أو كتابين يتناولان مواضيع تاريخية .

٤٦- إن ابن السنوسي في دراسته الطويلة لم يهمل الجانب التاريخي؛ لقناعته الراسخة، بأهمية هذا العلم في تحقيق الفوائد التربوية، وإدراك السنن الربانية ومعرفة معالم تاريخ الإنسانية، ومعرفة تاريخ الأنبياء، ومعرفة سيرة النبي ﷺ ومعرفة تاريخ الخلفاء الراشدين، وسير العلماء والمجاهدين والدعاة . . . وكانت ثقافته التاريخية تمتاز بغزارة المعلومات، ويعتز بتاريخ أجداده، ويؤمن بضرورة حصر الإمامة في قريس، وكان أسلوبه في كتابة التاريخ على نمط مؤرخي المسلمين، ويقتصر على سرد الحوادث .

٤٧- كان ابن السنوسي فقيهًا متصوفًا، اهتم بالعلوم الفقهية، وغاص في معرفة حقائق النفوس البشرية، واستنبط منهجًا تربويًا لعلاج الأمراض النفسية، والرقي بها نحو الكمالات الإنسانية .

٤٨- اتصف ابن السنوسي بصفات الدعاة الربانيين ؛ من الصدق، والإخلاص، والدعوة على بصيرة، والصبر، والرحمة، والعفو، والعزيمة، والتواضع، والإرادة القوية التي تشمل قوة العزيمة، والهمة العالية، والنظام والدقة، والزهد، والورع، والاستقامة . . . إلخ.

٤٩- إن هذا المجهود المتواضع قابل للنقد والتوجيه وما هي إلا محاولة جادة لإزاحة الركام عن صفحات مشرقة من تاريخ بلادنا الحبيبة التي كانت - ونرجو من الله أن تكون - مركزًا لدعوة الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها وما ذلك على الله بعزيز ويقولون متى هو قل عسى أن يكون قريبًا .

هذه هي الخلاصة التي وصلت إليها وقد ملت إلى الاختصار الشديد خوفًا من الإطالة والإطناب .

وأسأل الله العلي العظيم رب العرش الكريم أن يتقبل هذا الجهد المتواضع قبولاً حسنًا وأن يبارك فيه وأن يجعله من أعمالي الصالحة التي أتقرب بها إليه .

وأختم الجزء الأول من الكتاب السابع بقول الله تعالى:

﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ٩].

ويقول الشاعر:

أنا الفقير إلى رب البريات	أنا المسكين في مجموع حالاتي
أنا الظلوم لنفسي وهي ظالمتي	والخير إن يأتينا من عنده يأتي
لا أستطيع لنفسي جلب منفعة	ولا عن النفس لي دفع المضرات
والفقر لي وصف ذات لازم أبدًا	كما الغني أبدًا وصف له ذاتي
وهذه الحال حال الخلق أجمعهم	وكلهم عنده عبد له آت

سبحانك اللهم وبحمدك ، أشهد أن لا إله إلا أنت

أستغفرك وأتوب إليك

(وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين) .

* ■ *

أهم مراجع ومصادر البحث

(أ)

١- إمام التوحيد، الشيخ محمد بن عبد الوهاب، الدعوة والدولة، تأليف، أحمد القطان، محمد الزين، مكتبة السندس، الكويت، الطبعة الثانية، ١٩٨٨م .

٢- انتشار الإسلام في القارة الإفريقية، د. حسن إبراهيم حسن، مكتبة النهضة المصرية، الطبعة الثالثة، ١٩٨٤م .

٣- إيقاظ الوسنان في العمل بالحديث والقرآن، للإمام محمد بن علي السنوسي، طبع مع المجموعة المختارة للإمام السنوسي، على نفقة محمد عبده بن غلبون وشقيقه هشام وعلي، في جامعة مانشستر، بريطانيا عام ١٩٩٠م .

(ب)

٤- برقة العربية أمس واليوم، محمد الطيب بن أحمد إدريس الأشهب، مطبعة الهواري، شارع محمد علي بمصر .

٥- البحر الرائق في الزهد والرقائق، أحمد فريد، دار البخاري، القصيم بالسعودية، الطبعة الأولى ١٤١١هـ - ١٩٩١م .

٦- البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، لمحمد بن على الشوكاني، دار المعرفة بيروت .

(ت)

٧- تاريخ ليبيا المعاصر، محمود عامر، منشورات جامعة دمشق طبعة عام ١٤١١هـ، ١٩٩١م .

٨- تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل، تحقيق عبد العزيز غنيم، وحمد أحمد عاشور، ومحمد إبراهيم البناء، مطبعة الشعب القاهرة بمصر .

٩- تفسير السعدي، المسمى تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، للشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي، المؤسسة السعدية بالرياض ١٩٧٧م .

١٠- تفسير الإمام البغوي، المسمى معالم التنزيل، للإمام أبي محمد الحسين بن مسعود الفراء البغوي الشافعي، دار المعرفة، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة، ١٤١٣هـ، ١٩٩٢م .

١١- التمكين للأمة الإسلامية في ضوء القرآن الكريم، محمد السيد محمد يوسف، دار السلام بمصر، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ، ١٩٩٧م .

١٢- توضيح الأحكام من بلوغ المرام، عبد الله بن عبد الرحمن البسَّام، دار القبلة للثقافة الإسلامية، جدة، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ، ١٩٩٢م .

(ج)

١٣- جند الله تخطيطًا، سعيد حوى، دار السلام بمصر .

١٤- الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي، مكتبة المعارف، الرياض ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م .

١٥- الجامع لأحكام القرآن، لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان .

١٦- المجتمع الليبي، د . عبد الجليل الطاهر، المكتبة العصرية صيدًا، بيروت، طبعة عام ١٩٦٩م .

١٧- المجتمع والدولة والاستعمار في ليبيا، د. علي عبد اللطيف حميده، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٩٥م .

١٨- الجغرافيا السياسية لإفريقيا، د. فيليب رفلة، القاهرة عام ١٩٦٥م .

(ح)

١٩- حاضر العالم الإسلامي، تأليف لوثروب ستودارد الأمريكي، ترجمة: عجاج نويهض، تعليق: شكيب أرسلان، دار الفكر .

٢٠- حاضر العالم الإسلامي، وقضاياه المعاصرة، محمد جميل المصري، منشورات جامعة المدينة المنورة .

٢١- الحكمة في الدعوة إلى الله، سعيد بن علي القحطاني، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ، ١٩٩٢م .

٢٢- الحكمة والموعظة الحسنة، د. أحمد سليمان المورعي، دار الأندلس الخضراء، جدة، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ، ١٩٩٧م .

٢٣- الحركة السنوسية، نشأتها ونموها في القرن التاسع عشر، أحمد الدجاني، الطبعة الأولى، ١٩٦٧م، دار لبنان .

٢٤- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء: لأبي نعيم أحمد بن عبد الله الأصفهاني، دار الكتاب العربي، بيروت .

(د)

٢٥- دراسات وصور من تاريخ الحياة الأدبية في المغرب العربي، د . محمد طه الحاجري، دار النهضة العربية، بيروت طبعة أولى، عام ١٤٠٣هـ، ١٩٨٣م .

٢٦- دائرة المعارف، بطرس البستاني، مطبعة الهلال بمصر، طبعة عام ١٨٩٨ .

٢٧- دراسات في التاريخ اللوبي، مصطفى بعيو، القاهرة، ١٩٤٥م .

٢٨- الدرر السنية في أخبار السلالة الإدريسية، للإمام محمد بن علي السنوسي، ضمن المجموعة المختارة للإمام السنوسي، طبعة في منشستر ببريطانيا عام ١٩٩٠م على نفقة محمد عبده بن غليون، وشقيقيه هشام وعلي .

٢٩- دولة الموحدين، من سلسلة صفحات من التاريخ الإسلامي في الشمال الإفريقي، لعلي محمد محمد الصلابي، دار التابعين، مصر، القاهرة، طبعة أولى ٢٠٠١م .

٣٠- الدولة العثمانية ،عوامل النهوض وأسباب السقوط، لعلي محمد محمد الصلابي، منشورات دار التابعين .

٣١- ديوان الإمام الشافعي، تحقيق، محمد عبد المنعم خفاجي، الطبعة الثالثة ١٤٠٦هـ، مكتبة المعارف .

(ر)

٣٢- رحلة الحشائشي إلى ليبيا، جلاء الكرب عن طرابلس الغرب، محمد عثمان الحشائشي التونسي، تحقيق علي مصطفى المصراتي، دار لبنان، الطبعة الأولى ١٩٦٥م .

(س)

٣٣- سد باب الاجتهاد وما ترتب عليه، عبد الكريم الخطيب، دار الأصالة، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ، ١٩٨٤م .

٣٤- سلسلة الأحاديث الصحيحة، محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، الطبعة الرابعة ١٤٠٥هـ، ١٩٨٥م، بيروت، دمشق .

٣٥- سنن أبي داود سليمان بن الأشعث، تحقيق عزت عبيد الدعاس، حمص، الناشر: محمد السيد .

٣٦- سياحتي في صحراء إفريقيا الكبرى، لصادق المؤيد، مطبعة سي، إستانبول، عام ١٣١٤هـ .

٣٧- السنوسية دين ودولة، د . محمد فؤاد شكري، دار الفكر، طبعة ١٩٤٨م .

٣٨- السلسبيل المعين في الطرائق الأربعين، للإمام محمد بن علي السنوسي، ضمن المجموعة المختارة للإمام السنوسي، طبعة منشستر عام ١٩٩٠م .

٣٩- السيد محمد رشيد رضا، محمد أحمد درنيقة، مؤسسة الرسالة، دار الإيمان طرابلس، لبنان، طبعة أولى ١٤٠٦هـ، ١٩٨٦م .

٤٠- الإسلام في القرن العشرين، حاضره ومستقبله، عباس محمود العقاد، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية ١٩٦٩م .

٤١- السنوسي الكبير، محمد الطيب بن إدريس الأشهب، مطبعة محمد عاطف، ميدان الخازندار بمصر .

(ش)

٤٢- شرح الحماسة للمرزوقي، ط٢، لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م .

٤٣- شرح النووي على مسلم، للنووي ط١، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة .

٤٤- شرح مقدمة أبي زيد القيرواني، الأمين الحاج محمد أحمد، مكتبة دار المطبوعات الحديثة، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م .

(ص)

٤٥- صحيح البخاري، للإمام محمد بن إسماعيل البخاري، دار الطباعة العامرة بإستانبول ١٣١٥هـ، المكتب الإسلامي، إستانبول، تركيا .

٤٦- صحيح مسلم، للإمام أبي الحسن مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، دار الحديث، القاهرة الطبعة الأولى ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م .

(ع)

٤٧- عجائب الآثار في التراجم والأخبار، لعبد الرحمن الجبرتي، دار فاس .

(ف)

٤٨- فقه التمكين في القرآن الكريم، لعلي بن محمد الصلابي، دار التابعين، ٢٠٠١م.

٤٩- في تاريخ العرب الحديث وجهاد الأندلسيين، د. رأفت الشيخ، دار الثقافة، طبعة ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م .

٥٠- الفوائد الجليلة في تاريخ العائلة السنوسية، عبد القادر بن علي، مطبعة دار الجزائر العربية، دمشق، عام ١٣٨٦هـ/ ١٩٦٦م .

(ق)

٥١- قواعد التحديث من فنون مصطلح الحديث، محمد جمال الدين القاسمي، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م .

(ك)

٥٢- كتب في الساحة الإسلامية، عائض القرني، دار العميعي ط، ١٤١٢هـ .

(م)

٥٣- موسوعة التاريخ الإسلامي، محمود شاكر .

٥٤- موسوعة التاريخ الإسلامي، د. أحمد شلبي، مكتبة النهضة المصرية القاهرة، الطبعة العاشرة ١٩٩٥م .

٥٥- مفاتيح الغيب، للإمام فخر الدين الرازي، دار الفكر لبنان .

٥٦- مقدمة الإمام مالك، للإمام محمد بن علي السنوسي، ضمن المجموعة المختارة للإمام السنوسي، طبعة في منشستر عام ١٩٩٠ على نفقة ابن غلبون .

٥٧- المنهل الروي الرائق في أسانيد العلوم وأصول الطرائق للإمام محمد بن علي السنوسي، ضمن المجموعة المختارة للإمام السنوسي، طبعة في منشستر عام ١٩٩٠م على نفقة آل ابن غلبون .

٥٨- مجموع فتاوى ابن تيمية، جمع وترتيب عبد الرحمن القاسم، بيروت، ط ١٣٩٠هـ / ١٩٧١م .

٥٩- المستخلص في تزكية الأنفس، سعيد حوى، دار السلام، الطبعة الرابعة، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م .

٦٠- الإمام البخاري، تقي الدين الندوي المظاهري، الطبعة الثالثة ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م، دار القلم، بيروت، دمشق .

٦١- مظاهر الانحرافات العقدية عند الصوفية، إدريس محمود إدريس، مكتبة الرشد، الرياض، شركة الرياض للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م .

٦٢- الموطأ: الإمام مالك بن أنس، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، عيسى الحلبي وشركاه، القاهرة .

٦٣- المسائل العشر، للإمام محمد بن علي السنوسي، ضمن المجموعة المختارة للإمام السنوسي، طبعت بمنشستر ببريطانيا، عام ١٩٩٠م على نفقة آل ابن غلبون .

٦٤- الملك إدريس عاهل ليبيا، تأليف دي كاندول، ترجمة ليبي، الناشر محمد عبده ابن غلبون .

٦٥- المهدي السنوسي، محمد الطيب الأشهب، مطبعة بلينوماجي، طرابلس .

٦٦- ليبيا من الاستعمار الإيطالي إلى الاستقلال، د. نقولا زيادة، منشورات قسم الدراسات التاريخية والجغرافية، معهد الدراسات العربية العالمية، جامعة الدول العربية، طبعة ١٩٥٨م .

(ن)

٦٧- الانحرافات العقدية والعلمية في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين وآثارهما في حياة الأمة، تأليف علي بن نجيب الزهراني، دار طيبة مكة، دار آل عمار الشارقة، الطبعة الثانية ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م.

٦٨- النجوم الزاهرة، لجمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغري، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، ١٣٩١هـ/ ١٩٧١م .

(و)

٦٩- واقعنا المعاصر، محمد قطب، الطبعة الثانية، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م، مؤسسة المدينة المنورة .

٧٠- وجوب التعاون بين المسلمين، عبد الرحمن السعدي، المعارف، الرياض، طبعة ١٤٠٢هـ .

* ■ *



الفهرس

الموضوع	الصفحة

صفحات من التاريخ الإسلامي
في الشمال الإفريقي

الثمار الزكية للحركة السنوسية فى ليبيا

سيرة الزعيمين

محمد المهدي السنوسي وأحمد الشريف

الجزء الثاني

تأليف

علي محمد محمد الصلابي

مكتبة الصحابة
الإمارات - الشارقة
ت: ٥٦٣٣٥٧٥ - فاكس: ٥٦٣٧٥٤٤

مكتبة التابعين
القاهرة - عين شمس
ت: ٤٩٣٨١٤٤ - فاكس: ٤٩٣٤٣٢٥



الطبعة الأولى

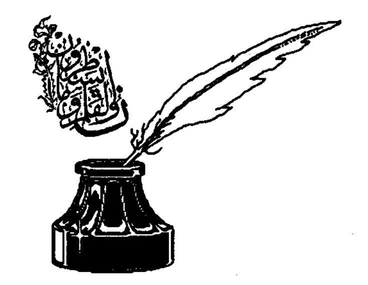
١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م

مكتبة الصحابة

الإمارات – الشارقة .
ت : ٥٦٣٣٥٧٥ – فاكس : ٥٦٣٧٥٤٤

مكتبة التابعين

القاهرة – عين شمس .
ت : ٤٩٣٨١٤٤ – فاكس : ٤٩٣٤٣٢٥



بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمة

إن الحمد لله نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢] .

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾ [النساء: ١] .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١] .

أما بعد:

يا رب لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك، لك الحمد حتى ترضى ولك الحمد إذا رضيت ولك الحمد بعد الرضى .

هذا الجزء الثاني من الكتاب السابع يتحدث عن الحركة السنوسية في ليبيا وقد سميته «**الحركة السنوسية في ليبيا وأثرها الدعوي والجهادي وسيرة الزعيمين محمد المهدي وأحمد الشريف**» .

إن غربلة التاريخ ، وحفظه من التزوير، وكشف الأكاذيب التي دسها أصحاب الأغراض الخبيثة الذين عملوا على تشويهه، وتزويره، وتشكيك الأجيال في سير أبطالهم ، وقدوتهم، لعبادة عظيمة يحبها المولى عز وجل الذي من أسمائه الحسنى العدل، والحق إن الأبناء يحفظون لزعماء بلادهم، وصانعي تاريخها، أعمالهم

العظيمة، وجهادهم الشاق، ودعوتهم المخلصة مع الدعاء لهم بالمغفرة والرحمة، قال تعالى: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠] .

لقد اطلع مجموعة من المفكرين، والمختصين بشئون الدعوة، والمهتمين بأمر التاريخ على سيرة الإمام محمد بن علي السنوسي، فنالت إعجابهم، وأشادوا بالأسس التي قامت عليها الحركة السنوسية من إيمان عميق، وإخلاص لله، وعلم غزير، وجهاد متواصل، وأشاروا إلى أهمية نشر مثل هذه المعلومات؛ لأنها تساهم في توعية الأجيال بحقائق مهمة في مجال الدعوة إلى الله تعالى .

وفي هذا الجزء من هذه الدراسة نحاول أن نتعرف على سيرة إمامين من أئمة الدعوة السنوسية؛ محمد المهدي السنوسي، وأحمد الشريف السنوسي .

فالإمام محمد المهدي يعتبر الزعيم الثاني للحركة السنوسية وكانت سيرته مليئة بالدروس والعبر والعظات، وتوسعت الحركة في زمنه أكثر من أربعة أضعاف ما كانت عليه وحققت انتصارات عظيمة للإسلام في إفريقيا، بسبب إخلاصه لله، وصدقه في الدعوة، وتفانيه في العمل، وشجاعته النادرة، ورجولته الصادقة، وسيره الرشيد المستمد من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، لقد نمت الحركة السنوسية في عهد المهدي حتى بلغت ذروه نموها وانتشارها، وكانت فترة قيادته أكثر من أربعين عامًا، فكانت هذه المدة الطويلة، فترة استقرار وانتشار للدعوة، ويمكن تسميتها بالعصر الذهبي للدعوة السنوسية .

وكان المهدي بعيد النظر، سديد الرأي، شديد العزم على إتمام البناء الذي شيده والده ابن السنوسي، فواصل مسيرة والده في إنشاء الزوايا، وإرسال الدعاة والعلماء إلى قبائل إفريقيا، فدخلوا النيجر والكنغو والكامرون وجهات بحيرة تشاد، وعمل على ذيوع الدعوة عن طريق وادي، وبرنوا، وكاتم، والداهومي وغيرها .

لقد تغلغلت الحركة السنوسية بقيادة المهدي السنوسي في قلب إفريقيا من البحر

المتوسط شمالاً، إلى قلب السودان الغربي جنوبًا، حيث كانت تنتشر الوثنية، وبتوفيق الله تعالى، ثم هذه الجهود العظيمة دخل عدد كبير من الزنوج في الدين الإسلامي، وخرجت عدة قبائل وثنية من مهاوي الكفر بدرجة لا يتصورها العقل، وفي هذا يقول الشاعر:

كانت طريقته القيام بسنة ... نبوية لالاءة الأوضاح

فله من الخدمات للإسلام ما ... يعلو على متناول الشراح

يكفيه نشر الدين في الآلاف من ... أقصى حدود «تشاد» حتى «الواح»

نصر لدين الله بين مجاهل ... صعبت على الرواد والسياح

فازوا من الفتح المبين بعزة ... الإسلام بعد عبادة الأشباح

لقد بسطت الحركة السنوسية في زمن المهدي سلطانها الروحي على أقاليم كثيرة في إفريقيا، وحققت نجاحات كبيرة في أوساطها، وفي قلب الصحراء الكبرى، وكانت عقبة كأداء في طريق الرسالات المسيحية التنصيرية، التي وجدت في أتباع السنوسية خصومًا عنيدين، عطلوا عليها أعمالها لدرجة بعيدة.

لقد كانت سيرة محمد المهدي السنوسي، روحها إيمان عميق بالله، وحب شديد لدعوته الخالدة، ورغبة أكيدة في الشهادة في سبيله، وجهاد مرير لأعداء الإسلام، وصبر لا ينفد في مجال الدعوة، ومجالدة دول الاستعمار بالبناء المتين، والتربية الشاملة، والإعداد المتوازن في كافة المجالات .

لقد اتصف محمد المهدي بصفات القادة الربانيين، من سلامة المعتقد ، والعلم الشرعي، والثقة بالله، والقدوة الحسنة، والصدق والشجاعة، والمروءة، والزهد، وحب التضحية، وحسن اختياره لمعاونيه، والتواضع، وقبول النصح، والحلم، والصبر، وعلو الهمة، والحزم، والإرادة القوية، والعدل، والقدرة على حل المشكلات، والقدرة على التعليم، وإعداد القادة، وإيمان بالله عظيم .

لقد انعكست ثمار الإيمان بالله على جوارحه، وتفجرت صفات التقوى في أعماله، وسكناته وأحواله ، واستطاع بتوفيق الله تعالى الانتقال بالحركة نحو أهدافها المرسومة بخطوات ثابتة، ورؤية واضحة، ومعرفة حقيقية للظروف المحلية والإقليمية والدولية التي تحيط به .

لقد كانت معالم سيرته، كما قال الشاعر:

كانت معالمها كسيرة جده	إحياء دين وانتشار صلاح
أعمال مجتهد بخالص نية	للخير منتصر بغير سلاح
لو كان عن شيء لغير الله في	أعماله ما كللت بنجاح
إذ لا يدوم سوى الذي هو نافع	للناس مرتفع عن الأرباح
ومن الكرامة للولي نجاحه	في النصح بالإقناع والإفصاح
والمرء لا يعجبك منه ما سعى	بل ما نوى في السعي من إصلاح
فإذا استوى علم وحسن عقيدة	كان النجاح حليف كل طماح
إن العقيدة لا يصح يقينها	إلا بفعل ظاهر وصراح
فإذا أحب الله باطن عبده	ظهرت عليه مواهب الفتاح
وإذا صفت لله نية مصلح	مال العباد إليه بالأرواح
هذي صفات السيد «المهدي» ولا	والله ما بالغت في الإيضاح

إن هذا الجهد المتواضع يحاول أن يجيب القارئ الكريم عن كثير من الأسئلة التي تتعلق بسيرة محمد المهدي السنوسي: كيف طلب العلم؟ وكيف تولى زعامة الحركة؟ وهل كان له مجلس شورى؟ وهل تطورت مؤسسات الحركة السنوسية في عهده؟ وما أسباب نمو الحركة؟ وهل كان هناك اهتمام خاص في زمنه بالمنهج التربوي الجهادي؟ ولماذا هذا الاهتمام؟ وما موقف الدول الأوروبية من الحركة السنوسية؟ وما موقف محمد المهدي السنوسي من الثورة العرابية في مصر، وثورة محمد أحمد في السودان؟ وما موقفه من الدولة العثمانية وفكرة الجامعة الإسلامية؟ وما الأهداف من رحلاته وانتقالاته إلى الكفرة ثم قرو؟ وما حقيقة الصراع بين فرنسا والحركة السنوسية؟ .

هذه الأسئلة وغيرها يحاول الكتاب أن يجد لها إجابات مقنعة من خلال البحث التاريخي .

أما سيرة الزعيم الثالث للحركة السنوسية السيد أحمد الشريف السنوسي، فيجد القارئ شيئًا من سيرته في هذا الكتاب الذي يحاول أن يعرف أبناء الأمة عمومًا وليبيا خصوصًا بهـذا السيد الصنديد والعالم الجليل، والعابد الخـاشع، والمجاهد الشجاع، والمهاجر الحزين بقصته الدعوية، وسيرته الجهادية، وأعماله البطولية سواء ضد فرنسا في تشاد والنيجر ومالي وجنوب الجزائر، عـبر الصحراء الكبرى، أو ضد إيطاليا في ليبيـا أو بريطانيا في مصر، لقد قال فـي حقه الشيخ الطاهر الزاوي: «فالسيـد أحمد رجل صقله العلم، وهذبته العبادة، فعفت نفسه، وكبرت همته، وانكمشت يده عما للناس فـيه حق أو شبـه حق، وأخلص عملـه لله فتولى الله توفـيقـه، وأطلق ألسنة الناس بمدحه والثناء عليه» .

وقال فـيه شكيب أرسـلان: « . . . فالسـيد أحمـد الشريف السنوسـي هو خاتمة مجـاهدي الإسلام إلى هذا الوقت قـد سبـقه الشـيخ شامل الداغـستانـي الذي قاوم الروسية أربعين سنة، والأمير عبد القـادر الجزائري الذي ناهز فرنسا ١٧ سنة وتبعه في الجهاد واقتدى بسـيرته محمد عبد الكريم الخطابي الريفي الذي كانت مقـاومته قصيرة ولكنها عريضـة توافق فيها دولتي فـرنسا وإسبانيا مـعًا وجهًا لوجـه وزلزلتا في حربه زلزالاً شديدًا، ولولا السـيد أحمد الشريف - رحـمه الله - لكانت إيطاليا اسـتصفت قطري طرابلس وبرقـة من الشهـر الأول . . . » وقـال أيضًا: « . . ولم يكن في قلبـه شيء من الدنيا بجـانب الآخرة، وكان جميع حطام هذا العـالم الفاني لا يوازي عنده جناح بعوضة في جانب الواجب الإسلامي، وهذا الـرجل هو السيد السنوسي الكبير الذي لولاه لم يكن أنور قدر أن يعمل شيئًا ولا كانت الدولة العثمانية قدرت أن تدافع عن طرابلس شهرًا واحدًا، وما كان المرحوم الشهيد البطل الفريد عمر المختار إلا حسنة من حسنات السيد أحمد الشريـف، وقائدًا من قواده . . » وقال أيضًا: « . . . إن السيد أحمد الشريف هو بنفسه أمة، وإن سيـرة السيد أحمد الشريف هي بذاتها تاريخ، وإن

كل من عرف عن كثب ذلك السيد الغطريف علم من أخلاقه وورعه وحلمه وعلمه وزهده في الدنيا وحبه لمعالي الأمور وعزوفه عن سفاسفها ومواساته للفقراء وحنانه على الضعفاء وشدته مع ذلك في الدين، وانحصار كل همومه في استتباب أمر المسلمين ومحافظته على الفرائض والسنن وغير ذلك من الأخلاق العالية والهمم الشماء والمنازل القعساء ما يذكر بأخلاق الصحابة الكرام بل يشبه من أخلاق الخلفاء الراشدين العظام..» وقال في حقه أيضًا: «... ولم يكن للسيد غرام في الدنيا إلا بأمر هذه الأمة، ولما سألته عند اجتماعنا في مكة عن أولاده الذين تركهم أطفالاً أجابني: قد صاروا الآن رجالاً، وما أنا بمفكر في أمرهم؛ إنما يهمني أمر هذه الأمة المعذبة في طرابلس، وكان في قلبه من أمر طرابلس ما لا يعلمه إلا الله ولكنه كان في إيمانه في ثبات الجبال، وكان يرى في هذه المصائب مقدمات يقظة الإسلام ...» .

وقال عنه أنور باشا القائد التركي المشهور في جهاده ببرقة: «... رسائله تشكل بصورة واضحة أهمية كبيرة بالنسبة لي كرمز للصداقة ؛ لأنه الشخص الوحيد الذي يتمتع بتأثير سلبي أو إيجابي في هذه الحرب...» .

في هذا الكتاب سيجد القارئ ما قاله المؤرخون في حق أحمد الشريف، وهل هو صواب أم خطأ؟ ويجد إجابات لكثير من الأسئلة المتعلقة بسيرته: كيف تولى أحمد الشريف زعامة الحركة السنوسية؟ وهل خاض بنفسه الحروب ضد فرنسا؟ ومن هم القادة الذين كانوا معه؟ وما موقفه من الغزو الإيطالي؟ وهل وقف مع الأتراك ضد الغزو؟ وهل وافق على الصلح الذي تم بين تركيا وإيطاليا؟ وما موقف الزوايا السنوسية من الاحتلال الإيطالي؟ وهل تفاعل العالم الإسلامي مع جهاد ليبيا؟ وهل دخول أحمد الشريف في حرب بريطانيا في الأراضي المصرية كان صحيحًا من الناحية العسكرية والسياسية؟ وما أسباب هزيمة أحمد الشريف أمام بريطانيا في الجبهة الشرقية؟ وما حقيقة الخلاف بين إدريس السنوسي، وأحمد الشريف؟ وما آثار حملته ضد بريطانيا على حركة الجهاد؟ وما الأسباب الرئيسية في سفره إلى تركيا؟ كيف ومتى وصل إلى تركيا؟ وما موقفه من مصطفى كمال؟ وهل عرض عليه مصطفى

كمال منصب نيابة الخليفة؟ وهل شارك في جهاد الأتراك ضد اليونان؟ ولماذا طرده مصطفى كمال من تركيا؟ وإلى أين هاجر، وكيف كان استقبال الملك عبد العزيز آل سعود له؟ ومتى توفي؟ .

نعم أسئلة كثيرة يحاول الكاتب أن يجيب عليها في هذا الكتاب بإذن الله تعالى.

لقد وفقني الله تعالى للجمع والترتيب والتحليل، فإن كان خيرًا، فمن الله وحده، وإن أخطأت السبيل فإني عنه راجع إن تبين لي ذلك والمجال مفتوح للنقد، والرد والتعليق، والتوجيه، كما أقرر بأنني قد استفدت كثيرًا من الجهود التي سبقتني، ككتاب «الحركة الوطنية في شرق ليبيا خلال الحرب العالمية الأولى» لمصطفى علي هويدي، و«جهاد الأبطال»، للشيخ طاهر الزاوي، و«حركة الجامعة الإسلامية»، لأحمد فهد الشوابكة، و«العزو الإيطالي لليبيا» لعبد المنصف البوري، و«تاريخ ليبيا المعاصر» لمحمود عامر، و«حروب البلقان» لعايض الروقي، و«برقة العربية» لمحمد الطيب الأشهب، و«المهدي السنوسي» لمحمد الطيبب الأشهب، و«الحركة السنوسية» للدجاني، و«الفوائد الجلية في تاريخ العائلة السنوسية» لعبد القادر بن علي، وغيرها من الكتب، وقد دونت ما اختصرته من مباحث وأشرت إليه في هامش الكتاب للأمانة العلمية، واعترافًا بجهود الذين سبقوا كما أنني انتهجت منهجًا دعويًا تاريخيًا يعتمد على توسيع النقاط البيضاء المشرقة، وتضييق النقاط السوداء المظلمة، مساهمة مني في علاج الهزيمة النفسية التي يمر بها شعبنا المظلوم ومتضرعًا لله تعالى الحي القيوم أن يحيي شعبنا وأمتنا بالإيمان والقرآن وسنة سيد الخلق أجمعين .

إن هاتين السيرتين العطرتين تبين لمسلمي ليبيا ، أن من أصلاب أجدادهم خرج مثل هؤلاء الأبطال وعاشوا للذود عن الإسلام ونشره بين الأنام، وبذلوا الأنفس والأموال والغالي والثمين من أجل دينهم وعقيدتهم وإسلامهم، كما تعطي الأمل في نفوس دعاة شعبنا بأن شجرة الإسلام الزكية الضاربة بجذورها في شعبنا من زمن الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه لكفيلة بأن تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها .

هذا وقد قمت بتقسيم الجزء الثـاني من الكتاب السابع في السلسلة التاريخية إلى مقدمة وفصلين، وخلاصة وهي كالآتي:

الفصل الأول: محمد المهدي ويشتمل على ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: اسمه، وولادته، وشيوخه، ومبايعته ، ومواقفه .

المبحث الثاني: موقف محمد المهدي السنوسي والليـبيين من الدولة العثمانية وفكرة الجامعة الإسلامية .

المبحث الثالث: رحلة المهدي السنوسي إلى الكفرة وقرو .

الفصل الثاني: الزعيم الثالث للحركة السنوسية، أحمد الشريف ويشتمل على ستة مباحث:

المبحث الأول: ولادته وتربيته وشيوخه .

المبحث الثاني: تولي قيادة الحركة .

المبحث الثالث: الغزو الإيطالي .

المبحث الرابع: الجهاد في برقة .

المبحث الخامس: الحرب العالمية الأولى .

المبحث السادس: وصول أحمد الشريف إلى تركيا .

ثم الخلاصة .

وأخيرًا: أرجو من الله تعالى أن يكون عملاً خالصًـا لوجهه الكريم، وأن يثيبني على كل حرف كتبـته ويجعله في ميزان حسناتي، وأن يثـيب إخواني الذين أعانوني بكافة ما يملكون من أجل إتمام هذا الجهـد المتواضع، ونرجو من القارئ الكريم أن لا ينسى العبد الفقير إلى عفو ربه ومغفرته ورضواته في صالح دعواته .

«سبحـانك اللهم وبحمدك أشـهد أن لا إله إلا أنت ، أستغـفرك وأتوب إليك، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين» .

الفقير إلى عفو ربه ومغفرته

علي محمد محمد الصلابي

■ الفصل الأول ■

محمد المهدي السنوسي

المبحث الأول

اسمه، وولادته، وشيوخه، ومبايعته، ومواقفه

أولاً: اسمه وولادته وشيوخه:

هو محمد المهدي بن محمد بن علي السنوسي ولد في الجبل الأخضر في ليبيا في محل يُقال له «ماسة»، يقع بجانب زاوية البيضاء، في شهر ذي القعدة عام ١٢٦٠هـ، الموافق نوفمبر ١٨٤٤م(١) .

ويذكر أحمد الشريف في تاريخه: «أن ابن السنوسي كان في درنة عند ولادة ابنه المهدي، فكتب له عمران بن بركة يهنئه ويسأله عن الاسم، فلما قدم المبشر عليه حكى لهم حكاية قال: كان رجل يخرز طبلاً فمر به جماعة وهو يخرز، قالوا له: ماذا تفعل؟ قال: إذا يبس تسمعون صوته . ثم قال لحميه أحمد بن فرج الله هذا المولود الذي ازداد على ابنتك يقف موقفًا يجري فيه الدم مجرى الماء في الوادي . وكتب لعمران بتسميته محمد المهدي وقال: أسميناه المهدي ليحوز إن شاء الله أنواع الهداية، ونرجو الله أن يجعله مهديًا»(٢) لقد كان مجيء الولد لابن السنوسي بعدما تقدمت به السن، وكان الإخوان السنوسيون يتمنون من الله أن يرزق شيخهم مولودًا مباركًا، ولذلك كانت فرحة الإخوان وابن السنوسي بهذا المولود عظيمة، وسارع عمران بن بركة لزف البشرى لوالده، لإدخال السرور على قلبه، وبعد مدة أرسل ابن السنوسي إلى زوجته بالقدوم إلى درنة ، وسلم ابنه للمرضعة، وكان سرور ابن السنوسي عظيمًا، وكان يرى أن ابنه المهدي سيخلفه بالدعوة ويكمل ما بدأه هو من أعمال، ومكث ابن السنوسي في درنة بجانب أهله إلى أن ولد ابنه الثاني سنة ١٢٦٢هـ/ ١٨٤٦م، وعندما كتب له عمران بن

(١) الحركة السنوسية ، ص (١٦٩) .

(٢) السنوسي الكبير، ص (٣٤) .

بركة يهنئه ويسأله عن اسم الوليد الثاني رد له الجواب بتسميته الشريف قائلاً له: «إننا لا نحيد بأسماء أبنائنا عن أسماء النبي ﷺ وإنما يختلفون في الألقاب والكنى فكما سميت الأول محمد المهدي ليحوز أنواع الهداية فسمِّ هذا محمداً الشريف ليحوز أنواع الشرف، ثم شرّق للحجاز»[1] .

وأسند أمر تربية أولاده للإخوان، وكان المسئول الأول الشيخ العلامة عمران بن بركة وكان يتابع أخبار ولديه في برقة وعندما أتم المهدي الخامسة من عمره أرسل ابن السنوسي للإخوان الكافلين له قائلاً: أدخلوه الكتّاب وعلموه الوضوء والصلاة. ففعلوا كما أمر[2] .

وبعد أن أتم السنة السادسة من عمره أدخله المدرسة القرآنية تحت إشراف العلامة عمران بن بركة الفيتوري، وفي منتصف السنة السابعة من عمره، حفظ جميع القرآن الكريم .

وكان علماء الحركة السنوسية يعلمون أولادهم كتاب الله، ويشجعونهم على حفظه مقتدين في فعلهم بفعل الصحابة مع أولادهم، وبأقوال العلماء في هذا الباب:

قال السيوطي: «تعليم الصبيان القرآن أصل من أصول الإسلام فينشئون على الفطرة، ويسبق إلى قلوبهم أنوار الحكمة قبل تمكن الأهواء منها وسوادها بأكدار المعصية والضلال»[3] .

وأكد ابن خلدون هذا المفهوم بقوله: «تعليم الولدان للقرآن شعار من شعائر الدين أخذ به أهالي الملة، ودرجوا عليه في جميع أمصارهم لما يسبق إلى القلوب من رسوخ الإيمان وعقائده بسبب آيات القرآن ومتون الأحاديث، وصار القرآن أصل التعليم الذي يبنى عليه ما يحصل بعد من الملكات»[4] .

---

(١) أحمد الشريف المخطوط، ص (٣٤) .
(٢) الحركة السنوسية ، ص (١٧٠) .
(٣) انظر: منهج التربية النبوية للطفل، محمد نور، ص (١٠٤) .
(٤) انظر: منهج التربية النبوية للطفل، ص (١٠٥) .

وبعد أن سمع والده بحفظ ابنه للقرآن الكريم طلبه والده للمجيئ للحجاز، وصحبه العلامة محمد بن إبراهيم الغماري، وهناك عهد به والده إلى نخبة من العلماء لتربيته وتلقينه العلوم تحت إشرافه المباشر، وفي سنة ١٢٧٤هـ رجع محمد المهدي إلى الجغبوب بصحبة العلامة عبد الرحيم المحبوب، وواصل محمد المهدي تعليمه العالي في معهد الجغبوب وأشرف على تعليمه والده ابن السنوسي وكبار الإخوان.

وكان ابن السنوسي يتابع بعناية فائقة وأقوال وأفعال ابنه، ويوجهه للصفات الرفيعة، والأخلاق الحميدة، وكان محمد المهدي منذ طفولته يتميز بالذكاء، وحسن الخلق، والتربية الرفيعة، ومن القصص التي تدل على صفاته الحميدة؛ جيء للسيد المهدي في إحدى المناسبات بجواد مسروج ليركبه، وكان محمد المهدي لا يزال صغيراً بحيث إنه لا يستطيع وضع رجله بدون واسطة في ركاب السرج، وتقدم أحد الإخوان مطأطئًا ليصعد المهدي على كتفه حتى تصل رجله إلى الركاب، وكان ابن السنوسي يلاحظ هذه الحركات وينظر إليها باهتمام من طرف خفي، ورفض المهدي أن تطأ رجله كتفي الشخص الذي تقدم لمعاونته رفضًا باتًّا، وأخذ يقود جواده إلى أن اقترب من حجر عال مثبت بالأرض فعلاه وبذلك تمكن من أن تصل رجله إلى ركاب السرج فنال هذا إعجاب واستحسان والده والإخوان الحاضرين[1] .

«وكان والده يكثر من سؤال الإخوان الذين يشرفون على تربيته وتعليمه عما وصل إليه فكانوا يبدون إعجابهم»[2] .

وفي السنتين الأخيرتين من حياة ابن السنوسي اهتم بتوطيد مركز ابنه المهدي بين الإخوان، وألقى الأضواء عليه، وعمل على رفع شأنه .

نقل عن الشيخ عمر الفضيل - رحمه الله - قوله: جاء السيد المهدي بـ «لوحة» إلى والده ابن السنوسي يريد أن يبدأ له فيه «بالافتتاح» فلما فرغ من كتابته قال له: اشهد لنا بأننا خدمناك»[3] .

---

(١) انظر: السنوسي الكبير، ص (١٣٥) .

(٢) الحركة السنوسية ، ص (١٧٢) .

(٣) انظر: السنوسي الكبير، ص (١٣٦) .

وكان ابن السنوسي يقف احترامًا للمهدي عندما يستأذنه للخروج، وأنه أصلح له حذاءه مرة وقال للإخوان: اشهدوا أنني خدمت المهدي، فخجل ابنه وتبللت ملابسه بالعرق وأحمر وجهه حياء حتى قيل : إنه أصيب بنوع من الحمى[١] .

وقال في إحدى المناسبات: «المهدي له السيف، والشريف له الكتاب، ثم ألبسه السيف وقال له تقدم لتصلي بنا»[٢] .

وحرص ابن السنوسي أن يزوج ابنه المهدي في حياته، فزوجه وهو لم يتجاوز الخامسة عشرة من عمره بفاطمة ابنة عمران بن بركة وذلك عام ١٢٧٥هـ/١٨٥٨م ، وقد أنجبت للمهدي عدة أولاد وتوفيت في حياته سنة ١٨٩١م[٣] .

ثانيًا: مبايعته:

عندما توفي ابن السنوسي في صفر عام ١٢٧٦هـ كانت سن محمد المهدي حوالي ستة عشر سنة، ومع هذا فقد خف كبار العلماء والشيوخ في الحركة السنوسية إلى مبايعته، وكان على رأسهم عمران بن بركة ، وأحمد الريفي، وعلي بن عبد المولى، ومحمد المدني التلمساني، ومحمد بن حسن البسكري، وعبد المتعال الإدريسي، وأحمد أبو القاسم التواتي، أبو القاسم العيساوي، وعمر الأشهب، محمد بن الشفيع، مصطفى المحجوب، عبد الرحيم المحبوب، عمر الفضيل، محمد السكوري، أحمد أبو سيف، محمد بن الصادق الطائفي، أبو سيف مقرب، ومحمد ابن إبراهيم الغماري، عبد الله السني، المرتضي فركاش، حسين الغرياني، فالح الظاهري، فقدموا لمحمد المهدي وشقيقه محمد الشريف واجب التعزية، وبايعوا الإمام المهدي قاطعين على أنفسهم عهد الله وميثاقه أن لا يتهاونوا بواجب الأمانة التي تركها شيخهم الجليل لهم، وأنهم مستعدون لتقديم الأنفس والأرواح، في سبيل دعوتهم ودينهم، وكانت تلك البيعة قبل دفن ابن السنوسي[٤] - رحمه الله تعالى - وقد بين عمران بن بركة في خطبة تأبين ابن السنوسي هذه البيعة في قوله: «. . .

---

(١) المصدر السابق نفسه، ص (١٣٦) .
(٢) الحركة السنوسية ، ص (١٧١) .
(٣) الحركة السنوسية ، ص (١٧٣) .
(٤) انظر: المهدي السنوسي، ص (٣٠) .

وأن تجعل تأييد الدين وتمامه على لسان ويد نجله الطاهر وفرعه الزاهر ووارثه الماهر سيدي ومولاي السيد محمد المهدي...»[١].

ثالثًا: المجلس الأعلى للحركة وسير الحركة:

كون الإمام المهدي السنوسي مجلسًا أعلى من كبار الإخوان، يتكون من: العلامة عمران بن بركة، وأحمد الريفي، علي عبد المولى، وفالح الظاهري، عبد الرحيم المحبوب، محمد المدني التلمساني، محمد بن الحسن البسكري، وسيف مقرب[٢]، وكان هذا المجلس يمثل قمة الهرم الذي قاعدته الزوايا، وكان يضم كبار رؤساء الزوايا في برقة وطرابلس ومصر والحجاز والسودان وشمال إفريقيا، وكان يجتمع سنويًّا في الجغبوب للنظر في أهم أمور الحركة، وكان يرأسه محمد الشريف السنوسي، ثم تعرض قراراته على الإمام المهدي، للموافقة عليها، أو تعديلها بما يبدو له، أو رفضها، أما المجلس الخاص، فيتكون من كبار الإخوان المقيمين في الجغبوب، فيعقد جلساته يوميًا بالجغبوب، وللكثير من أعضائه أعمال أخرى مضافة إلى عضوية المجلس وهو يشكل قيادة للحركة، وقد وصف الطيب الأشهب هذا المجلس، بمثابة مجلس الوزراء، فالسيد أحمد الريفي بمثابة رئيسًا للوزاء، وهو المستشار الخاص للإمام محمد المهدي، وعمران بن بركة رئيس مجلس الشيوخ، وعلي بن عبد المولى حاكم الجغبوب، بمثابة وزير داخلية ومالية في وقت واحد إلى جانب نظارة الخاصة الإمامية، ومحمد المدني بمثابة وزير الشئون الاجتماعية ومحمد الشريف بمثابة وزير المعارف، إلى جانب نيابته عن الإمام المهدي ورؤساء الزوايا، كحكام للمناطق، وبمثابة نواب الأمة عندما يجمعهم المجلس الأعلى، وهناك مسئوليات أخرى وزعت على من ذكرنا وغيرهم، كالإشراف على طلبة القرآن، وطلبة العلم، ومراقبة المعلمين في المدرستين القرآنية والعلمية، والإشراف على العمال، وعلى دار الضيافة، ولاستقبال الزوار، ومراقبة المكتبة الجغبوبية ونظام توزيع

---

(١) الحركة السنوسية، ص (١٧٣).

(٢) انظر: المهدي السنوسي، ص (٣٥).

الأرزاق «التموين» ، واستلام الوارد وحفظه، إلى جانب هذا النظام المحكم ، هناك مجالس فرعية في كل إقليم من الأقاليم تضم رؤساء المراكز الإصلاحية في ذلك الإقليم، للنظر فيم يتعلق باختصاصاتهم، والشئون المرتبطة بهم، فعلى هذا التخطيط كانت تُدار شئون الحركة[١] .

ومن الملاحظ أن مبدأ التفرغ كان موجوداً في الحركة لقناعة الحركة السنوسية أن الأعمال العظيمة تحتاج إلى أوقات كبيرة، وجهود ضخمة، وهمم عالية، ولذلك سلكت الحركة السنوسية مسلك تفريغ بعض القيادات، ووفرت المال اللازم لهذا الهدف، ووفرت كل ما يحتاجه الأفراد المتفرغين حتى يستطيع المتفرغون أن يبذلوا ما في وسعهم من أجل الدعوة ونشرها بين الناس .

واهتم الإمام المهدي بتطوير العاصمة السنوسية، فحفلت الجغبوب بالنشاط العلمي والزراعي وانتظم سير العمل في معهد الجغبوب، ووزع تلاميذ المدارس القرآنية على أقسام، ورتبت بدقة أمور الدراسة، وكل ما يتعلق بالطلاب، كذلك سارت حركة الصناعة البسيطة التي يحتاجها الأهالي كالحدادة والنجارة . . . إلخ.

واستصلحت مساحات من الأراضي وصارت تنتج الخضار والتمور، وارتبطت الجغبوب بالزوايا المتناثرة في الصحراء، فكانت القوافل تمر منها في رحلاتها بين الساحل الإفريقي والصحراء ، وبين مصر والمغرب، كما كانت قبلة وفود القبائل التي تدين بالولاء للسنوسية، وانتظم سير العمل في الزوايا بسبب التنظيم الدقيق الذي سادها وكان الاتصال بين المركز والزوايا يتم بانتظام ودقة بالغين، فالرسائل مستمرة بين المهدي ورؤساء الزوايا تنقلها القوافل في طريقها، أو ينقلها في بعض الأحيان مبعوثون إذا استوجب الأمر الاستعجال، وتضمنت الرسائل تعاليم الحركة للزوايا وتقارير رؤساء الزوايا للمركز، بالإضافة إلى أخبار الحركة والإخوان[٢] وكانت الزوايا تقوم بدورها في جمع المعلومات وما يتعلق بالقضايا الأمنية وترسلها إلى الجغبوب،

---

(١) انظر: المهدي السنوسي، ص (٣٥) .

(٢) الحركة السنوسية ، ص (١٨٠) .

وكان نظام البريد في الحركة السنوسية في عـهد الإمام المهدي ينقسم إلى أربعة أقسام نقطة ارتكازها الجغبوب وكان ترتيبه على الوجه الآتي:

- بريد خاص بزوايا طرابلس .
- بريد خاص بزوايا برقة .
- بريد خاص بزوايا مصر .
- بريد خاص بزوايا السودان .

وكثـيراً مـا يصل البريد بواسطة قـوافل الزوار والتجـار وهذا عدا البـريد المنظم والرسل الخـاصين متى دعت الحالـة . يصل البريد ببـرقة إلى زاوية مـسوس، وهذه تقوم بتوزيعه إلى زوايا برقة، ويصل إلى زاوية جنزور أو العزيات وهذه تقوم بتوزيعه على زوايا الجبل، ويـصل البريد الخاص بطرابلس إلى إحـدى زواياها والمفهـوم أنها سرت في المدة الأخـيرة، وهذه تقوم بتوزيعـه، كما أن البريد الخـاص بزوايا واحات فـزان يصل إلى زاوية «واو» وهي تقوم بتـوزيعـه، وتقوم إحـدى هذه الزوايا بمهمـة إرسال البـريد العادي إلى زوايا الجـزائر، إن لم يكن البريد مـستعـجلاً، وألا يرسل بصفة خـاصة إلى زوايا السيد ابن تكوك رأسًـا من الجغبوب والكفـرة، ويصل البريد الخاص بزوايا مصر إلى سيوة وهناك من يتولى مـسئوليته ممثل السنوسيين بما في ذلك بريد الحجاز، وإذا كـان هذا مستعـجلاً فتتخـذ له طريقة خاصة، أمـا إذا كان البريد خاصًا بزوايا خـاصة في أي جهة من الجهات فـيقوم به الساعي من الجغـبوب رأسًا، وكل زاوية من الزوايا يحدث لهـا أمر من الأمور يدعـو لمواصلة المركز العام، فيـقوم منها سـاع مخصوص، ولا يكاد البـريد يتأخر أكثـر من شهر لأي جهـة من الجهات لكثرة القـوافل، وتعاقب الزوار، أما البـريد الخاص بالســودان، فعـادة ما يكون مع سيل القوافل المنهـمر ذهابًا وإيابًا، وهكذا كانت الأخبار تصل إلى عاصـمة الحركة، وتصدر منهـا التوجيهـات والأوامر إلى جميـع الزوايا، وفي كل البلدان وممن أشرف على سيـر بريد الحركة السنوسيـة من الإخوان، محمـد السمالسوسي، عـبد السلام

الشـرداخ، عبـد الرسـول الرتيوي، السنوسي الـتيـتلي، عيـسى التـارقي، إبراهيم الشهيبي، علي السعيطي، حسين الهبري، عبد الرحيم الفضيل، محمد البوعيثي[١].

وكان مـن يريد زيارة الإمام المهـدي يذهب إلى الجغـبوب وهناك يخـضع لنظام خاص مـتبع ترتبط إجراءاته بالسـيد محـمد البسكري الذي يعـد بمثابة رئيس الديوان والتشريفاتي، فـهو الذي يقوم بتحديد مواعـيد الزيارة التي لا تكون إلا عن طريقه، ويصحب كبار الزائرين ويقف خلف زعيم الحـركة السنوسية أثناء الزيارة سواء كانت الزيارة للعـوام أو الخواص، أما إذا كـان الزائر أو الزوار تابعين لأحد الزوايـا، فعلى رئيس الزاوية إن كان حـاضرًا ترتيب هذه الزيارة مع محـمد البسكري، وقـد جرت العادة بأن تكون زيارة الضيـوف بعد تمام مدة الضيـافة وهي ثلاثة أيام إلا في حالات استثنائية[٢].

رابعًا: نمو الحركة السنوسية وأسبابه:

نمت الحركة السنوسيـة في عهد محمد المهدي نموًا كبـيرًا، وتضاعف عدد الزوايا أكثـر من أربعة أضعاف، وانتـشرت هذه الزوايا في الصحـراء الكبرى، وعلى طريق مصر، وتونس، وفي واداي . . . وغيرها .

وكان من أسـباب هذا النمو السريع؛ طبـيعة الحـركة، ونظمها المتطورة بالنسـبة لعصرها، وفهمـها لطبيعة المجتمعات القبليـة، وطول المدة التي قضاها الزعيم الثاني في قيادة الحـركة إذ تجاوزت أربعين سنة، فتمكن أثناءها من تركـيز العمل الذي بدأه والده، وكان يقـول: «إن والدي بدأ عمـلاً من المنتظر أن يأتي بنتـائج عظيمـة، وقد أخذت على عاتقي إتمامه، وليس عليَّ غرض آخر»[٣]، وكانت سياسته الحكيمة تمنعه من الاحتكاك بالدولة العثمانية، أو الدول الأوربية وحـصر جل اهتمامه بنشر الدعوة بين القبائل، وساعدتـه أخلاق رفيعة وصفات حميـدة تحلى بها في إقبال الناس على

---

(١) انظر: برقة الأمس واليوم، ص (٢١٢، ٢١٣) .
(٢) الحركة السنوسية ، ص (٤٥) .
(٣) انظر: المهدي السنوسي، ص (١٣٤) .

الحركة السنوسية، واحتل بها مكانة رفيعة في قلوب الإخوان والأتباع ومؤيدي الدعوة، فكان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويبث العلوم في أوساط القبائل متبعًا في ذلك كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ .

قال أحمد رفيق المهدوي:

كانت طريقته القيام بسنة	نبوية لالاءة الأوضاح
فله من الخدمات للإسلام	ما يعلو على متناول الشُراح
يكفيه نشر الدين في الآلاف من	أقصى حدود «الشاد» حتى «الواح»
نصر لدين الله بين مجاهل	صعبت على الرواد والسياح
فازوا من الفتح المبين بعزة	الإسلام بعد عبادة الأشباح[1]

لقد تحلى الإمام محمد المهدي بعلم وورع وتقوى، وشخصية جذابة، وبعد نظر، وثاقب فكر، ورأي صحيح، وعزم شديد، وحرص أكيد على إتمام البناء الذي شيده والده، والعمل بكل جهد وقوة من أجل نشر الدعوة بين أهل البلاد القريبة والبعيدة في إفريقيا الوسطى خصوصًا حتى ذاع صيته، وتمكن السنوسيون بفضل الله تعالى ثم جهودهم المتواصلة من أن يصلوا بدعوتهم إلى قلب الصحراء الكبرى، وأطرافها حتى جهات بحيرة تشاد وما يجاورها من إمارات إسلامية قديمة أو قبائل زنجية وثنية أو قبائل أخرى لم يكن قد صلح حال إسلامها بعد[2] .

لقد دخلت عدة قبائل إفريقية في الدعوة الإسلامية بفضل الله تعالى ثم جهود الحركة السنوسية، ومن أشهر القبائل التي استجابت لدعاة الحركة السنوسية، قبيلة بلي التي كانت على الوثنية، ووصلت الدعوة الإسلامية إلى شعب التيدا في بلاد تيبستس بالصحراء الكبرى جنوب واحة فزان، فقد كانوا لا يعرفون من الإسلام إلا اسمه، وكان دعاة الحركة السنوسية قد توغلوا في إفريقيا ووصلوا إلى بلاد الجلا في الحبشة ، فيرسلون إليها في كل عام من هَرَر، حيث تتمتع السنوسية بنفوذ كبير،

(١) انظر: المهدي السنوسي، ص (٣٨) .

(٢) انظر: السنوسية دين ودولة، ص (٥٨) .

وتكاد تجد كل الرؤساء منهم في بلاط الأمير بلا استثناء، وكانت الحركة السنوسية تفتح المدارس وتبني المساجد، والمراكز الإصلاحية وتشتري العبيد ثم يعلمونهم مبادئ الإسلام ثم يعتقونهم ويرسلونهم إلى أوطانهم وقبائلهم ليدعو أقوامهم إلى الإسلام(١) .

واستفادت الحركة السنوسية من هجرة القبائل العربية القديمة في إفريقيا، وجددت الصلة معها ونسقت معها في الدعوة وفي الجهاد ضد فرنسا ومن أشهر هذه القبائل؛ أولاد سليمان، أولاد يعقوب، أولاد غنَّام، المحافيظ وغيرها كثير، وكانت قد استقر بعضها في مالي، وتشاد ، والنيجر، ونيجيريا، والكاميرون(٢) .

وتمكن الإمام المهدي من أن يبني علاقات قوية مع الإمارات الإسلامية في واداي، وبرقو، وكانم وغيرها، واختط خطة حكيمة كانت مبنية على الحيطة والحذر من النفوذ الصليبي الأوروبي في إفريقيا ثم عدم التردد في مكافحة هذه الدول إذا جد الجد، كما فعل مع فرنسا(٣) .

وواصل المهدي السنوسي سيره في فتح المراكز الإصلاحية، والمدارس القرآنية، وبناء المساجد التي اهتمت بنشر الإسلام، وقام بإرسال دعاة ومبشرين بالإسلام، ودين الله، اشتهر منهم العلامة؛ محمد عبد الله السني، والشيخ حمودة المقعاوي، وطاهر الدغماري، وغيرهم كثير .

وقام المهدي بتقوية الصلات التجارية بين الزوايا وبين مراكز التجارة والأسواق المختلفة، ونتج عن ذلك استتباب الأمن في هذه الربوع وانتشار الطمأنينة ، فقد زاد نشاط القوافل وأقدم المسافرون والتجار على قطع الفيافي والصحارى من غير تردد، فظهرت بوادر العمران في الطرق الصحراوية وأصبح من الميسور على دعاة الحركة أن يصحبوا هذه القوافل وهؤلاء المسافرين والتجار في رحلاتهم وأسفارهم ويدعوا إلى

---

(١) انظر: انتشار الإسلام في القارة الإفريقية، د. حسن إبراهيم، ص (٤٩).
(٢) انظر: جهاد الليبيين ضد فرنسا في الصحراء الكبرى، محمد القشاط.
(٣) انظر: السنوسية دين ودولة، ص (٥٨) .

الإسلام، ويقضوا على الوثنية، ويعطلوا بذلك أعمال التنصير الذي تدعمه الدول الأوربية في إفريقيا، وبالفعل حققت الحركة انتشاراً عظيمًا في أوساط إفريقيا مثل بلاد النيجر والكنغو، والكامرون، وجهات بجيرة تشاد، وذاع خبر الحركة السنوسية في إفريقيا من خلال طريق واداي وبرقو وكانم وأداموا والداهومي[١] وغيرها، وبدأت الدول الأوربية تشعر بخطر الحركة السنوسية وشرعت في حبك دسائسها ومؤامراتها وتأليب الدولة العثمانية عليها، لقد صدمت الدول الأوربية بالنتائج التي حققتها الحركة السنوسية، واشتاطت غضبًا وحقداً على الإسلام، وهي ترى قبائل وثنية مثل التبو، والبرقو، والندى تدخل طائعة مختارة في الإسلام[٢] .

كان الدعاة السنوسيون يعملون بالليل والنهار، والسر والإعلان، ويقطعون المسافات الشاسعة من أجل دعوة الله تعالى، وكان بعضهم يترك أهله وأطفاله في الجغبوب وذات مرة دخلت السيدة صالحة البسكرية زوجة ابن السنوسي على محمد المهدي، وكان يجلها ويحترمها، وقالت له: إن نساء الإخوان قد سئمن كثرة أسفار أزواجهن، وطول تغيبهم، وعدم استقرارهم، فابتسم وقال: إن الجهاد طويل وشاق، وإن العمل يتطلب الجد، والشيء الذي ينتظرنا وينتظر إخواننا في المستقبل أشق مما هم عليه الآن»[٣] .

وكان الإمام المهدي مهتمًا بالبناء الداخلي للحركة ولذلك أشرف بنفسه على إصلاح ذات البين بين القبائل، وكان يرى وحدة الصف والتربية الجهادية مهمة في مواجهة المعارك القادمة ضد الإسلام .

وعندما اشتد النزاع بين قبائل الجبارنة وأولاد علي ووصل إلى مرحلة أوشك القتال أن يندلع بينهم بسبب حادثة قتل جربوع بن الشيخ أبو سيف الكزة بمصر، وكان الشيخ أبو سيف ابن أبي شنيف الكزة من الشخصيات الظاهرة بين شيوخ

---

(١) انظر: السنوسية دين ودولة، ص (٦٠) .
(٢) انظر: المهدي السنوسي، ص (٥١) .
(٣) المصدر السابق نفسه، ص (٦٠) .

الجبارنة ومسموع الكلمة، وهو والد المقتول، فأصبح داعية كبرى لغزو أولاد علي، وأنشد قصيدة باللغة الشعبية مثيرة لما كمن من الأحقاد والضغائن، مسعرة لشرار الغضب، ومذكية لنار الانتقام يستنجد بها جميع القبائل الموالية له أو التابعة والمرتبطة به، كما جرت العادات ويحثهم في قصيدته بالاستعداد لغزو أولاد علي وقتل رجالهم، وأخذ أموالهم وسبي نسائهم، وكانت مطلع قصيدته تقول:

يا عـــون من قابلا عـــون وأشـــرف على رأس عـــال

أو جنة فراجين وحســـون أو عينت طامية في المشالي[1]

وكاد الشيخ أبو سيف أن ينجح فيما أراده لـلغزو حيث لبى طلبه وأخذت قبائل أولاد علي تستعد للـمعركة، وأرسلت إلى الشيخ أبي سيف تدعـوه للإسرع للقتال، وفي هذه الأثناء وصل كتـاب من شيخ زاوية مسوس السنوسي الأشـهب إلى الزعيم محـمد المهدي يخبـره بالأمر، فأرسل المهـدي في طلب الشيخ أبي سيف بسـرعة، فامتثل الأخير أمر السيـد المهدي في الوقت الذي تقرر فيه الغزو وأرجأه إلى أن يعود من الجغبوب ولما وصل الشيخ أبو سيف ومـثل إمام يدي إمام الحركة السنوسية الذي أخذ ينصحه في الإقلاع عما عزم عليـه، ويبين له حرمة هذا الفعل الجاهلي، فامتثل الشيخ أبو سيف أمر المهدي، وأقلع عن فكرته وعـاهد إمام الحركة بالعدول عنها وأن لا يعود لمثلها، بالرغم عمّا في ذلك من المساس بكرامته وكـرامة بني قومه وسمعتهم التي يرون حفظـها في الأخذ بالثـأر ورجع الشيخ أبي سـيف وبر بوعده وأمر قـومه والنجدات التي استعدت لمساعدته بالرجـوع إلى مواطنهم، وكتب إلى زعـيم قبائل أولاد علي وبقية شيوخهم يخبـرهم بالعدول عن رأيه وأن يكونوا في مأمن من جهته لا خوفًا منهم ولا خشية من العاقبة، ولكن امـتثالاً لأمر الشرع وطاعة لزعيم الحركة السنوسية[2] .

وكان المهـدي يحرص دائمًـا على إزالة البغـضاء والشـحناء من نفوس القـبائل

---

(١) انظر: برقة العربية الأمس واليوم، ص (٢٠٤) .

(٢) انظر: برقة العربية الأمس واليوم، ص (٢٠٥) .

المتعادية ويدعوها إلى أخوة الإسلام، وشغلها بالطاعة ، ودفعها نحو المعالي، والأخلاق الرفيعة، واستطاع أن ينظم من القبائل كتائب للجهاد ساهمت في قتال فرنسا وبعد وفاته قاتلت إيطاليا .

لقد كرس المهدي جهوده للبناء الداخلي في الحركة، واختط طريقًا سلميًّا تجنب الاحتكاك فيه جهد المستطاع بالقوى المحيطة به، واستطاع أن يتخذ مواقف تدل على بعد نظره وثاقب فكره من الثورات التي حدثت في السودان وفي مصر، وكذلك الدول الأوربية .

خامسًا: المنهج التربوي الجهادي:

حرص الإمام المهدي على تعميق المنهج التربوي في أتباع الحركة، وكان - رحمه الله - يدرك تمامًا أن العمل بأحكام القرآن الكريم، والسنة النبوية الشريفة يقتضي وجود القوة والسلطان، ولذلك جعل من الزوايا مركزًا لتعليم الرماية أيضًا، فكان يحث الإخوان والأتباع على إتقانها ويبث فيهم روح الأنفة والنشاط ويحملهم على الطراد والجلاد، ويعظم في أعينهم فضيلة الجهاد، وكان المهدي يمتلك خمسين بندقية خاصة يعتني بتنظيفها وإعدادها دائمًا بيده ولا يرضى بأن يؤدي هذا غيره من أتباعه الكثيرين قصدًا، وعمدًا، حتى يقتدي به الناس ويهتموا بأمر الجهاد، ويحفلوا به[1] .

ونشطت الحركة السنوسية في تعبئة أتباعها على الاستعداد للجهاد، ونظمت صفوفها، ورأى السلطان عبد الحميد الثاني في الحركة السنوسية قوة منظمة ومعدة إعدادًا ماديًّا ومعنويًّا جيدًا يمكن استغلالها في المواجهة العسكرية المتوقعة مع أعداء الدولة العثمانية في شمال إفريقيا، وقد أعرب السلطان عبد الحميد عن ثقته بقوة الحركة السنوسية قائلاً: «وإذا كان هناك أحد عليه الدفاع عن حقوقنا، فهو الشيخ السنوسي؛ لأنه قادر على أن يجمع حوله ثلاثين ألفًا من الرجال، ولن يتخلى عن بنغازي إلا بعد قتال، ثم إن صلته بمئات الألوف من أتباع الطرق والمريدين قوية، فإذا

---

(١) انظر: السنوسية دين ودولة، ص (٦٠) .

قام السنوسيون قومتهم، فلا بد أن يجروا الإيطاليين إلى صراع دموي أشد مما شهدته السودان في ثورة المهدي، لقد جهـزنا السنوسي بمقدار كافٍ من الأسلحة والذخائر، فهم قوة لا يُستهان بهم أبدًا»[1] .

كان هذا التصريـح بعدما وصلت للسلطان عبد الحـميد المخططات الإيطالية التي كانت تستهدف ليـبيا، لأن إيطاليا كانت تحلم بضم شمال إفريقـيا؛ لأنها تراه ميراث إيطالي هكذا صرح رئيس وزرائها «مارتريني»، لكن فـرنسا احتلت تونس، وإنكلترا احتلت مصر، ولم يبق أمام إيطاليا إلا ليبيا .

واستطاعت مخابرات السلـطان عبد الحميد الثاني أن تكشف سـياسة إيطاليا في ليبيا التي كانت على ثلاث مراحل:

١- الحلول السلمية، بإنشاء المدارس والبنوك وغيرها من «مؤسسات خدمية».

٢- العـمل على أن تعـترف الدول بآمـال إيطاليـا في احتـلال ليـبيـا، بالطرق الدبلوماسية .

٣- إعلان الحرب على الدولة العثمانية والاحتلال الفعلي .

وكانت السياسية الإيطالية لا تلفت النظر إلى تحركاتها، بعكس السياسة البريطانية أو الفرنسية في ذلك الوقت، وكان الإيطاليون يتحركون بحكمة وهدوء شديدين دون إثارة حساسية العثمانيين .

وكان السلطان عبد الحـميد متيقظًا لتلك الأطماع الإيطـالية وطلب معلومات من مصادر مختلـفة عن نشاط إيطاليا في ليبيا وأهدافهم، فـجاءته المعلومات تقول: «إن للإيطاليين بمدارسـهم وبنوكـهم ومؤسـساتهم الخـيرية الـتي يقيـمونهـا في الولايات العثـمانية، سواء في ليـبيا أو في ألبـانيا، هدفًا أخيـرًا هو تحقيق أطمـاع إيطاليا في الاستيلاء على كل من:

---

(١) انظر: السلطان عبد الحميد الثاني، مذكراتي السياسية، ص (١٤٧) .

١- طرابلس الغرب .   ٢- ألبانيا .

٣- مناطق الأناضول الواقعة على البحر الأبيض المتوسط: أزمير، الإسكندرون، أنطاكيا .

وقام السلطان عبد الحميد الثاني باتخاذ التدابير اللازمة أمام أطماع إيطاليا، ولما شعر أنه سيواجه اعتداءً إيطاليًّا مسلحًا على ليبيا، قام بإمداد القوات العثمانية في ليبيا بـ «١٥,٠٠٠» جندي لتقويتها وظل يقظًا حساسًا تجاه التحركات الإيطالية، ويتابعها شخصيًّا وبدقة، ويطالع كل ما يتعلق بالشئون الليبية بنفسه بواسطة سفير الدولة العثمانية في روما، ووالي طرابلس مما جعل الإيطاليون يضطرون إلى تأجيل احتلال ليبيا، وتم لهم ذلك في عهد جمعية الاتحاد والترقي، ولذلك حرص السلطان عبد الحميد على تقوية الحركة السنوسية ودعمها ماديًّا، ومعنويًّا [1] .

لقد اهتمت الحركة السنوسية بإعداد أفرادها للجهاد في سبيل الله ضد أوروبا الصليبية التي تهاجم ديار المسلمين في كل مكان، وكانت وسائل التربية عند الحركة السنوسية ، روحية، وفكرية، ونفسية، وجسدية، واجتماعية، ومالية، فكان اهتمام الحركة بالتربية الروحية عظيمًا، ولذلك تعلق أفراد الحركة السنوسية بالجنة، وحرصوا على رضى الله تعالى، وتعمقت مفاهيم القضاء والقدر في نفوسهم، فأصبحوا لا يخافون إلا الله، فكانوا يتربون على قول رسول الله ﷺ : «إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يومًا نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات، بكتب رزقه وأجله وعمله شقي أو سعيد . . .»[2] .

فأجل المرء يكتب وهو في بطن أمه، قال تعالى: ﴿ **اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى** ﴾ [الزمر: ٤٢] .

---

(١) انظر: الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط، علي الصلابي، ص (٦٨٦) .

(٢) انظر: صحيح مسلم رقم (٢٦٤٣) .

كانت عقيدة القضاء والقدر واضحة المعالم في فكر الحركة السنوسية، فأصبح أتباعها يؤدون واجبهم بكل شجاعة، وهم على يقين راسخ بقوله تعالى: ﴿ **قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ** ﴾ [التوبة: ٥١] .

ولقد التقيت بالشيخ الفاضل رئيس المحاكم الشرعية في ليبيا سابقًا في زمن المملكة الليبية، الشيخ منصور المحجوب بمكة المكرمة وحدثته عن حرصي على كتابة تاريخ الحركة السنوسية، فانساب في الحديث عن رجالات الحركة وحبهم للإسلام، وتعلقهم بالآخرة وجهادهم ضد فرنسا، وذكر بعض المجاهدين عندما استعصى عليهم فتح حصن من الحصون التي احتلتها فرنسا بتشاد قاموا بحصاره وتأخر الفتح، أقسم أحد الإخوان السنوسيين إما الشهادة وإما الفتح، وانقض كالأسد بجواده على الحصن، وكان ذلك الهجوم سببًا في الفتح، وفاضت عينا الشيخ منصور بالدموع، وشرع في البكاء ثم قال: أولئك قوم عرفوا الله وعملوا بهذه المعرفة، ثم وجه الخطاب إليّ وقال لي: يا صلابي اتقِ الله في كتابتك، واعلم بأن الله سيحاسبك عليها يوم القيامة، وانتفضت من مكاني من شدة تأثير كلامه عليّ، وحثني على الإخلاص والرغبة فيما عند الله، وقال لي: أنا الآن قد جاوزت السبعين من عمري، وقد رأيت الكثير في الدنيا، ورفع يده إلى فمه ثم نفخ في كفه وقال: إن حقيقة هذه الدنيا مثل هذه النفخة .

إن الشيخ منصور المحجوب يعتبر من أتباع الحركة السنوسية، وقد تولى مناصب كبيرة من رئاسة الجامعة الإسلامية بالبيضاء، وتولى رئاسة القضاء وهو من مؤسسي رابطة العالم الإسلامي، وأخبرني بأنه ماكث في مكة ينتظر الوفاة حتى يدفن في الأراضي المقدسة .

إن الحركة السنوسية اهتمت بتربية أتباعها على الصلاة والقيام، والصوم، والزكاة، والحج، وتلاوة القرآن الكريم الذي هو حبل الله المتين، ونوره المبين، والذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم .

إن من أعظم العبادات ومن أحسن الوسائل في التربية الروحية التي سلكها

السنوسيون هي تلاوة القرآن الكريم والتفقه فيه، والعمل به، وقال تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١] .

إن القرآن الكريم يطهر النفوس ويحيي القلوب ، ويغذي الأرواح ويصل الأفراد بخالقهم العظيم سبحانه وتعالى، ولا تعجب أيها القارئ الكريم إذا علمت أن أحمد الشريف السنوسي القائد الثالث للحركة السنوسية - رحمه الله تعالى- كان يشترط في حرسه الخاص حفظ القرآن الكريم، وأن التعاقب بين جنوده يعرف عن طريق تلاوة الأجزاء من القرآن الكريم .

وكانت الحركة في وسائلها التربوية لأتباعها تهتم بأخبار العالم الإسلامي وتوصيلها إلى الأتباع، وكانت الزوايا تقوم بهذا الدور، وكانت القوافل تتوغل في الدول الإسلامية للتجارة، وتأتي بأخبار الإسلام والمسلمين، والأعداء، وكانت تغذي أتباعها بالتربية الفكرية والنفسية للوقوف ضد أطماع النصارى الغزاة المجرمين وكانت تهتم بالتربية الجسدية لأتباعها ولذلك نجدهم يقطعون الفيافي والصحارى على الجمال، ثم يجاهدون الأعداء بعد قطع مئات الكيلومترات، وقد وجدت في سيرة عمر المختار - رحمه الله - أنه قطع على جواده ثلاثة أيام متواصلة ليلها بنهارها لفض النزاع بين عزير المصري قائد ضباط الأتراك وإحدى القبائل، وهذا يدل على لياقة بدنية عالية، وقوة بدنية متميزة .

كان المهدي السنوسي يسير بخطى ثابتة، ووفق أهداف مرسومة، ويستعد للمستقبل حيث بدأت الأطماع الفرنسية تتوغل في إفريقيا، وبدأت الدول الأوروبية تصطدم مصالحها مع وجود الحركة السنوسية في إفريقيا .

سادسًا: موقف الدول الأوروبية من الحركة:

حققت الحركة السنوسية انتشارًا كبيرًا في أواسط إفريقيا، وتوطد سلطانها في قلب الصحراء الكبرى، وكانت عقبة في طريق الرسالات التنصيرية التي وجدت في

الحركة السنوسية خصومًا عنيدين، عطلوا عليها أعمالها لدرجة بعيدة، فحاولت الدول الأوروبية التقدم والتقرب من الإمام المهدي السنوسي، فكان لا يأبه بمحاولة هذه الدول، من أجل التقرب إليه، وفشلت وسائلهم في اجتذابه إليهم، وأعرض عنهم، وعظمت مخاوفهم من تشكيلاته، وحركاته، وانكبوا يسعون لدى الدولة العثمانية ويشددون الضغط على السلطان عبد الحميد الثاني كي يتوسط بوصفه الخليفة الأكبر في استدعاء السيد المهدي في إفريقيا للإقامة في أرض الحجاز أو في دار الخلافة وعدم مغادرتها والعودة إلى وطنه، ولكن السلطان لم يجب الدول إلى هذه الرغبة، بل وقف مع محمد المهدي موقفًا مشرفًا .

لقد وجدت الرسالات التنصيرية المسيحية في السنوسيين خصومًا عنيدين عطلوا عليها أعمالها لدرجة بعيدة، إن لم يكونوا قد أفسدوا هذه الأعمال في بعض الجهات وأبطلوها، زد على أن نجاح الدعوة السنوسية وتقوية أركانها جعلت الدول الأوروبية تسعى لتوقي خطرها، ووجدت فرنسا نفسها في طريق الاصطدام عاجلاً أو آجلاً مع الحركة السنوسية، أضف إلى ذلك أصبحت إيطاليا بعد وحدتها تتطلع إلى احتلال طرابلس الغرب، وغدت تبذل كل ما بوسعها لكسب المهدي السنوسي، لعلها تظفر بسكوته حينما تواتيها الفرصة لتحقيق هدفها، وأما ألمانيا بعد خروجها منتصرة من الحرب السبعينية شرعت في كسب المهدي حتى يدعمهم ضد فرنسا في إفريقيا الغربية[(١)]، فحاولوا عام ١٨٧٢م مفاوضة المهدي على أمل تحريكه ضد الجهات التي خضعت للفرنسيين في إفريقيا الشمالية والغربية، ولكن محاولتهم ذهبت سدى، لأن المهدي رفض مقابلة الرسل الذي أوفدوهم إليه فغادر هؤلاء البلاد دون أن يتمكنوا من الحديث معه، ومع هذا فقد تكررت محاولات الألمان في الأعوام التالية للغرض نفسه، واستطاع الرحالة (جبرار رولفس) في عام ١٨٧٦م أن يزور برقة والكفرة ثم قصد إلى الجغبوب لمقابلة السيد المهدي، ووقف عند «سبر سلام» بالقرب منها، وقابله أحمد بن البسكري عدة مرات، ولكنه عجز عن الوصول إلى المهدي السنوسي[(٢)] .

---

(١) انظر: السنوسية دين ودولة، ص (٦٥، ٦٦) .

(٢) المصدر السابق نفسه، ص (٦٩) .

تولت فرنسا مهمة الهجوم الإعلامي على الحركة السنوسية، وأرسلت عدداً من الرحالة منهم دوفرييه، ثم وقفت من الحركة موقفاً عدائياً وشنت عليها حرباً دعائية، بواسطة رحالتها الذين كتبوا عن السنوسية، وقصدت بذلك تشويه الحركة، كما تجلى موقفها العدائي في ضغطها على الباب العالي للتضييق على السنوسية، ثم تبلور هذا الموقف في حربها الظالمة لمواقع الحركة السنوسية في تشاد، وسنتحدث عنها في موضع آخر .

وكان أكثر الرحالة الفرنسيين تعصباً في كتاباته دوفرييه الذي اتهم السنوسية بعدة تهم، وبالغ في تخيلاته، وذلك أنه رأى في الحركة خطراً عظيماً يتهدد مصالح فرنسا والمسيحية في إفريقيا، وقد اعتبر دوفرييه السنوسية مسئولة عن جميع حوادث الاغتيال التي حدثت في الصحراء ضد بعض الرحالة الأوروبيين، كما اتهمها بالتعصب وكراهية اليهود والنصارى وصورها عدواً فاغراً فاه للقضاء على الأوروبيين، وزعم أنها حرّكت وساعدت جميع الثورات التي قامت في الجزائر، وقد وافق الرحالة لوي رين على بعض هذه التهم ورددها كتاب آخرون مثل مونتيه وهوايت وفبرود.

إن السنوسية ما تعرضت لمثل هذه الحرب الدعائية إلا لكونها حركة إسلامية جهادية دعوية شاملة في مفاهيمها[1] أما اتهامها بالاغتيالات فهذا باطل ومردود بالحجة والبرهان والدليل، بل كان الإمام المهدي يعامل غير المسلمين باللطف والبشاشة والرفق وحسن الخلق، وعندما يريدون الرجوع يرسل معهم من يوصلهم إلى المكان الذي يريدون سواء مصر أو درنة أو بنغازي، ويقول للإخوان: لا بد لنا من إكرام الأجنبي، ويعني غير المسلم، عسى الله أن يهديه إلى الدين الحق؛ لأن من واجبات المسلم وشعائره إكرام الضيف كيفما كانت ديانته ليبلغ عنا ما شاهده منا، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم[2] .

وفي عام ١٣١٢هـ قدم الجغبوب رجل إنكليزي، فأراد بعض الإخوان أن يؤذوه،

---

(١) انظر: الحركة السنوسية، ص (١٩٨) .

(٢) انظر: جلاء الكرب عن طرابلس الغرب، للحشائشي، ص (١٦٥) .

لكنه طلب مقابلة الشيخ المهدي فأذن له في ذلك، واجتمع به وسئل هل له حاجة والي الشيخ؟ فقال : ما عندي حاجة، إنما القصد من إتياني النظر في وجه الشيخ لما أسمع عنه، وحظي الإنكليزي بالإكرام، حسن القبول ، ومكث عنده ثلاثة أيام ضيفًا كريمًا ثم كر راجعًا إلى طريق مصر[١] .

وكان محمد المهدي السنوسي يوصي جميع إخوانه ومشايخ الزوايا، وأتباع الحركة بعدم أخذ أموال السواحين والغرباء ولو من الإفرنج، ويقول على رءوس الأشهاد: إن قتلهم وأخذ أموالهم لظلم عظيم، والظلم يرجع على فاعله بالنكال والوبال[٢] .

أما اتهام الحركة السنوسية بكراهية اليهود والنصارى، فالمعلوم عنها تمسكها بالشريعة، فكان أتباعها يعاملون أهل الكتاب حسب توجيهات الإسلام، وأما كراهيتهم للمستعمرين المعتدين، فهذا أمر يوجبه عليهم دينهم، وكان القصد من الحرب الإعلامية الداعية تمهيد الرأي العام الأوروبي وإقناعه بما ستخطوه فرنسا ضد الحركة فيما بعد، وقد أنصف عدد من الكتاب المحدثين السنوسية وردوا على تلك التهم، منهم: محمد فؤاد شكري، زيادة نقولا، بريتشارد الحشائشي[٣] .

أما بريطانيا فكان موقفها من الحركة السنوسية في بداية الأمر استطلاعيًا، وكانت حريصة على جمع معلومات دقيقة عن الحركة، وخصوصًا وأن لها أطماعًا في مصر، وتخشى من جهاد السنوسية ضدها، كما أن نفوذ بريطانيا في طرابلس كان قويًا، وقد زار الرحالة هاملتون الإنكليزي سيوه، وتحدث عن الحركة السنوسية، واستمر موقف بريطانيا يمتاز بالهدوء تجاه الحركة السنوسية، حتى عام ١٨٨٢م عندها شرعت بريطانيا باحتلال مصر، وقامت ثورة عرابي، تحركت بريطانيا بكافة الوسائل المتاحة لها لتمنع أية مساعدة متوقعة قد تُقدم لعرابي، وتدخلت لدى الدولة العثمانية لمنع الحركة السنوسية من دعم الثورة العرابية[٤] .

---

(١) انظر: جلاء الكرب عن طرابلس الغرب، للحشائشي، ص (١٦٥، ١٦٦).

(٢) المصدر السابق نفسه، ص (١٦٧) .

(٣) انظر: الحركة السنوسية ، ص (١٩٩) .

(٤) انظر: دار المحفوظات التاريخية بطرابلس، رسائل الولاة .

سابعًا: موقف محمد المهدي من الحركة العرابية:

عندما اشتعلت الثورة العرابية عام ١٨٨٢م اتصل أحمد عرابي طالبًا للعون والمدد وعلمت بريطانيا بالأمر، فتدخلت لدى الدولة العثمانية ونشط قنصلها في طرابلس الغرب لمعرفة موقف المهدي، ويتضح من إحدى الرسائل التي بعث بها والي طرابلس إلى ولاية بنغازي بتاريخ ١٦ أغسطس ١٨٨٢م أنه انتشر خبر مضمونه أن عددًا من قبائل برقة تهيئوا للالتحاق بعرابي وأن الخبر وصل إلى طرابلس من الأستانة، وأن قنصل بريطانيا في طرابلس يستفسر عن صحته، ويقول الوالي: «في حال أن هذا الخبر صحيح نطلب منكم إجراء التدابير الحكيمة»، وقد اتضح لدى تحقيق المسئولين في بنغازي أن هذه الجماعة التي تريد دخول مصر ما هي إلا حجاج، وأن شيخ الركب هو شيخ الحجاج»[1] .

إن المهدي السنوسي كان حريصًا على نموه الطبيعي ، ولذلك ابتعد عن الدخول في حروب لم يستعد لها، ويبدو أن المهدي السنوسي لم يقتنع بجدوى الثورة، كأسلوب لتحقيق مطالب عرابي؛ لأنها تتيح للأجانب التدخل، وقد وضح هذا الرأي في رسالة بعث بها محمد الشريف أخو المهدي إلى الشيخ مصطفى المحجوب شيخ زاوية الطيلمون بتاريخ شعبان ١٣٠٦هـ بمناسبة قيام إحدى قبائل برقة بالعصيان على الدولة العثمانية، إذ قال فيها: «ونرجو أن تكون الفتنة التي بالوطن قد طفئت ؛ لأنها مخيفة سيئة العاقبة تشبه الفتنة العرابية التي من أجلها حل بالوطن الشرقي وأهله ما حل؛ لأنهم يحركونها ويعجزون عنها فتكون العاقبة التسليم للأجانب، فلو أنهم سلكوا طريقًا غير هذا لكان أسهل وآمن عاقبة، وذلك بأن يلتجئوا للحضرة السلطانية ويلتمسوا من مراحمها الشاهانية، التخفيف من هذا المجهول عليهم قائلين إنهم لا قدرة لهذا الأمر الشاق، والتكليف بما لا يُطاق، وإن قلتم لا بد منه نجلو عن الوطن، بالكلية إذ لا قدرة لنا على العطاء ولا على المخالفة. .»[2] .

---

(١) انظر: الحركة السنوسية، ص (٢٠٠) .

(٢) انظر: المهدي السنوسي، ص (٥٩) .

إن نظرة المهدي للثورات غير المدروسة دراسة دقيقة، تتيح للأجانب التدخل، ويرى أن طريق البناء والتربية والإعداد العقدي، والوسائل السلمية هي الطريقة المثلى، وتجنب الفتنة حتى لا يتدخل الأجانب في شئون المسلمين، وكان المهدي قد ألزم نفسه وأتباعه سياسة حكيمة رشيدة، بعيدة عن ردود الأفعال، يقول الأستاذ نيقولا زيادة: «طلب العرابيون مساعدته عام ١٨٨٢م، وتقدمت إليه إيطاليا راغبة في الاتفاق معه على مقاومة التقدم الفرنسي في تونس عام ١٨٨١م وحتى السلطان العثماني طلب منه العون في حربه هذه ضد روسيا عام ١٨٧٦م، وجرب الألمان أن يحصلوا على عون منه، ضد فرنسا في إفريقيا عام ١٨٧٢م، لكن السيد المهدي رفض جميع هذه العروض والطلبات، وفضل أن يظل بمنأى عن النزاع الدولي ليتم لهم نشر الإسلام وإصلاح أحوال المجتمع المسلم الذي نذر نفسه له، شأن أبيه من قبل»[١].

حاول زعيم الثورة العرابية أحمد العرابي أن يثير الإخوان السنوسيين وشرح لهم موقفه وجهاده، ومن بين من كتب لهم السادة: أحمد الريفي، وفالح الظاهري، محمد البسكري، وأبي سيف مقرب، ومحمد المدني، وأحمد بن إدريس الأشهب، وأحمد العيساوي، وعندما وصلت الكتب إلى أولئك السادة رفع كل منهم كتابه الخاص إلى السيد المهدي ورفضوا الرد على عرابي باشا ما لم يؤمروا من السيد المهدي، إذ لا حق لهم في المخابرات السياسية والاتصال في مثل هذه الأحوال بالعالم الخارجي دون أن يأمرهم زعيم الحركة[٢].

وهذا يدل على قوة التنظيم، ومتانة الحركة، وهيبة القيادة، وفهم الإخوان وتلاحم الصف، ودراسة الأمور بتأني.

ثامنًا: موقف المهدي السنوسي من الثورة السودانية:

سمع محمد أحمد المهدي السوداني بما حققته الحركة السنوسية من نجاح فائق، وانتصار عظيم، وتوسع كبير في الصحراء الكبرى، وفي القبائل الليبية، فرغب بضم

---

(١) انظر: المهدي السنوسي، ص (٥٩).

(٢) انظر: برقة العربية أمس واليوم، ص (١٥٤).

هذه الحركة إليه، فأرسل محمد المهدي في عام ١٣٠٠هـ رسالة إلى محمد المهدي السنوسي مع أحد أتباعه واسمه «الطاهر إسحق» وهو من أهالي البلاد الواقعة غرب دارفور، وقد جاء في الرسالة: «بسم الله الرحمن الرحيم: الحمد لله الولي الكريم، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله مع التسليم وبعد: فمن عبد ربه الفقير إليه محمد المهدي بن عبد الله إلى حبيبه في الله محمد المهدي بن الولي السنوسي، فيا أيها الحبيب الواقف على سنة النبي المرشد المرقي العباد إلى مقام التقريب، قد كنا يا حبيبي ومن معنا من الأعوان ننتظرك لإقامة الدين قبل حصول المهدية للعبد الذليل، وقد كاتبناك لما سمعنا باستقامتك ودعايتك إلى الله على السنة النبوية وتأهبك لإحياء الدين بأن نصير إليك ونجتمع معك، فلم ترد إلينا المكاتبة وأظن عدم وصولها إليك حتى أني ذاكرت المعنيين فأبوا ذلك لهوان الدين عندهم وتمكن حب الوطن والحياة في قلوبهم وقلة توحيدهم حتى بايعني الضعفاء على الفرار بالدين وإقامته على ما طلب رب العالمين وقنعت نفوس من بايعنا من الحياة لما يرون للدين من الممات ولا زال المساكين الذين لم يبالوا في الله بما فاتهم من المحبوب يزدادون وفيما عند الله يرغبون، حتى هجمت المهدية الكبرى من الله ورسوله على عبده الحقير، والله هو الفاعل المختار الذي هو على كل شيء قدير، فأمرني رسول الله ﷺ أن أكاتب بها الشرق والغرب من غني أو فقير فصدق بها من أراد الله سعادته وكذب بها الأشقياء، وصاروا في النكير، مع أن النبي ﷺ قد خلفني بالمهدية مرارًا بالجلوس على كرسيه، وألبسني سيفه بحضرة الخلفاء والأولياء والأقطاب والملائكة المقربين والخضر عليه السلام، وأعلمت أنه لا ينصر عليّ أحد بعد إتيان سيف النصر إليّ من حضرته ﷺ ولا زال التأييد من الله ورسوله يزداد، وأنت منا على بال حتى جاءتنا الأخبار فيك من النبي ﷺ، أنك من الوزراء لي ثم لا زلنا ننتظرك حتى أعلمنا النبي ﷺ الخضر عليه السلام بأحوالكم وما أنتم عليه ثم حصلت حضرة عظيمة عين فيها النبي ﷺ خلفاء خلفائه من أصحابي فجلس أحد أصحابي على كرسي أبي بكر الصديق، وأحدهم على كرسي عمر، وأوقف كرسي عثمان، وقال: هذا

الكرسي لابن السنوسي إلى أن يأتيكم بقرب أو طول وأجلس أحد أصحابي على كرسي علي رضوان الله عليهم أجمعين .

ولا زالت روحانيتك تحضر معنا في بعض الحضرات مع أصحابي الذين هم خلفاء خلفاء رسول الله ﷺ ، واعلم وإن كان لا يخفى عليك أن المهدية كعلم الساعة لا يعلمها على الحقيقة إلا الله كما بينه المحققون، كالسيد أحمد بن إدريس، فإنه قد قال: «كتبت في المهدية أربع عشرة نسخة من نسخ أهل الله» وقال: «سيخرج من جهة لا يعرفونها وعلى حال ينكرونها» . وكذلك قال محيي الدين في بعض تفاسيره إلى غير ذلك من أقوال المحققين، ولا سيما وأن المهدية لا تدعي لكثرة أعدائها وقوتهم وعلى أنها لما ظهرت أنا بينهم أظهرهم في أشد الضعف والقلة، فلولا أنها من الله تعالى ما مكثنا في الدنيا يومًا واحدًا من شدة قوتهم وضعفنا وهم محتاطون بنا من كل جانب فألقى الله في قلوبهم الرعب ومدهم بالخيبة، وقد أمرنا النبي ﷺ بالهجرة إلى جبل الغرب يقال له قدير، يلصق جبل يقال له: ماسة، فجمعوا جموعهم إلينا مرارًا فقتلهم الله وأحرق جلودهم بالنار، يرى ذلك الخاص والعام علامة لشقاوة من أنكر مهديتي وقد أعلم ﷺ أن من شك في مهديتي كافر وكررها ثلاثًا ومرارًا يقول: من أنكر مهديتي ومن خالفني فأبى أمري كافر، فمن أراد الله له السعادة صدق بمهديتي، ومن جعل الله له شكوكًا وشبهًا تصده عن الإيمان بمهديتي، فيخذله الله في الدنيا قبل الآخرة إلا من أراد الله تعالى له الهداية بعد . فإذا بلغك جوابي هذا، إما أن تجاهد في جهاتك إلى مصر وجهاتها أو تهاجر إلينا»[1] .

وكان رد السنوسي بقوله: «إنني لم أبلغ منزلة الغبار الذي ثار في أنف فرس عثمان رضي الله عنه في إحدى غزواته مع رسول الله ﷺ ولا جواب عندي على هذا الكتاب» ثم أمر الرسول بالعودة من حيث جاء[2] «وأوصى ملك واداي بأن لا يحرك ساكنًا مع المتمهدي بل إذا جاءه محاربًا يحاربه»[3] .

---

(١) انظر: السودان بين يدي كتشنر وغوردن، إبراهيم فوزي، (١ / ٢١٦) .
(٢) انظر: الحركة السنوسية، ص (١٩٠) .
(٣) المصدر السابق نفسه، ص (١٩١) .

ولم يؤمن المهدي السنوسي ولا علماء الحركة السنوسية بمهدية محمد أحمد السوداني، وقام أتباع الحركة السنوسية في السودان الغربي نفوذ ثورة محمد أحمد السوداني، ويذكر محمد الطيب الأشهب أن سلطان برقو أرسل للمهدي السنوسي يستوضحه ماذا يكون موقفه من التعايشي الذي طلب مؤازرته، فكان رد المهدي: «إنه إنما يعني بالدعوة إلى إصلاح الدين سلمًا ولا حربًا بينما تنفر الملة التي يراد إحياؤها نفورًا عظيمًا بل وتشتد ثورتها ضد الدماء التي يهدرها والجرائم التي يرتكبها في السودان»(١) ، وقد قامت الممالك في السودان الغربي (تشاد) بمحاربة التعايشي خليفة محمد أحمد السوداني وحدّت من انتشار حركته .

إن علماء الحركة السنوسية وعلى رأسهم المهدي السنوسي لم يؤمنوا بمهدية محمد أحمد، وكذلك رفضوا القول بمهدية المهدي السنوسي واعتبره محمد المهدي السنوسي نوعًا من التخريف ويرجع ذلك إلى علمهم المتين، واستيعابهم لكتاب الله والسنة التي بينت حقيقة المهدي المنتظر والتزموا بعقيدة أهل السنة والجماعة التي وضحت هذا المعتقد .

إن الأحاديث الصحيحة بينت بأن الله تعالى يُخْرِجُ في آخر الزمان رجلاً من أهل البيت يؤيد الله به الدين، يملك سبع سنين يملأ الأرض عدلاً وسلامًا كما مُلئت جورًا وظلمًا، تنعم الأمة في عهده نعمة لم تنعمها قط، وتُخرج الأرض نباتها، وتمطر السماء قطرًا، وتُعطي المال بغير عدد .

قال ابن كثير رحمه الله تعالى: «في زمانه تكون الثمار كثيرة، والزروع غزيرة، والمال وافر والسلطان قاهر، والدين قائم، والعدو راغم، والخير في أيامه دائم»(٢) .

وهذا الرجل اسمه كاسم رسول الله ﷺ ، واسم أبيه كاسم أبي النبي ﷺ فيكون اسمه محمد، أو أحمد بن عبد الله، وهو من ذرية فاطمة بنت رسول الله ﷺ ثم من ولد الحسين بن علي رضي الله عنهما .

---

(١) انظر: المهدي السنوسي، ص (٥٨) .

(٢) انظر: النهاية ، الفتن والملاحم (١ / ٣١) تحقيق د. طه زيني .

قال ابن كثير رحمه الله في المهدي: «وهو محمد بن عبد الله العلوي الفاطمي الحسيني رضي الله عنه»[١] . وصفته الواردة: «أنه أجلى الجبهة، أقنى الأنف»[٢] .

ويكون مكان ظهوره من قبل المشرق، فقد جاء في الحديث عن ثوبان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : «يقتل عند كنزكم ثلاثة كلهم ابن خليفة، ثم تطلع الرايات السود من قبل المشرق، فيقتلوكم قتلاً لم يقتله قوم، . . . (ثم ذكر شيئًا لا أحفظه) فإذا رأيتموه فبايعوه، ولو حبواً على الثلج، فإنه خليفة الله المهدي»[٣].

قال ابن كثير رحمه الله : «والمراد بالكنز المذكور في هذا السياق كنز الكعبة، يقتتل عنده ليأخذه ثلاثة من أولاد الخلفاء، حتى يكون آخر الزمان، فيخرج المهدي، ويكون ظهوره من بلاد المشرق «لا من سرداب سامراء» كما يزعم جهلة الرافضة من أنه موجود فيه إلى الآن، وهم ينتظرون خروجه في آخر الزمان، فإن هذا النوع من الهذيان، وقسط كبير من الخذلان شديد من الشيطان، إذ لا دليل على ذلك، ولا برهان لا من كتاب ولا سنة، ولا معقول صحيح، ولا استحسان، إلى أن قال: «ويؤيد بناس من أهل الشرق ينصرونه، ويقيمون سلطانه، ويشيدون أركانه، وتكون راياتهم سود أيضًا، وهو زي عليه الوقار؛ لأن راية رسول الله ﷺ كانت سوداء يقال لها العقاب» .

إلى أن قال: «والمقصود أن المهدي الممدوح الموعود بوجوده في آخر الزمان يكون أصل ظهوره وخروجه من ناحية المشرق، ويبايع له عند البيت، كما دلت على ذلك بعض الأحاديث»[٤] .

ذكر الإمام البخاري في «صحيحه» عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : «كيف أنتم إذا نزل ابن مريم فيكم وإمامكم منكم؟»[٥] .

---

(١) النهاية ، الفتن والملاحم (١ / ٢٩) .
(٢) الأجلى: الخفيف الشعر ما بين النزعتين من الصدغين، والذي انحسر الشعر عن جبهته .
(٣) انظر: ابن ماجه، كتاب الفتن، باب خروج المهدي (٢ / ١٣٦٧) .
(٤) انظر: النهاية ، الفتن والملاحم، (١ / ٣١) .
(٥) انظر: البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، نزول عيسى ابن مريم (٦ / ٤٩١) مع الفتح .

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة» إلى أن قال: «فينزل عيسى ابن مريم فيقول أميرهم: تعال صلِّ بنا فيقول: لا، إن بعضكم على بعض أمراء تكرمة الله هذه الأمة»[(١)] .

والأحاديث التي وردت في «الصحيحين» تدل على أمرين:

أحدهما: أنه عند نزول عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام من السماء يكون المتولي لإمرة المسلمين رجل منهم .

والثاني: أن حضور أميرهم للصلاة، وصلاته بالمسلمين، وطلبه من عيسى عليه السلام عند نزوله أن يتقدم ليصلي لهم يدل على صلاح هذا الأمير وهُداه .

وجاءت الأحاديث في السنن والمسانيد وغيرها مفسرة لهذه الأحاديث التي في «الصحيحين»، ودالة على أن ذلك الرجل الصالح يُسمى: محمد بن عبد الله، ويقال له المهدي، والسنة يفسر بعضها بعضًا .

فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : «منا الذي يصلي عيسى ابن مريم خلفه»[(٢)] .

وعن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : «ينزل عيسى ابن مريم، فيقول أميرهم المهدي، تعال صلِّ بنا، فيقول: لا، إن بعضهم أمير بعض، تكرمة الله هذه الأمة»[(٣)] .

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : «المهدي مني أجلى الجبهة، أقنى الأنف، يملأ الأرض قسطًا وعدلاً كما ملئت ظلمًا وجورًا يملك سبع سنين»[(٤)] .

---

(١) انظر: مسلم ، كتاب الإيمان، باب نزول عيسى ابن مريم (٢ / ١٩٣) مع شرح النووي .
(٢) انظر: رواه أبو نعيم في «أخبار المهدي» صححه الألباني صحيح الجامع الصغير (٥ / ٧١٧٠) .
(٣) انظر: المنار المنيف لابن القيم، ص (١٤٧،١٤٨) .
(٤) انظر: سنن أبي داود، كتاب المهدي، (١١ / ٣٧٥) رقم ٤٢٦٥ .

لقد جاءت الأحاديث بالتواتر عن خبر المهدي :

قال الشوكاني: «الأحاديث في تواتر ما جاء في المهدي المنتظر التي أمكن الوقوف عليها منها خمسون حديثًا، فيها الصحيح والحسن والضعيف والمنجبر، وهي متواترة في جميع الاصطلاحات المحررة في الأصول، وأما الآثار عن الصحابة المصرحة بالمهدي، فهي كثيرة أيضًا، لها حكم الرفع، إذ لا مجال للاجتهاد في مثل ذلك»[١] .

قال صديق حسن خان: «الأحاديث الواردة في المهدي على اختلاف رواياتها كثيرة جدًّا، تبلغ حد التواتر المعنوي، وهي في السنن وغيرها من دواوين الإسلام من المعاجم والمسانيد»[٢] .

وقال الشيخ محمد بن جعفر الكتاني: «والحاصل أن الأحاديث الواردة في المهدي المنتظر متواترة، وكذا الواردة في الدجال، وفي نزول سيدنا عيسى ابن مريم عليه السلام»[٣] .

وأما العلماء الذين صنفوا كتبًا في المهدي بالإضافة إلى كتب الحديث المشهورة، كالسنن الأربعة، والمسانيد؛ «مسند أحمد»، و«مسند البزار»، و«مسند أبي يعلى»، و«مسند المحارب بن أبي أسامة»، و«مستدرك الحاكم»، و«مصنف ابن أبي شيبة»، و«صحيح ابن خزيمة»، وغيرها من المصنفات[٤] التي ذكرت فيها أحاديث المهدي، فإن طائفة من العلماء أفردوا في المهدي المنتظر مؤلفات ذكروا فيها جمعًا كبيرًا من الأحاديث الواردة فيه[٥] ، ومما يؤسف له أن طائفة من الكتاب أمثال الشيخ محمد رشيد رضا في تفسير «المنار» وصف أحاديث المهدي بالتناقض والبطلان، وأن المهدي ليس إلا أسطورة اخترعتها الشيعة، ثم دخلت كتب أهل السنة[٦] .

---

(١) انظر: التوضيح في تواتر ما جاء في المهدي المنتظر والدجال والمسيح .
(٢) انظر: الإذاعة لما كان وما يكون بين يدي الساعة، ص (١١٢)
(٣) انظر: نظم المتناثر في الحديث المتواتر، ص (١٤٧) .
(٤) انظر: عقيدة أهل السنة والأثر في المهدي المنتظر للعباد، ص (١٦٦،١٦٨) .
(٥) انظر: الدولة العبيدية، لعلي محمد الصلابي، ص (٦٢) .
(٦) انظر: تفسير المنار (٩ / ٤٩٩-٥٠٤) .

ومن أنكر أحاديث المهدي صاحب «دائرة معارف القرن العشرين»[١] محمد فريد وجدي وسار على نفس الخط أحمد أمين في كتابه «ضحى الإسلام» .

ويبدو أن هؤلاء الكتاب تأثروا بما ذكره المؤرخ ابن خلدون في تضعيفه لأحاديث المهدي، مع العلم أن ابن خلدون ليس من فرسان هذا الميدان حتى يقبل قوله في التصحيح والتضعيف، ومع هذا فقد قال - بعد أن استعرض كثيرًا من أحاديث المهدي وطعن في كثير من أسانيدها-: «فهذه جملة الأحاديث التي خرّجها الأئمة في شأن المهدي، وخروجه آخر الزمان، وهي -كما رأيت - لم يخلص منها من النقد إلا القليل أو الأقل منه»[٢] .

قال يوسف الوابل في «أشراط الساعة» تعليقًا على قول ابن خلدون: «ونقول: لو صح حديث واحد، لكفى به حجة في شأن المهدي، كيف والأحاديث فيه صحيحة متواترة»[٣] .

قال الشيخ أحمد شاكر ردًّا على ابن خلدون: «إن ابن خلدون لم يحسن قول المحدثين الجرح مقدم على التعديل، ولو اطلع على أقوالهم وفقهها، ما قال شيئًا مما قال، وقد يكون قرأ وعرف، ولكنه أراد تضعيف أحاديث المهدي بما غلب عليه من الرأي السياسي في عصره»[٤] .

ثم بين أن ما كتبه ابن خلدون في هذا الفصل عن المهدي مملوء بالأغاليط في أسماء الرجال ونقل العلل، واعتذر عنه بأن ذلك قد يكون من الناسخين، وإهمال المصححين .

إن ما ذهب إليه محمد رشيد رضا وابن خلدون ومحمد فريد - رحمهم الله تعالى- ليس صوابًا، وإنما الحجة في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، والروايات

---

(١) انظر: دائرة معارف القرن العشرين، (١٠ / ٤٨٠) .
(٢) انظر: مقدمة ابن خلدون (١ / ٥٧٤).
(٣) انظر: أشراط الساعة للوابل، ص (٢٦٧) .
(٤) انظر: مسند الإمام أحمد (٥ / ١٩٧-١٩٨) .

المذكورة في خروج المهدي صحـيحة متواترة تواترًا معنويًّا، وهذا يكفي ، وأما كون الأحاديث قد دخلها كثـير من الإسرائيليات، وأن بعضها من وضع الشـيعة وغيرهم من أهل العصبيات، فهذا صحـيح، ولكن أئمة الحديث قد بينوا الصحيح من غيره، وصنفوا الكتب في الموضوعات وبيـان الروايات الضعيفة، ووضعوا قواعـد دقيقة في الحكم على الرجال، حتى لم يبق صاحب بدعة أو كـذب إلا وأظهروا أمره، فحفظ الله السنة من عبث العابثين، وتحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وهذا من حفظ الله لهذا الدين .

وإذا كانت هناك روايات موضوعة في المهدي تعصبًا فإن ذلك لا يجعلنا نترك ما صح من الروايات فيه، والروايات الصحيحة جاء فيـها ذكر صفته واسمه واسم أبيه، فإذا عين إنسان شخصًا ، وزعم أنه هو المـهدي ، دون أن يساعده على ذلك ما جاء من الأحاديث الصحيحـة، فإن ذلك لا يؤدي إلى إنكار المهدي على ما في الحديث، ثم إن المهدي الحقـيقي لا يحتاج إلى أن يدعو له أحـد، بل يظهره الله إلى الناس إذا شاء، ويعرفونه بعلامات تدل عليه .

وأما دعوى التـعارض ، فقد نشأت عن الروايات الـتي لم تصح، وأما الأحاديث الصحيـحة، فلا تعارض فيهـا والحمد لله، وأيضًا فإن خلاف الشـيعة مع أهل السنة لا يُعتد به، والحكم العدل هو الكتاب والسنة الصحيحة، وأما خرافات الشيعة وأباطيلهم، فلا يجوز أن تكون عمدة يُردُّ بها ما ثبت من حديث رسول الله ﷺ [١] .

قال العلامة ابن القيم في كلامه عن المهـدي: «وأما الرافضة الإمامية، فلهم قول رابع وهو أن المهدي هو محمد بن الحسن العسكري المنتظر، من ولد الحسين بن علي لا من ولد الحسن، الحاضـر في الأمصار الغائب عن الأبصـار، الذي يورث العصا، ويختم الفضا، دخل سـرداب سامراء طفلاً صغيرًا من أكثر من خـمسمائة سنة، فلم تره بعـد ذلك عين، ولم يُحس فيـه بخبـر ولا أثر، وهم ينتظرونه كل يوم ويقـفون

---

(١) انظر: أشراط الساعة ، ص (٢٦٧) .

بالخيل على باب السرداب ويصيحون به أن يخرج إليهم: اخرج يا مولانا اخرج يا مولانا، ثم يرجعون بالخيبة والحرمان، فهذا دأبهم ودأبه، ولقد أحسن من قال:

ما آن للسرداب أن يَلد الذي ... كلمتموه بجهلكم ما آنا؟

فعلى عقولكم العفاءُ فإنكم ... ثلثتم العنقاء والغيلانا

ولقد أصبح هؤلاء عارًا على بني آدم وضحكة يسخر منهم كل عاقل»[١].

إن التهمة الموجهة للحركة السنوسية بأن أتباعها يعتقدون في الإمام محمد المهدي السنوسي هو المهدي المنتظر تهمة باطلة، رفضها الإمام محمد المهدي، وعارضها، وأبى الموافقة على القول بها، وعندما سئل الملك محمد إدريس - رحمه الله - عن رأي أبيه في قول بعض أتباع الطريقة بمهديته أجاب: «كان كلما سمع هذا القول نفاه بشدة، وأبدًا لم يعتقد به...»[٢].

* ■ *

(١) انظر: المنار المنيف، ص (١٥٢ ، ١٥٣).

(٢) انظر: الحركة السنوسية، ص (١٨٧).

المبحث الثاني
موقف محمد المهدي السنوسي والليبيين من الدولة العثمانية وفكرة الجامعة الإسلامية

في بداية عهد السلطان عبد الحميد الثاني طلب من السيد محمد المهدي السنوسي إرسال قوة من رجاله من الأقطار البرقاوية الطرابلسية لمساعدة الدولة العثمانية في حربها ضد روسيا عام ١٨٧٧م إلا أن السنوسي امتنع عن تنفيذ الطلب، لانشغاله بالبناء والتربية والتكوين، والانتشار بالدعوة، والاستعداد للجهاد، وهذا الامتناع جعل السلطان عبد الحميد يرسل الرسل إلى الإمام المهدي السنوسي للوقوف على حقيقة أمره، وبذل السلطان عبد الحميد الثاني جهدًا كبيرًا في سبيل التعرف على طبيعة الحركة السنوسية، وحقيقة نواياها، وأهدافها، ومدى استعداد زعيمها للعمل ضمن سياسته في الجامعة الإسلامية، وتمت الخطوة الأولى في هذا المجال بطلب من الداخلية العثمانية إلى واليها في طرابلس، لموافاتها بمعلومات عن الحركة ونشاطها .

أجاب الوالي كمال باشا (١٨٩٣-١٨٩٨م) بما يُشعر بحسن علاقة الوالي بالحركة السنوسية، واطمئنانه إلى نواياها، وثقته برجالاتها وأكد في رسالته التي بعثها للسلطات العثمانية في إستانبول على الفوائد العلمية والاجتماعية التي حققتها زوايا الحركة السنوسية المنتشرة في الصحراء الكبرى[١] بين أعراب البادية، ورفع مستوياتهم الدينية والخلقية والثقافية، ومزاحمتها الفعالة للجمعيات التنصيرية المنبثة في القارة الإفريقية، ودخول الكثير من الزنوج في الإسلام بتأثير دعايتها له، وأكد الوالي في ختام رسالته، انقياد الحركة بزواياها وقادتها إلى دولة الخلافة العثمانية[٢].

وأوفد السلطان عبد الحميد بعثة برئاسة رشيد باشا والي بنغازي ومعه الصادق

---

(١) انظر: حركة الجامعة الإسلامية ، أحمد الشوابكة ، ص (٢٣٠) .

(٢) انظر: الحركة السنوسية، ص (٢٠٤، ٢٠٥) .

المؤيد العظم أحد ياورات السلطان إلى واحة الجغبوب في ليبيا وذلك عام ١٨٨٩م، ومما جاء في أخبار البعثة أن المهدي السنوسي قد أحسن استقباب البعثة وأتاح لأعضائها مشاهدة زاوية الجغبوب والاطلاع على أعمال أتباع السنوسية، وأن المهدي السنوسي لم يكن إلا داعيًا مرشدًا، وإنه يدعو بالتأييد للدولة العثمانية وتوفيق الحضرة السلطانية[1] .

وبعد انتقال المهدي السنوسي من واحة الجغبوب إلى واحة الكفرة في أقصى الجنوب من ولاية طرابلس عام ١٨٩٥م، أرسل أحد أتباعه وهو الشيخ عبد العزيز العيساوي إلى إستانبول ، لتأكيد إخلاصه وولائه للسلطان العثماني، وليطلب منه تأكيد الفرمانات التي صدرت من قبل للسنوسيين[2] .

أصدر الباب العالي أوامره في إجراء التأكيدات اللازمة لولاية طرابلس ومتصرفية بنغازي، في التزام الاهتمام والرعاية، والاحترام تجاه الحركة السنوسية وأتباعها، وتقديم فريد العناية بكافة الزوايا[3] .

وقد أرسل السلطان مع الشيخ العيساوي هدايا للمهدي السنوسي من بينها نسخة مطبوعة من «صحيح البخاري» له خاصة، خلاف عشر نسخ أخرى تعطى من قبله لمن يرى فيه الأهلية، كما أرسل له ساعة «لتكون في الأوقات الخمسة مذكرة بصالح دعواته لجنابه العالي»[4] .

ورد السلطان على هذه البعثة بإرسال الصادق المؤيد العظم بزيارة المهدي السنوسي في واحة الكفرة، وهناك اطلع الصادق بنفسه على أحوال الزاوية واجتمع بالمهدي الذي استقبله استقبالاً طيبًا، واطمأن لحسن توجهه نحو السلطنة العثمانية ومما ذكره الصادق المؤيد العظم في رحلته عن المهدي «أنه شيخ صادق لمقام الخلافة، وحسب وصية والده، فهو في كل صباح عقب الصلاة يجري الدعاء بالصحة

---

(١) انظر: حاضر العالم الإسلامي، (٢ / ١٦٢) .
(٢) انظر: السنوسية دين ودولة، ص (٥٨) .
(٣) انظر: السنوسية دين ودولة، ص (٥٨) .
(٤) المصدر السابق نفسه، ص (٨٦) .

والعافية لخليفة المسلمين، ثم تقرأ الفاتحة، وذلك في جمع الزوايا، وهو دائمًا يوصي أتباعه بطاعة أمير المؤمنين، ومحبة الدولة العثمانية؛ لأن طاعتها واجبة شرعًا وعقلاً»[١] .

ومما زاد السلطان عبد الحميد ثقة بالحركة السنوسية كثرة شكايات الدول الأوروبية من الحركة، وتبرم قناصل الدول من نشاطها، لعرقلتها الكثير من مشاريعهم التبشيرية التي كانوا ينوون تنفيذها[٢] .

وحين اطمأن السلطان عبد الحميد الثاني إلى صدق توجه الحركة السنوسية لدولة الخلافة العثمانية وإخلاصها في العمل لسياسة الجامعة الإسلامية، بعث السلطان عبد الحميد إلى محمد المهدي السنوسي رسالة تتضمن أسس حركة الجامعة الإسلامية وحقيقة أبعادها وأهدافها، والدور الذي يمكن أن تقوم به الحركة السنوسية ضمن هذه السياسة[٣] .

وأكد السلطان في رسالته على أهمية الخلافة والإمارة الإسلامية المقدسة التي أثبتها الله في البيت العثماني منذ مئات السنين، وما افترضه الله على المسلمين من نصرة هذه الخلافة وتأييدها وطاعة ولاة الأمر القائمين على أمرها، ولا سيما في مثل هذه الظروف التي تحيط بالعالم الإسلامي، والتي جمع فيها من سماهم السلطان: «الأغيار من الكفار والملاحدة والمارقين والمفسدين في جميع الأقطار يتحزبون ويتوالون في السر والعلن خصومة للسنة والسنية وعزمًا على هدم منار الخلافة العثمانية الإسلامية، ويأبى الله إلا أن يتم نوره»[٤] وحذر السلطان عبد الحميد محمداً المهدي السنوسي من عمليات التسلل الأوربي إلى داخل القارة الإفريقية تحت شعار الكشف الجغرافي، والبحث العلمي من جانب الإنجليز والإيطاليين وغيرهم، مبينًا المقاصد المضرة بالدين والمسلمين من قبل هؤلاء[٥] .

---

(١) انظر: رحلة إلى صحراء إفريقيا الكبرى، صادق المؤيد، ص (٤٨-٤٩).
(٢) انظر: تعليق على حاضر العالم الإسلامي، شكيب أرسلان، (٢ / ١٦٢).
(٣) انظر: السنوسية دين ودولة، ص (٨٧) .
(٤) ، (٥) المصدر السابق نفسه ، (٨٧) .

وأكد السلطان عبد الحميد الثاني على أهمية تبصرة كل من له علاقة بالسنوسية والمتبين طرقها وزواياها المنتشرة في الصحراء الإفريقية بضرورة الالتفاف حول الخلافة العثمانية المقدسة والإمامة الكبرى الإسلامية، التي هي ضمان قوة المسلمين وشعار وحدتهم وتضامنهم[١] .

كما بين لمحمد المهدي السنوسي الوسائل العلمية الواجبة الاتباع لمواجهة أعمال المبشرين وأعداء الإسلام والمسلمين في القارة الإفريقية لكشف وسائلهم وأهدافهم الكبرى، وذلك بتكثير أعداد الدعاة والعلماء وإعدادهم الإعداد المناسب وبثهم في كافة الأنحاء الإفريقية لنشر الإسلام بينهم، وتبصيرهم بأمور دينهم، والتأكيد على أهمية الخلافة في حياة المسلمين، ودور الوحدة والتضامن في دفع غائلة المعتدين، وأعداء الملة والدين[٢] .

إن الليبيين عمومًا ارتبطوا بفكرة الجامعة الإسلامية، وسياسة الدولة العثمانية وسلطانها عبد الحميد الثاني الذي تبنى الدعوة إليها وأكدوا في كل مناسبة ارتباطهم بهذه الدعوة، وخاصة في أزمات الدولة، ففي حرب الدولة مع اليونان سارع أهل طرابلس بتشكيل اللجان لجمع التبرعات وقد كتب على الاستمارات المعدة للجمع عبارة «إعانة جهادية» وبلغ مجموع التبرعات قرابة «مائة ألف فرنك»[٣] .

وامتدح الشيخ سليمان الباروني (١٨٧٠-١٩٤٠م) أحد الزعماء الليبيين الدولة العثمانية وسلطانها، وأشاد بجيشها بمناسبة حربها مع اليونان وانتصارها عليهم[٤] .

وأنشد الشاعر مصطفى بن زكرى بهذه المناسبة قصيدة قال فيها:

يا سعد سر مترنمًا	ببشائر السعد المبين
واعطف على دار الخلافة	باليسار وباليمين
وإذا مررت «بيلدز»	وسعدت بالملك المكين

(١) ، (٢) انظر: السنوسية دين ودولة، ص (٨٨) .
(٣) انظر: الحواليات الليبية، شارك فيرو (٣ / ٧٧٤) .
(٤) انظر: صفحات خالدة من الجهاد، زعيمة الباروني، ص (٨٠) .

تـاج الخلافـة بهجـة الدنيا وعـز المسلمـين
عبـد الحميـد وناصر الـدين الحنيـفي المبـين[١]

وعن اليونانيين أعداء الخلافة قال:

مهلاً بني اليونان لستـم في الحـروب بمعجـزين
وجنودكم أمست «بترناوة» حصيـدًا خامديـن[٢]

وساهمت صحافة ليبيا في المدن رغم نشأتها المتأخرة بدعم حركة الجامعة الإسلامية، ففي أول ديسمبر ١٩٠٨م ظهرت جريدة «الكشاف»، وكان صاحب امتيازها ومديرها المسئول محمد النائب الأنصاري، ووصف الجريدة بأنها متلزمة بخط الجامعة الإسلامية[٣] .

وفي أوائل مارس ١٩٠٨م صدر العدد الأول من جريدة «العصر الجديد» التي وصفت نفسها بأنها سياسة علمية، وجعلت شعارها «من الشعب إلى الشعب» وتعاطفت مع «اللواء» المصرية، كما سارت في تيارها بتبني فكرة الجامعة الإسلامية[٤] .

وفي إستانبول أصدر الزعيم الليبي عبد الوهاب عبد الصمد صحيفة «دار الخلافة» وجعلت محور سياستها الدفاع عن الخلافة والجامعة الإسلامية[٥] .

وأسس الشيخ سليمان الباروني في القاهرة مطبعة عام ١٣٢٥هـ/١٩٠٨م سمَّاها «الأزهار البارونية» التي حدد هدفها قائلاً: «أن تكون خادمة للدين، سائرة في ركاب الجامعة الإسلامية، ناشرة للآداب ولكل ما فيه نفع وإرشاد الأمة والهيئة الاجتماعية مترقية في مدارج التقدم»[٦] وأصدرت المطبعة جريدتها باسم «الأسد الإسلامي» في عام ١٩٠٨م[٧] .

---

(١) ، (٢) انظر: صلات بين ليبيا والترك، للمصراتي، ص (١٨٢-١٩٦) .
(٣) انظر: صحافة ليبيا في نصف قرن، علي المصراتي، ص (١٠٠) .
(٤) المصدر السابق نفسه، ص (٧٣) .
(٥) المصدر السابق نفسه، ص (١٠٩) .
(٦) انظر: صفحات خالدة من الجهاد، ص (٤٠) .
(٧) انظر: الحوليات الليبية، (٣ / ٧٨٦) .

اهتم سليمان الباروني بفكرة الجامعة الإسلامية، واتخذ من جريدته منبرًا لإعلاء فكرتها، ومجالاً لبحث مشاكل المسلمين وتقصي أخبارهم، ومما جاء في افتتاحية العدد الأول منها . . فقد كان الرشاد في الأمة في زمن انقياد أفرادها بطبيعتهم لقوانين الشرع الشريف، ووقوفهم عند مناهيه، ثم لما دارت الأيام بدوران الدهر، وتغيرت الطبائع باختلاف أصناف البشر، وقع التساهل في أمر الدين، وانحلت عرى الاتحاد وساد الشقاق، وتؤكد الجريدة أنه سيكون على رأس اهتماماتها بذل النصح للأمة الإسلامية وإرشادها إلى ما يعود عليها بالنفع العاجل والآجل، والتقدم في مباراة الأمم الحية، ومزاحمتها في معترك الحياة الهنيئة[١] .

وتساءل الباروني عن الأسباب الكائنة وراء فرقة المسلمين وتفككهم، وما إذا كان ممكنًا لم شعثها وتوحيد كلمتها في هذا الزمن الذي هم فيه أحوج إلى الاتحاد من أي شيء آخر[٢] ، وهو يؤكد أن هذا ممكن، مدللاً عليه بشدة اهتمام أوروبا وساستها وكتابها بملاحظة الحالة التي بدأت تظهر بين المسلمين، بفعل ما يبديه سلطانهم عبد الحميد وإلى جانبه المخلصون للعمل في سبيل تحقيق ما بينهم من جامعة تضم كلمتهم وتوحد رأيهم وتجمع شتاتهم أينما كانوا في أطراف المعمورة، حتى إذا ما كانوا يدًا واحدة ، وعلى قلب رجل واحد ، ناقشوا أوروبا الحساب وناصبوها الحرب[٣].

وقد ظل عموم الليبيين على ولائهم للدولة العثمانية وسلطانها عبد الحميد فهو بالنسبة لهم خليفة المسلمين، وملجأ الدنيا والدين، ودولته ملاذ المسلمين جميعًا ودرعهم الواقي ضد محاولات أوروبا للنيل من استقلالهم[٤] .

واستمر هذا الشعور قائمًا لدى أهل المدن في ليبيا، وزعماء الحركة السنوسية وأتباعها، حتى قام حزب الاتحاد والترقي في تركيا بإبعاد السلطان عبد الحميد الثاني ١٩٠٨م فلم يشعر أهل الولاية إزاء هذه الحركة بالاطمئنان، ولم يستبشروا بها خيرًا، بل قابلوها بالمعاداة والاستهجان، لما عرفوه عن الاتحاديين من «بعد عن الحكمة

---

(١) انظر: صفحات خالدة من الجهاد، ص (٢٠) .
(٢) المصدر السابق نفسه، ص (٣١) .
(٣) المصدر السابق نفسه، ص (٢٣) .
(٤) انظر: قضية ليبيا ، محمود الشنيطي، ص (٢٧) .

ومناهضة الدين»[1] واستهجن الليبيون إعلان الدستور، ولم يروا مبررًا لصدوره خاصة والشريعة الإسلامية كفيلة بسد حاجتهم، ووقع إثر ذلك حوادث كبيرة في طرابلس ضد الحركة والقائمين بها، وطالب غالبية الناس بإبعاد من قدم إلى الولاية من الاتحاديين[2] .

ويذكر كاكيا: «إن الأهالي في ليبيا نظروا إلى الجمعية بغير عين الرضى، وكرهوا رجالها، لتدخلهم في مسائل العادات والدين، وعدّوا إعلان الدستور انتهاكًا للشريعة الإسلامية»[3] .

إن زعماء الحركة السنوسية كانوا شديدي الولاء للدولة العثمانية وكذلك زعماء المدن الليبية، وهذا يدل على الوعي العميق وشعورهم بضرورة مساندة دولة الخلافة، والمحافظة عليها من منطلق شرعي يدينون به المولى عز وجل، وكان هذا الفهم منبثقًا من فهمهم لقول الله تعالى: ﴿ **وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا** ﴾ [آل عمران: ١٠٣] ، وقال تعالى: ﴿ **وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ** ﴾ [آل عمران: ١٠٥] ، فقد كان أجدادنا يرون: «ونرى الجماعة حقًا وصوابًا، والفرقة زيغًا وعذابًا»[4] .

وإن كانت الخلافة الإسلامية العثمانية خرجت في آخر أيامها عن خطها الصحيح لأسباب وعوامل داخلية وخارجية، إلا أنها لا زالت في دائرة الإسلام، ولم تمرق منه مروق السهم، وخصوصًا قبل عزل السلطان عبد الحميد الثاني؛ ولذلك رأى زعماء الحركة السنوسية والليبيون عمومًا عدم الخروج على الدولة العثمانية: «ولا نرىٰ الخروج على أئمتنا وولاة أمورنا وإن جاروا، ولا ندعو عليهم ولا ننزع يدًا من طاعتهم، ونرى طاعتهم طاعة لله عز وجل فريضة، ما لم يؤمروا بمعصية، وندعو لهم بالصلاح والمعافاة»[5] هكذا كان موقف الحركات السنوسية وزعماء ليبيا من الدولة العثمانية .

---

(١) ، (٢) انظر: حركة الجامعة العربية، الشوابكة، ص (٢٣٧) .
(٣) انظر: ليبيا في العهد العثماني، كاكيا من الترجمة العربية، ص (٦٠) .
(٤) انظر: تهذيب الطحاوية، للصاوي، ص (٢٩٦) .
(٥) المصدر السابق نفسه، ص (٣٠٢) .

المبحث الثالث
رحلة المهدي السنوسي إلى الكفرة وقرو

أولاً: الرحلة إلى الكفرة والصدام مع فرنسا:

كانت خطة التوسع عند الحركة السنوسية تستدعي من زعيمها محمد المهدي الانتقال نحو الجنوب وفق خطوات مرسومة، ومراحل معلومة لدى قادة الحركة، وتقرر لدى محمد المهدي الانتقال من الجغبوب إلى الكفرة، وشرع في تنفيذ القرار الاستراتيجي بسرعة البرق، فجمعت الإبل الكافية للنقل، وخبراء الطرق، والأمتعة الضرورية، وعين الإمام السنوسي رفقاءه في سفره إلى العاصمة الجديدة، وفي يوم ٢٢ شوال سنة ١٣١٢هـ جمع الإمام السنوسي جميع سكان الجغبوب للوداع وألقى فيهم نصائحه الغالية، وانتقل بعد ذلك من الجغبوب والأفئدة تتقطع لهول الفراق والأعين وراءه شاخصة فنزل بموقع قريب من الجغبوب يقال له حطيئة «الزربي» وبهذا المكان كان وداع المشيعين وفي طليعتهم كبار الإخوان، كالسيد أحمد الريفي، ومحمد عابد السنوسي، وأبي سيف مقرب، ومحمد المدني، وأحمد بن إدريس، وعمران السكوري، وهنا يظهر جلال الموقف وشدة الفراق، ونلمس ذلك في القصائد التي ألقيت يوم ذاك[1] . يقول الأديب الحشائشي: ولما أفاق أبو يوسف مقرب من غشيته التي أصابته عن مفارقة الشيخ المهدي صعد فوق هضاب عال ومعه جماعة من الإخوان وتوجه إلى الركب بنظره وطفق ينشد ارتجالاً من شعره العذب ما يلين به الجلمود ويورق به العود[2] حيث قال:

همو هيجوا يوم النوى أشجاني ... وحاديهم لما ترنم أشجاني
وهم سلبوا لبي وألبس بينهم ... رداء الردى جسمي وأثواب أحزاني
وهم غادروا جسمي لظًى بعد مهجة ... جرى ذويها من بحر مدمعي القاني

---

(١) انظر: برقة العربية أمس واليوم، ص (٢١٧) .
(٢) انظر: رحلة الحشائشي، ص (١٦٨) .

فوالله لا أنسى عشية ودعوا ... فأودعتهم صبري وأودعت سلواني
وضاعف أحزاني مواقف جمة ... وبرح بي فقدانهن وأضناني
يسائلني مولاي تسئال رحمة ... يحل بها شأني ويبئس الشاني
ومن أعجب الأشياء رحلة معشر ... غدت محشرًا أوهت قوى كل إنسان
تبلد من جرائها كل سوقة ... وطأطأ إجلالاً لها كل سلطان
وزلزلت الدنيا وماجت بأهلها ... وعادت عواد بين ترك وعربان
لك الله من ركب تيمم كفرة ... تتاخم كيوار المتاخم سودان
غدا طاويًا نشر البسيطة باسطًا ... لأعلام عز تنجد الضارع العاني
ومنتقيًا عزمًا يفل بحده ... قواطع آراء من أهل وجيران
ولم يثنه عما نوى ألم النوى ... وأنة محزون ورنة صبيان
وحشوا مطاياهم ببيض قبابهم ... فلاحت نجوم دونها نجم كيوان
سروا والدياجي حالك صبح لونها ... يؤمون أحقافًا ترى ذات ألوان
وخلوا بجغبوب المقدسة علية ... يعلون بعدًا النهل طلاب عرفان
وقصرًا مشيدًا كان مطمح أنفس ... ومطلع مطعام ومطعن مطعان
ربعًا عهدنا بهوه وهو آهل ... بإنجاب أشبال وآساد خفان
وكانت لهم فيه مواقف جمة ... أناب لها فخرًا على كل إيوان
وحلت بواديه بواد فأصبحوا ... نشاوي بإنشاد وذكر وقرآن
وكانت بمغناه علومًا يبثها ... مشايخ أعلام، وأعلام فتيان
رووا متنها عن حافظ أي حافظ ... أسانيده تعلو بضبط وإتقان
هو «ابن السنوسي» الذي شاع ذكره ... بكل بلاد بين سوس وإيران
إمام همام كان للحق قبلة ... تيممها القاصي من الخلق والداني
وشهرته تغني عن إطراء مدحه ... كما اشتهر «المهدي» بالعالم الثاني
سقى الله أرضًا زارها صوب قطره ... وساق لذاك القطر عارض نسيان
على أنها تغني بعذب نواله ... ومداراره عن كل أوطن هتان

متى تستشفي نفسي بقرب لقائه	ويستن طرف الطرف في روض إحسان
متى يأتي مولاي الشريف مصاحبًا	كتائب كتاب ببيض ومران
فإني من رجعاكم لست آيسًا	ولا يأس من روح ورحمة رحمن
وإني مقيم سادتي برحابكم	على عهدكم حتى أُلفَّ بأكفان
وإني أرجو نظرة مقامكم	تسلي عن الدنيا وزخرفها الفاني
عليكم سلام الله ما هبت الصبا	تحية صب خافض القلب هيمان[١]

لقد كان قرار انتقال الإمام المهدي إلى الكفرة مفاجأة لأهالي ليبيا واهتزت البلاد من أقصاها إلى أقصاها وترك أثرًا حزينًا أليمًا في النفوس، ووصفه أحد الشعراء باللغة الشعبية فقال:

رحل سيدي وارعب لوطان	عظيم الشان حركاته بإذن الرحمن
رحل سيدي وارعب لسلام	لها صارت شدا أو نكد
وصارت بعد الضي ظلام	عليك ضيقًا في شدائد[٢]

وكان الإخوان الذين رافقوا الإمام المهدي السنوسي في رحلته كل من: أحمد البسكري، أحمد التواتي، أحمد الجراولي، أحمد الثني الغدامسي، محمد السني، وغيرهم من كبار الإخوان[٣] .

ولما بلغ الشيخ واحة «الكفرة» تلقته قبيلة «زويا» من كبار قبائل العرب في الصحراء، ومن جاورها من القبائل، وكانوا في غاية الفرح والسرور، وكان في استقباله خارج منطقة الجوف أكثر من ثلاثة آلاف رجل يتقدمهم رئيس زاوية الجوف ومشايخ وأعيان قبيلة زوية ومن معهم من المجابرة، وابتهجت واحة الكفرة بقدوم

---

(١) انظر: رحلة الحشائشي، ص (١٦٩، ١٧٠) ، برقة العربية ، ص (٢١٧،٢١٨) .
(٢) انظر: برقة العربية أمس واليوم، ص (٢٢١) .
(٣) انظر: رحلة الحشائشي، ص (١٧١) .

زعيم الحركة السنوسية، وتبارت الخيول وأطلق الرصاص، وبهذه المناسبة قتل يونس الرويعي رجلاً من قبيلة الزوية بإصابة خطأ، فنادى شيوخ الزوية أعيانهم في قومهم بأن لا يترك الاحتفال من أجل موت أحدنا، وأن القاتل في مأمن إكرامًا للإمام السنوسي، وبعد انتهاء الاحتفال اجتمع شيوخ وأعيان القبيلة وتقاسموا الدية الشرعية للمقتول ودفعوها إلى أهله فورًا وتسامحوا مع القاتل، كل ذلك تم في يومه، وقرر جميع أعيان وشيوخ زوية أن يتقدموا بهدية إلى زعيم الحركة السنوسية بمناسبة تشريفه إياهم بقدومه، وكانت الهدية هي التسامح فيما بين أفراد وقبائل زوية من الأحقاد، والتنازل عن حقوقهم التي يطلبها أحد أفراد القبيلة من الآخر، وتطلبها عائلة من أخرى مهما عظمت تلك الحقوق التي قد تؤدي إلى شقاق وفساد، وتنازلوا عن ثلث ممتلكاتهم وقفًا لأعمال الحركة السنوسية من نخيل وبساتين وأراضٍ، كل ذلك عن طيب خاطر وقربة لله، ودعمًا للحركة الإسلامية التي تبنت دعوة الإسلام في الصحراء الكبرى، وأدغال إفريقيا، وتبرع جميع أغنياء القبيلة ومن معهم من تجار المجابرة بإطعام جميع الفقراء وكسوتهم، واستمر الفرح والاحتفال شهرًا بعد وصول زعيم الحركة السنوسية الثاني الإمام المهدي، وشرع الإمام المهدي في بناء زاوية التاج التي اختطها محمد البسكري، حسب توجيهات زعيم الحركة، فأبدع في تخطيطها، وجعلها على قمة ربوة عالية تبعد عن زاوية الجوف بما لا يقل عن ميل ونصف تقريبًا[(١)] .

أصبحت الكفرة عاصمة الحركة السنوسية لوجود زعيمها فيها، ففتحت المدارس لتعليم القرآن الكريم، وتصدر مجالس التدريس كبار العلماء، وتقدمت سوقها التجارية تقدمًا باهرًا، إذ أصبحت تردها بضائع السودان، وتصدر إليه عنها، وهكذا الحال بينها وبين برقة من جهة، وبينها وبين مرص من جهة أخرى ، وتحسنت زراعتها إلى حد بعيد، وجلبت إليها أشجار الفاكهة من واحة سيوة ودرنة، وغيرها، وعمرت بالسكان الذين هاجروا إليها من المجابرة والتبو والسودانيين، فضلاً عن

---

(١) انظر: برقة العربية، ص (٢١٩، ٢٢٠) .

سكانها المعروفين من قبائل الزوية حتى أصبحت ذات أهمية كبرى في وقت قصير[١] وأصبحت قبيلة الزوية بمثابة الحرس الخاص لزعيم الحركة السنوسي[٢] .

تولى المهدي السنوسي تصريف أمور الحركة من الكفرة، فعجت بالحركة وأصبح أتباع الحركة يقدمون إليها من كل حدب وصوب، حتى ضاقت بهم مساكنها، وفي إحدى رسائل المهدي إلى محمد علي المحجوب في زاوية الطيلمون بليبيا يطلب المهدي إرسال خيام ؛ لأن وفودًا كثيرة جاءت للتسليم عليه وهو خجل لعدم وجود بيوت تأويهم[٣] .

وقام الإمام السنوسي بإرسال رسله إلى مختلف الجهات، فأرسل مرتضى فركاش بن أبي خريص بكتاب إلى سلطان واداي ومعه رجلان، وأرسل رسالة لوالي بنغازي، وانتظمت الرسائل بينه وبين الزوايا، ونظم حياة الأهالي في الكفرة، وفرض النظام، ومنع الاعتداءات، ونشر السلام بين قبيلتي زوية والتبو اللتين تسكنان تلك المنطقة، ووجه الأتباع نحو العمل المثمر، سواء في تعمير الزوايا، والدعوة إلى الله، أو في التجارة، وقد زاد تبعًا لذلك عدد سكان الكفرة وانتعشت حياة الأهالي وعم الرخاء، واهتم بحفر الآبار المتابعة على طول خطوط القوافل، فكان يرسل البعثات لإتمام ذلك، وأصبحت الكفرة ملتقى القوافل ما بين السودان الغربي «تشاد» والسودان الشرقي وسواحل برقة، ومن البعثات الاستكشافية التي أرسلها الإمام السنوسي التي اكتشفت حطية العوينات والحطايا التي تكتنفها ولم تكن معروفة قبل ذلك، كما يقول الأشهب[٤]، وخفّ إلى تلك الحطايا عدد من رجال قبيلة زوية، وكانت تلك القبيلة صادقة في وعدها لإمام الحركة السنوسية، فقامت بأعمال كبيرة لصالح الدعوة الإسلامية، ويبدو أن ابن السنوسي المؤسس عرف قدراتها، فاهتم بها، ويظهر هذا جليًّا في حواره مع عقيلة الزوي عند بناء الجغبوب حيث حدثه عن رغبته في بناء

(١) المصدر السابق نفسه، ص (٢٣٧) .
(٢) انظر: المهدي السنوسي، ص (٧١) .
(٣) انظر: الحركة السنوسية، ص (٢٢٠) .
(٤) انظر: الحركة السنوسية، ص (٢٢١) .

زاوية في الكفرة ؛قال له «مرادنا في كونكم تتولون أمرها» فكان أن أسس زاوية الجوف التي عرفت نسبة إلى ابن السنوسي باسم زاوية الأستاذ[١] .

وأنشئت في فترة الإمام المهدي عدة زوايا في منطقة الكفرة منها «التاج» كما ذكرنا، وربيانة، وتازربو، وامتد نشاط الحركة نحو الجنوب، فوصلت إلى مواطن جديدة في السودان الإفريقي، بواسطة الدعاة، وقوافل التجارة، فوصلت دعوة الإسلام إلى بشر جدد، وقبائل وثنية متعطشة إلى دين الفطرة، وهذا التوغل المحمود، والانطلاق الجميل بدعوة الله، كان ابن السنوسي المؤسس قد خطط له منذ عهده الباكر في الدعوة إلى الله فقد قال: «. . . إذ أن الشعوب المجاورة في السودان والصحراء من إفريقية الغربية لا تزال تعبد الأوثان. . .»[٢] .

إن انتقال الإمام المهدي إلى الكفرة ينسجم مع خطة الحركة السنوسية التي استهدفت قبائل الصحراء، وإفريقيا الوسطى بدعوة الإسلام، ولذلك تحرك زعيم الحركة لاختيار مركز متوسط يعينه على تبليغ رسالته وأداء واجبه، أما قول من قال: إنما قام بذلك خوفًا من الأوروبيين الذي أرادوا القبض عليه فباطل؛ لأنه جاء للسودان الغربي ليقود حركة الجهاد ضد أطماع فرنسا خصوصًا والأوروبيين عمومًا[٣]، وأما قول بعض المؤرخين: إنما اندفع نحو الجنوب خوفًا من السلطات العثمانية[٤] فهذا مردود، لأن علاقة الحركة بالدولة كانت قوية، بل إن السنوسية أصبحت من الركائز المهمة في فكرة الجامعة الإسلامية .

إن الإمام السنوسي حرص على أن يتوسط ميدانًا يقود به حركة الإسلام في إفريقيا الوسطى ، ولذلك اندفع جنوبًا ، كما أنه حدثت أحداث مهمة جعلته يحرص على القرب منها، من ذلك توغل فرنسا في القارة الإفريقية ومحاولة بسط نفوذها على الإمارات الإسلامية في إفريقية الغربية[٥] .كانت الوسائل الأمنية لدى الحركة

---

(١) المصدر السابق، ص (٢٢١) .

(٢) انظر: السنوسية دين ودولة، ص (١٢) .

(٣) ، (٤) ، (٥) انظر: الحركة السنوسية، ص (٢١٨) .

السنوسية تقوم بجمع المعلومات عن تحركات جواسيس فرنسا التي تحاول معرفة حقيقة قوة الحركة السنوسية، وكان الحدث الآخر الذي يشكل خطرًا على الحركة السنوسية في تشاد؛ قيام سلطنة رابح في السودان الغربي، فقام الإمام السنوسي بحركته الاستراتيجية، فانتقل إلى الكفرة كخطوة أولى، وعمل على توطيد العلاقات بينه وبين واداي، التي كانت علاقتها بالحركة السنوسية قوية منذ عهد ابن السنوسي الذي كان على صلة بسلطانها: «ثم ازدادت الروابط بين المهدي وسلطان واداي في المدة التالية حتى طلب يوسف (سلطان واداي) أن يوفد المهدي إلى أبشه أحد كبار الشيوخ السنوسيين مندوبًا خاصًا في عاصمته، فأرسل إليه سيدي محمد بن عبد الله السني .. فوطد نفوذ السنوسية في واداي»[1]

ولا بد من بيان العمل الجليل التي قامت به قبيلة زوية في مساندة الدعوة والوقوف معها ودعم زعيمها ، وقد مدح الشاعر أبو مقرب سيف هذه القبيلة:

زاوية أهل الفخر إن جئت حيهم ... ترى العز في نادي زوية باديا

وأهل الفتى أمضى من السيف عزمه ... وإن كان للضيفان بالبشر باديا

إذا ما دعوا يومًا إلى شن غارة ... رأيت المنايا الحمر تعلو المذاكيا

فكم من جريح قد أباحوا وأجحفوا ... بمال غني لا يخافون عاديا

فأرشدهم مرشد من حل بينهم ... فلا زال مهديًا ولا زال هاديا[2]

ثانيًا: أحداث أثرت في الإمام الثاني للحركة السنوسية:

مرت ظروف عصيبة بالإمام السنوسي أثناء إقامته بالكفرة أثرت فيه وفي حركته، فقد اشتد مرضه ولزم الفراش وعاوده المرض عدة مرات، واشتد به الألم حتى امتنع عن ملاقاة الناس والجلوس في الصلاة .

---

(١) انظر: السنوسية دين ودولة .

(٢) انظر: برقة العربية، ص (٥٨٠) .

وقد جاء في رسالة بعث بها لأخيه قوله: «وقد زال تغير الهواء بلا ضرر ولا عناء، والألم الذي معي تهاون بحمد الله، وقد ظهر النقص في الحبة الأولى؛ لأنها الكبيرة، وقل سيلانها وانجلت الزرقة التي حولها، وكانت قدر دائرة الكف من غير الأصابع . . . وصرت أقدر على تكلف الجلوس في الصلاة وملاقاة الناس»[(١)].

وجاء في رسالة أخرى لأخيه بتاريخ ١٣ ربيع الأول ١٣١٣هـ قوله: «أحسست بالألم في الجهة الأخرى وتزايد. . وبعد أن عجزت عن أداء الصلاة قائمًا وقاعدًا، وصرت أصلي على جنبي راقدًا. . وقد تركت الخروج للناس والجمعة، ونرجو الله أن تكون العاقبة خيرًا»[(٢)] ثم يظهر أن صحته تحسنت بعد ذلك وقد عرفت ذلك من خلال رسائله التي أرسلها إلى شيخ زاوية الطيلمون محمد علي المحجوب، ومن المصائب التي مرت به وكانت متلاحقة، وفاة أستاذه عمران بن بركة في منتصف سنة ١٣١١هـ، وتوفيت والدته في آخر تلك السنة، ثم لم يلبث شقيقه ومساعده الأول محمد الشريف أن توفي في ٢٧ رمضان ١٣١٣هـ[(٣)] .

ثالثًا: محمد الشريف شقيق الإمام المهدي:

كان محمد الشريف عالمًا ربانيًا، ومستشارًا عبقريًا، وكان مشرفًا على معهد الجغبوب، وقد تميز بغزارة العلم، ودقة الفهم، والقدرة على التدريس، وتتلمذ على كبار علماء الحركة السنوسية، وتفرغ للطلب والتدريس وساعده على ذلك وجود مكتبة كبيرة احتوت على النشاط الديني، والعلمي، والأدبي، وقد تحدث الطيب الأشهب عنها فقال: «ونظمت بالجغبوب مكتبة كانت من مفاخره، إذ أنها تعد في طليعة المكتبات التي لا يمكن للأفراد الإتيان بمثلها، وكانت تضم قسمًا كبيرًا من المخطوطات النفيسة، ولم يجد الإمام بلدًا إسلاميًا إلا واستجلب منه الكتب، فمن مصر والحجاز والشام والأستانة وتونس ومراكش، إلى غير ذلك من البلاد الإسلامية الأخرى» وقال الحشائشي عن هذه المكتبة: «أما الكتب الموجودة في خزائنها فقد نيفت على الثمانية آلاف مجلد، من تفسير وأحاديث وأصول وتوحيد وفقه، وغير

(١) ، (٢) انظر: المهدي السنوسي، ص (٦٨) .
(٣) انظر: الحركة السنوسية، ص (٢٢٤) .

ذلك من كتب العلوم المعقولة والعلوم الطبيعية وغير ذلك، ولا يطبع في العالم كتاب باللغة العربية إلا ويبحثون عنه ويظفرون به . . »[١] .

لقد كانت الجغبوب محلاً لتخريج القادة وشيوخ الزوايا، ولذلك حرص ابن السنوسي وابنه المهدي على أن يوفروا كافة أسباب النشاط العلمي، وتتلمذ محمد الشريف على الشيوخ والعلماء، ونهل من الكتب الموجودة، في المكتبة المباركة حتى وصل إلى درجة عظيمة من الفقه والعلم.

يقول الأستاذ الأشهب: «سمعت هذه الحكاية الآتية من تلميذه والدي، السيد أحمد بن إدريس قال: كنا نحضر على السيد الشريف وكنا ندرس عنه الحديث والتفسير والتصوف ومطولات كتب اللغة، يجلس بكل تواضع، ويضع الكراس الذي بيده فوق منضدة من الخشب توضع أمامه، ويقرر ما نحن بصدده، وعندما يمر بمشكلة فقهية أو تاريخية أو لغوية يسرد لنا -رضي الله عنه- من ذاكرته جميع وجوهها، وما ورد فيها من أقوال العلماء أو الأئمة المصنفين بأسلوب عذب ساحر خلاب، ولا يترك قولاً ورد فيها إلا ويأتي به، ثم يوضح الأصح من الأقوال والمتفق عليه، وعندما نقف على أي بيت من الشعر في أي كتاب نقرؤه أو أي موضوع نتناوله يقول لنا: إن هذا البيت من قول فلان المولود سنة كذا، والمتوفى سنة كذا، ويبتدئ في قراءة القصيدة من ذاكرته، إلى أن يقف على البيت الذي كان السبب في إعلامنا بقوة حافظة سيدنا وسلامة ذاكرته»[٢] .

إن هذا العالم الجليل والحبر العظيم والبحر الزاخر من العلوم كان من أعمدة الحركة العلمية، فبوفاته اهتزت الجغبوب، وتأثر الإمام المهدي بهذا الحدث الجلل يقول أحمد الشريف عن خبر وفاة والده: «وفي يوم النصف من شوال أتانا رسول خبره فصعب علينا فراقه غاية، وأزعجنا نهاية، ولكن لم نقل إلا ما قاله الصابرون المهتدون؛ إنا لله وإنا إليه راجعون»[٣] .

---

(١) انظر: رحلة الحشائشي، ص (١٥٢) .

(٢) انظر: السنوسي الكبير، ص (٤٧) .

(٣) انظر: أحمد الشريف المخطوط، من (٤٤ إلى ٥٥) .

لقد تأثر الإمام المهدي لوفاة أخيه وصبر واحتسب، وبكاه الإخوان السنوسيون في كافة الأقطار، وأَبّنُه العلماء والشعراء والخطباء ومن بينهم : أبو سيف مقرب، والسيد السني، وهذه القصائد تدل على مدى النبوغ الأدبي الذي وصل إليه أتباع الحركة السنوسية:

قال الشيخ الشاعر العلامة محمد السني في رثاء محمد الشريف:

هجمت عليّ من الزمان خطوب ... ومصائب منها القلوب تذوب
خطب يئن له الجماد وتنثني ... منه متون العزم وهي صلوب
نوب تنوب وحادث زواعج ... ترمي الورى بسهامها فتصيب
جلت وجل بها المصائب وغادرت ... رحب الفؤاد يئن وهو كئيب
لبس الأساء منه الأساء كما اكتسى ... ثوب السواد لأجلها جغبوب
عهدي بربع الخل ملتحف إليها ... مخضرة أرجاء مرغوب
والشمل مجتمع ونشر البين في ... طي وذيل سروره مسحوب
واليوم أصبح مقشعرًا نازحًا ... وحشى الطلول لأجلهم مخروب
دارت عليه من الزمان دوائر ... أبدلهن على السرور وثوب
لا در در البين يوم ترحلوا ... وسرت بهم نجب المنون تجوب
وحدا بهم حادي النوى والقلب في ... نار الجوى متقلب مرغوب
سقيًا لأيام مضت لما انقضت ... إن البكاء لأجلهم مطلوب
كل الرزايا إن توالت أسليت ... إلا مصابك «يا شريف» صعيب
رزؤبة ثكل الفضائل كلها ... ولوقعه وجه الزمان قطوب
تبكيك أبصار لأنك نورها ... وبصائر منكم لها تطبيب
ومعاشر أنتم ربيع قلوبهم ... ومعاهد أنتم لها أشبوب
وفرائض ونوافل ومحافل ... ومشارق ومغارب وجنوب
وبكى عليك الجو يقطر دمعه ... وعلاه من أحزانه تثريب
أسفي وتهيامي وحر لواعجي ... وقريح جفني بالدموع سكوب

صبر لأمر قضاه إلهنا وعلى الجميع مقدر مكتوب
ناداه إكرامًا وتشريفًا له فغدا يهرول للنداء ويجيب
في ليلة القدر التي قد فضلت عن ألف شهر خصه الترحيب[١]

وأما السيد أبو سيف مقرب فقد قال قصيدة في رثاء محمد الشريف، قال ذلك الشاعر الفحل إذا أخذت من كل حرف أول بيت يظهر لك هذه الجملة الآتية سيدي ومولاي السيد محمد الشريف رضي الله عنه[٢] : قال الحشائشي وهذا من أنواع البديع المسمى بالترصيع[٣] قال الشاعر رحمه الله:

س سرنا بنعشك خضع الأعناق سيرًا دوين العدو والأعناق
ي يا خير محمول لأعلى جنة ولحورها يلقينه بعناق
د داء أصاب المكرمات فغالها واغتال روح مكارم الأخلاق
ي يجري على وفق القضا حتمًا فلا تبقى مواضيه على الأرماق
و والدهر يعتام الأخاير والردى يعتاد نهب نفائس الأعلاق
م ما ضرّه لو أن صارم صرفه أبقاك للعافين والطراق
و والعلم والحلم الذي شمخت به أفاق جغبوب على الآفاق
ل لكنه لا ينتهي عن قصده بتطبب أو رقية من راق
أ أودى الشريف ابن الشريف محمد من للمعالي بعده من راق؟
ي يا جامعًا أصل العلوم وفرعها جمعًا لمن ناواك غير مطاق
أ أنت الإمام لكل من أم الهدى والدين بالإجماع والأصفاق
ل لك كنز معارف وعوارف تحت الصفائح محكم الأطباق
س سرٌ ثوى في روضة موشية وشي الربا نحبّ الحيا الغيداق
ي يا ثاويًا مع أصله في لحده هذا قران السعد في الأعمال

(١) انظر: برقة العربية، ص (٢٢٥، ٢٢٦) .
(٢) المصدر السابق نفسه، ص (٢٢٤) .
(٣) انظر: رحلة الحشائشي، ص (١٦١) .

د دار حوت أصل المكارم والعلا ... مع فرعه شبت على الأطواق
م ما تلك جنة قد زخرفت ... ورثت يا مولاي باستحقاق
ح حزت النعيم بها وكنت منعمًا ... والله يمنحك النعيم الباقي
م ما عذر من ينعاك إذ لم يرتشف ... كأس الردى من دمعه المهراق
د دمع من العين منها مرسل ... تهمي بذاك قريحة المآق
أ إن قصرت يومًا فإن قلوبنا ... أسرى لفقدك في أشد وثاق
ل لو كان يفدى الميت بادر كلنا ... يفدك بالآجال والأرزاق
ش شرفت يا جغبوب حقبًا بالذي ... أعلى منارك بالثناء الباقي
ر روت إليك وجوه آمال الورى ... عطشًا لورد نواك الدفاق
ي يسعى لأرضك كل جلف مملق ... فيثاب بالآداب والأرماق
ف فازت رجال باحتلال رياضه ... ورياضه الخلد النعيم الراقي
ر راضَ الأنام بعلمه وبحلمه ... فتقدموا في حلبة الأسباق
ض ضار إذا ما ربته في دينه ... أو رمت نقض العهد والميثاق
ي يا صفة صفوة يا شبل صبراً على ... ريب الزمان وخطبة الفراق
أ إن المنايا غاية ما دونها ... من ناصر كلا ولا من واق
لا لا تخطئ الأحيا سهام حتوفها ... من فاته هذا فذاك يلاقي[(١)]

إن الحركة السنوسية فجرت طاقات الشعراء، وأضفت على شعراء الحركة معانيًا في الصدق، والمثل الرفيعة، ومبادئ الدعوة، وكونت أدبًا رفيعًا خاصًا بها، يستحق البحث والتنقيب، والدراسة والتحليل، وخصوصًا إذا علمنا أن الشعر لم يكن صفتهم الأولى، وإنما كان أمرًا لاحقًا، وشيئًا ثانويًا بالقياس إلى صفتهم الأصيلة، وهي كونهم علماء دعاة، اتجهوا في حياتهم إلى نشر العلم بين ذويهم وتهذيب النفوس وإحياء الشعور الديني، وإصلاح المجتمع بهذه الوسيلة، ثم كانوا مع هذا يتمتعون بالموهبة الأدبية، على أقدار مختلفة[(٢)] .

---

(١) انظر: رحلة الحشائشي، ص (١٥٩، ١٦٠) .

(٢) انظر: دراسات وصور، ص (٣٢٦) .

إن القصائد السابقة تساعد الباحث على تصور الأجواء التي كانت أثر وفاة محمد الشريف رحمه الله، وبذلك يستطيع أن يصل إلى تأثير خبر الوفاة على الإمام المهدي وإخوانه في الحركة .

وبعد أسابيع قليلة من وفاة السيد الشريف أرسل السيد المهدي في طلب العائلة من الجغبوب إلى الكفرة فسافر محمد عابد وأفراد بيت والده مصحوبًا بالسيد أحمد الريفي، وأبي سيف مقرب، وبهذا الانتقال لم يبق من أفراد البيت السنوسي أحد بالجغبوب(١) .

وفي عام ١٣١٤هـ جاء جلة أعيان برقة، ورؤساء القبائل لزيارة الإمام المهدي ليقدموا لسيادته أحر التعازي في وفاة أخيه(٢) ويتدارسوا آخر تطورات الأوضاع الدولية والمحلية، والإقليمية .

رابعًا: رحلة الإمام المهدي إلى السودان الغربي، والصدام مع فرنسا ووفاته:

كان الإمام المهدي يرسل البعثات الاستكشافية في الصحراء، ويحفر الآبار، ويتفقد الطرق الموصلة إلى وسط السودان الغربي، وكانت تلك الاستعدادات تجري على قدم وساق ، في جو من الكتمان الشديد، وبعد أربع سنوات من المكوث في الكفرة شد رحاله إلى زاوية قرو في برقو في السودان الغربي، ليشرف بنفسه على تنظيم المقاومة، واتخاذ الأهبة لمواجهة القوات الفرنسية الزاحفة نحو بحيرة تشاد(٣) وقد غادر المهدي الكفرة في أواخر جماد الثاني عام ١٣١٧هـ ورافقه أفراد أسرته، وكبار الإخوان، وشيوخ الزوايا، وأعيان القبائل، وكان ذلك في أواخر جماد الثاني عام ١٣٧١هـ(٤) وكان عدد رفقائه من الرجال ١٠٦٦ رجل، وهم الإخوان وشيوخ القبائل والحاشية الخاصة والخدم(٥)، واستغرقت المدة بين الكفرة وقرو السودان الغربي، شهرين تقريبًا(٦)، وبمجرد وصول الإمام إلى قرو وحط رحاله هناك أخذ

---

(١) انظر: برقة العربية، ص (٢٢٧) .
(٢) المصدر السابق نفسه، ص (٢٣١) .
(٣) انظر: الحركة السنوسية، ص (٢٢٥،٢٢٨) .
(٤) المصدر السابق نفسه، ص (٢٣٩) .
(٥) انظر: برقة العربية، ص (٢٣٩) .
(٦) المصدر السابق نفسه، ص (٢٣٩) .

ينشر دعوته الإسلامية الدينية، وأخذت شعوب تلك المناطق تدخل في دعوة الإسلام طوعًا، وتنضوي تحت زعامة الحركة السنوسية مختارة، وكانت فرنسا تراقب تحركات الحركة السنوسية، وتستعد لمعركة فاصلة معها، وخصوصًا بعد أن استطاعت القضاء على مملكة رابح الزبير وهزمته في معركة لختة، ثم تم قتله في عام ١٩٠٠م وخضعت لهم سلطنته وباتوا يهددون كانم[١] وكان زعيمها قد: «أرسل محمد البراني إلى كانم فبنى زاوية في بير العلالي، وطفق يجمع جيوشًا من قبائل التبو، والطوارق وأولاد سليمان ، والزوية، والمجابرة لمواجهة الزحف الفرنسي»[٢] .

تقدم الفرنسيون نحو كانم في حملة مجهزة بالأسلحة والمعدات الحديثة، واستعد السنوسيون لملاقاتهم فوضعوا حامية كبيرة في بير العلالي، واشتبكت الحملة في معركة حامية الوطيس مع الإخوان السنوسيين، وكان النصر حليف المدافعين برئاسة الشيخ محمد البراني الساعدي ، فارتدت الحملة الفرنسية خائبة بعد أن تركت ميدان المعركة زاخرًا بأشلاء الموتى، والجرحى، والمعدات، واستشهد عدد غير قليل من بينهم الشيخ عبد الله بن موسى فريطيس، ووصل الخبر إلى الإمام المهدي، فأرسل من عنده نجدة لمعاونة المجاهدين واستأنف الفرنسيون زحفهم مرة أخرى، وكان عدد شهداء المعركة الثانية مائة شهيد، من بينهم كل من الشيوخ : غيث سيف النصر، أبو بكر قويطين، يونس بدر، السنوسي خير الله وشقيقه عبد الله، وغيرهم، وقد بلغ عدد الأموات من الفرنسيين مائتين وثمانين منهم خمسة وعشرون ضابطًا، وفي اليوم التالي من هذه المعركة زحف الفرنسيون بعدد كبير من الجيش تعززه قوات احتياطية، فاشتبكت مع المجاهدين في معركة حامية الوطيس نتج عنها انسحاب المجاهدين، واحتلال القوات المعادية لمركز (علالي) وفي هذه الأثناء وصلت نجدة من المجاهدين يقودها محمد عقيلة، واحتكت بالفرنسيين في مركز لهم أقاموه خارج «علالي»، فالتحمت هناك معركة دامية، أسفرت عن احتلال المقر الفرنسي، والاستيلاء على

---

(١) انظر: الحركة السنوسية، ص (٢٢٩) .

(٢) المصدر السابق نفسه، ص (٢٢٩) .

جميع ما حواه وفر عدد قليل من الفرنسيين إلى «علالي» ثم قرر القائد السنوسي الزحف على مركز «علالي» وحاول بعض المجاهدين إقناعه ليكون زحفهم بعد تريث، غير أن القائد صمم على تحرير «علالي» من القوات الفرنسية أو أن يسكن «علالي» غرف الجنة، وتم الهجوم بروح جهادية عالية، واستشهد القائد السنوسي، واضطر المجاهدون تحت وابل الرصاص للانسحاب بعد أن قتلوا من الجيش الفرنسي أضعافًا مضاعفة، وفي هذه الأثناء وصل إلى المجاهدين خبر وفاة الإمام المهدي[1]، فخارت العزائم، وضعفت الهمم، وكانت وفاة المهدي بعد أن اشتد المرض عليه، وكان ذلك في يوم الأحد ٢٤ صفر ١٣٢٠هـ الموافق ٢ يونيو ١٩٠٢م، في زاوية قرو، واقترح أحمد الريفي نقل جثمان المهدي إلى الكفرة فتم ذلك ودفن في زاوية التاج[2] .

لقد كان محمد المهدي داعية من الطراز الأول ، تجسدت في شخصيته صفات القادة الربانيين، وكان يهتم بأمر المسلمين، في كل صقع من أصقاع العالم، وكان يؤلمه أي خلاف إسلامي، أو أي مشكلة تقع بين الأفراد، أو بين العائلات، أو بين القبائل، فكان يولي هذه الناحية مجهودات كبيرة في فكره وتفكيره، ويتخذ كل الوسائل لإزالة سوء التفاهم بعمله وآرائه وتدبيره، عاملاً على إحلال الصفاء والوئام محل الشقاق والخصام[3] وكان عفيفًا، يحترز من المال العام، فعلى سبيل المثال وصل إلى الجغبوب حاكم برقة العثماني الفريق رشيد باشا، وحل بطبيعة الحال ضيفًا مكرمًا على الإمام المهدي، فعومل هذا الضيف بالإكرام والاحترام والتقدير، ولم يتناول مع محمد المهدي الطعام إلا مرتين اثنتين، ومرد ذلك إلى أن موارد الجغبوب التي ينفق منها كانت من الأوقاف الإسلامية، والصدقات والزكاة الشرعية، والهبات التي خصصها المتبرعون بها لتنفق على أوجه البر والإحسان، ثم ما احتسب للمشاريع الإصلاحية والإنشاء والتعمير ، وللإنفاق على المشاريع، وعلى طلاب العلم، والضيوف وعابري السبيل، والمعسرين، وبطبيعة الحال إن دار الضيافة - وهي أحد

---

(١) انظر: المهدي السنوسي، ص (٧٣) .

(٢) انظر: الحركة السنوسية، ص (١٧٣) .

(٣) انظر: المهدي السنوسي، ص (٨٢) .

هذه المشاريع - هي التي تقوم بإكرام ضيف الجغبوب الكبير، وكان المهدي السنوسي يتحاشى أن يصل إليه شيء من ذلك، وهكذا لا يمكنه - على ما يظهر - أن يتناول من الأطعمة التي تعد لرشيد باشا، وإزاء هذه الحالة أقام مأدبتين من ماله الخاص لضيف الجغبوب المحترم، وتناول معه الطعام، لقد كان المهدي السنوسي ينفق من موارد خاصة، مصدرها الزراعة، وتنمية الماشية، بزاويتي القصور ودفنة، ومن هذه الموارد كان مأكله وملبسه(١) .

لقد اتصف الإمام المهدي السنوسي بصفات المؤمن ألا وهي: «قوة في دين، وحزم في لين، وإيمان في يقين، وقصد في غنى، وتحمل في فاقة، وإحسان في قدرة، وصبر في شدة، لا يغلبه الغضب، ولا تجمح به الحمية، ولا تفضحه بطنه، ولا يستخفه حرصه، ولا تقصر به نيته، ينصر المظلوم، ويرحم الضعيف، لا يبخل ولا يبذر، ولا يسرف ، ولا يقتر، يغفر إذا ظلم، ويعفو عن الجاهل، نفسه منه في عناء، والناس منه في رخاء»(٢) فرحمة الله على المهدي، لقد اهتز العالم الإسلامي لخبر وفاة المهدي، وكتبت الصحف والمجلات الغربية والشرقية حول وفاة هذا الزعيم الإسلامي، وتولى قيادة الحركة السنوسية بعد وفاة المهدي ابن أخيه أحمد الشريف، فقام بتوجيه رسالة إلى شيوخ الزوايا نعى فيها عمه المهدي، وهذا نصها:

«بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ① الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ [الملك: ١-٢] . ﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس: ٨٣]، وبعد فإنه من عبد ربه سبحانه أحمد ابن السيد محمد الشريف ابن السيد محمد السنوسي الخطابي الإدريسي الحسني إلى الأجل الأبر الصفي الأنور سيدي الشيخ . . . «ويكتب اسم شيخ الزاوية المرسل إليه الكتاب» سلمه الله آمين . السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ومغفرته ومرضاته والموجب لهذا السؤال عن الأحوال لا زالت محفوفة بالتكريم،

---

(١) انظر: المهدي السنوسي، ص (٧٩) .

(٢) المصدر السابق نفسه، ص (٨٤،٨٥) .

والإجلال وإن سألتم عنا فإننا ولله الحمد تحت مجاري الأقدار ساكنون، وفي قبضة من يقول للشيء كن فيكون، ولنفحات المولى جل وعلا متعرضون، وبما حكم به سبحانه وتعالى راضون، وعن جميع ما لا يرضى الخالق بحوله وقوته معرضون، وبما وعدنا به الله ورسوله موقنون، ولاغتلاس المنون مترقبون، سائلين منه تعالى منح ما بشر به الصابرون والقائلون عند المصيبة إنا لله وإنا إليه راجعون، أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون، آجرنا الله وآجركم في مصيبتنا ومصيبتكم بالأستاذ الذي طالما رشد الخلق، وإلى طريق الحق يهدي، سيدنا محمد ابن المهدي رضي الله عنه، وأرضاه وجعل الجنة متقلبه ومثواه، ونفعنا بأسراره وأسرار آبائه وجعلنا من المفلحين الذين هم حزب الله من أوليائه وأصفيائه فقد نقله من الدنيا إلى الآخرة التي هي خير في منتصف نهار يوم الأحد الثالث والعشرين من صفر الخير من سنة عشرين وثلاثمائة وألف، ضاعف الله له الخيرات وضاعف الضعوف ألوف ضعف وسقى بشآبيب الرحمة تربته، وأسكنه مع الذين أنعم الله عليهم جنته إنه جواد كريم بر رحيم، ومنا جزيل السلام إلى جميع الإخوان والمحبين ومن عندنا سلم عليكم صنونا السيد محمد عابد ، والسيد محمد إدريس، وكافة الأنجال والإخوان والسلام» (١)

تاريخ ٧ ربيع الأول ١٣٢٠هـ

وهكذا انتقل السيد المهدي إلى رحمة الله وهو لم يبلغ الستين من عمره، استطاع خلالها أن يتوسع في ميادين الدعوة، مقتفيًا في ذلك منهج والده، ومات وهو في طريقه نحو ساحات الوغى، وألهب مشاعر أتباعه، ودفعهم نحو حب الجهاد، وورث القيادة لجيل آخر استطاع أن يقارع فرنسا، وإيطاليا ، وإنجلترا بقيادة أحمد الشريف .

وأختم حياة الإمام المهدي بهذه القصيدة الرائعة التي تدل على الطاقات الكامنة

(١) انظر: مجموعة الشيخ منصور المحجوب، نقلاً عن الحركة السنوسية، ص (٢٣٢) .

في شعبنا المسلم «الليبي» وقد جاءت هذه القصيدة تحمل في كل بيت منها صورة واضحة لسيرة الزعيم الثاني للحركة السنوسية، وبينت إصلاحاته العلمية والدينية والعملية والنظامية وهكذا، فالإسلام دين ودولة، وسيف ومصحف. قال الشاعر الكبير رفيق المهدوي:

السيد (المهدي) أعظم مصلح ... بعد الأئمة قام بالإصلاح
إصلاحه الدين الصحيح منزه ... عن جذبة المتصوف السباح
صان العقائد من خرافات ومن ... بدع ومن متناقض الشراح
ما كان إلا بالشريعة عاملاً ... بالعلم في نهجه تقى وسماح
متقيلاً أخلاق والده الذي ... بدأ الجهاد بهمة وكفاح
(ابن السنوسي) الذي آثاره ... تغني عن الإطراء والأمداح
كالشمس لا تحتاج برهانًا ولا ... يحتاج مبصرها إلى استيضاح
والشمس إن جهل الكفيف ضياءها ... عرف الحرارة في الشعاع الضاحي
والمسك يعرف دون رؤيته إذا ... سطع الشذا من عرفه الفواح
والفرع ينزع للأصول نجابة ... إن الوشيج يجود بالأرماح
والنوع يبقى بعد طول تقلب ... في حبة فتجيء بالأدواح
آل الرسول وإن تطاول عهدهم ... ما زال سر العرق في الأقحاح
كانت طريقته القيام بسنة ... نبوية لألاءة الأوضاح
ليست لدروشة المريد وجذبة ... بالدف أو بالرقص أو بصياح
كانت معالمه كسيرة جده ... إحياء دين وانتشار صلاح
أعمال مجتهد بخالص نية ... للخير، منتصر بغير سلاح
لو كان عن شيء لغير الله في ... أعماله ما كللت بنجاح
إذ لا يدوم سوى الذي هو نافع ... للناس مرتفع عن الأرباح
ومن الكرامة للولي نجاحه ... في النصح بالإقناع والإفصاح
والمرء لا يعجبك منه ما سعى ... بل ما نوى في السعي من إصلاح

فإذا استوى عمل وحسن عقيدة كان النجاح حليف كل طماح
إن العقيدة لا يصح يقينها إلا بفعل ظاهر وصراح
فإذا أحب الله باطن عبده ظهرت عليه مواهب الفتاح
وإذا صفت لله نية مصلح مال العباد إليه بالأرواح
هذي صفات السيد «المهدي» ولا والله ما بالغت في الإيضاح
فله من الخدمات للإسلام ما يعلو على متناول الشراح
يكفيه نشر الدين في الآلاف من أقصى حدود «الشاد» حتى «الواح»
نصر لدين الله بين مجاهل صعبت على الرواد والسياح
فازوا من الفتح المبين بعزة الإسلام بعد عبادة الأشباح
وكفاه نشرًا للعلوم بناؤه لمعاقل مثل الحصون فساح
تلك الزوايا القائمات كأنها للمدلج الساري ضياء صباح
كانت منارًا للعلوم وملجئًا للمحتمين ومورد الممتاح
لتلاوة القرآن في عرصاتها كدوي ثول النحل في الأجباح
ولدارس التوحيد في أرجائها هدى ينير إنارة المصباح
ولنهضة العمران كان بذاته يلقي دروس الحرث للفلاح
ويدرب الفرسان معتمدًا على فن بأحدث عدة وسلاح
ويوحد الأهداف بين قبائل كانت فلولاً عداوة وتلاحي
هذي كرامات الإمام السيد المهدي للإيمان والإصلاح
للدين والدنيا وللأولى وللأخرى وللأبدان والأرواح
لا كالكرامات التي يروونها كعجائب الفقراء غير صحاح
أو كالتصوف عند قوم أظهروا بلهًا بلبس الصوف والأمساح
فكرامة الإصلاح بالخير الذي للناس فوق كرامة الصلاح
ماذا أقول ولا أريد زيادة عن مدح من سبقوا من المداح
سبقوا وما بلغوا سمو شواردي إلا مثابة ريشة بجناحي

في مـدح من فـاق الملـوك مكانة ... بجـلال وصف سميدع جـحجـاح
كـانت تهـاديه الملوك فيـعـتلي ... مـتـعـفـفًـا برزانة ورجـاح
ورعًـا وزهدًا في حـطام عـاجل ... وتحـفظًـا من جـائز ومـبـاح
بلغ الكـمـال المسـتطاع لمنتـهى ... أفق لقـرب الأنبـيـاء مـتـاح
لا أدعي إني أحـاول وصـفـه ... بـإطالـة الإطنـاب والإلحـاح
لكنني أخلصت مـدحي مـوقنًا ... بالحق فـي جـد بغـيـر مـزاح
وأشـدتُ بالذكـر الذي لا يمتـرى ... في صـدقـه متـبـجـح أو لاحِ
لا ابتـغي مـالاً ولا جـاهًا ولا ... زلـفى تـقـربني إلـى منـاح
حسـبي قد استـغنيت بالإيمان عن ... كل العـبـاد بفـالـق الإصـبـاح
وأردت عنـد الله في ذاك الجـزا ... وبحسن ظني في الرسـول نجاحي
وبالانـتـسـاب إلى النبـي وآله ... أرجـو مـفـازي في غـد بفـلاح
ومن التـفاؤل أن نسـبة «مـهدوي» ... جـاءت من «المهـدي» عن الشـراح
إني أقـر بـأنني أسـرفـت في ... دنيـا المعـاصي راكـبًا لجـماحي
مـالي أمـام الله غـيـر سـريرة ... بيـضـاء يوم المحـشـر الفـضـاح
ولقـولـه لا تقنطوا من رحـمـتي ... ألقـى الإله بـخـاطـر مـرتاح
مالـي سوى صدق الـيقين مـؤملاً ... حسن الخـتام على هـدى وصلاح[1]

❊ ■ ❊

---

(١) انظر: المهدي السنوسي، ص (١١، ١٢، ١٣) .

■ الفصل الثاني ■

الزعيم الثالث للحركة السنوسية

أحمد الشريف السنوسي

هو العالم الجليل والقائد العظيم، والمجاهد القدير الذي قاد كتائب الجهاد ضد فرنسا في تشاد، وضد إيطاليا في ليبيا، وضد بريطانيا في مصر السيد أحمد الشريف ابن محمد الشريف بن محمد بن علي السنوسي الخطابي الإدريسي[١]

المبحث الأول

ولادته وتربيته وشيوخه

يتفق معظم المؤرخين على أنه ولد بواحة الجغبوب ليلة الأربعاء بتاريخ ٢٧ شوال سنة ١٢٩٠هـ الموافق لسنة ١٨٧٣م[٢] ، انكب منذ طفولته على القراءة والتحصيل وحفظ القرآن الكريم في سن مبكرة .

تربى رحمه الله في حجر والده العلامة محمد الشريف وحينما ترعرع وبلغ السادسة من عمره دخل تحت كنف عمه المهدي السنوسي، فاهتم بتربيته وتهذيبه، وأشرف عمه على تعليمه وتحفيظه للقرآن الكريم، ولما أتم حفظ القرآن الكريم قال له عمه: أنت ما أخذت من القرآن إلا عني[٣] .

ومن أشهر العلماء الذين تعلم وأخذ العلم عليهم: محمد الشريف السنوسي ومحمد المهدي السنوسي، وأحمد الريفي، ومحمد مصطفى المدني التلمساني، وعمران بن بركة وهو جده من جهة الأم[٤] .

ارتحل مع عمه من الجغبوب إلى الكفرة عام ١٣١٢هـ، وأسندت إليه مسئوليات

---

(١) انظر: الفوائد الجلية (٢ / ٨،٩) .

(٢) انظر: أعلام ليبيا، للزاوي، ص (٥١) .

(٣) انظر: الفوائد الجلية (٢ / ٩) .

(٤) انظر: الحركة الوطنية شرق ليبيا ، مصطفى هويدي، ص (٢٢) .

جسام منذ البلوغ، وكـان يشرف على رعاية القافلة المتجـهة إلى الكفرة والتي تتكون من ٢٦٠٠ شخص، وكـان ينفذ أوامر عـمه بدقة وعـلى خير مـا يرام، فلم يعرف الركون إلى الراحة .

وفي سنة ١٣١٧هـ ارتحل مع عـمـه محـمد المهـدي إلى منطقـة قرو بالسـودان الأوسط، في مهمـة دعوة الناس وتعليمهم الدين الإسلامي، وألف أحـمد الشريف كتابًا عن هذه الرحلات أسماه «السراج الوهـاج في رحلة السيد المهدي من الجغبوب إلى التاج»[1] .

وشارك مع عمه وأتباعه في مجموعـة معارك بالسودان وتشاد ضد الفرنسيين في مناطق مختلفة، مثل «واداي، كلك، علالـي، وان، جنقة الكبرى، جنقة الصغرى، تبستي، بركو، قرو . . . إلى آخره»[2] واستمر الصراع السنوسي الفرنسي إلى ما بعد وفاة محمد المهدي .

❊ ■ ❊

(١) ويسمى أيضًا «الدر الفريد الوهاج في الرحلة من الجغبوب إلى التاج».

(٢) انظر: نشأة الحركة العربية الحديثة، محمد عزة، ص (٧٧) .

المبحث الثاني
أحمد الشريف يتولى قيادة الحركة

ولما شعر محمد المهدي بدنو أجله، عهد إلى ابن أخيه بالقيادة؛ لما توسم فيه من القدرة على الاضطلاع بأعباء الحركـة، والوصاية على الخليفة الشرعي «إدريس»؛ ولما لمس فيه من صفات قيادية، واستعداد فطري، وخبـرة اكتسبها في معاركه ضد فرنسا أهلته لتولي القيادة[١] .

وكان إسناد الزعـامة إلى أحمـد الشريف قد صادف قـبولاً وارتياحًـا من جانب جميع الإخوان الذين اجتـمعوا بالكفرة يوم ١٢ ربيع الأول من عام ١٢٢٠هـ الموافق ليوم ١٩ يونيو ١٩٠٢م حيث جرى الاحتفال بانتخاب أحمد الشريف[٢].

استمـر أحمد الشريف على نهج زعمـاء الحركة السنوسية، فواصل الجـهاد ضد الاستعـمار الفرنسي، ونشـر الدعوة الإسلاميـة بكل حكمة في إفريقيـا، واتخذ من الكفرة عاصمة للحركة السنوسية وأناب عنه محمد السني لإدارة أمور الجهاد، وشرع أحمـد الشريف في تشكيل جبـهة إسلامـية ضد الغزو الفـرنسي الزاحف من جنوب تشاد إلى شرقـها وشمالها، فقـام بالاتصال بسلطان واداي «داود مرة» سنة ١٩٠٣م، وأقنعه بسـحب اعتراف واداي بالحمـاية الفرنسيـة على كانم، وباقومي، واستـجاب السلطان داود لذلك وسحب اعترافه بالحماية الفرنسية[٣] واتصل بالسلطان علي دينار «سلطان دارفور» الذي أعلن توحـيد جهود المسلمين ضد الغـزو الصليبي الأوروبي[٤] لقد رأى أحـمد الشريف أن التـوسع الفرنسي في الصحـراء الإفريقيـة يعتبـر تهديدًا مبـاشرًا لحركـته الإسلاميـة الدعوية، ولتجـارة القوافل التي كـانت تدعم بمردوداتها الاقتصادية نظام زواياه في تلك المناطق[٥] .

---

(١) انظر: صفحات مجهولة من تاريخ ليبيا، محمد عيسى، جامعة الكويت الحولية الأولى، عام ١٩٨٠م ، ص (٧) .
(٢) انظر: السنوسية دين ودولة، ص (٩٨) .
(٣) انظر: العلاقات الليبية التشادية، سعيد عبد الرحمن، مركز دراسات الجهاد، ١٩٨٣م ، ص (٨٦) .
(٤) انظر: الحركة الوطنية شرق ليبيا، ص (٢٣) .
(٥) المصدر السابق نفسه، ص (٢٣) .

لقد كان تجار القوافل التابعين للحركة السنوسية من أعمدة الحركة الاقتصادية، ولنضرب مثلاً على ذلك بالحاج أحمد الثني الغدامسي الذي كانت له تجارة عظيمة مع أهل برنو ووادي وغات ومصر وطرابلس وتونس، وكان جميع ما يأتي إلى جغبوب يأتي على يديه وهو الذي يجلبه إلى هناك بأثمان متهاونة، رفقًا بالإخوان ولذلك كان من المقربين من الشيخ محمد المهدي[1] .

إن الحركة السنوسية في بداية أمرها لم تكن لها سلطة الحكام الذي يدبرون الشئون العامة كالعزل والتولية وإقامة الحدود، وجباية الأموال، وتنفيذ الأحكام، بل كان بداية أمرها الاهتمام بالدعوة إلى الله، وإرشاد العباد إلى العمل بما يأمر به دينهم الحنيف ويسعون لإصلاح ذات البين، ويتبادلون النصح للحاكم والمحكوم، ويرشدونهم إلى تعاليم كتاب الله، وتعاليم سنة رسوله، ويحرضونهم على بناء المساجد لإقامة الشعائر الإسلامية فيها، ويقومون هم وأتباعهم بعمارة هذه المساجد بتعليم كتاب الله، والصلوات فيها، ويبذلون الجهد لفض المنازعات ما بين القبائل والمتخاصمين ويعلمونهم كيفية إخراج زكاة أموالهم ، وكيفية عقد أنكحتهم، ويحرضونهم على نبذ العادات المخالفة للشرع، وبدأ جهادهم المنظم لحكومة فرنسا التي بدأت بالاعتداء على دعوتهم وحركتهم وقاموا فرنسا غيرة على الدين الإسلامي الذي نشرته الحركة ودعاتها في مجاهل إفريقيا[2] .

لقد قام الفرنسيون بعدما دانت لهم تشاد عام ١٩٠٩م بهدم مراكز الإصلاح والإرشاد التابعة للحركة السنوسية، وإلغائها، واستطاع أحمد الشريف أن يقنع العثمانيين بضرورة دعمه، والوقوف مع حركته، وأسفرت مفاوضاته مع العثمانيين عن إرسال جند من النظاميين إلى برقو والتبستي وتأسيس قائمقام في الكفرة، عبين بها الشيخ كيلاني الأطيوش من قبيلة المغاربة الرعيضات وهو والد المجاهد الكبير الذي دوخ إيطاليا صالح باش الأطيوش، ورفعت الراية العثمانية في «وان» بالقرب من عين كلك، وكان المشرف على حركة الجهاد الشيخ الجليل محمد السني الذي

(١) انظر: رحلة الحشائشي، ص (١٧١) .

(٢) انظر: الفوائد الجلية (٢ / ١٥ إلى ٢٢) .

أرسله المهدي إلـى «أبشة» عاصـمة واداي عقب انـتقاله من الجـغبـوب إلى الكفرة، وهكذا ظلت المناوشـات دائرة بين الـسنوسـيين والفـرنسيـين، واستطـاع «الكولونيل لارجو» في ديسمـبر عام ١٩١٣م أن يلحق بالمجاهدين هزيمة كبـيرة في «قـرو» حيث جُـرح ولدا السيد المهدي السنـي نفسـه (عبـد الله وعبد العال)، ووقعا في الأسر[١]

إن الفرنسيين كـانوا يشعرون بالخطر العظيم من قبل الحركة السنـوسية وكذلك الدول الأوروبية، وقـد نشرت جريدة (دي كـولوني) الألمانية كلامًـا عن عالم ألماني خبـير بأحوال إفريقيا عامة والسنوسيين خـاصة زعم فيه أن عددهم يبلغ تسعة ملايين، وأن في وسعهم إنفاذ جيش إلى مصر والسودان مـؤلف من خمسمائة ألف مقاتل، وذكر مجملاً من تاريخهم عربتـه جريدة «المؤيد» عن جريدة «الميموريال» وهو: «إن طريقة السنوسية مـهمة جدًّا من حيث انتشـارها السياسي في إفريقيـة، ومن حيث الكفاح القائم بين الديانتين الإسلامـية والمسيحية، في هذه القارة، وقـد أنشئت هذه الطريقة منذ خمسين عـامًا تقريبًا أي في عـام ١٨٥٥م بواحة الجغبوب، وواضع أسـاسها هو الشيخ محمد بن علي السنوسي... ثم خلفه ابنـه المهدي وكان وقتئذٍ فتى فتـيًّا وهو إلى اليـوم رئيس المذهب الذي أصـبح على عهـده واسع النطاق منتـشرًا في الآفـاق وإشارة منه تكفي الآن لإزالة الشحناء والخصومة من بين سلطانين من سلاطين إفريقيا إذا قام بينهما الشقاق واسـتحكم الخلاف لأمر من الأمور، ومن الأمور التي لا ريب ولا خلاف فيها أنه إذا جاء يوم أمر فيـه بالجهاد وأشار بالحرب الدينية اهتزت لصوته أركان العالم الإسلامي التي تترامى في حدوده في إفريقـية إلى مصر شرقًا والكونغو جنوبًا حتى بحيرة تشاد ومراكش غربًا، وعليه يكون حزب السنوسي قد صار قوة من القوى السيـاسية التي ينبغي على كل دولة من دول أوروبا أن عمل لهـا حسابًا، وقد اشتـهر سـيدي المهدي مـحمـد بالتناهي في التقـوى والصلاح ورعايـة أمور الدين، والتقشف في المعيشة وهو دائب السعي على توفير أسباب الوئام والاتفاق بين الأقوام والشعوب الإفريقية...»[٢] .

---

(١) انظر: السنوسية دين ودولة، ص (١٠٠) .

(٢) انظر: تاريخ الإسلام، أنور الجندي، ص (٢١٧) .

إن أعـداء الإسلام يحـاولون أن يرصـدوا أي تحرك مـفيـد للدعـوة والمسلمين، ويعملون ليلاً ونهارًا وسرًّا وإعلانًا على التحذير منـه، وتشويهه ووضع العوائق في طريقه مهما كلفهم الثمن، يدفعهم ذلك حقدهم الدفين على الإسلام والمسلمين.

يقول إدرو ساليـفو استنادًا إلى الوثائق الفرنسـية: «... من المهم أن نوضح أن السنوسية لم تكن مجرد حـركة متذمرة ومتعصبة، فهي طريـقة إصلاحية تهدف إلى إحيـاء الدين الإسلامي وإرجاعه إلـى أصوله السلفية، كـما تهدف إلى تحـرير العالم الإسلامي من التبعـية الاستعمارية التي سقط فيـها، وإلى جانب ذلك الهدف الديني فإن السنوسية لها هدف آخر سياسي في غاية الأهمـية، وهو توحيد إفريقيا الإسلامية أولاً، وتوحيـد العالم الإسلامي بعـد ذلك في إمبراطورية إسـلامية جديدة، تتـمتع بالأبهة والمجد والعظمة، وخالية من الشوائب التي لحقت بها خلال القرون التي ابتعد فيها العالـم الإسلامي عن السنة النبوية الصحيحة مما أضعفه نتيجة لذلك، وبالإضافة إلى الهـدف الديني والهدف السـياسي هناك أيضًـا الهـدف الاقتصـادي حيـث كان الإخوان يتنافسون بينهم على أعمال الزراعة والصناعـة الخفيفة والتجارة من أي مكان تمد فيه الزوايا السنوسية أعمالها ونشاطها»[١].

لقد كـان الصراع بين فرنسـا والحركة السنـوسية في إفـريقيا على أشـده، وتميز السنوسيون في جهـادهم بقدرتهم على الكر والفر، وكانت قبائل الصـحراء والقبائل الليبية تتمحـور حول قيادة الحركة السنوسية، وبدأت قبائل توارق النيـجر تتجه شرقًا للالتـحاق بحركـة الجهـاد، ولم تقع في النيـجر أي حوادث تـذكر حتى بـداية عام ١٩٠٣م عندما بدأ الفرنسيون يزحـفون نحو الشمال[٢] واندلعت المعارك الطاحنة التي كان خلفها أتباع الحركة السنوسية، وكان من أشهر قادة الحركة السنوسية:

أولاً: المجاهد محمد كاوصن:

ولد محـمد كـاوصن في بلدة «مرقـو» حوالي عـام ١٨٨٠م وينتمي إلى قـبيلة

---

(١) انظر: الثورة السنوسية، ترجمة عبد الرحمن عبد اللطيف، ص (١٢).

(٢) انظر: جهاد الليبيين ضد فرنسا، محمد القشاط، ص (١١٥).

«إيكزكزن» إحدى القبائل الشريفة في سلطنة والليمدان وإليها تنتهي رئاستها، قاد حركة الجهاد ضد فرنسا في النيجر في الحرب العالمية الأولى، وأبلى بلاءً عظيمًا، وقد عاش هذا القائد أحداث الجهاد منذ اصطدام توارق شمال النيجر ضد فرنسا عام ١٩٠١م، وهاجر ضمن قبائل التوارق نحو الشرق، حيث استقر «بقورو» وانضم للطريقة السنوسية وكان ضمن المجاهدين في هجومهم على «وشنكال» في نوفمبر في عين «كلكا» وكان من ضمن المستولين على الموقع الفرنسي التابع لسرية الهجانة في كانم بقيادة الملازم «موتوت» .

وقد أعجب به أحمد الشريف وأسند إليه قيادة «عين إيدي» ، وانطلق مجاهدًا، فأغار على بيسكري عام ١٩١٠م، وضغطت عليه القوات الفرنسية، فلجأ إلى دار فور حيث «سلطنة علي دينار» ثم رجع إلى «أوتياكا» والتحق بالشيخ محمد السني في سبتمبر عام ١٩١١م، ثم سافر لاي يروكو ووادي ووضع نفسه تحت قيادة القائمقام العثماني في «عين كلكا» أكتوبر ١٩١١م، وفي ٢٣ مايو ١٩١٣م شارك كاوصن في معركة أم العظام ضد فرنسا ولم يتمكن المجاهدون من النصر واستشهد القائد عبد الله الطوير الزوي أثناء المعركة[١] ، وبعدها انتقل كاوصن إلى فزان ووصل واو ودخل تحت قيادة محمد العابد السنوسي مندوب أحمد الشريف في فزان، وشارك في جهاد أهل الجنوب ضد إيطاليا ثم رجع على رأس مجموعة من المجاهدين للاستيلاء على شمال النيجر وطرد الفرنسيين منها، وراسل كاوصن سلاطين التوارق والليميدان، والآيير، ومشائخ قبيلته يطلب منهم إعلان الجهاد المقدس ضد الكفار، ويعدهم بالنصر ويبلغهم أن الألمان سيلاقونهم في نيجيريا[٢] .

يقول ساليفو: «ولكن كاوصن كان قد بدأ فعلاً في مراسلة مختلف زعماء التوارق في آيبير وخاصة سلطان «أقدز» و«تاقامه» صديقه المتواطئ معه عن طريق مراسلات سرية منتظمة»[٣] .

---

(١) ، (٢) انظر: جهاد الليبيين ضد فرنسا، ص (١٥٧) .

(٣) انظر: الثورة السنوسية، ص (٦٨) .

ويقول ساليفو: «ومن ناحية أخرى قام تاقامه بالاتصال مع عدد من زعماء القبائل طالبًا مساعدتهم في المعركة المرتقبة التي تستعد السنوسية لخوضها مع الكفار، فلبت القبائل : أيكزكزن، إفدين، كل أغاروس، كل فروان، نداء تاقامه على الفور، كما ردت قبائل : المشكرة، تكريكريت، والليمدن في منطقة طاوه بالموافقة على نداء سلطان أقدز، فجاءت هذه القبائل واستقرت في المدينة مع العائلات والمواشي. . . »[١] .

وفي سرية تامة انطلقت كتائب المجاهدين التي يقودها محمد كاوصن القائد السنوسي باتجاه أقدز في أواخر فصل الخريف من عام ١٩١٦م، متجنبين حر الصحراء وحاجة المسافرين للماء، وفي مساء ليلة ١٢-١٣ ديسمبر كان المجاهدون يطوقون أقدز وقد قبضوا في تلك الليلة على مجموعة من المشبوهين ومن لهم علاقة بالفرنسيين، مثل مترجم المركز الفرنسي، وتاجر تونسي يدعى بأنه يتعامل مع الفرنسيين في التجارة، كما تم القبض على شخص أمريكي تابع لجمعيات تنصيرية[٢] .

قسم المجاهدون قواتهم إلى مجموعتين:

١- المجموعة الأولى بقيادة محمد كاوصن .

٢- المجموعة الثانية بقيادة أغالي من قبيلة أيكزكزن .

كانت كتائب المجاهدين تتكون من مجموعة كبيرة من الليبيين وحوالي ٤٠ شخصًا من الشعانبة جزائريين يرأسهم مولاي قدور وهو جندي سابق مع فرنسا، فر من جيشهم والتحق بالمجاهدين ، ومجموعة من أهالي توات «الجزائر» يرأسهم بوخريض، والتحق بالمجاهدين، مجموعة من سكان الجنوب التونسي[٣] .

وبدأ المجاهدون في قصف المركز الفرنسي صباح يوم ١٣ ديسمبر لإجباره على

---

(١) انظر: الثورة السنوسية، ص (٧٠) .
(٢) انظر: جهاد الليبيين ضد فرنسا، ص (١٥٩) .
(٣) انظر: جهاد الليبيين ضد فرنسا، ص (١٥٩) .

التسليم، وفي ١٨ ديسمبر سقطت أربعون قذيفة على المركز وألحقت به أضرارًا بالغة، وكان محمد كاوصن يدير المعركة بمهارة فائقة، وقدرة رائعة، ويشرف على سير المعركة، واستطاع المجاهدون أن يستولوا على المدينة، وتحصلوا على غنائم ولم يبق إلا المركز المحاصر الذي تخندق الفرنسيون داخله حيث تموينهم، وسلاحهم، وذخائرهم، وبدأ المجاهدون يرسلون الدوريات إلى المناطق المجاورة، وإلى تقاطع الطرق المؤدية إلى أقدز، وفي يوم ٢٦ ديسمبر ١٩١٦م اصطدمت قوة من المجاهدين، بمجموعة فرنسية بقيادة الملازم سودان قادمة من زندر وأبادتها وقتلت الملازم سودان .

علم المجاهدون بقدوم قوة فرنسية تحمي قافلة الملح القادمة من بلما، فخصص كاوصن قسمًا من جماعته لحصار المركز، وانسحب بمن معه لملاقاة القافلة، ونصب لها كمينًا في منطقة «شين تبوراق» يوم ٢٧ ديسمبر ١٩١٦م(١) .

يقول النقيب «ساباتي» بتاريخ ٢٨ ديسمبر عام ١٩١٦م : «إن إطلاق النار قد سمع من بعيد في حوالي الساعة ١٧ من جهة الشرق، وبما أن الوقت متأخر فإنني لم أعين مجموعة للقيام بالاستطلاع في تلك الجهة، وكان ذلك خسارة للفرنسيين ؛ لأنه كان معركة «شين تبوراق» الشهيرة لا تنسى»(٢) .

وقد استطاع المجاهدون تحقيق نصر ساحق ضد القوة الفرنسية وكان حصار معركة شين تبوراق: (٦٠ ستين من رجال الهجانة التابعين للفصيل المتنقل قد لقوا حتفهم فلقي الملازم «ديفو» والطبيب العسكري «رينود» والعريف «مريل» والعريف «قازلان» نفس المصير)(٣) .

كما استولى المجاهدون على ستة أسرى، وستة من سكان المنطقة المجندين مع الفرنسيين وأعدموهم .

---

(١) المصدر السابق نفسه، ص (١٦٠) .
(٢) انظر: الثورة السنوسية، ص (٨٢) .
(٣) المصدر السابق نفسه، ص (٨٥) .

يقول كافيو: «ولكن من الناحية المعنوية فإن الهيبة التي أحرزها كاوصن من هذه الضربة كانت واضحة، فانتشرت أخبـار الانتصار بسرعة في أحياء التوارق، فزاد من تشجيع السـنوسيين وأتباعهم وأصدقـائهم ورفع معنوياتهم، فحسـم موقف المترددين فقرروا الانضمام للمعـسكر الأقوى، وفي ذلك الوقت على كل حال كان الأقوى في نظر الأهالي كاوصن، وقد توافـد التوارق إلى معسكر كاوصن للانضـمام إليه، ومن أجل الحصول على الشرعية للمشاركة في الغنائم»[١] .

ويقـول ساليـفـو: «وفي ٢٨ ديسمـبر فـي أثناء الليل زمجـرت الطبـول المعلنة للاحتـفالات في مـدينة أقدز، وكـان الوطنيون يحـتفلون بانتـصارهم السـاحق ضد الرجال البيض الكفار»[٢] .

وكـانت رسـائل كـاوصـن تصل إلى السـلاطين في مناطـق التـوارق تدعـوهم للانضمـام للجهاد ضـد الكفار، وكانت في هذه الأثناء مـجموعـات من المجاهدين الليبيين تهاجم أزوار بشـمال تشاد، وأخرى تهاجم جادو، كما أن مـجموعات أولاد سليمـان في شمال تينبكتـو توجهت للمسـاهمة في حصار أقـدز بقيادة الخليـفة ولد محمد، وهكذا تشتت كل جهود الفرنسيين .

يقول ساليـفو: «وهكذا إذن لم يكن أي فصيل من الهجـانة في كل أنحاء إقليم النيجـر مسـتعـدًا للذهاب إلى أقدز، فـما العمل؟ هـل يطلب من فصـائل السودان التدخل، وعلى الأخص من فصائل كيدال وتنبكتو التي كـانت قريبة أكثر من غيرها؟ ولكن وبدون شك فإنَّ القـدر قد ساعد جـماعة كـاوصن؛ لأنه في الواقع إذا كانت فصائـل الهجانة مشـغولة هنا في أي مكان من النيجر فـإن هجانة كيدال قـد انطلقوا لتوهم في مطاردة غزوة عبر الصحراء»[٣] .

ويقول ساليفـو نقلاً عن المصادر الفرنسية : «فـلا فائدة أيضًا من النظر إلى إقليم

---

(١) انظر: جهاد الليبين ضد فرنسا، ص (١٦١) .
(٢) انظر: الثورة السنوسية، ص (٨٦) .
(٣) المصدر السابق نفسه، ص (٩١) .

الجنوب الجزائري، فقد تم إخلاء حصن (بولينياك) وهاجم السنوسيون حصن (موتيلانسكي)[١] .

«كان الموقف الأوروبي هو الذي استهدفته مسألة (كاوصن) وهددته في إفريقيا الوسطى، ألم يكن كاوصن لديه مشروع التوغل في بلاد الهوسا؟ وحينئذٍ تضامن الإنجليز والفرنسيون الذين كانوا قبل سنوات يتنافسون على هذه الأراضي التي لا يفصل بينها إلا خط وهمي يمر من ساي - بارُّو - فحاولوا نسيان منازعتهم القديمة لمواجهة عدوهم المشترك»[٢] .

وهكذا توحدت جهود فرنسا وبريطانيا، وعملاء المنطقة على محاربة المجاهدين، وعلى رأسهم كاوصن[٣] ولقد اندلعت معارك ضارية بين القوات الأوروبية، وقوات المجاهدين وكانت الغلبة للقوة التي ملكها الأوروبيون، وقد فصل الدكتور محمد القشاط تلك المعارك[٤] : (لقد أتعب كاوصن الفرنسيين، وقد أبلى بلاءً حسنًا، وكانت وفاته في ليبيا حيث تعرض لكمين من بعض القبائل التي كانت تكن له الكراهة والبغض نتيجة لسوء تفاهم بينهم، فعندما مر بحطية أم العظام في جنوب ليبيا بمنطقة فزان هاجمه مجموعة من الرجال، فأمر مجموعته بعدم إطلاق النار قائلاً: «هؤلاء لا بد مسلمون جهلونا، فالفرنسيون بعيدون من هنا وكذلك الطليان» وتقدم ليوضح لهم فقبضوا عليه، وضربه رجل اسمه العياط بالسوط فقال كاوصن مخاطبًا العياط: «أنا كاوصن لا أضرب بالسوط اضربني بالرصاص» فأخذوه حيث أمروه بحفر قبره بيده وقتلوه بعد أن صلى ركعتين في ٥ يناير ١٩١٩م) .

وهكذا انتهت حياة هذا المجاهد العظيم على يد أحمد العياط الذي قتل عام ١٩٢٤م على يد أحد المجاهدين بالحمادة الحمراء وهو يقاتل مع الطليان»[٥] .

---

(١) انظر: الثورة السنوسية، ص (٩١) .
(٢) المصدر السابق نفسه، ص (٩٢) .
(٣) انظر: جهاد الليبيين ضد فرنسا، ص (١٦٥) .
(٤) المصدر السابق نفسه، ص (١٦٥ إلى ١٨٠) .
(٥) انظر: جهاد الليبيين ضد فرنسا، ، ص (١٧٦) .

أما بقية المجموعة من مجاهدي الصحراء فإنهم حين سمعوا بخبر كاوصن وظهرت لهم الحقيقة رجعوا إلى النيجر، حيث انسحبوا ليلاً، وأخذوا معهم زنادات المدافع، وتابعتهم قوات خليفة الزاوي التابعة للأتراك الذين رغبوا ما بين عامي ١٩١٦م - ١٩١٨م في القضاء على نفوذ السنوسية في فزان والذي كان يقوده محمد عابد السنوسي .

ووجدت قوات الزاوي اثنين منهم مغميًّا عليهما من العطش فأسعفاهما وأرجعاهما إلى حيث دفنوا زنادات المدافع وقتلاهما، ومع الأسف الشديد والحزن العميق كان أحد أولئك القتلى السلطان المجاهد الخورير سلطان والليمدن الذي لم يستطع مواصلة السير من العطش، وسلم ولده الصغير محمد لأحد رفاقه وسقط هناك .

واستمر عبد الرحمن تاقامة يقود المجموعة المنهكة، والقليلة الزاد، والذخيرة، راجعًا إلى الصحراء متخذًا من جبالها درعًا له[1] .

إن تلك الفتنة التي حدثت بين خليفة الزاوي، ومحمد عابد السنوسي ساهمت في إجهاض حركة الجهاد في الصحراء الكبرى[2] وإني أعرضت صفحة عن تفصيلها، أما عبد الرحمن تاقامة، فقد كان على علاقة وثيقة بالحركة السنوسية، ولذلك استجاب لنداء الجهاد المقدس ضد فرنسا، عندما وصله من زعامة الحركة، وساند حركة محمد كاوصن، وكان يمون ويمول المجاهدين طوال حصار أقدز في النيجر، والذي استمر قرابة الثلاثة أشهر، وعندما فك الحصار المجاهدون، انسحب معهم، وقاتل فرنسا بضراوة، إلى أن وصل فزّان حيث استقبلهم خليفة الزاوي حاكم مرزق محاربًا، ولما قتل كاوصن انسحب عبد الرحمن تاقامة عائدًا إلى الصحراء .

كان الفرنسيون يتابعون الأحداث:

يقول ساليفو: «كان الفرنسيون يتابعون تطورات الوضع السياسي في فزّان عن

---

(١) المصدر السابق نفسه، ص (١٧٧) .

(٢) انظر: جهاد الليبيين ضد فرنسا، ص (١٧٥) .

كثب، وكانوا يعلمون أن كاوصن قد قُتل، ولكن تاقامة ما زال حيًّا مما سبب لهم نوعًا من القلق، وفي الحقيقة كانت شعبية سلطان آيبر الأسبق ما زالت عميقة، وكان الفرنسيون يعلمون أيضًا أن تاقامة يستطيع أن يجمع حوله من جديد عددًا من الأتباع ويهدد بوجه خاص تخوم المناطق الصحراوية في النيجر»[١] .

ولذلك شرع الفرنسيون بالتصدي له محاولين أن لا يسترد أنفاسه؛ لأن مجموعات من مشايخ القبائل في النيجر بدأت تعلن العصيان بعد أن علمت بوصول المجاهد عبد الرحمن تاقامة، بل بعضهم قام بإرسال جمالاً لإنقاذ مجموعات عبد الرحمن من العطش الذي أنهكهم»[٢] .

يقول ساليفو: «وكان الفرنسيون قد أخذوا على عاتقهم وبكل ثمن منع تاقامة من التوجه إلى الكفرة أي إلى ذلك المركز الروحي «التخريبي» الذي لعب دورًا كبيرًا وهامًّا في النضال من أجل زعزعة استقرار المسيحيين في إفريقيا»[٣] .

وقد أرسل الفرنسيون فرقة لمصادمة تاقامة الذي وصل إلى جبال تيبستي وشرع الفرنسيون في سجن المواطنين، وتعذيبهم وأخذ أولادهم ونسائهم رهائن، واتخذوا منهم مرشدين للطرقات لمتابعة مجموعات تاقامة الجهادية التي توزعت في الجبال وتقسمت إلى مجموعات صغيرة لنقص الجمال والتموين، وفي يوم ٨ مايو ١٩١٩م استطاع الفرنسيون بواسطة المرشدين أن يطوقوا المجموعة الصغيرة، وفاجأوا المجاهدين بإطلاق النار من قريب، فسقطت تلك المجموعة شهداء في ساحة الجهاد، وكان عددهم عشرة، وأسر عبد الرحمن تاقامة وزوجته بعد أن نفذت ذخيرته، ثم أودع السجن في زندر، ومنها إلى أقدز (النيجر) حيث شهر به، وكان مكبلاً بالحديد في رجليه ويديه وعنقه ويحرسه ستة من الجنود، وفي ليلة ٢٩-٣٠ أبريل ١٩٢٠م اقتحم آمر أقدز النقيب الفرنسي «فيتاني» وخنق ذلك الأسد المكبل في قيوده لتصعد

---

(١) انظر: الثورة السنوسية، ص (١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٥٨) .
(٢) انظر: جهاد الليبيين ضد فرنسا، ص (١٧٧) .
(٣) انظر: الثورة السنوسية ، ص (١٥٧) .

روحه مع الشهداء، وأصحاب الجنان، بإذن ربها، وادعت السلطات الفرنسية بأن عبد الرحمن انتحر، ليغطوا بذلك على فعلتهم الشنيعة، وبذلك أسدل الستار على حياة هذا المسلم المجاهد الذي خاض حروبًا طاحنة، ومعارك ضارية، وجهادًا مريرًا ضد النفوذ المسيحي الفرنسي في الصحراء الكبرى، فعليه من الله المغفرة، والرحمة والرضوان، وأعلى الله ذكره في المصلحين[١] .

ونرجع إلى القائد العظيم محمد كاوصن لنلقي الأضواء على بعض رسائله التي كان يحرّض بها الزعماء في منطقة الصحراء الكبرى لينضووا تحت راية الجهاد التي كانت تحملها الحركة السنوسية .

رسالة من كاوصن إلى أعمامه:

أقدز في ١٠ مارس ١٩١٧م

بسم الله الرحمن الرحيم: «إلى سيادة العزيز الكريم الكامل، إلى عمنا الحاج موسى، وعمنا «أدمير» وإلى جميع قبيلة «إيكزكزن» وكل من في حمايتهم السلام عليكم ورحمه الله تعالى وبركاته، وعلى كلٍّ أحبابكم وأصدقائكم سلامًا تامًّا يعمكم جميعًا أنتم وبلادكم .

إن سألتم عنا فنحن على خير، ولا ينقصنا ولا نهتم إلا بكم، ونرجو من الله أن نلتقي معكم قريبًا، والله سميع مجيب الدعوات، ونطلب من الله تعالى أن يجمع شملنا بجاه النبي الحبيب ﷺ .

ونحيطكم علمًا بأن ما يجري في الوقت الحاضر ليس إلا خيرًا وأن الله سبحانه وتعالى والزعماء قد طردوا الفرنسيين في بلاد «أزقير»، وأن المجاهدين قد استولوا على مراكزهم .

إن المسلمين جميعًا قد قاموا إلى الجهاد، وإن الشعانبة[٢] الذين كانوا مع أعداء

---

(١) انظر: جهاد الليبيين ضد فرنسا، ص (١٧٨) .

(٢) من القبائل الجزائرية الكبيرة .

الله قد انقسموا، فهرب بعضهم وذهب إلى المناطق الرملية قرب «غدامس»، وكذلك الذي يسترونه في رسالة أخينا المختار بن محمد بأن قوات كبيرة تتوجه الآن إلى الإقليم الذي يحتله الفرنسيون أعداء الله وروسوله، واعلموا أن الحكومة التركية والألمان ينتظروننا في «كانو» حيث سبقونا، ولا تشكوا في ذلك، وكونوا رجالاً وانتظروا .

إن كل البلاد التي ستفتح بين البحر ومصر ستُسلم إلى الحكومة السنوسية، وتلك هي النصيحة التي أوجهها لكم تمسكوا بها إن الله العلي القدير قال لنبيه ﷺ : ﴿ إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴾ [القصص: ٥٦] .

والسلام، إنها رسالة قادمة ممن يدعون الله من أجلكم وعنهم كاوصن بن محمد[١] .

كتبت في ٦ ذي الحجة ١٣٣٤هـ أكتوبر ١٩١٦م
ومختوم بختم يحمل العبارة التالية
خادم الحكومة السنوسية
حاكم وادي فزّان
كاوصن ١٣٣٤هـ

ومن رسائل محمد كاوصن إلى قبيلته يخبرهم بقوله:

«وإننا نخبركم بأننا قد أرسلنا من طرف سيدنا الأكبر السيد محمد العابد الشريف بارك الله فيه وباركهم ، فأمرنا بإنهاض الناس وتحريضهم على القتال في سبيل الله والطريق المستقيم وعلى كلمة الدين. . »[٢] .

ويقول في فقرة أخرى من الرسالة:

«وكل ما نريده هو أن يتبع الناس جميعًا الطريق المستقيم؛ لأننا نعمل وفقًا لإرادة الله، ونطيع أوامر السيد العابد؛ لأن عهده قد بدأ بدون أدنى شك، وبكل

---

(١) انظر: جهاد الليبيين ضد فرنسا، ص (٢٤٤) .
(٢) انظر: جهاد الليبيين ضد فرنسا، ص (٢٤٧) .

يقين، وليس هناك سلطة أخرى غير سلطته؛ لأن العالم قد قسم فأخذ كل واحد نصيبه - وذلك بمشيئة الله - وأنتم من الجزء الذي يقع في نصيب السيد محمد العابد. يا أيها الناس فكروا جيدًا، إننا مبعوثون من عنده لنهديكم إلى الصراط المستقيم، ونقوم بإدارة بلادكم، فلتبق هذه الكلمات في ذهنكم وتقبلوا تحيات خادم الطريقة المجيدة الشريفة الصحيحة الطريقة السنوسية..»[١] .

ثانيًا: المجاهد محمد عبد الله السني:

ومن قيادات الحركة السنوسية التي قادت حركة الجهاد ضد فرنسا في تشاد ولد بمزدة سنة ١٢٦٨هـ الموافق ١٨٥١م، من أسرة تنتمي للعباس بن عبد المطلب، جاء جدها الأول من المدينة المنورة، ونزل بواد قرب بلدة سنار بالسودان، فسمي الوادي باسمه «وادي مدني» .

انتقل والده إلى مكة حيث درس الفقه وعلوم الدين على يد الشيخ أحمد بن إدريس حيث التقى هناك بالشيخ محمد بن علي السنوسي، والذي عاد برفقته إلى ليبيا، واشتركا في تأسيس الزوايا لتعليم القرآن، وعلوم الدين، حيث شرع الشيخ السنوسي بتكوين زواياه بالجبل الأخضر، وفي المناطق الشرقية من ليبيا، وبدأ الشيخ عبد الله السني في تأسيس زواياه في غرب ليبيا حيث أسس زوايا في غدامس، ومزدة ، والحرابة، ومصراته، وغيرها .

ولما توفي الشيخ عبد الله سنة ١٢٩٦هـ تولى ابنه إدارة الزوايا وتأسيس زوايا أخرى حيث أسس زاوية غريان، والقلعة، والعمامرة، والرحيبات، وكان رجلاً مباركًا سعى إلى إخماد الكثير من الفتن بين القبائل، وفي عام ١٣١٣هـ عاد أخوه عبد السلام من الكفرة بعد أن أنهى تحصيله العلمي، فترك له أمر الزوايا وذهب إلى الكفرة لملاقاة الشيخ محمد المهدي السنوسي، الذي تولى أمر الدعوة بعد وفاة والده .

---

(١) المصدر السابق نفسه، ص (٢٤٨) .

وعند وصوله إلى هناك أمره شيخه بالتوجه لنشر الدين الإسلامي، وصد التغلغل التبشيري المسيحي في بلاد السودان «تشاد الحالية والنيجر» .

سافر إلى هناك عام ١٨٩٦م وأسس زاوية «قرو» وعدة زوايا أخرى واستقر «بكانم» حيث تتواجد القبائل العربية الليبية، أولاد سليمان وغيرها وأرسل في إحضار جزء من أسرته حيث لحق به ابناه عبد الله، وعبد العالي، وبقيت الأسرة في مزده، واستمر في جهاده في الصحراء أكثر من عشر سنوات، لقد شارك في الجهاد ضد فرنسا واصطدم بقواتها وساهم بنفسه وماله في حركة الجهاد في زمن المهدي السنوسي، وأحمد الشريف[1] .

وكانت له أشعار رائعة في مدح الإمام الثاني للحركة السنوسية، ومنها قوله:

هو المرتجى للدين ينصر حزبه ... فتعضده الأنصار والنصر والنصل

تجر بحوراً من بني العرب ترتمي ... بأمواج آفات هي الضرب والقتل

إذا صففت تحت العقاب جنوده ... تخال جبالاً فوقها شعل شعل

وإن زحفوا يوم اللقاء حسبتهم ... سيول خيول برقها يبرق يعلو

كأن مثار النقع في حومة الوغى ... غيوم بها برق الصوارم ينهل

إمام الهدى نافي الردى قاهر العدا ... فدونك عجل قد تطاولنا الذل

تجد من بني الإسلام أخلص عصبة ... جحاجح أبطال متى قلت لا يألوا

هم القوم إن قالوا فثق بمقالهم ... فلا شك عندي أن سيعقبه الفعل

وإن عطفوا بعد الفراغ إلى الحمى ... رأيت وجوه الحق بالبشر تنهل[2]

ثم ينتقل بعد هذه الإشادة بالمجاهدين، إلى تقريع الفرنسيين الذين نعتهم بـ «الشياطين» لأنهم ناصبوا الدعوة الإسلامية العداء، وأصلوا أهل البلاد الأُصَلاء ناراً حامية، فنراه يتولاهم بالوعيد والتعنيف حيث يقول:

---

(١) انظر: جهاد الليبيين ضد فرنسا، ص (٢١٨ ، ٢١٩) .

(٢) انظر: مجلة البحوث التاريخية، مركز دراسات الجهاد، عدد (١)، ص (٩٣).

رويدكم أهل الجحيم فإنه سيبدؤكم منه الذي كان من قبل

فينسى فرنسيسًا بتونسه أنسه ويحرز كفرًا بالجزائر قد حلوا

فتطهر أرض طالما قد تنجست فأفعالهم سيل الدماء لها غسل[(١)]

وشارك هذا الشيخ الجليل في الجهاد ضد إيطاليا، استطاع ابنه المهدي تفجير ثورة ١٩١٤م - ١٩١٥م في فزان ضد إيطاليا واستولى على قلعة «القاهرة بسبها».

واستمر ابنا محمد عبد الله السني يقودان الجهاد ضد إيطاليا حيث تولى المهدي قيادة الجهاد في فزان، وأحمد قيادته في منطقة الجبل الغربي إلى أن ضعفت المقاومة، وانتقل المجاهدون إلى فزان، وفي أوباري قدم الشيخ محمد بن عبد الله السني إلى الأسرة حيث التقى بها بعد غياب دام ثلاثين سنة، ولكنَّ الإيطاليين طوقوهم في أوباري حوالي عام ١٩٣٠م، وحكم على الشيخ وأبنائه بالإعدام، ولكن عفواً عامًّا شملهم فوضعوا جميعًا تحت الإقامة الجبرية بمزدة بعد أن صودرت ممتلكاتهم وأحرقت مكتبة مزدة[(٢)] ، وفي عام ١٩٣٢م توفي محمد عبد الله السني رحمه الله ويعتبر هذا العالم والمجاهد الكبير من شعراء الحركة السنوسية، وقد تعرض الأستاذ محمد مسعود جبران لهذا الجانب على قلة ما وصل إليه من شعره وقال: «في الحق إن شعره - على قلته - استطاع أن يرسم لنا إلى حد ما شخصيته، ويصور لنا جوانب من أخلاقه ومثله التي كان يؤمن بها، في الاعتزاز بالدين، والذود عن العرين، وفي شوقه وحنينه للمدارج التي تربى بها، والبوادي التي كبر بين أحضانها، ويبين عن العهود التي وثقت صلاته بالعلماء والمجاهدين..»[(٣)] .

ومن قصائده التي يصف فيها مقاومته الصحراء ونصبها وعنتها قوله:

يا من لهم همم نأى مقصودها مجرى المطي إلى المرام يذودها

متحيرًا من عز مشرقه الذرا عنسا عياهل في رضاك يقودها

---

(١) المصدر السابق نفسه، عدد (١) ، ص (٩٣) .

(٢) انظر: جهاد الليبيين ضد فرنسا، ص (٢١٩) .

(٣) انظر: مجلة البحوث التاريخية ، العدد الأول، يناير، ١٩٨٤م ، ص (٧١ إلى ١٠١) .

ورمى بها الدهناء يرقل مذئبًا   يطوي بنص اليعملات بعيدها
ويفل بالعزم المجد مجاهـــلاً   بيت القطا أغـــوارها ونجودها[١]

إن هذا العلم الشامخ، والبحر الزاخر، والشاعر الموهوب، والداعية المتفاني، والمجاهد الشجاع، كان من القادة التابعين لقيادة الحركة السنوسية، ومن الذين أفنوا حياتهم وجهادهم في هذا الطريق المبارك، ساهمت الحركة السنوسية في تربية بعض القيادات الميدانية التي شاركت في دفع حركة الجهاد ضد فرنسا ومن أشهرهم:

ثالثًا: عبد الله فضيل الطوير الزوي:

تولى قيادة الزوايا السنوسية في شمال تشاد، وكان على رأس المجاهدين الذين تصدوا للغزو الاستعماري للمنطقة، وخاض عدة معارك موفقة، وسقط من زملائه العشرات من المجاهدين، وسقط في معركة العلالي وحدها ٥ / ١٢ / ١٩٠٢م مائة شهيد من الليبيين كان من بينهم ستون من قبيلة زوية وحدها، قبيلة عبد الله الطوير، وفي معركة أم العظام شمال تشاد سقط عبد الله شهيدًا - عليه رحمة الله- في عام ١٩٠٦م مع مجموعة من المجاهدين عليهم رحمة الله جميعًا .

رابعًا: البراني الساعدي:

هو من كبار العلماء المتفقهين في الشريعة، من قبيلة زوية أسس زاوية شرقي السلوم، بأرض مصر عرفت باسمه إلى الآن «سيدي البراني» ثم انتقل إلى الجنوب، حيث قاد الجهاد في الصحراء الكبرى، ضد الغزو الفرنسي، ومن كبار قادة المجاهدين في مناطق كانم وشمال تشاد، دخل إلى الصحراء الكبرى من الكفرة في عام ١٣١٨هـ ، واستطاع أن يقود دورًا جهاديًّا عُرف في المنطقة باسمه «دور البراني» وألحق الفرنسيين عدة هزائم منكرة في بئر العلالي، وقد اعترف الفرنسيون له بالبراعة، وإجادة التنظيم، واستطاع أن يصدهم في «عين كلكا» التي تولى تنظيم المجاهدين بها، واستشهد عام ١٩٠٧م في معاركه ضد فرنسا[٢] .

---

(١) المصدر السابق نفسه، ص (٩٠) .

(٢) انظر: جهاد الليبيين ضد فرنسا، ص (٢٢٢،٢٢٣) .

خامسًا: غيث عبد الجليل سيف النصر:

هو شيخ قبيلة أولاد سليمان الليبية والمتواجدة في منطقة كانم، اصطدم مع الفرنسيين ساعة وصولهم للمنطقة ١٨٩٩م، ونشبت بينه وبينهم معارك طاحنة، قاد غيث الجهاد ضد الفرنسيين، وحطم التقدم الفرنسي في بئر العلالي في معركة ٢٢ / ١١ / ١٨٩٩م ، وسحق القوة الزاحفة، كما نشبت معركة أخرى يوم ٤ يناير ١٩٠٠م بقيادة غيث ضد الفرنسيين قُتِلَ فيها خليفة حاجي[١] .

يقول سعيد الحنديري: «كما سعى الفرنسيون إلى الوصول مع غيث إلى اتفاق لإنهاء المقاومة في كانم خاصة، وأن الوضع أصبح مشجعًا للفرنسيين بعد مقتل حاجي حليف غيث، لكن الأخير رفض اللقاء بالفرنسيين وكوّن دورًا من قبائل القذاذفة، وورفلة، والمغاربة، مع بعض القرعان، والتوارق، تقدّرها المصادر الفرنسية بخمسة آلاف رجل، لقد استشهد غيث عبد الجليل في معركة بئر العلالي في يوم ٩ / ١١ / ١٩٠١م[٢] .

سادسًا: محمد بو عقيلة الزوي:

من أفراد قبيلة زوية التي لعبت دورًا مهمًّا في الحرب الصحراوية ضد القوات الفرنسية، ونظرًا لنشاطه وشجاعته، وحسن تدبيره عينه أحمد الشريف قائدًا لحصن علالي بدلاً من البراني الساعدي الذي عُيِّن في الشمال[٣] .

«لقد كان بو عقيلة ذكيًّا بارعًا في فنون القيادة، والحرب، فشهد له أعداؤه بذلك، يقول فرندي على سبيل المثال: «كان بو عقيلات جنديًّا عظيمًا قادرًا على تدارك المواقف في الوقت المناسب»[٤] . لقد قاد هذا القائد قبائل التوارق، أولاد سليمان، والقذاذفة، والمغاربة، وورفلة، وزوية في جهاده ضد فرنسا ، واستشهد في معاركه ضد فرنسا في ٥/١٢/١٩٠٢هـ[٥].

---

(١) جهاد الليبيين ضد فرنسا، ص (٢٢٧) .

(٢) انظر : العلاقات الليبية التشادية ، ص (٨١ ، ٨٤) .

(٣) ، (٤) انظر: جهاد الليبيين ، ص (٢٣٣) .

(٥) انظر: جهاد الليبيين، ص (٢٣٤) .

سابعًا: صالح بو كريم الزوي:

تولى تنظيم حركة الجهاد بشمال تشاد، وكانت معه قبائل المجابرة وورفلة وأولاد سليمان، والقرعان، والقذاذفة .

وكان أحمد الشريف قد نجح في إقناع سلطان واداي بسحب اعترافه بفرنسا واحتلاله لمنطقة كانم، وباقرمي، وأعلن الجهاد ضد فرنسا في مناطق تيبستي ١٩٠٣-١٩٠٩م وساند صالح بو كريم سلطان تيبستي داود ضد قائد الفلاتة ميتونة حليف فرنسا، واستطاعوا الانتصار عليه والقبض عليه وإعدامه بتهمة الخيانة العظمى، ومناصرة العدو الكافر ضد المسلمين، وكان ذلك في معركة ألتكو، وقاد معركة بسكرة ضد الفرنسيين وقد سقط فيها عدة شهداء، وساهم صالح في قيادة معارك ١٩١٠م-١٩١١م - ١٩١٢م - ١٩١٣م ضد الفرنسيين(١) .

ولما أعلن أحمد الشريف الجهاد ضد إيطاليا ورجوع قوات المجاهدين إلى الشمال كان صالح بو كريم من ضمنهم .

ثامنًا: كيلاني الأطيوشي المغربي:

هو شيخ قبائل المغاربة ، ساهم في تمويل الجهاد ضد فرنسا في المناطق الشمالية من تشاد، وكانت قبيلته من القبائل المتميزة في حركة الجهاد ضد فرنسا، عينه الأتراك قائمقام على الكفرة عند انسحابهم من منطقة الجنوب، وأصبح المشرف الإداري على امتداد الصحراء الكبرى الشرقية، وتمويل حركة الجهاد الليبي فيها، ولقد توفي الكيلاني بالعطش عندما رحل باتجاه إجدابية ليشارك في صد الطليان(٢) .

تاسعًا: عابدين الكنتي:

هو عابدين بن محمد الكنتي، أحد شيوخ قبيلة كنته في منطقة تينبكتو، والذي ورث المشيخة عن والده الذي ينحدر من أسرة عربية يصل نسبها إلى عقبة بن نافع الفهري فاتح إفريقيا ومؤسس القيروان، وقد تلقى عن الشيخ محمد المهدي الانتساب

---

(١) انظر: جهاد الليبيين ضد فرنسا، ص (٢٣٥) .

(٢) المصدر السابق نفسه، ص (٢٣٦) .

إلى الطريقة السنوسية، وأصبح مقدم السنوسية في منطقة تينبكتو، وصحراء مالي الشمالية، ولهذا أعلن الجهاد ضد فرنسا في صحراء مالي، وشمال موريتانيا، والساقية الحمراء، إلى جنوب المغرب بوادي نون عند أخواله قبيلة «تكنة»، وجنوب الجزائر لدى توارق الهقار الذي يقدرونه لنسبه الشريف، ولعلمه وتضلعه في الدين، واستمر في جهاده ما بين ١٨٩٢م إلى ١٩١٧م، يهاجم القوات الفرنسية في مناطق صحراء مالي، وجنوب الجزائر متحالفًا مع الخليفة ولد محمد، ومتصلاً بالليبيين في جنوب الجزائر وبمركز الحركة السنوسية في الكفرة، واستمر عابدين يقود كتائب الجهاد ضد فرنسا في جنوب المغرب، وشمال موريتانيا وجنوب الجزائر ، وشمال مالي، وشمال النيجر، لقد قال العقيد الفرنسي كلوب عند مغادرته تينبكتو في عام ١٨٩٩م «الموت وحده الذي سينقذنا من عابدين»[١] .

توفي عابدين مجاهدًا في جنوب المغرب في أثناء الحرب العالمية الثانية، لقد استمر يجاهد في الصحراء الكبرى قرابة نصف قرن دون أن يهادن، أو يرمي السلاح لقد كان هذا المجاهد من مالي، وينتسب للحركة السنوسية[٢] .

هؤلاء من أشهر القادة السنوسيين الذين قادوا حركة الجهاد ضد فرنسا.

إن الغزو الإيطالي جعل القيادة السنوسية تنقل ثقلها نحو الشمال، وإن كانت حركة الجهاد ضد فرنسا استمرت بقيادة القادة السنوسيين إلى ما بعد الحرب العالمية الثانية، وفي فترة زعامة أحمد الشريف كان يشرف بنفسه على حركة الجهاد ضد فرنسا، وكان يحث التجار على السفر إلى السودان بتجارتهم سيما الأسلحة، ويقول لهم: إنها من أربح التجارة، وكان يكاتب أعيان برقة ويطلب منهم أن يرسلوا الأسلحة، وفي مكاتبته عام ١٣٢٨هـ طلب منهم أن يبعثوا بألف وخمسمائة بندقية ثمنها من جيبه الخاص، وأرسلها إلى المجاهدين في السودان، وقد وردت عنه هذه الكلمة : «ليس عندي صديق أعز ممن يساعدني بالسلاح»[٣] .

---

(١) انظر: جهاد الليبيين ، ص (٢٣٩ إلى ٢٤١) .

(٢) المصدر السابق نفسه، ص (٢٤٢) .

(٣) انظر: برقة العربية أمس واليوم، ص (٢٤٥) .

المبحث الثالث
الغزو الإيطالي

تمهيد:

في خلال فترة ١٨٨٢-١٨٩٦م تزايدت النشاطات التبشيرية الإيطالية في ولاية طرابلس، وخاصة في مجال التعليم، وأقبل بعض الضباط العثمانيين على إرسال أبنائهم إلى هذه المدارس، فأصدر الوالي كمال باشا ١٨٩٣م-١٩٠٨م قرارًا في ٢١ يوليو ١٨٩٨م منع بموجبه أبناء ضباط الجيش العثماني من الانتساب إلى هذه المدارس وضرورة تحويل أبنائهم إلى المدارس الحكومية العثمانية، ومما جاء في القرار على لسان السلطان قوله: «لقد علمت أن الضباط يرسلون أولادهم إلى المدارس الأجنبية، وحيث أن الحكومة قد فتحت العديد من المدارس التي تسير على المنهج السليم، لذلك لم يبق عذر ولا مبرر، لإرسال أبناء الضباط إلى المدراس الأجنبية ويمنع هذا رسميًّا[١].

استمرت إيطاليا بمحاولاتها الرامية لتأكيد مظاهر نفوذها في ولاية طرابلس وساهمت صحافتها في ذلك عن طريق مجاهرتها بالدعوة إلى احتلال الولاية، والتقليل من شأن العثمانيين، والطرابلسيين، برغم عدم أهليتهم لحكم الولاية وإدارتها[٢]، فاجتمع من أهل الولاية جمع غفير، وأرسل نحو خمسين من أعيانهم رسالة بالتلغراف إلى إستنابول يظهرون فيها استياءهم من لهجة الصحف الإيطالية، ويبدون فيها استعداداتهم للدفاع عن وطنهم تحت راية الخلافة العثمانية، ومما جاء في الرسالة: «أن أهالي طرابلس الذين يتباهون بارتباطهم بمقام الخلافة الإسلامية والسلطنة العثمانية الذي هو أعظم من حياتهم وأنهم لا ينثنون عن الدفاع في هذا السبيل، ولو انثنت عنه الحكومة العثمانية نفسها .. وعلى كل حال فإن رجالنا

---

(١) انظر: التعليم في ليبيا خلال القرن التاسع عشر ، عمر بن إسماعيل، ص (٣٠١) .
(٢) انظر: جهاد الأبطال في طرابلس الغرب، ص (١٤) .

وأولادنا قد عاهدوا الله والشرف والذمة على أن يريقوا -وبكل سرور- آخر نقطة من دمائهم قبل أن يدنس وطنهم أعداء السلطة العثمانية[١] .

وهذا الخطاب يدل على مدى ارتباط المسلمين في ليبيا بالخلافة الإسلامية وعلى أصالتهم في مكافحة وجهاد عدوهم وعلى حبهم للموت في سبيل الله وصد كل عدو يفكر في الاعتداء على أراضيهم والنيل من مقدساتهم ولا زالت هذه المعاني تجري في دماء الأحفاد الذي ورثوها من الأجداد من أصالة وديانة وشرف قال الله تعالى: ﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣٤] عينت الدولة العثمانية رجب باشا (١٩٠٤-١٩٠٨م) واليًا على طرابلس، وكان من أشد الناس وطأة على سياسة إيطاليا، وعهده كان متميزاً بالنشاط والصلاح «ووقف للسياسة الإيطالية في كل طريق، وما سلكت السياسة الإيطالية سبيلاً إلا وجدت رجب باشا واقفًا لها بالمرصاد»[٢] .

ومع هذا لم تتوقف المساعي الإيطالية للتغلغل في طرابلس وبرقة، وكانت معظم البعثات الإيطالية التي قدمت إليها في تلك الفترة، قد قامت بزيارتها بناء على مبادرة من الجمعية الإيطالية للاستكشاف الجغرافي والتجاري التي كانت مدينة ميلانو مركزاً لها، وبإيعاز من رئيسها «كامبيريو» مدير مبعثات كثيرة منها بعثة «مانفريد كامبيريو»، و«جوزيتبي هايمان» في سنة ١٨٨١م و«بيبترو» عام ١٨٨٢م، ١٨٨٣م «بنيشة» في عام ١٨٩٥م «فينا بيادي ديني»، و «بيدويتي» في سنة ١٩٠١م، و«هابنهير» و «دي سانكتيس» في سنة ١٩١٠م وغيرهم كثير، وبعض هذه البعثات أحدثت ضجة واسعة، إذ أن أعضاءها قد سجنوا من قبل الأتراك الذين لم يطلقوا سراحهم إلا في نوفمبر ١٩١٢م[٣] .

قام أول هؤلاء المبعوثين «كامبيريو» في سنة ١٨٨٠م برحلة إلى طرابلس وزار خلالها الخمس ومسلاته، وعند عودته إلى ميلانو طلب من جمعية الاستكشاف الإيطالية إرسال جواسيس إلى برقة لإقامة مراكز تجارية في بنغازي، ودرنة كنقط

---

(١) جهاد الأبطال في طرابلس الغرب، ص (١٤، ١٥) .

(٢) انظر: ليبيا قبل الاحتلال الإيطالي، أحمد الدجاني، ص (١٦٥) .

(٣) انظر: الحوليات الليبية ، شارم فيرو ، ص (٧٩٢) .

انطلاق، وقامت البعثات الإيطالية بالتجسس على أوضاع ليبيا الاقتصادية، والزراعية، وقامت بدراسة قرى بنغازي وتوكره، والمرج، ودرنة، وشحات، وطلميثة، وطبرق، وأتيحت لهم فرصة الاطلاع على أحوال ليبيا وعادات الشعب، وطريقة حياتهم، ثم عادوا إلى إيطاليا وقد رفعوا أبحاثهم إلى السلطات الحاكمة، وألقوا المحاضرات، والخطب الرنانة لتشجيع حكوماتهم ، وشعبهم على احتلال ليبيا[١]. لقد تمكنت إيطاليا من فتح بنك روما في طرابلس وأنشأت فروعه في ليبيا، وبنت المصانع، والمدارس، ودرست الأوضاع بعناية، وأرصدت الأموال لذلك.

يرى الباحث أنهم استمروا أكثر من ثلاثين سنة وهم يجمعون المعلومات ويرسلون الجواسيس ويخططون لغزو البلاد، ويتوغلون في المجتمع بالمؤسسات التجارية، والمدارس العلمية... إلخ، لغزو ديار المسلمين، وهتك أعراضهم وتدمير بلادهم، وقتل أشرافهم، وسبي نسائهم، قال تعالى: ﴿**وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا**﴾ [سورة البقرة: ٢١٧].

وفي سنة ١٩٠٠م قامت شركة «روباتينو» للملاحة بمد خط بحري منتظم مع مدينة طرابلس، وفي ديسمبر من نفس السنة أبرم بين فرنسا وإيطاليا اتفاق، تم التأكيد عليه مجدداً في مايو سنة ١٩٠٢م وهو عبارة عن بروتوكول يقضي بعدم تدخل متبادل بين الدولتين، وبموجبه أعلنت إيطاليا أنها لن تكون لها أي مطامع استعمارية في مراكش، وأعلنت في مقابل ذلك أنه لن تكون لها هي الأخرى أية مطامع استعمارية في طرابلس ، وفي سنة ١٩٠٧م فتح مصرف روما فروعًا له في طرابلس، فاستثمرت بها رءوس أموال، وأنشئت مصالح إيطالية، كما تم تطوير الخطوط المحلية معها، والمدارس الإيطالية فيها، وأخذت الحكومة تشجع وتدعم مشاريع مواطنيها الذين كانوا يصطدمون باستمرار بالعقبات التي تواجههم في طريقهم[٢] .

---

(١) انظر: العدوان الحرب بين إيطاليا وتركيا، محمد بارمة، ص (٨٠) .
(٢) انظر: حوليات ليبيا، ص (٧٩٣) .

كانت إيطاليا عازمة على احتلال ليبيا، وبذلت في سبيل ذلك جهدًا كبيرًا على مستوى الولاية نفسها، بتعزيز مظاهر نفوذها أو على المستوي الدولي بالحصول على موافقة أغلب الدول الأوروبية على ذلك إلا أن شدة تمسك الدولة العثمانية بالولاية في زمن السلطان عبد الحميد الثاني، وقوة نفوذ الحركة السنوسية في دواخل ليبيا، وحسن التنسيق القائم بين الطرفين، كل ذلك أدى إلى تأجيل إيطاليا تنفيذ مشروعها الاستعماري العدواني الغاشم عام ١٩١١م .

أولاً: الهجوم الإيطالي على ليبيا:

كانت الدولة العثمانية تعاني اضطرابًا خطيرًا في أوضاعها الداخلية والخارجية بسبب الانقلاب الذي قادته جمعية الاتحاد والترقي ضد السلطان عبد الحميد سنة ١٩٠٨م، وكان ذلك الانقلاب المشئوم مدفوعًا من قبل اليهود، والماسونية والدول الأوروبية، وكان السلطان محمد رشاد ألعوبة في يد جمعية الاتحاد والترقي، ولم يكن السلطان محمد رشاد بأوفر حظًا من سابقيه، لأن النظم التقدمية الخيالية التي تبنتها جمعية الاتحاد والترقي قيدته، كذلك فإن قادة الانقلاب غالوا في نزعتهم القومية وأفرطوا في سياسة التتريك التي نادوا بها[١]، وساهموا في ضياع ليبيا .

يقول الأستاذ محمود الشاذلي: (لعب «قره صو» أحد قادة الاتحاد والترقي في أيامها الأخيرة (١٩٠٩-١٩١٨م) دورًا رئيسيًا في احتلال إيطاليا لليبيا وكان يشغل وظيفة مفتش إعاشة، واضطر نتيجة لخيانته أن يهرب إلى إيطاليا ويحصل على حق المواطنة الإيطالية واستقر في تريستا حيث مات عام ١٩٣٤م)[٢] .

وأما متر سالم اليهودي الماسوني فيتحدث عن دور الجنرال جواد رفعت أتلخان في كتابه «أسرار الماسونية»، ترجمة : نور الدين رضا الواعظ، سليمان أمين القابلي: «أن طرابلس الغرب «ليبيا حاليًا» التي تعتبر موطن أخلص أبناء الدولة العثمانية، قد وقعت في مخالب الإيطاليين بمؤامرة خبيثة، دبرها اليهودي الماسوني «متر سالم»

---

(١) انظر: تاريخ ليبيا المعاصر، محمود عامر ، ص (٤٨) .
(٢) انظر: المسألة الشرقية، ص (٢٠٢) .

الحائز على الدرجة الثالثة والثلاثين في الماسونية، ورسما الخطط اللازمة ودفعت الخزينة الإيطالية الملايين من الليرات الذهبية إلى اليهودي «متر سالم» لقاء إقناعه الدولة العثمانية بضرورة سحب الأسلحة والعتاد من طرابلس الغرب إلى إستانبول بحجة التغيير والإصلاح، وبمساعي الماسونيين أيضًا سيقت قطاعات الجيش إلى اليمن، وهكذا سلمت البلاد الطرابلسية «ليبيا» لقمة سائغة للطليان. .»[1] .

وكانت وزارة إبراهيم حقي الاتحادية متواطئة مع إيطاليا الذي ربطتهم به المال، فضاع كل أمل أن تنال ولاية طرابلس الغرب شيئًا من عناية الدولة واهتمامها بها، لقد قامت حكومة السلطان عبد الحميد الثاني باتخاذ الأهبة لرد أي اعتداء على الولاية، وأرسل إليها السلطان قائدًا من خيرة قواده، هو رجب باشا الذي : «أطلقت يده في شئون الولاية الإدارية والعسكرية، فمرن أهلها على الأصول الحربية ووزع على شبابها وشيوخها البنادق ومرنهم على استعمالها، وملأ المستودعات العسكرية بالذخائر، حتى أصبح عدد الجيش المرابط في طرابلس حوالي خمسة عشر ألفًا، وهذا عدا الفرق غير النظامية، «قول أوغلي، من الأهلين العرب، وهؤلاء بلغوا الأربعين أو الخمسين ألفًا ومهمتهم معاونة الجيش النظامي، فقد أبطل الاتحاديون هذه الاستعدادات وشرعوا ينزعون البنادق من الأفراد بدعوى أن الأهلين قد يقومون في وجه الحكومة إذا طلب منهم تأدية الضرائب والتكاليف الأميرية، وانتهزت وزارة حقي باشا فرصة استفحال أمر الثورة في اليمن، فسحبت معظم جيشها النظامي من طرابلس الغرب لاستخدامه في إخماد هذه الثورة، على أنها لم تكتف بذلك، بل أهملت كل الإهمال الفرق الأهلية، فنقصت قوة الدفاع الطرابلسية إلى أقل من خمسة آلاف مقاتل فقط، ومع أن أهالي البلاد طلبوا الانتظام في سلك الجندية بعد إعلان الدستور العثماني، فقد أصم الاتحاديون آذانهم ولم يجيبوا الأهلين إلى ما طلبوه إلا قبيل وقوع الاعتداء الإيطالي لفترة قصيرة، ولم تبدأ الإجراءات اللازمة لتجنيدهم إلا بعد قيام الحرب ذاتها، وزيادة على ذلك فقد نقلت الحكومة العثمانية

---

(١) المسألة الشرقية، ص (٢٠١) .

حوالي أربعين ألف بندقية كانت الدولة قد درجت على حفظها بالبلاد حتى يستخدمها الأهلون عند الطوارئ، ثم لم تفعل شيئًا من أجل إصلاح الاستحكامات ومراكز الدفاع بالبلاد أو تمدها بالمدافع والذخيرة اللازمة للسهر على سلامتها[1] واستغلت إيطاليا نشوب الأزمة المراكشية، وعمدت إلى توقيت البدء بالعمل العسكري ضد ليبيا، فوجهت إنذارًا إلى الحكومة العثمانية تضمن التالي:

١- تذكير إيطاليا المستمر للباب العالي بالضرورة القصوى لوضع حد لتلك الفوضى والإهمال اللذين تركت فيها طرابلس وبرقة من قبل الحكم العثماني، وهو وضع ترى إيطاليا ضرورة تعديله وفقًا لمقتضيات المدنية والمصلحة الحيوية لإيطاليا بحكم قرب سواحلها من أراضي الولاية .

٢- إن مساندة الحكومة الإيطالية الدائمة للإمبراطورية العثمانية في كثير من المسائل السياسية حتى في الفترة الأخيرة قوبلت بتجاهل رغبات إيطاليا في ولاية طرابلس وبمعارضة أنشطة الإيطاليين فيها .

٣- رفض الحكومة الإيطالية لاقتراح إستنبول بإجراء مفاوضات تنح بمقتضاها إيطاليا امتيازات اقتصادية في الولاية «وتحتفظ لإستانبول شرفها ومصالحها العليا» لأنها تعتقد بأن تجارب الماضي أوضحت عدم جدوى مثل هذه المفاوضات التي قد تطرح أمورًا تصبح محل نزاع أو احتكاك جديد .

٤- الادعاء بأن قناصل إيطاليا في طرابلس وبرقة تصور «خطورة الحركة السائدة ضد الإيطاليين والتي خلفها فيما بعد ضباط وهيئات أخرى من السلطات المحلية» ، وهي خطورة ليست قاصرة على الإيطاليين وحدهم، بل على جميع الأجانب مما دفعهم لمغادرة البلاد .

٥- إن الحكومة العثمانية ترسل الناقلات العسكرية لتزيد من تأزم الموقف في البلاد، الأمر الذي يدفع إيطاليا لاتخاذ التدابير اللازمة ضد هذا العمل .

---

(١) انظر : السنوسية دين ودولة، ص (١١٥) .

٦- قررت الحكومة الإيطالية، الإقدام على احتلال طرابلس عسكريًّا لأن ذلك الحل الوحيد الذي يمكن أن تقبله إيطاليا .

٧- تطلب الحكومة الإيطالية إصدار الأوامر للممثلين والسلطات العثمانية في الولاية بعدم مقاومة الغزو، ومن الممكن الاتفاق على تنفيذه دون أية عراقيل وستتخذ بعده بالقرارات اللازمة لتسوية الحالة التي ستنتج عنه[١].

قام السفير الإيطالي بتسليم مذكرة الإنذار لرئيس الحكومة العثمانية حقي باشا الذي دعا وزارته للانعقاد وبحث الأمر معها ، ثم عرض الموقف على السلطات ، وتضمن الرد العثماني إلقاء مسئولية التخلف الذي شهدته الولاية على حكومات العهد السابق، ونفي وجود أي عراقيل تحول دون الفعاليات الإيطالية في الولاية، وحرصت الحكومة العثمانية على تلبية الطلبات بصورة دائمة، وأن الاحتجاجات المقدمة إليها من قبل سفارة دولة إيطاليا نفذت بالكامل، وأعطيت تعليمات مشددة لولاتها العاملين في الولاية، وبينت الحكومة التركية أنه لا مانع لديها من العمل على تقديم امتيازات اقتصادية واسعة لدولة إيطاليا في ولاية طرابلس الغرب[٢] ومع هذا كله، فقد ادعت الحكومة الإيطالية أن رد الحكومة العثماني تأخر، فأعلنت الحرب على ليبيا، علمًا بأن بوارجها الحربية تحاصر الشواطئ الطرابلسية منذ منتصف شهر أيلول «سبتمبر»؛ أي قبل إرسال الإنذار إلى الحكومة العثمانية بثلاثة عشر يومًا، ولهذا كلفت بارجاتها بقصف السراي الحمراء الكائنة في مدينة طرابلس[٣]، وكانت الأساطيل البحرية تقصف في مدينة طرابلس .

ثانيًا: الجهاد في طرابلس وفزان:

رغم ضآلة وضعف الإمكانات العسكرية للولاية، فقد تبنت مدفعيتا القلعتين «السلطنة والحميدية» الرد على القصف لتغطية انسحاب الحامية العثمانية والمجاهدين

(١) انظر: الغزو الإيطالي إلى ليبيا للبوري، ص (٢٨٢ ، ٢٨٣) .
(٢) انظر: تاريخ ليبيا المعاصر، محمود عامر، ص (٥٠) .
(٣) انظر: الحوليات الليبية، شارل فيرو، ص (٥١) .

إلى الداخل، وبصعوبة بالغة استمرت مدفعية الولاية تناوش الإيطاليين حتى الثالث من شهر تشرين الأول، وتحسبًا من تعريض الجاليات الإيطالية للأذى وعدم تعرض قواتهم لأي خطر مفاجئ، تأخر الإيطاليون في عملية الإنزال البري حتى الخامس من الشهر نفسه .

وأصدر قائد الحملة الجنرال «كارلو كانيفا» بيانًا باللغة العربية يخاطب سكان طرابلس جاء فيه: «ماذا يصدكم عن القدوم إلينا؟ أما يهمكم رعي مواشيكم وتعاطي تجارتكم آمنين؟ نحن أصحاب دين من أهل الكتاب وأحرار، واعلموا أن دولة إيطاليا المعظمة قد أصبحت لكم بمقام الوالد بعد أن أخذت أمكم وهي طرابلس الغرب، فاقدموا إلينا بلا خوف، وبكمال الأمان، ونحن نؤكد أنه ليس من يؤذيكم وما من يسيء إليكم أو يضركم بأدنى شيء، فإن المال لا يذكر، واعملوا أن كل من يأتي إلينا ببارودته مع المهمات نحسن إليه بعشرين فرنكًا مع كيس قمح أو شعير كيفما شاء، أما رؤساؤكم الدينيون والسياسيون فإن الحكومة الإيطالية تقبلهم وتؤيدهم بالصفة التي كانوا عليها قبلاً، بل يعين لهم رواتب ومعاشات وناهيكم أن الكلام واحد والله سبحانه وتعالى كريم، فاطلبوا إليه عز وجل أن يفتح عيون عقولكم لتعرفوا الحق وهو يخلصكم»(١) .

ولم يكتف الجنرال كارلو كانيفا به، بل أصدر عدة بيانات منها:

بسم الله الرحمن الرحيم، والصلاة والسلام على كافة الأنبياء ، وصلى الله عليهم وسلم أجمعين .

يأمر ملك إيطاليا المعظم فكتور عموئيل الثالث نصره الله وزاد مجده أنا الجنرال كارلوس كافينا قائد العساكر الإيطالية الموكل إليه محو الحكومة التركية من طرابلس، وبرقة، والمقاطعات التابعة لها، بناءً عليه أعلن للشعوب بأجمعهم القاطنين في المقاطعات المنوه عنها من شاطئ البحر إلى آخره والحدود الداخلية الذين يملكون بيوتًا في المدن وبساتين وحقولاً ومراعي حول المدن نفسها أو بعيدًا عنها ما يلي: إن

---

(١) انظر: تاريخ ليبيا المعاصر، محمود عامر، ص (٥٢) .

العساكر الخاضعة لأمري لم يرسلها جلالـة ملك إيطاليا حماه الله لإضعاف واستعباد سكان طرابلس، وبرقة، وفزان، والبلاد الأخرى الـتابعة لها التي لا توجد الآن تحت سيادة الأتراك، بل لتعيد إليهم حقوقهم وتقتص من المعتدين عليهم، وتجعلهم أحراراً يحكمون أنفـسهم وتحميـهم من كل من يعتدي عليهم سـواء كان من الأتراك أو أي شخص كـان يريد استـرقاقـهم، وعليــه فـأنتــم يا سكـان طرابلس وبرقـة وفزان والبلاد الأخرى التابعـة لها من الآن سيحكمكم رؤساء منكم موكـل إليهم أن يقضوا بينكم بالعدل والرأفة عملاً بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ [النساء: ٥٨] وستكون هذه الأحكام تحت حماية ورعاية ملك إيطاليا السامي حرسه الله، واعلموا أن سـتبقى الشـرائع الدينية والمدنية مـحترمـة وتحترم الأشخـاص والأملاك والنساء والحقوق وجمـيع الامتيازات المختصة بأماكن العبـادة والبر؛ لأن غاية أعمال الرؤساء يجب أن تكون واحدة وهي تحـسين حالتكم والعمل على استتـباب راحتكم ويجب أن يكون ذلك مطابقًا للشريعـة الغراء، والسنة المحمدية السمحـاء، وسيقضي بينكم بالعدل طبقًا للشريعة الغراء وحسب أوامرها بواسطة قضاة اشتهروا بثقافتهم في الشـرع ذوي استـقامـة وسيـرة حمـيدة، كـما أنه لا نغض الطرف عـمن يظلم من الرؤساء، ولا نغفر غشًا أو خداعًا من أحـد من القضاة، فالكتاب والسنة فقط تقضي عليكم، واعلمـوا جيـدًا أنه لا تؤخذ منكم ضـرائب لتصـرف خارجًـا عن بلادكم، والضرائب الـتي لا توجد الآن عليكم، ننظر فـيهـا وتنقضي أو تلغى كـما يقـتضي العدل، واعلموا جيدًا أنه لا يدعي أحـد منكم للخدمة العسكرية، بالرغم عن إرادته وفقط يقبل بها أولئك الذين يرغبون الانـضمام تحت اللواء الإيطالي باختيارهم لأجل حـماية النفـوس والأملاك، ولكي يتكفـلوا للبلاد السلم والنجـاح، وأما الآخـرون فيبقون في بيوتهم منعكفين على العمل في الحقول ورعاية المواشي أو معطاة التجارة، الصناعة، والحرف الضـرورية، لقيام الحياة، وعلى هذا فـكل امرئ يمكنه الصلاة في معـبده حسب تعليم دينه يـلزمكم أن تتضرعـوا لله عز وجل أن يرفع مجـد الشعب الإيطالي، ومجـد ملكه، لأنه أخذكم تحت ظـل حمايتـه، والإيطاليون يرمـون مأن يكون اسمهم مهابًا من جميع أعدائكم، وأما منكم فقط، فيكون محبوبًا ومباركًا .

وبناءً عليه وحسبما خولني جـلالة ملك إيطاليا العادل المنصور وحكومته أعلنتكم بما تقدم، وسيجرى مفعوله من هذا اليوم من شهر شوال سنة ١٣٢٩هـ، ليبقى كأساس للعلاقات المستقبلية التي ستوجه بين الحامية، والمجتمعين، وبين الإيطاليين وسكان هذه البلاد، والتي واثق بأنكم تقبلون هذا المنشور بسرور قلبي، لأنه سيكون قانونًا يجب أن يحفظ بأمانة، واستقامة ضمير، وشهامة من كلا الطرفين، وإذا وجد من لا يحترم الشرائع ولا يعتبر الأشخاص أو يمس حرمة النساء، أو يخترق حرمة الملك، أو يقاوم، أو يثور على إرادة العناية الإلهية التي أرسلت إيطاليا إلى هذا البلاد، وباسمها صدرت لي هذه الأوامر، قبلها ممن يمتلك حق الأمر فسيكون الانتقام منه عظيمًا، وسأحافظ على تنفيذها بالقوة الموكلة لعهدتي لنبراس العدل والحق، فيا سكان طرابلس ، وبرقة، والمقاطعات التابعة لها: اذكروا الله قد قال في كتابه العزيز: ﴿لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: ٨] وقد جاء أيضًا: ﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ [الأنفال: ٦١] وجاء أيضًا: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥] أي الذين يصلحون الأرض، ويمنعون منها الفساد وينشرون فيها العدل والعمران، وجاء أيضًا: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ [محمد: ٣٨][1] أي: لا تفسدوا في الأرض إن توليتم أمور الناس وتقاتلوا بعضكم بعضًا، إن الذين يفعلون ذلك يلعنهم الله ويصمهم ويعمي أبصارهم ويستبدلهم بغيرهم وجاء أيضًا: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٦] ، وجاء أيضًا: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [المائدة: ٤٥] ، فإرادة الله ومشيئته سبحانه وتعالى قضتا أن تحتل إيطاليا هذه البلاد؛ لأنه لا يجري في ملكه إلا ما يرى فهو مالك الملك وهو على كل شيء

---

(١) انظر: مجلة المنار ، محمد رشيد رضا، ج١٢ ، م١٤ ، ص (٦٣٦) ، وكذلك جهاد الأبطال، ص (٥٢) .

قدير، فمن أراد أن يظهر في الكون غير ما أظهر مالك الملك رب العالمين المنفرد بتصرفاته في ملكه لا شريك له فيه، فقد جمع الجهل بأنواعه وكان من الممترين، وبناءً عليه يلزم كل مؤمن أن يرضى ويسلم بما تعلقت به الإرادة الربانية، وأبرزته القدرة الإلهية، فالملك لله سبحانه وتعالى يؤتيه من يشاء، فإيطاليا تريد السلام وتريد أن تبقى بلادكم إسلامية تحت حماية إيطاليا وملكها المعظم، ويخفق فوقها العلم المثلث «أبيض وأحمر وأخضر» إشارة إلى المحبة والإيمان[1] .

وللأسف الشديد كانت كاتب هذا المقال شيخًا من العلماء المحسوبين على الأزهر الشريف، وكتب ذلك مقابل عرض من الدنيا زائل، ولقد تأثر بهذا المنشور ممن لا عقيدة واضحة في ذهنه، وممن لا يعرف ضروريات ديننا الإسلامي العظيم، وغاب عنه حقيقة الصراع بين عقيدة التوحيد الصافية النقية، وبين عقائد النصرانية الفاسدة، بأنواعها المتعددة .

لقد لجأت إيطاليا إلى المكر والخداع، وبث الفرقة بين أهالي ليبيا، والأتراك المساندين لهم ودعت إلى الانفصال عن العثمانيين عن طريق المنشورات، وكانت الطائرات الإيطالية تلقيها على المعسكرات العربية، سارع أهالي ليبيا لإثبات ولائهم للدولة وأرسلوا برقية للحكومة في الأستانة نقلتها بالنص جريدة «صباح» التركية، جاء فيها: «نحن العرب أبناء هذا الوطن العثماني المقدس نفديه بالمهج ولا ننفصل عنه، ولو أراد هو الانفصال عنا، وإنا لمدينون في حياتنا القومية واتحادنا للجنود العثمانيين وضباطهم البواسل، على أن ما نبذله وما سنبذله أيضًا من المهج والمال في الذب عن حوضنا لم نبذله طوعًا لأوامر إخواننا الجنود، بل رغبة بالاحتفاظ بكياننا، وإننا نجل هذه الرغبة، لأنها كانت سببًا في شد أواصر الأخوة بيننا وبين إخواننا العثمانيين، فلهذا نعلن الحكومة الأستانة وسائر إخواننا العثمانيين أننا مستعدون لبيع أرواحنا وأرواح أبنائنا على بساط هذه السهول، والرمال المحرقة، دفاعًا عن بلادكم التي هي بلادنا ؛ لأننا متأهبون للموت حتى لا يبقى منا فرد، والله لا يهدي كيد الخائنين»[2] .

---

(١) المصدر السابق نفسه، ج١٢ ، ص (٦٣٧) .

(٢) انظر: جريدة المقطم، عدد (٦٩٤١) ، في ٩ صفر ١٣٣٠هـ .

ولقد فاخرت جـريدة «طنين» التركية بهذه البطولات التي تتـفجر من العرب في حرب طرابلس، مشـيرة إلى أن: «إخواننا العرب فعلوا المعـجزات، فبيضوا صـفحة تاريخنا، وعجـز إيطاليا في الحال وفي الاستـقبال بات أمرًا مـحققًا، . . . وبـعد ما حالف النصر العرب الذين أبلوا بلاء حسنًا، . . فلتعلم أوروبا هذا والسلام»[١].

إن السلطان عبـد الحميد الثـاني كان يدرك مدى الولاء الذي يحـمله العرب في طرابلس للدولة العثمانيـة، وفي مقدمتهم السيد أحمـد الشريف السنوسي، لهذا كان متفائلاً جدًا في تصريحه الصحـفي الذي أدى به لمجلة «نور إندسون» الألمانية، وأكد فيه أن الإيـطاليين سيجدون مـقاومة عنيفـة من قِبل السنوسيين وأتباعـهم، وستكون خسائرهم فادحة وحساباتهم خـاطئة؛ لأن العرب هناك لن يسلموا طرابلس بسهولة، وأن الدولة قـد أمنت لهم ما يكفـيهم من البنادق والمدافع لكـي يقووا على المقـاومة والدفاع عن وطنهم[٢]، وهذا القول هو ما أكده السفيـر البريطاني في الأستانة السير جيرارد لوثر في التقرير السنوي لسنة ١٩١٢م الذي بعثه لوزير خارجيته في ١٧ أبريل ١٩١٣م[٣] .

ثالثًا: العنف الإيطالي والمقاومة:

كانت بيانات الجنرال كارلو كانيفا تدعو الشعب الليبي إلى التزام الهدوء، وكانت مليئة بالكذب والنفاق والتضليل والمجزرة التي ارتكبـها في الثالث والعشرين من شهر تشرين الثاني بحق سكـان المنشيئة في مدينة طرابلس والتي ذبح فـيها من ٤-٧ آلاف نسمة من بينهم الطفل والعجوز، ونفي تسـعمائة شاب ليبي، وهتك الأعراض بدون سبب، لخـير دليل على ممارسـة الطليان المختلفـة اللاأخلاقـية، إزاء تلك الوحشـية البغيضة، فـقد قاوم الشعب المسلم الليبي تلك الوحشية بصمـود سجل في صفحات التاريخ بماء الذهب الصافي .

---

(١) انظر: جريدة المقطم، عدد (٦٩٨٠) ، في ٢٥ ربيع الأول ١٣٣٠هـ .
(٢) انظر: جريدة الأهرام، عدد (١٠٦١٣) ، في ٢١ صفر ١٣٣١هـ .
(٣) انظر: حروب البلقان ، عايض الروقي، ص (١٠٢) .

ومما فجر الروح الجهادية لدى أهالي ليبيا، عجز إيطاليا عن احترام شعور الأهالي ومعتقداتهم، وأعطوا لهذه الحرب صبغة دينية واضحة، فقد بارك القسيس والبابا الحملة قبل سفرها من إيطاليا، وكان من أول ما قامت به بعد نزولها في مدينة طرابلس أن قامت صلوات الشكر لله على احتلال المدينة، وعلى وضع الصليب في مكان الهلال، وكان العمل في حد ذاته كافيًا لإثارة كل مسلم في البلاد(١)، وكان النشيد الذي يردده الجنود الغزاة : «أماه صلي ولا تبكي، بل أضحكي وتأملي، ألا تعلمين أن إيطاليا تدعوني، وأنا ذاهب إلى طرابلس فرحًا مسرورًا، لأبذل دمي في سبيل سحق الأمة الملعونة، ولأحارب الديانة الإسلامية. . سأقاتل بكل قوتي لمحو القرآن، ليس للمجد من لم يمت لإيطاليا، تحمسي أيتها الوالدة، وإن سألك أحد عن عدم حدادك عليّ، فأجيبيه مات في محاربة الإسلام»(٢) .

وصدق الله العظيم القائل: ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾ [البقرة: ١٢٠] .

لقد تحرك نواب البلاد وزعمائها من ضواحي طرابلس نحو معسكرات الجهاد، واشتركوا في العمليات ونادوا على الأهالي بضرورة الخروج معهم، قام بأهم دور في هذه الحشود والاستعداد فرحات باشا نائب طرابلس، وسليمان الباروني نائب الجبل، وسيف النصر من زعماء سرت .

كان فرحات بك له نفوذ كبير في موطنه (الزاوية) وكان يقضي عطلته في الواحة وقت نشوب الحرب، فعرض خدماته على القائد العثماني، وكتب في نفس الوقت إلى المشايخ في الواحات محرضًا إياهم على القيام والالتفاف حول راية السلطان والدفاع عن البلاد، ورغمًا من الدعاية المضادة التي كان يقوم بها بعض الشيوخ الموالين للإيطاليين في العاصمة، فإن نداءات، فرحات بك قد نجحت وارتفع العلم العثماني في كل مكان، وكان فرحات بك أول متطوع انضم إلى العثمانيين مع عدد

(١) انظر: المغرب الكبير (٣ / ٧٦٧) .
(٢) انظر: تاريخ ليبيا المعاصر، ص (٤٧) .

من المتطوعين من الزاوية، وزوارة، والعجيلات، وكان وصوله سببًا في تقوية الروح المعنوية لدعم الحامية العثمانية، التي كان يقودها نشأت بك[١] وتمركزت قوات المجاهدين في العزيزية للقيام بمهمة الدفاع[٢] .

أما سليمان بك الباروني نائب الجبل فقد كان يتمتع بعصبية أهل الجبل الغربي القوية مع حب الأهالي له، وكان يقضي عطلته في فساطوا وقت نزول إيطاليا في طرابلس وانسحاب الحامية العثمانية إلى الداخل، وقد اتصل كذلك بالقائد العثماني، ووصل بعد ذلك إلى العزيزية على رأس خمسين من مشايخ الجبل، وتفاهم مع نشأت بك ووعده بأن يواصل المتطوعون الحرب، وقد عاد إلى الجبل ودعا المشايخ المحليين واستنفرهم للحرب من أجل الإسلام ودولة الخلافة، ووجد نفسه على رأس ألف من رجال القبائل، وأسرع بهذه القوة إلى ميدان الحرب، ولم يترك القوات العثمانية منذ ذلك اليوم، ونتيجة لهذه المجهودات التي قام بها هذان الزعيمان في طرابلس أخذت جماعات الليبيين تصل إلى معسكرات الجهاد من نالوت وغريان.. وغيرها وصلت إلى عشرات الآلاف من المجاهدين[٣] .

رابعًا: أحمد الشريف يوجه أتباع الحركة للجهاد:

بعد وصول خبر احتلال إيطاليا لطرابلس، وقصفها لبقية المدن الليبية بأساطيلها، قام أحمد الشريف بجمع السادة، والشيوخ ، والعلماء، والقادة، وعرض عليهم الأمر واستشارهم، وخرج الأمر بتوجيه الشيوخ وعلماء الحركة بقيادة المجاهدين في كافة ساحات الوغى، وقال أحمد الشريف: «والله نحاربهم ولو وحدي بعصاتي هذه»[٤]، كانت القوة الإيمانية الدافعة تحرك أحمد الشريف نحو الجهاد، ولذلك رفض الخنوع والاستسلام للمحتل النصراني مهما كانت قوته وجبروته وعزته، ووصلت أوامر أحمد الشريف إلى رؤساء الزوايا والشيوخ، والأعيان التابعين للحركة

---

(١) انظر: المغرب الكبير (٣ / ٧٦٩) .
(٢) انظر: السنوسية دين دولة، ص (١٢٣) .
(٣) انظر: المغرب الكبير (٣ / ٧٧٠) .
(٤) انظر: الفوائد الجلية (١ / ٢٣) .

في طرابلس وما حولها، يأمرهم بأن لا يتهاونوا وأن يستميتوا في قتال العدو المهاجم ومن هؤلاء الشيوخ:

* مصطفى أحمد الهوني رئيس زاوية هون .
* حامد بركات الشريف رئيس زاوية سوكنة .
* محمد علي الأشهب رئيس زاوية «واو» فزان .
* السني رئيس زاوية مزدة .
* عبد الوهاب العيساوي رئيس زاوية طرابلس .
* محمد علي بن الشفيع رئيس زاوية سرت .

وكتب إلى زعماء القبائل المبرزين كالشيخ سيف النصر زعيم قبائل أولاد سليمان، وورفلة، وغيرهم .

وقال الشيخ محمد الأشهب بتنظيم معسكر من القبائل الفزانية، والتوارق، ورياح ، والعرب المقيمين بإقليم فزان، وانضم آمود وكوسا من زعماء التوارق إلى معسكر محمد الأشهب، وقام المغاربة بتأسيس معسكر بالنوفلية وكان زعيمه عبد الله ابن إدريس، وساعده صالح الأطيوش، وقام أولاد سليمان، وورفلة، والقذاذفة، بتأسيس معسكر، تزعمه في بداية الأمر سيف النصر نفسه، ثم ابنه أحمد بك، ومعسكر من قبائل أولاد أبي سيف يتولى قيادته الشيخ السني، وأبو بكر قرزة[١] .

وبذلك أصبحت المعسكرات بالمنطقة الغربية أربع تابعة للسنوسية قامت بدعم إخوانهم، والمشاركة معهم في الجهاد ضد إيطاليا، وقام الليبيون عمومًا بتنظيم المعسكرات بضواحي طرابلس، وغريان والخمس ومصراته، كان صدور الدعوة إلى الجهاد من زعيم الحركة السنوسية أحمد الشريف بمثابة الشرارة التي أوقدت النار في طول البلاد وعرضها، فخف المجاهدون من أقاصي طرابلس وفزان، ثم من النيجر،

(١) انظر: برقة العربية، ص (٢٩٢) .

وتشاد لمؤازرة إخوانهم المجاهدين في الجبل والغرب، وهي الجهات التي ظل زعماؤها حريصين على استقلالهم ولا يريدون منذ ظهور الحركة السنوسية الانضواء تحت لوائها؛ ومع هذا فقد كان أحمد الشريف صاحب نفس عظيمة، همته في الجهاد والتغلب على العوائق التي تحيل دون وحدة الصف الإسلامي في بلادنا[١]، يقول الشيخ الطاهر الزاوي عن أحمد الشريف: «فالسيد أحمد الشريف صقله العلم، وهذبته العبادة، فعفت نفسه، وكبرت همته، وأخلص عمله لله فتولى الله توفيقه، وأطلق ألسنة الناس بمدحه والثناء عليه»[٢] .

لقد تدفق أتباع الحركة السنوسية كالسيل الجارف على ميدان القتال في طرابلس، وفي منتصف يناير ١٩١٢م قال السيد أحمد الشريف كلمته لأهل طرابلس وجميع العرب، فأصدر نداءه المشهور يحث فيه الطرابلسيين والبرقاويين، وأهل ليبيا على الجهاد ضد العدو المعتدي، ويعلن فيه نبأ اعتزامه النزول بنفسه إلى الميدان على رأس قوة من المجاهدين كبيرة، وقد نقش نداء أحمد الشريف على راية من الحرير حملها المجاهدون في طرابلس من مكان إلى آخر بين القبائل الضاربة في الجنوب خصوصًا، فكان من أثر هذا «النداء» أن تدفقت جموع المجاهدين على المعسكرات العثمانية في العزيزية وغريان، وعلى مراكز العرب في «سنيات بني آدم»، فكان المعسكر في «السنيات» بعد ذلك يعج بجموع المجاهدين من الزاوية والعجيلات، وزنزور، ومصراته، وصرمان، وأولاد يوسف، وورفلة، وغريان ، والجبل، والعزيزية، وأولاد سليمان، ومجاهدي فزان، والتوارق، ولم يكتف أحمد الشريف بذلك بل أعده نجدة خاصة لتعزيز قوات المجاهدين في العزيزية، وفي ٢٥ مارس ١٩١٢م وصلت نجدات أحمد الشريف إلى العزيزية مسلحة بالبنادق والحراب والسيوف، وتحمل معها نبأ تحرك نجدات أخرى، لا تزال تجد السير في طريقها إلى معسكر المجاهدين، وكان يوم وصولها يومًا مشهودًا في تاريخ الجهاد في طرابلس .

---

(١) انظر: السنوسية دين دولة، ص (١٢٦) .

(٢) انظر: جهاد الأبطال، ص (١٨٧) .

وقد اعترف السلطان العثماني نفسه بهذه الجهود التي قام بها أحمد الشريف السنوسي، فأهداه في هذا الشهر «مارس ١٩١٢م» سيفًا ونيشانًا مرصعًا بالجواهر مكافأة وتقديرًا لجهوده .

بيد أن جهود الحركة السنوسية كانت أكثر وضوحًا وأعمق أثرًا في سير الجهاد ضد إيطاليا في برقة، وهذا ما سنأتي على بيانه بإذن الله تعالى(١) .

لقد أصبح العدو في حيص بيص، ولم يتمكن من احتلال الدواخل بعد الثغور التي احتلها الأسطول، واضطرت إيطاليا إلى إعادة حساباتها، ولكي لا تظهر إيطاليا أمام المجتمع الأوروبي السياسي منهكة، وأن قواتها غير قادرة على إخضاع ليبيا لسيطرتها، ولإخفاء فشلها لجأت إلى إصدار بيان تعلن فيه ضم ليبيا إليها وهدفت من ذلك البيان عدة أمور منها:

* إقناع الدول الأوروبية بأن إيطاليا قد ملكت زمام الأمر في ولاية طرابلس .

* وضع الإمبراطورية العثمانية أمام الأمر الواقع، وإجبارها على الاعتراف بسيادتها على ليبيا .

* إيقاف المعارك الحربية؛ لأنها ستصبح غير قانونية، أو شرعية في مواجهة الدولة الإيطالية صاحبة السيادة الجديدة(٢) .

إن قرار الضم الذي أعلنته إيطاليا، جعل الدولة العثمانية تعلن احتجاجها عليه، وعدت ذلك خرقًا صريحًا للقانون الدولي، وقد استندت الدولة العثمانية إلى نجاح المقاومة الجهادية، وعجز القوات الإيطالية عن تحقيق أي نصر(٣) .

وأبرق السلطان في ٢ أكتوبر إلى ملك إنكلترا وإمبراطور ألمانيا وحكومات أوروبا، ورئيس الجمهورية الفرنسية، وبقية الملوك والقياصرة يطلب منهم فض النزاع القائم، وحقن دماء البشر، ولكن بدون جدوى، فقد اعتذرت كل هذه الحكومات

---

(١) انظر: السنوسية دين ودولة، ص (١٢٦ ، ١٢٧) .

(٢) انظر: تاريخ ليبيا المعاصر، ص (٥٣) .

(٣) المصدر السابق نفسه، ص (٥٣ ، ٥٤) .

عن عدم التدخل[1] وبذلك تكون الحملة الدبلوماسية المكثفة التي قامت بها الدولة العثمانية قد فشلت .

فقد تخلت الدول الأوروبية كلها عن الدولة العثمانية، بدءًا بفرنسا التي أصدرت بيانًا أعلنت فيه حيادها وعدم قدرتها على التوسط لإنهاء الحرب في الوقت الراهن، وسارت روسيا على نفس النهج، أما بريطانيا فرغم حساسية موقفها لا سيما أمام رعاياها في العالم الإسلامي، فإنه لم يطل ترددها لتعلن هي الأخرى ما أسمته بالحياد، ولكنه ليس حيادًا بالمعنى الصحيح، إذ أنها أرغمت مصر على الحياد، وهذا فيه مساعدة لحكومة إيطاليا المعتدية[2] .

لم يتمكن الإيطاليون من التقدم شبرًا إلا بدفع ثمن باهظ، وبعد جهد جهيد، وتحمل الخسائر الفادحة، والضربات القاسية، ومعاناة الشدائد والأهوال تمكنوا بفضل قواتهم العديدة، والأسلحة الفتاكة، ومعاونة الأذناب من الاستيلاء على بعض أماكن في دواخل البلاد، كالخمس ومصراته وزليتن وورفلة، وترهونة، وزوارة، ثم تمكنت القوات الإيطالية من الوصول إلى هون ثم فزان، واستسلم بهذه المحلات المستضعفون من الرجال والنساء والولدان الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً، وأما الباقون فقد انسحبوا إلى أماكن أخرى أمامية لمواصلة القتال، وقد استعمل الإيطاليون كافة الأساليب الوحشية في المواقع التي احتلوها خصوصًا في مدينة طرابلس[3] .

ولقد خلد التاريخ المعاصر أسماء المعارك التي قام بها الأجداد ضد إيطاليا في المنطقة الغربية من ليبيا ومن أهمها؛ معركة طرابلس بتاريخ ٨،٩، ١٠ / ١٩١١م، وكذلك في تاريخ ٢١، ٢٢ يناير ١٩١٢م، معارك الخمس بتاريخ ١٧-٢١ أكتوبر، ١ أبريل ١٩١٢م، معركة الهاني شارع الشط، معركة الهاني أبو مليانة، معركة الهاني سيدي المصري، معركة قرقارش، معركة أبي كماش، معركة لبدة، معركة تاجوراء[4]

---

(١) انظر: السنوسية دين ودولة، ص (١١٨) .

(٢) انظر: حروب البلقان ، ص (٧٥) .

(٣) انظر: برقة العربية ، ص (٢٩٢ ، ٢٩٣) .

(٤) انظر: تاريخ ليبيا المعاصر، ص (٥٩ ، ٦٠) ، ويمكن الرجوع إلى جهاد الأبطال، ففيه تفصيل لبعض المعارك .

. . . إلخ ، وكانت ما بين عام ١٩١١م إلى عام ١٩١٢م، ولا شك أن هذه المعارك تحتاج إلى دراسة تفصيلية، ولعل أحد أبناء هذا البلد الطيب يقوم بذلك .

خامسًا: جهاد قبائل المغاربة البطولي:

استمر العدو الإيطالي في زحفه حتى وصل سرت وهناك توقف سيره وأرسل دعاته لاستعمال الحيل والدسائس كي يستميل بها قبائل المغاربة التابعة لزاوية النوفلية السنوسية مستغلاً فرصة حاجة تلك القبائل للمؤنة، والملابس، فكاتب القائد الإيطالي الذي احتل سرت شيوخ قبائل الرعيضات «المغاربة» واعداً إياهم أن قواته لن تخرج من سرت ، وعليهم أن يأتوا السوق لشراء ما يحتاجون إليه على شرط أن لا يعتدي أحد الطرفين على الآخر، فاغتنم الأهالي هذه الفرصة في شيء من الحذر واليقظة، وأرسلوا إلى إخوانهم بإجدابية أن يأتوا بقوافلهم إلى هذه السوق، فيشترون المأكولات والملابس، وأراد المغاربة بذلك أن يحققوا هدفين:

١- إخراج الزعيم سيف النصر وأبنائه؛ عبد الجليل ومحمد وسليمان وإخوانهم جميعًا، وقد وقعوا في الأسر بعد احتلال الطليان لواحات هون، وتم اعتقالهم بزوراة، فكان أحد شروط المغاربة الإتيان بهم، وقد جاء بهم الطليان إلى سرت استغلالاً لنفوذهم وربما يتمكن بواسطتهم من أي عمل كان، ولكنهم خلصوا منه والتحقوا بمعسكر المجاهدين المغاربة .

٢- استفاد المغاربة من السوق في سرت، واشتروا كميات ضخمة من المؤن استفادت منها قبائل برقة الغربية .

وأراد الطليان الغدر والخيانة والوثوب على غرة، وهاجم العد زاوية النوفلية، واشتبك مع المغاربة في قتال عنيف أسفر عن احتلالها بعد خسارة عظيمة وكان من بين الشهداء يومئذٍ الشيخ السنوسي الأطيوش، ومن بين الجرحى عبد الله بن إدريس، وقد أبلى كل منهما بلاءً حسنًا، ثم التحمت المعركة الثانية بين الفريقين بموقع الخدة، وتلتها معركة العويجة، وتوالت المعارك ليلاً ونهارًا، وكل فريق من المتحاربين نال

نصيبه من الكر والفر والربح والخسارة، فكانت هذه المعارك مدعاة لإثارة روح الهمة والنشاط والأمل بين المجاهدين في الجهات الأخرى، وجعلت أولئك الذين قدر لهم أن يكونوا تحت الطليان يتأهبون للقيام من جديد، سيما قبائل أولاد أبو سيف، ففي هذه الأثناء كتبت هذه القبائل ومن حولها إلى أحمد الشريف يطلبون منه إيفاد نائبًا عنه - يلتفون حوله وينظم صفوفهم، فعين أحمد الشريف أخاه صفي الدين السنوسي نائبًا عنه لربط المعسكرات السنوسية بطرابلس والإشراف عليها، كما عين أخاه محمد عابد السنوسي نائبًا عنه بمنطقة فزان[١] .

سادسًا: المجاهد الكبير القائد الشهير صفي الدين السنوسي:

توجه صفي الدين في يوم ١٣ جمادى الأول عام ١٣٣٣م، وترك إجدابية ليتولى القيادة في الجهات الغربية، فكان لتعيينه فرحة عظيمة لدى القبائل المنضوية تحت لواء الحركة السنوسية، وهي ترى زعماءها يقودون الجيوش بأنفسهم، ويتولون الأعمال ، ويخوضون ميادين القتال، واستقبلت القبائل في المنطقة الغربية صفي الدين لتشد من أزره وتقوي عزمه، وكان على رأس المستقبلين عبد الله بن إدريس، ثم توجه إلى معسكر المجاهدين، وكان في استقباله صالح باشا الأطيوش، وتولى الإشراف على أمور المعسكر والمجاهدين، ورتب الأعمال، ثم غادر معسكر المغاربة متجهًا إلى معسكر حمد بك سيف النصر، وفي معيته، كل من الشيوخ، صالح البسكري، ومصطفى منينه، ورويفع بن إدريس، وعبد العزيز صهد، وبعد وصول صفي الدين، علمت إيطاليا بوصول نائب أحمد الشريف إلى جهات سرت من طرابلس، فاستعدت بحملة عظيمة لملاقاته وصده عن مواصلة سيره، إن لم تتمكن من القبض عليه، فعملت كل ما تستطيع عمله من تجهيز هذه الحملة وتزويدها بأقوى الأسلحة، فاندلعت معركة عظيمة بين القوات السنوسية والإيطالية بموقع «أبي هادي» وكان صفي الدين في مقدمة المجاهدين مصحوبًا بأبطال الجهاد منهم؛ حمد بك سيف النصر، وعبد الله بن إدريس، وصالح باشا الأطيوش، وأحمد التواتي، وغيرهم من البواسل،

---

(١) انظر: برقة العربية، ص (٢٩٤) .

واستمرت المعركة بشدة وعنف عدة ساعات انجلت عن خسارة الإيطاليين خسارة فادحة في الأرواح والعتاد، ولم يبق من جيش إيطاليا إلا النزر اليسير، وقد وصف الشعراء هذه المعركة، ومن بين هؤلاء الشعراء عبد الله بن إدريس، وقد جمعت قصيدته أسماء بعض المعارك التي حصلت وقتذاك قبل معركة أبي هادي فقد قال:

سطع الضياء بكوكب الإقبال ... بالفتح والتعظيم والإجلال

والدين جدد بعد ضعف واحتمى ... والكفر في محو وفي اضمحلال

والنور «لاح ببرقة» وكأنه ... بدر مضيء في سماء عال

والنصر من رب البرية لم يزل ... يحمي الحمى ويزيد في الإقبال

هنئت يا بطل الخلافة بالذي ... تبغيه من نصر على الجهال

فلك البشارة قد أتت من أول ... بالفوز والفتح المبين العال

إلى أن يقول:

ذاك الذي نصر الشريعة أحمد ... نجل الرسول وصفوة الأبطال

لا زال في الإسلام حصنًا مانعًا ... يحمي الديار من العدو الجالي

إلى أن يقول:

لما رآه مصممًا ومحاربًا ... والصلح لا يبغيه بالأموال

قال الفرار وليس لي من حيلة ... وتبدلت أحواله في الحال

من «ساحة الفزان» ولى راجعًا ... في خزية ومذلة ووبال

من «مرزق» ولي و«سوكنة» التي ... هي موضع الأرزاق والأموال

نكب العدو وقال ما لي حيلة ... أخذت جميع مدافعي وبغالي

يا حسرة إني تركت مدائني ... ورأيت ما لم يخطر ببالي

ما كنت أحسب أن «برقة» هكذا ... فيها رجال الحرب أي رجال

إن «المغاربة» الذين هم بها ... جاءوا بيوم في ربيع تال

وكذا الذين «بخشة» ورفاقهم ... نالوا الثناء بهمة وقتال

نالوا الفخار بجمعهم في «خدة» للقاء العدو الماكر المحتال

إلى أن يقول:

يوم «العويجة» أنذر الطليان أن الشعب شعب كريهة ونزال

فتعددت أمواتهم وتمزقت أشلاؤهم في الحل والترحال

من بعده ركبوا «البحار» وأقفلوا متخاذلين تخاذل الأنذال

إلى أن يقول:

أما «العواقير» الكرام «ببرقة» قد خلدوا الآثار للأجيال

وكذا «البراعصة» الذين هم هم قد أيدوا الأقوال بالأفعال

أبنا «عبيد» في الجهاد كأنهم أسد أتت لحماية الأشبال[١]

كانت تلك الانتصارات التي حققها السنوسيون، محل الإعجاب والتقدير من أبناء ليبيا المخلصين، ولذلك اتصل كثير من القادة والشيوخ بصفي الدين ، وكان رمضان السويحلي على رأس أولئك الأبطال المغاوير، ولذلك اتصل بصفي الدين السنوسي ، واتفق معه على أن يعمل جهد المستطاع للاتصال بهم دائمًا، وعمل على دعم المجاهدين السنوسيين بالمؤن، والبضائع من سوق «مصراته»، وشارك مع صفي الدين السنوسي سرًا في معركة «أبي هادي» وأبلى هو ورفقاؤه بلاءً حسنًا، وأصيب أخوه حمد بجراح[٢] .

اشتدت الضربات القوية على القوات الإيطالية، وخشيت على سمعتها العسكرية، وأخذت تعد العدة من جديد للقضاء على المعسكر السنوسي .

وقام الشيخ صالح الأطيوش بتجنيد أهالي «الخشة»، من المغاربة وأتباعهم، كما . قام عمر سيف النصر بتجنيد قبائل أولاد سليمان وأتباعهم، وقام عبد الجليل سيف النصر بتجنيد قبائل القذاذفة، وقام محمد علي الشفيع بتجنيد قبائل الفرجان، والهماملة ومعدان، استعدادًا لمعركة أخرى عرفت في التاريخ باسم معركة القرضابية .

---

(١) انظر: برقة العربية، ص (٢٩٦ ، ٢٩٧) .

(٢) انظر: برقة العربية، ص (٢٩٧) .

سابعًا: معركة القرضابية:

جمع الطليان قوات كبيرة وأرغموا سكان السواحل، التي يحتلونها بالانضمام إلى قواتهم وكان على رأسهم رمضان السويحلي زعيم مصراته، فالتقوا بالمجاهدين عند القرضابية، أو قصر بوهادي، وكان رمضان السويحلي على ما يبدو قد اتفق مع السنوسيين على أن يندس بقواته مع الجيش الإيطالي الذي كان يقوده الكلونيل «ماني» يقول الشيخ الطاهر الزاوي: «وقد تواترت الأخبار عمن لهم صلة برمضان بأنه كان يعتزم الانقلاب على الجيش الإيطالي إن لم يوافق المجاهدون على الصلح، وقد صرح رمضان بهذا للشيخ محمد بن حسن حينما قال له - والجيس على أهبة الخروج من مصراته - : كيف تحارب إخوانك المسلمين؟ فقال له رمضان: أنا ذاهب لدعوتهم إلى الصلح، فإن امتنعوا فسأنقلب معهم على الطليان، واعتزام رمضان الانقلاب على الطليان لا يشك فيه إلا مكابر»[(١)] .

وبدأت المفاوضات بين الجيش الإيطالي والسنوسي من أجل الصلح، وقام العقيد ماني بإرسال وفد من زعماء العرب يتكون من أربعين فارسًا، ولما وصل الوفد إلى الجيش السنوسي رفض الرجوع، وكان ذلك في ١١ جمادى الثاني سنة ١٣٣٣هـ، ورجع بعض الأفراد إلى القوات الإيطالية .

خدعة حربية من المجاهد الكبير صفي الدين:

أمر صفي الدين حمد بك سيف النصر بأن يعلن جهارًا بأنه سيغزو ورفلة، وسرعان ما وصل الخبر إلى العدو بواسطة الأشخاص الذين عادوا من المعسكر، وبعض الجواسيس، فاتفق رأي القائد الإيطالي وأركان حربه أن يرجع عبد النبي بالخير بقواته للدفاع عن ورفلة قبل أن يصلها سيف النصر، وبذلك خسر القائد الإيطالي هذا القسم من قواته وقائده عبد النبي، وقبل اندلاع المعركة أعلن صفي الدين بأن الليبيين الذين مع الجيش الإيطالي هم من المجاهدين وسوف ينقلبون على

---

(١) انظر: جهاد الأبطال ، ص (١٥٣) .

القوات المعتـدية، وارتفعت الروح المعنوية لدى المجاهدين السنوسـيين، وعندما سمع «ميـاني» الخبر جـرد الليبيين من السـلاح وكلفهم بنقل المؤن فقط، ووضع الأعـيان بسيارات خاصة، وبذلك خسرت القـوات العربية، إضافة إلى جيش ورفلة وتقدمت قوات أحمـد سيف النصر يقتفي أثرها خلسـة، فكان يختفي بالنهار، ويقـتفوا أثرها ليلاً، وكان من المؤكد عند الطليان أن أحمـد سيف النصر ذهب بقواته ليغزو ورفلة، وقدر الله تعـالى وصول قوات جهـادية إلى المعسكر السنوسي بعث بها صـالح باشا الأطيوش من جهة الخشة، كما وصل عـبد الجليل سيف النصر وأخوه عمر بنجدات أخرى، واشتبك الفـريقان في معركة طاحنة يوم ١٤ جمـادى الثانية ١٣٣٣هـ، وقد سيطر بادئ الأمـر الطليان حتى كادوا أن يحـوزوا الراية السنوسية، وعندها باغـتهم أحمد سيف النصر من الخلف واشتدت المعـركة حول العلم السنوسي، فأنقذ بعد أن استشهد الكثير من المجاهدين حول البيرق السنوسي[١]، واستطاع رمضان السويحلي في تلك اللحظات الحـرجة أن يصل إلى جنوده من مـصراته وأصـدر أوامره بإطلاق النار على الطليان، فأطلقوها عليهم من الخلف، فكانت بداية النهاية، فحاص الجيش في بعـضه حـيصـة الحمـر، ورجعت أولاه على أخـراه، واختلطت خـيله برجله، وارتكس بعضه في ذلك الجيش، ولم ينج منه إلا ٥٠٠ جندي[٢]، ونجا العقيد مياني إلى سرت مجروحًـا مع من بقي من جيشه، وبقي في مكان المعركـة كل ما كان مع الجيش من معـدات الحرب وعتادها، من إبل وخيل، وبنادق ومـدافع ورشاشات[٣]، ومن بين ما غنمه المجاهدون صـحيحًا اثني عشر مدفعًا من مـدافع الميدان، وعشرين مدفعًا رشاشًـا، وسبع سيارات، وعشرون ألف بندقية، وقسمًـا عظيمًا من الذخيرة، وقسم المستشفى العسكري بجميع معداته، وجميع المؤن[٤] .

وكان أفظع ما يقع عليـه نظر الإنسان تلك الأكوام من الجثث البـشرية، وبمجرد

---

(١) انظر: برقة العربية، ص (٣٠٠) .
(٢) انظر: جهاد الأبطال، ص (١٥٥) .
(٣) المصدر السابق نفسه، ص (١٥٥) .
(٤) انظر: برقة العربية، ص (٣٠٠) .

وصول ميـاني إلى سرت جرد جمـيع العرب من الأسلحة وعقـد مجلسًا عسكريًّا، وحكم بالإعدام على كـثير من السكان ومن أبناء العـرب الذين التجئـوا إلى سرت، وفي مقـدمتهم من الأعيـان والرؤساء؛ الحاج محـمد القاضي من مسـلاته، والحاج محمد بن مـسعود من قماطة، وحسونة بن سلطان، وأبـو بكر النعاس، وأحمد بن عبد الرحمن من ترهونة، وقتل من غيرهم نحو سبعمائة، وأصدر أمرًا بالقتل العام، فـصار الجند يقـتلون الناس في الشـوارع وعلى أبواب البـيـوت، ويربطون العشـرة والعشـرين في حبل واحد ثم يقـتلونهم، ورمى كثيـر من الناس بأنفسهم في البـحر فرارًا من التمثـيل بهم، فكان منظرًا مريعًا، وبعثوا إلى روما نحو ألف أسـير أكثرهم من السكان والحـمالين الذي استـأجروا جـمالهم[1] ، وبدأت قوات المجـاهدين في تطهيـر البلاد من الأنجاس المعتـدين، وتركت الحاميات الإيطاليـة، حصونها بسـهولة وهامت على وجهها عبر التلال والسهول المحرقة الجافة، وحررت مزدة، والقصبات، وسرعـان ما وصل المجـاهدون إلى ابن غشـير، على بعـد ١٥ ميـلاً من طرابلس ، وصدرت الأوامـر للإيطاليين بالانسـحاب الكامل إلى السـاحل وقضي عـلى حامـية ترهونة كلهـا أثناء هروبهـا إلى البحـر، واستـسلم ألف إيطالي في بني وليـد بدون مقاومـة، وانسحبت حامية غـريان إلى العزيزية، ثم أجبرت على الانسحـاب بسرعة إلى طرابلس، وأخليت مصراتة وزوارة[2] .

لقد كانت القـيادة الفعلية لمعـركة القرضابية للسـيد المجاهد الشهـير صفي الدين السنوسي، والقادة السنوسيين الذين معه، وقد ساندهم مساندة فعالة المجاهد رمضان السويحلي بجنوده وانضم معهم في الوقت المناسب .

وقد تفـجرت ملكات الشعـراء بسبب انتـصار المجاهدين في القـرضابية، فـهذا الشاعـر محمد عـبد الله معتـوق المصراتي يصف شجـاعة المجاهدين في القرضـابية ويمدح رمضان السويحلي على موقفه البطولي في المعركة فقال:

---

(١) انظر: جهاد الأبطال، ص (١٥٦) .

(٢) انظر: جهاد الأبطال، ص (١٥٧ إلى ١٧١) .

وقـفت وقـفـة أبـطال وشـجـعـان تجـابه العـزو فـي صـبـر وإيمان
يوم الخليج ومـا سـددت من خطط كـانت دمـاراً لمن عن أرضنا جـان
لما وضعتم حشـود الخصم في قفص مـا بين بحـر وصـحـراء ونيـران
حمى الوطيس وطيس الحرب ملتهبًا والنار تـلفح من قـاص ومن دان
وللعـزائـم من آلامـهـا خَـورُ يسـتـوي عـزائم الأبطال ومن دان
خاضـوا المعارك في صـبر وفي جلد وقـاوموا في حـمـاس كل طغيـان
سـدوا المنافـذ عـن أعـداء أمـتـهم فصـيروهم حـيارى شـبه قطـعان
البـحـر يحـجـزهم والنار تفلحـهـم والخصم يطحنـهم في غير إمـعان
خـرت جـحـافلهم في مـأزق خطر لم يبق منهم سـوى أشبـاح إنسان
ناموا على جـثث الأموات يدفـعهم حب الحـيـاة إلى خـزي وخـذلان
عـادوا «لمصراته» والحـقـد يدفعـهم شنوا عليـها هجـومًا غـير إنسـان
كم أحرقوا من ضعاف من ملاجئهم ويوم مـاطوس عنهـا خـيـر برهان
كم علقـوا من بريء فـوق مـشنقـة وقـتلوا من شـهيـد فـوق كـثبـان
وفي السـجـون رجـال مـا لهم والشـعب يرزح من ظلم وعـدوان
كــذلك تـاريخ يا من له جـــهلوا وذاك تاريخ ليث الحرب رمضان[1]

لقد حقق المجاهدون انتصاراً عظيـمًا على إيطاليا ولولا الشقاق والخلاف والنزاع الذي وقع بين رمضان السـويحلي وصفي الدين السنوسي لأصبح الجهـاد أمراً آخر، ولهزم الإيطاليون عن بكـرة أبيهم، وأسباب الصراع المذكـور تحتاج إلى تقصٍّ وبحث يصعب على مثلي الوصـول إليه ، ولهذا أعرضت عنه صفـحًا، إن الخوض في هذه النزاعـات يخالف النهج الذي سـرت عليه «من توسـيع النقاط البـيضـاء في تاريخنا وتضيـيق النقاط السـوداء» ولقد تعـرض بعض المؤرخين لهذا الخـلاف منهم: الطاهر الزاوي، ومحمـد مسعود فـشيكة، ومحمـد الطيب الأشهب، وبعد اشـتداد الخلاف والنزاع بين رمضان وصفي الديـن، أصدر الوكيل العام للسيد أحمـد الشريف «سمو

(١) انظر: رمضان السويحلي ، محمد فوشيكه، ص (٨٩، ٩٠، ٩١) .

الأمير» إدريس السنوسي أمرًا إلى صفي الدين بالعودة من طرابلس إلى برقة، وأن يترك الأمر بعد تطهير أكثر البلاد من الطليان إطفاء للفتن وحقنًا للدماء[١] .

وأما بالنسبة لجهاد الجنوب في فزان والجفرة والنواحي الغربية من فزان، فقد تولى قيادتها محمد عابد السنوسي نائب أحمد الشريف، وقد اتخذ مركزه بزاوية «واو» ويتبع هذه القيادة ثلاثة معسكرات أحدها يرأسه وكيل محمد عابد وكبير مستشاريه الشيخ محمد الأشهب، أما المعسكر الثالث بالجهات الغربية الشمالية من فزان فيرأسه الشيخ السني، ويشرف على الإدارة العامة محمد علي الأشهب، فاشتركت هذه المعسكرات في المعارك الدموية مع الطليان بالجفرة وفزان وقد كانت هذه الجهات بيد العدو[٢]، واهتم أحمد الشريف بأمر فزان واتخذ من «زلة» قاعدة للإغارة على إمدادات الإيطاليين بفزان وحدث أول هجوم في ٢٦ أغسطس عندما أبيد طابور كان يسير عبر حمادة، وكانت تلك الحادثة بداية النهاية لاحتلال فزان الذي دام قليلاً وبانقطاع الامدادات عن القوات الإيطالية في فزان أحاطت بها القوات الإسلامية الليبية المجاهدة، وشاركت في تلك المعارك قوات المجاهدين في قبائل التبو والطوارق، واستطاعت قوات المجاهدين أن تقضي على حامية «أدري» و«أباري» وفتحت قلعة سبها، وسقطت مرزق، ولجأت قوات الإيطاليين في غات إلى جنوب الجزائر وطلبت حماية الفرنسيين، ثم تراجعت القوات الإيطالية إلى سوكنة ثم مصراته، وتخلوا عن غدامس، وغريان، وأعلنت طرابلس حالة الطوارئ[٣] ، وكان من أعيان فزان الذين قادوا الجهاد المقدس ضد إيطاليا المجاهد الكبير محمد بن عبد الله البوسيفي، ونازل أهل فزان القوات الإيطالية في ثلاث معارك مشهورة في «الشبب» و«أشكدة» و«المحروقة» واستشهد فيها محمد بن عبد الله البوسيفي رحمه الله تعالى[٤] .

---

(١) انظر: برقة العربية، ص (٣٠٢) .

(٢) المصدر السابق نفسه، ص (٣٠٣) .

(٣) انظر: تاريخ ليبيا ، جون رايت، ص (١٢٧ ، ١٢٨) .

(٤) انظر: قادة فتح بلاد المغرب، محمود خطاب (٢ / ٢٩٠) .

وقاد سالم بن عبد النبي الزنتاني حرب عصابات ناجحة في ولاية فزان، وأثخن في أعداء الله، وهاجم القاهرة، وهي ربوة عـالية في سبها يوجد بهـا حصن وسياج من المدافع والأسلاك الشائكة، وأصبحت تلك القلعة منيعة جدًا، واستطع سالم عبد النبي فتحهـا بقواته عام ١٩١٤م، لقد أبلى أهل الجنوب من مسلمي ليـبيا بلاءً حسنًا في جهـادهم البطولي ضد إيطاليا، مما يدل على أصـالتهم وحبهم لدينهم وبغـضهم لكل محتل عنيد .

ونتيجة للفتنة التي ذكـرتها أمر السيد محمد إدريس محـمد عابد أن ينتقل بقواته نحو الكفرة[١] .

* ■ *

(١) انظر: برقة العربية، ص (٣٠٣) .

المبحث الرابع
الجهاد في برقة

في ٢٤ من شهر شوال ١٣٢٩هـ الموافق ١٩ أكتوبر ١٩١١م وقف الأسطول الإيطالي بميناء بنغازي الآمنة العزلاء وقذفها بوابل من قنابله في غير شفقة ولا رحمة، وفي ٢٢ من الشهر وقف بميدان درنة، وبعد التمهيد بقذف القنابل أنزل بها قوة عسكرية وسرعان ما طير الخبر إلى الشيخ المجاهد أحمد الشريف بالكفرة، فأمر بالوقوف في وجه المعتدي، والاستعداد لقتاله والتضحية في سبيل الوطن بالنفس والنفيس، وكتب إلى رؤساء الزوايا في برقة وطرابلس وإلى شيوخ وأعيان القبائل يأمرهم بالدفاع ويحثهم على الجهاد ، وكاتب الملوك ، والأمراء وزعماء العالم الإسلامي طالبًا منهم الوقوف مع إخوانهم المسلمين في ليبيا ضد العدوان الصليبي الغاشم، وفي شهر رجب سنة ١٣٣٠هـ/ ١٩١٣م تحول من الكفرة إلى الجغبوب ليكون قريبًا من ساحة الوغى .

استطاع الإيطاليون احتلال كبريات مدن ليبيا الساحلية، كطرابلس ودرنة وطبرق، وكانت الحامية العثمانية في بنغازي تحت قيادة القمندان شكري بك في منتهى الضعف ، فلا تستطيع أن تحمي نفسها فضلاً عن كونها تدافع عن البلاد التي كان احتلالها في رأي المحتلين والأوساط السياسية في أوروبا أمرًا مفروغًا منه .

أخذ متصرف بنغازي فؤاد مراد بك يعقد اجتماعات مجلس الإدارة ويتشاور معهم، وكان وقتذاك رئيس الزاوية السنوسية ببنغازي هو أحمد العيساوي، فطلب منه المتصرف أن يحضر جميع الاجتماعات التي تعقد .

لقد جاهد أسود مدينة بنغازي شيبًا وشبابًا عن مدينتهم دفاعًا مجيدًا، فأظهروا من البطولة والشجاعة النادرة ما جعلهم محل التقدير من كل المسلمين، وسجلوا صفحات مجيدة خالدة بماء الذهب في سجل التاريخ، وقد ساهمت القبائل القريبة من مدينة بنغازي في الجهاد، وأول من وصل منها قبيلة العواقير ومن معهم، وقام

أهالي بنغازي بإكرام المجاهدين، رغم وجود الأمتعة والزاد الكافي، فأكرموهم غاية الإكرام، وفتحت الحكومة العثمانية مخازن الأسلحة، وكانت جلها بنادق لا تزيد عن أربعة آلاف بندقية، وشرع المجاهدون في مهاجمة العدو الغاشم وكلفوه خسائر في الأرواح ، واستشهد الكثير من أبناء المسلمين وتعرف هذه المعركة بواقعة «جليانة» ثم بعد يومين من ذلك انقض المجاهدون على الإيطاليين بموقع الصابري وقاتلوهم قتالاً عنيفًا، وغنموا منهم أسلحة كثيرة، وبعد ذلك بيومين كانت واقعة السلاوي الشهيرة، وكان يقود المجاهدين الشيخ عبد الله الأشهب، فأظهر شجاعة فائقة، وقدرة نادرة، ورأيًا سديدًا في توجيه قوات المجاهدين، وتحميسهم للجهاد، وحقق المجاهدون انتصارًا رائعًا، وغنموا جميع ما كان مع الإيطاليين في الميدان من المؤن، والعتاد الحربي، وكان عدد الشهداء كثيرًا، وبعد واقعة السلاوي التحم المجاهدون في معركة حامية الوطيس مع العدو بقرب البركة بالموقع المعروف بـ «هوى الزردة» فاستشهد فيه الكثير من المجاهدين، ومن بين الشهداء مائة وخمسون شهيدًا من قبيلة واحدة هي عائلة إبراهيم العواقير عدا شهداء أهل مدينة بنغازي وبقية القبائل الأخرى، ولقد أظهر سكان مدينة بنغازي من أصناف البطولة والكرم الفياض والصبر العجيب والثبات النادر والشجاعة العظيمة ما أثار إعجاب إخوانهم من القبائل(١) .

وبدأت النجدات العسكرية تتوافد إلى مدينة بنغازي بتحريك شيوخ الحركة السنوسية، فوصلت كتيبة قبيلة العرفا، وعددها ثلاثمائة مسلح يقودها الشيخ عمران السكوري، وتلتها بقية النجدات التي جاء بها زعماء القبائل، وشيوخ الزوايا من كل حدب وصوب :

* الشيخ عبد الله الأشهب وكيل رئيس زاوية مسوس، ورؤساء قبائل العواقير.

* الشيخ محمد علي عبد المولى رئيس زاوية أم شخنب، ورؤساء قبائل إبراهيم العواقير .

---

(١) انظر: برقة العربية، ص (٢٥٧ ، ٢٥٨) .

* الشيخ حسن الغماري رئيس زاوية دريانة وقومه من العواقير .

* الشيخ التواتي الكليلي رئيس زاوية طلميثة وقومه من الدرسا .

* الشيخ محمد علي المحجوب، رئيس زاوية الطيلمون مع مطاوع العواقير.

* الشيخ محمد الزروالي رئيس زاوية القطفية ومعه قومه من شوامخ المغاربة.

* الشيخ محمد علي الغماري رئيس زاوية أسقفة وقومه من البراعصة والدرسة.

* الشيخ محمد أبو نجوى رئيس زاوية ميراد مسعود وقومه من الدرسا .

* الشيخ عمر المختار رئيس زاوية القصور وقومه من العبيد .

كانت النجدات مؤلفة من قبائل العرفا، والدرسا، والبراعصة، والعواقير، والمغاربة، والعربيات، وزوية، والقبايل، والمسامير، والجرارة، والفواخر . ومن هذه القبائل أو منتميًا لها أو مجاورًا أو مرتبطًا بها قد وصلت في أسرع ما يمكن بقيادة زعماء وشيوخ القبائل، وشيوخ الزوايا، وهؤلاء السادة جمعوا الجموع تلبية لنداء القائد الأعلى للحركة السنوسية، وتقرر أن يكون موقع معسكرهم ومقر قيادتهم في بنينه شرق بنغازي أكثر من عشرين كيلو مترًا، فقد صح فيهم قول الشاعر:

تلاميذ لا يعدون أمرًا أراده ... بواد وأشراف تبيد الأعاديا

كتائب أمثال الجبال رزانة ... وإن حملت خلت الهضاب جواريا

أولئك أقوام على الموت بايعوا ... مبايعة أضحى بها الصبر راضيا[1]

وشرع المجاهدون في مهاجمة معاقل الإيطاليين بشدة وعنف، يقول الأمير شكيب أرسلان: «وفي ١٢ مارس جرت وقعة الفويهات الشهيرة وكان سببها أن ٢٠٠ عربي دخلوا بين استحكامي الفويهات والبركة، فثار في وجوهم الطليان واشتدت الحرب وأحاط الطليان بالمائتي مجاهد من العرب ، فلبث هؤلاء العرب

(١) انظر: برقة العربية، ص (٢٦٠) .

يقاتلون مستميتين إلى الظلام، وعند ذلك نجا منهم ولحقوا بالمعسكر العربي بعد قتال استمر طول النهار، ويقال إنه نجا ٨٠ رجلاً من المائتين .

وأما الطليان فقتل وجرح منهم ألف وخمسائة مقاتل منهم ٢٨ ضابطًا برتب مختلفة، وجنرال برتبة لواء، وأصيب بالجنون عدة ضباط من هول تلك المعركة، وكانت هذه المعركة قد شقت كثيرًا على العرب، وقامت النوادب تندب أولئك الأبطال التي حالت مدافع الطليان دون إمكان نجدتهم، وبينما العرب في مأتم على قتلاهم وردت برقية من أنور باشا القائد العام في درنة إلى عزيز علي المصري قائد المجاهدين في بنغازي عن برقة من الأستانة عن برقية من برلين عن برقية من روما، تفيد أن وقعة الفويهات هذه كانت من أشد المصائب على الطليان خسروا فيها ألفا وخمسمائة مقاتل ومنهم ضباط كثيرون قتلى وجرحى، ومنهم من أصابهم الجنون من هول ذلك اليوم»[١] .

وفي شهر أبريل سنة ١٩١٢م خرجت حملة إيطالية بعدتها وعتادها مزودة بجميع أنواع السلاح، وهاجمت معسكر بنينه، فاندلعت بين الفريقين معركة عظيمة، استمرت ساعات متتالية، تمكن العدو فيها من احتلال موقع المعسكر، وانسحب المجاهدون، ثم باكر هذه المعركة التحم المجاهدون مع القوات الإيطالية في معركة بموقع حلق الريح، ولم يكن الفوز لأحد من الفريقين، رغم كثرة الأموات من الطرفين، ومن شهداء تلك المعركة الشيخ موسى قرق عمدة قبيلة العمارنة، والشيخ جبريل العبيدي، ثم عقب ذلك التحم الفريقان في معركة بموقع «حوش العكب» وذلك يوم ١٧ رمضان سنة ١٣٣٠هـ، وكانت القوات الإيطالية زاحفة نحو سلوق، ولكنها فشلت في تحقيق هدفها، ومن بين شهداء هذه المعركة؛ أبي زيد بن محمد الكزة، ومن بين الجرحى الشيخ عبد الحميد العبار، والشيخ يونس بن مصطفى أبي شنيف[٢] .

---

(١) انظر: السنوسية دين ودولة، ص (١٤٠) .

(٢) انظر: برقة العربية، ص (٢٦٦) .

واستمر القتال في جميع أنحاء برقة من بنغازي إلى طبرق، وقد تمكن الطليان من احتلال بعض المراكز في الدواخل، وبعد حصول معارك كثيرة وفي مواقع مختلفة أرسل الجنرال أميليو قائد القوات الإيطالية إلى شيوخ القبائل يطلب منهم إرسال مندوبين للدخول معهم في المفاوضات، وعندما وصل الوفد الإيطالي الذي يحمل الكتاب إلى المشايخ وصل السيد أحمد الشريف إلى موقع رويفع بن ثابت الأنصاري المعروف بسيدي رافع، فكان رد شيوخ القبائل على الجنرال الإيطالي، كالآتي:

حضرة . . . .

وبعد نخبر حضرتكم أننا اتصلنا بأعيان بنغازي واطلعنا على شروطكم المسطورة الواردة معهم من حضرتكم، وقد أخبروا براحتهم مع دولتكم قبل وصول الأعيان جاءنا رسول من طرف الأستاذ الفاضل سيدنا أحمد الشريف يخبرنا أنه وصل إلى الجبل الأخضر بموقع سيدي رافع ويأمرنا بالحضور عنده بناءً عليه لا يمكن الآن حضور أحد منا صحبة أعيان بنغازي حتى نتصل بشيخنا وأستاذنا ، إن شيخنا المومأ إليه نزل بساحتنا وطلب منا الحضور فلا يمكن التأخر عنه، وبعد الاجتماع به سيصدر من طرفه العالي كل ما يلزم، وبه يكون العمل، وها نحن أخذنا كتابكم لعرضه عليه ١٥ جمادى الثانية سنة ١٣٣١هـ.

وكان الموقعون على هذا الكتاب الشيوخ الآتية أسماؤهم:

عبد السلام الكزة، إبراهيم المصراتي، عمر الأوجلي، علي الأوجلي، محمد الكاسح، خليل مصطفى، مفتاح أبو خزيم، علي محجوب، مصطفى خليل، أبو بكر القذافي، مفتاح حسين، جاد الله أبو زيد، حبيب الله اللواطي، رويله أبو لطيف، مطرود أبو شنيف اللواطي، المبروك اللواطي، المبروك عمر[1] .

أما جبهة الجبل الأخضر فقد كانت الكتائب السنوسية يقودها كل من:

* الشيخ محمد الدردفي رئيس زاوية شحات مع رؤساء ومشايخ وقبائل الحاسة.

---

(١) انظر: برقة العربية، ص (٢٦٧ ، ٢٦٨) .

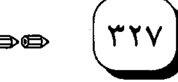
* الشيخ محمد الحسين الحلافي رئيس زاوية المخيلي .
* الشيخ صالح بن إسمـــاعيل رئيس زاوية الفائدية مع رؤساء ومشايخ عائلة فائد.
* الشيخ محمد العربي رئيس زاوية القصرين مع رؤساء ومشايخ قبائل البراعصة .
* الشيخ عبد القادر فركاش رئيس زاوية بشارة مع رؤساء قبائل العبيدات .
* الشيخ عبد الله أبو سيف رئيس زاوية مارة مع رؤساء قبيلة العبيدات .
* الشيخ الغماري رئيس الزاوية البيضاء مع رؤساء قبيلة البراعصة .
* الشيخ محمد الغزالي رئيس زاوية ترت مع رؤساء قبيلة العبيدات .
* الشيخ الحبيب بن جلول رئيس زاوية المرازيق مع رؤساء قبيلة العبيدات .
* الشيخ المرتضي فركاش رئيس زاوية أم الرزم مع رؤساء قبيلة العبيدات .
* الشيخ محمد العيساوي رئيس زاوية الحنية مع رؤساء الدرسا .
* الشيخ السنوسي الغـماري رئيس الزاوية الحمامـة مع رؤساء قبيلة البـراعصة والدرسا .
* الشيخ جـاد الله الجبـالي رئيس زاوية العرقـوب مع رؤساء قبـيلة البراعـصة والدرسا .
* الشيخ محمد أبو فارس رئيس زاوية أم حفين مع رؤساء قبيلة العبيدات .
* الشيخ محمد بن عمور رئيس زاوية قفنطة مع رؤساء قبيلة البراعصة .
* الشيخ عبد الله سعد فركاش رئيس زاوية مرتوبة مع رؤساء قبيلة العبيدات .

لبت هذه القبائل من السعادي والمرابطين نداء شيخ المجاهدين أحمد الشريف.

وحضرت لقتال العدو تحت قيادة رؤساء زواياها وزعماءها وشيوخها الأسود.

وبالنسبة لمنطقة طبرق جمع شيـوخ الزوايا، وزعماء العشائر القوات التي تأسس بها معسكر طبرق:

* الشيخ محمد الشارف رئيس زاوية أم الجرفات مع رؤساء قبائل حبون .



* الشيخ محمد عبد الله رئيس زاوية أم ركبة مع رؤساء قبائل القطعان والشواعر .

* الشيخ مرتضي الغرياني رئيس زاوية جنزور مع رؤساء قبائل العبيدات والمنافا .

* الشيخ صالح الشريف رئيس زاوية المرصص مع رؤساء قبائل العبيدات .

فتم تأسيس أربع معسكرات هي: معسكر بنغازي، ومعسكر الجبل، ومعسكر درنة، ومعسكر طبرق في وقت قياسي(١) .

صممت الدولة العثمانية على المقاومة حفاظًا لماء الوجه أمام الرأي العام الإسلامي، فأرسلت نخبة من ضباطها وقوادها المشهورين لتقوية روح المقاومة والدفاع وتدريب المجاهدين وتعليمهم كيفية استعمال الأسلحة الحديثة والمعدات، وبدأت المساعدات المادية والمعنوية تتوافد على المجاهدين، وكان من أبرز القادة الأتراك الذين أرسلتهم الحكومة العثمانية كل من الرائد أنور بك، ومصطفى كمال، فتحى أوفيار، وخليل بك عم أنور بك، فؤاد بولجاقاش باشي، سليمان العسكري، وعزيز علي مصري، أدهم باشا الحلبي(٢) .

أولاً: القائد التركي أنور باشا:

أرسلت تركيا أنور بك «باشا بعد» قائدًا عامًّا، ببرقة فوصل إليها من تركيا عن طريق مصر، ونزل بمنطقة درنة، فاتخذ منها مركزًا لقيادته، واتصل برؤساء الزوايا، وزعماء القبائل، وشرع في ترتيب المعسكرات إداريًّا، وعسكريًّا، تحت إشراف قادة المناطق، ومجالس شيوخ الحركة السنوسية، وشيوخ القبائل الليبية، ووزعت القبائل نفسها على معسكرات الجهاد، وتكفلت كل قبيلة بالمؤن والخيل والسلاح والرجال، ويتناوب رجال كل قبيلة على المعسكرات بين كل خمسة أشهر أو ستة أشهر ونزل أحمد الشريف إلى الجغبوب مواصلاً دعمه الكبير لحركة الجهاد بكل ما يستطيع،

---

(١) انظر: برقة العربية، ص (٢٦١) .

(٢) انظر: تاريخ ليبيا المعاصر، محمود عامر، ص (٦٩ ، ٧٠، ٧١) .

يقول أمين سعيد في كتابه «الاستعمار الفرنسي والإيطالي في بلاد العرب» تحت عنوان السنوسيون في الميدان : «وأسرع السنوسيون في مقاطعة برقة عاصمتهم وسكانها من أتباعهم ومريديهم لتأييد الدولة وشد أزرها، يتقدمهم شيخهم الأكبر السيد أحمد الشريف وجاء شيوخ الزوايا للجهاد يقودون رجالهم فأبلوا البلاء الحسن في الكر والفر، وجددوا عهد المفاخر العربية، وأدهشوا العالم بما أبدوه من بسالة وشجاعة. . . فقد أصلى السنوسيون نار هذه الحرب في برقة من الأول إلى الآخر فكانوا رجالها وقوادها وكانوا آخر من جلا بعد أن فقدوا الجانب الأكبر من أقطابهم وشيوخهم»[(١)] .

ومع مجيء أنور باشا لقيادة عمليات المجاهدين ضد إيطاليا في شرق ليبيا أصبحت الجبهة الشرقية البرقاوية تشن هجومات مكثفة على الإيطاليين، وكانت علاقة أحمد الشريف بأنور بك علاقة قوية ومحترمة، وكانت الرسائل لا تنقطع بينهما، ففي شهر أبريل سنة ١٩١٢م بعث أحمد الشريف برسالة إلى أنور بك، يظهر فيها تأييده للدولة العثمانية، ويشكر أنور كثيرًا لجهاده وقتاله للطليان ويعد بالنصر المبين من عند الله تعالى[(٢)]، ويذكر أنور بك في مذكراته أن رسالة وصلته في أوائل شهر يوليو من السيد أحمد الشريف يشكره فيها على جهوده وجهاده، ويحثه على المزيد، ويدعو الله لنصرة الإسلام وقهر أعدائه الإيطاليين[(٣)]، لقد بذل أنور باشا مجهودًا عسكريًّا، وأخلص في حربه ضد إيطاليا وأحبه الشعب الليبي لنشاطه، وشجاعته النادرة، فكان محل تقدير الشيوخ وإعجابهم، وأحب أنور باشا المجاهدين الليبيين وأظهر إعجابًا بهم في مذكراته حيث يقول: «القبائل العربية ترسل لي مقاتليها، ويأتون على شكل جماعات صغيرة، كل واحد يحمل سلاحًا قديمًا على كتفه، رابطًا رصاصاته في حزامه، وفي يديه بضع كيلوات من الدقيق، وبين القادمين مسنون بيض اللحى، وصبيان لم يبلغوا سن الخامسة عشرة، إن أعمارهم لا تمنعهم

---

(١) انظر: برقة العربية، ص (٦٢) .

(٢) انظر: الحركة الوطنية شرق ليبيا، ص (٣٣).

(٣) المصدر السابق نفسه، ص (٣٣) .

من مواجهة الموت مع رفاقهم جنبًا إلى جنب، لهم إيمان راسخ بأن أقدارهم مرسومة بإرادة الله، فمهما يكن لن تتغير، فإذا حان الأجل لن يتخلص منه أي مخلوق، ولهم قول مأثور رائع: «إذا أراد الرب فلا مناص من الشهادة، فالشجاع يموت مرة واحدة، أما الجبان فيموت كل يوم مائة مرة»[١].

ويتحدث عن تشكيلات المجاهدين ودور المرأة في الجهاد فيقول: «... وعلى الأغلب يكون هناك جمل واحد من نصيب كل عشرة مقاتلين، وعليه يحملون الخيمة التي يشتركون فيها، وترافقهم امرأتان من العشيرة تعملان على إعداد الخبز وخياطة الملابس، وتنظيف السلاح»[٢]، ويتحدث عن اشتباك وقع بينهم وبين الإيطاليين استمر لمدة تسع ساعات، حقق المجاهدون فيه نصرًا عظيمًا، وكان من بين الجرحى مجاهدة أصيبت بقذيفة في صدرها رغم ذلك رفضت البقاء بالمستشفى وعادت إلى الجبهة لتلهب معنويات المجاهدين[٣].

وقد تأثر أنور باشا بالمجاهدين وقال عنهم : مثال رائع وفريد للتفاني بدون قيد أو شرط[٤]، وقال : تلاشت ذكرياتي عن حياتي الماضية، وأصبحت في طي النسيان، وأشعر كأنني لم أعاشر أحدًا غير العرب، ولم أشاهد مكانًا غير الصحراء، رغم ما أقضيه من أيام محرومًا من كل شيء، فإن هذه الحياة تولد لدي أحاسيس غريبة، هذه الحياة تتخللها حوادث تسعدني كسعادة الطفل في العيد[٥].

ولقد اعترف أنور باشا بتأثير أحمد الشريف على سير الحرب ضد إيطاليا فقال: «... رسائله تشكل بصورة واضحة أهمية كبيرة بالنسبة لي كرمز للصداقة، ولأنه الشخص الوحيد الذي يتمتع بتأثير سلبي أو إيجابي في هذه الحرب..»[٦].

---

(١) انظر: مذكرات الضباط الأتراك، ص (٦٠، ٦١) .
(٢) المصدر السابق نفسه، ص (٦١) .
(٣) المصدر السابق نفسه، ص (٦٣) .
(٤) انظر: مذكرات الضباط الأتراك، ص (٧٥) .
(٥) المصدر السابق نفسه، ص (٧٧) .
(٦) المصدر السابق نفسه، ص (٨١) .

ويتحدث بإعجاب عن شجاعة قبيلة الحسا وموقفها الصلب من الإيطاليين فيقول: «استلمت اليوم الأنباء الأولية من درنة، خسارة الإيطاليين تفوق توقعاتي بلغت (٨٠٠) قتيل وجريح، عثر الإيطاليون على الجرحى الذين تخلينا عنهم والبالغ عددهم (٢١) أكثريتهم من رجال قبيلة الحسا، من أبناء جبل برقة، فقد أرسل الإيطاليون رسولاً ليبلغهم: الموافقة على إطلاق سراح الجرحى إذا تخلى أبناء حسا عن الاشتراك في القتال، وكان رد القبيلة كالآتي: إنكم أتيتم لتدمير بلادنا، سنبقى أمناء لأوامر الله والسلطان، اتحدنا لنحاربكم، واعتبرنا الأسرى موتى منذ فترة وبكيناهم، ولكن كل ذلك مضى، وسواء أطلقتم سراحهم أم لا، فسنحاربكم حتى آخر رجل، نوصيكم بمعاملة الأسرى بالحسنى ولا تنسوا ما في أيدينا من رجالكم، أشعر بالفخر لكوني قائداً لمثل هؤلاء الرجال، ولأنني أحارب معهم في صف واحد...»[1].

ويتحدث بفخر عن المجاهدين فيقول: «جنودي شجعان مستمرون في تأدية واجباتهم، هناك عائلة لم يبق من أفرادها غير الأب، قتل أولاده الأحد عشر، وصهره، عندما قدمت له التعازي قال لي: إنني فخور وسعيد؛ لأنهم قتلوا في المعركة من أجل الوطن والدين»[2]. لقد تأثر الضباط الأتراك لما رأوا من شجاعة أجدادنا، فهذا الضابط العثماني أمين بك الذي يبلغ من العمر ثلاثًا وعشرين عامًا يتحدث في رسائله إلى زوجته عما رآه في ليبيا، نقتطف منها حديثه عن الشيخ لطيف بن طويلة فيقول: كان خطيبًا بارعًا، ومجاهدًا قتل أولاده في طبرق، وذكر في رسائله بعض خطبه التي كان يلقيها على المجاهدين فبين أن الشيخ أكد بإلحاح على أن الحرب ليست سياسية بقدر ما هي دينية، وفي هذه الحرب لا تجابه أمم بعضها البعض، وإنما هي أديان تجابه أديانًا، وأن العرب يجب ألا يدافعوا عن أرضهم فحسب، وإنما أيضًا عن عقيدتهم وتقاليدهم. وأقسم على القتال حتى لا يبقى في

---

(١) انظر: مذكرات الضباط الأتراك، ص (٩٤).

(٢) انظر: المصدر السابق نفسه، ص (٩٨).

ليبيا إيطالي أو أوروبي وقال: «يا إلهي إننا نتعرض للغزو من جانب أهل الظلم والبغي، فلنشرب كأس الانتقام ببطء حتى نطفئ غليل ظمئنا . .»[(١)] .

«. . . أيها المسكين، أيها المسكين، إنه لمن الأفضل لك أن تسكن خيمة ممزقة حيث يسود الإيمان من أن تقطن قصرًا تحرسه أسلحة الشيطان، إن حيل الشيطان ضعيفة، هذا ما يعلمنا إياه القرآن الكريم. . .»[(٢)] .

«. . . إنني أريد شهداء، وليس جنودًا، إن الخطر والموت في انتظارنا، إنني أريد مذنبين، ولا أريد أولياء، فالرجل النقي نقاوة رمل البحر لن يكون محبوبًا، وإذا ما كنتم مذنبين فلتذهبوا معي وتقاتلوا، ولتخلصوا أنفسكم من الذنوب، إننا ثوار ويجب أن نكون كذلك، إذا ما قام العدو على العبث بما أوصانا الله به ، إننا ندين بالولاء لله وليس للدولة، ولا تقعدوا طويلاً من القاعدين، ولتأتوا إليّ إن الله سريع الحساب، وأكرر قولي لكم إن عشرة من المؤمنين سيغلبون مائة من الكفار»[(٣)] .

وفي رسالة مؤرخة في ٢٢ سبتمبر ١٩١١م يتحدث أمين بك عن أخبار طبرق، وعن صديقه حبيب الذي أخبره كيف جرى اجتياح المواقع الإيطالية وتخريب عدد من الرشاشات، وكيف أن حبيب حمل رشاشًا إلى المعسكر العثماني ثم يمضي قائلاً: «ومما يؤسفني أن الشيخ لطيف بن طويلة وثلاثة من أبنائه المتمرسين في حمل السلاح قد لقوا الشهادة على مقربة من طبرق، لقد فقدنا فيه واعظًا ميدانيًّا ما من أحد كان يستطيع أن يتقاعس عن الحرب عندما يسمع كلماته النارية، وحتى أولئك الذين أعيتهم الحرب، وأريد أن أبلغك هنا إحدى خطبه النارية الأخيرة التي حضرتها متخفيًّا بالزي العربي، وقد نقلتها بالكتابة المختزلة، وربما «يا غولدانا» نحتاج يوم من الأيام أن نثير حماس أبنائنا بمثل هذه الكلمات. . وقد تحدث الشيخ لطيف واعظًا وهو يلبس رداء الخطيب، ولقد كان مثل أسد تلحف بجلد جمل وقال: أيها المقاتلون في سبيل الرحمن الواحد الأحد لا تحتاجون الآن إلى السلاح، وإذا ما اعتقدتم أنكم

---

(١) ، (٢) ، (٣) انظر: الشهيد، العدد الخامس، مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالي، ص (١٩٦) .

تحققون الفتح فلتبقوا حيث أنتم، إن هذه الحرب ليست حربكم، وإذا ما كنتم تبغون طرد الإيطاليين فقط فلتذهبوا إلى بيوتكم إنما يتوجب عليكم هو طرد الشيطان ودولته من بلادنا، وأن تعيدوها إلى رحمة الواحد القهار... ولكن يجدر بكم ألا تتوقعوا ليالي ملاحًا وأيامًا لطيفة، إنكم الآن خدم عقيدتنا، إنها نار حامية في النهار، ومسيرات طويلة في الليل، إنه الجوع والعطش، كل هذا ينتظركم، على أن المجد والشرف ينتظرانكم أيضًا، فلتودعوا خيمتكم، وإذا ما أراد الله فلن تروا ذويكم ثانية، ولا تخافوا شيئًا.

إن المعركة حسب مشيئة الله، إنها ستغسل ذنوبكم بالدم، وإذا ما وضعت الشهادة يوم الحساب سينظر إلى ما قمتم به من أعمال، عندئذٍ ستكون الجنة بانتظاركم، ... فلتأتوا معي باسم الله»[١] .

يقول الضابط التركي أمين بك: إن وقع صوت الشيخ في نهاية الخطبة كان مثل وقع البوق، لقد كانت عيون ألف من العرب «المجاهدين» تتوقد حماسًا وهي تنظر إليه وقد وقفوا جميعًا في صف الجهاد[٢] .

يقول عن المجاهدين: إن جرأة هؤلاء الناس لا يعلى عليها، وأما دوافعهم إلى الاستهانة بالموت فهي ذات أساس فلسفي: «أرغب أن أموت في الحرب شابًا على أن أموت على فراشي شيخًا فما من مجد في الموت الناجم عن مرض الشيوخة»[٣].

هكذا كان تأثر الضباط الأتراك بالمجاهدين الليبيين الذين حركتهم عقيدتهم، وحبهم لدينهم، وحرصهم على الشهادة في سبيل الله تعالى .

ولقد تفاعل العالم الإسلامي مع أخبار الانتصارات التي حققها المجاهدون، فأنشدوا القصائد الجميلة، فمنها قول الشاعر:

---

(١) انظر: الشهيد، العدد الخامس، مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالي، ص (١٩٧،١٩٨) .
(٢) المصدر السابق نفسه، ص (١٩٨) .
(٣) انظر: المصدر السابق نفسه، ص (٢٠٠) .

حيا الإله ببرقة الأبطال ... خذلوا العدو وأوسعوه نكالا
أسد إذا دعت الوغى أبناءها ... نفروا خفافًا للوغى وثقالا
الناهضون المقعدون بعزمهم ... الضاربون الهام والأوصالا
شوس إذا حمى الوطيس تدافعوا ... باليأس حزمًا والرماح طوالا
دولا السلام على السلام تحية ... إن كان تأويل السلام نزالا
في أي دين أو كتاب منزل ... فيه أتى قتل النفوس حلالا
والصلح خير تصلح الدنيا ... وبه عباد الله تنعم بالا
لم تقتصد «روما» بخطتها ولم ... تترك لعقد الصلح ثم مجالا
وطغت وعاثت في البلاد بظلمها ... ولكل حال أوجدت أشكالا
هل منصف والحق أبلج واضح ... والعدل يملك للزمان عقالا
إن كان بالظلم اتساع ممالك ... فالظلم يهدم كل ملك طالا

إلى أن يقول:

من كل وضاح الجبين مجاهد ... نور اليقين بوجهه يتلالا
عرب إذا دفعوا الجياد لغارة ... هزوا العباب وخفخفوا الأوشالا
هذي طرابلس وفعل سيوفها ... ضرب العدا لا تعرف الأقوالا
هرع الطموع لضمها جهلاً بها ... هيهات قد طلب الطموع محالا
أبني طرابلس حفظتم ملككم ... يوم النزالا وضعتم الأعمالا
بيضتم وجه الحمى وملأتم ... عين العباد مهابة وجلالا

إلى أن يقول:

قد خلد التاريخ فعالكم ... إن الزمان يخلد الأفعالا
من مبلغ عنا الأنام جميعهم ... ومخبر الأيام والأجيالا
إن السلامة في سلامة موطن ... نقف النفوس عليه والأموالا
وإذا أراد الله بين عباده ... إصلاح حال غير الأحوالا

و يقول:

«إيطاليـا» عشقت فـأنحلهـا الهوى   والعـشق يجعـل من يحب خيـالا
عشقت «طرابلـسًا» وكم من عاشق   يقـضي عليـه ولا ينـال وصـالا
جـاءت بـاسطولا وخـالت أنـهـا   تجني بـه نفـعًـا فـجـر وبالا
جـهلت ومـا عرفت بأن حـروبهـا   جلبت علـيـهـا الحنق والإذلالا[1]

أما الشاعر حمزة الفقي الجهيني فيقول:

يا أرض برقـة عن رجالك خبري   مـاذا جـرى للظالم المتـجـبـر؟
أخـذوا بثـارك أم رضـوا بمذلة   عار على الشـيخ «السنوسي» وأنور
قـالت سلوا زرق الأسـنة والضـبـا   ينبي المهند والقـضيب السـمهـري
أسـد إذا حـمى الوطـيس رأيتـهم   مـا بين مـرتجـز وبـين مكبـر
فكأنمـا الأعـداء أعـيـان الفـلا   صكت مـسـامعـهـا بزأرة قسـور

إلى أن يقول:

مـاذا رأيت من الحـروب وشـرها   يا جـيش رومـا لا تمن وخـبـر
حـقًّـا ذهبت وقـد رجـعت بنكبـة   وعلمت مـا عـقبى الظلـوم المغتـر
وبليت من عـرب بكل سـمـيـدع   يسـعى الهـيجـاء بنفس غـضنفـر
عصر الـتمدن أنت أم عصر الـشقا   لا كنت يا منـهـوم بين الأعـصـر
صيـرت موج البـحر نارًا والـهوى   وجـعلت أهلك في لظى متـسعـر
يا أمـة بالبـغـي أغـضـبت الورى   كـفى عن المظـلوم لا تتـهـوري[2]

---

(١) انظر: برقة العربية، ص (٣٣٣، ٣٣٤) .
(٢) انظر: برقة العربية، ص (٣٤١) .

ومما قال الأستاذ معروف الرصافي عن ملحمة الجهاد في ليبيا:

ويا أهل «بنغازي» سلام فقد قضت ... صوارمكم حق المواطن في الذب
حميتم حمى الأوطان بالموت دونها ... وذاك بما فيكم لهن من الحب
ومن مبلغ عنا «السنوسي» أنه ... يمد لهذا الصدع منه يد الرأب
فإنا لنرجوا أن يقود إلى الوغى ... طلائع من خيل ومن إبل نجب
فيحمي بلاد المسلمين من الردى ... وينهض كشافًا لهم غمة الخطب
فإن حشا الإسلام أصبح داميًا ... إلى الله يشكو قلبه شدة الكرب
فقم أيها الشيخ «السنوسي» مدركًا ... جنود بني «عثمان» في الجبل الغرب
وكن أنت بين الجند قطب رحى الوغى ... وهل من رحى ألا تدور على قطب[1]

ثانيًا: تفاعل العالم الإسلامي:

أبلى الشعب الليبي بلاءً حسنًا في جهاده ضد القوات الإيطالية الصليبية الغازية، وبدد أحلام القادة العسكريين السياسيين، الذين زعموا أن مدة الاحتلال لا تتجاوز خمسة عشر يومًا، وقد قدرها القائد السياسي الكبير البريطاني «كتشنر» بثلاثة أشهر، لقد طارت أخبار المعارك في بنغازي، وطرابلس، ودرنة، إلى العالم أجمع، ورأت حكومة الأتراك أن الشعب الليبي جدير بالمساعدة وجاد في جهاده وكفاحه ضد العدو، ولذلك قامت بإرسال مجموعة من القادة العسكريين، ليجسوا النبض، ويرسلوا التقارير، فوصلت بحوث ودراسات أنور باشا مع زملائه «بإيمانهم بأن هذا الشعب يعتمد عليه في الحروب، ورفعت التقارير إلى الأستانة، فأخذت الإمدادات ترد منها، وبدأت وفود المتطوعين من مصر والعالم الإسلامي تترى لمساعدة إخوانهم المسلمين في ليبيا، ووصلت البعثات الطبية من تركيا، ومصر، فقامت بدورها خير قيام، ومراسلين من الصحف الإسلامية والعالمية، وكان الأمير عمر طوسون في مصر، ووالدة الخديوي «أم المحسنين» وخلفهم مسلمو مصر قد وقفوا بما يملكون

(١) انظر: برقة العربية، ص (٣٣٠).

لدعم الشعب الليبي ماديًّا ومعنويًّا، ووصل الأمير شكيب أرسلان على رأس بعثة طبية كان عدد جمالها التي تحمل الأثقال من المؤن والأدوية ٦٥٠ جملاً يصحبه خمسة أشخاص من أخص رجاله، قد تطوعوا للجهاد ببرقة وهم شبلي عبد الصمد، عجاج عبد الصمد، عباس عبد الخالق، شاهين عبد الخالق، يوسف أحمد فياض .

وقام أنور باشا باختيار مجموعات من الشباب الليبي وأرسلهم إلى إستانبول لتعليمهم النظم السياسية والعسكرية الجديدة، وقد أحسن بما صنع، ليشرفوا على قيادة الجيش الوطني الذي نهض في إعداده؛ وتدافع المجاهدون المسلمون من كل مكان إلى ميدان القتال عن طيب خاطر ، وجاد المسلمون الخيِّرون بأموالهم، وأعز ما ملكت أيديهم، وفاضت قرائح الشعراء، وأقلام الكُتاب بما أوحته ضمائرهم، وقامت الصحف وفي طليعتها «المؤيد» الغراء بدورها وكانت حلقة الاتصال بين جهاد الليبيين والعالم الخارجي، وكانت المساعدات تأتي من العالم الإسلامي إلى مصر إلى اللجان المختصة والتي أشرف عليها علي يوسف، وعمر طوسون، ترسل إلى المجاهدين، وكانت والدة الخديوي «أم المحسنين» تنفق الأموال، والمؤن، والملابس، والأدوية، والقوافل المحملة للمجاهدين، وعندما قابلت الوفد الذي استلم هذه الأشياء قالت: «إنني لم أفعل شيئًا يذكر في جانب ما يقوم به أولئك المجاهدون في سبيل الله والوطن، وإنني قلقة لأنني لم أسمع منذ أيام خبرًا عن ميدان القتال»[1] وكانت المساعدات تأتي من أهل الشام، إلى بلاد مصر ثم تدخل إلى ليبيا، وكان الليبيون الذين هاجروا إلى مصر من عشرات السنين قد وقفوا وقفة رجل واحد بالمال[2] والرجال، وكان أحمد الباسل من وجهاء مصر سندًا قويًّا لحركة الجهاد في ليبيا، قد كتب للسيد السنوسي الأشهب ردًّا على رسالة وصلت إليه: «إني وما أملك تحت تصرفكم ولمساعدتكم، وإنكم قمتم بما يرفع شأن العروبة في جميع أنحاء الدنيا، وإنكم لن تغلبوا وفيكم الغازي العظيم سيد مجاهدي القرن الرابع عشر السيد أحمد

(١) انظر: برقة العربية، ص (٣٤٨) .

(٢) نفس المصدر السابق ، ص (٣٤٨) وتجد تفصيلاً عن المساعدات .

الشريف، فقفوا موقف البطولة؛ لأن العالم العربي يتطلع لأعمالكم ويرقبها على البعد...» .

لقد كانت قبائل الفوائد، والجوازي في مصر نعم العون لحركة الجهاد في برقة.

وتفاعل العالم الإسلامي جله، فقد اجتمع أعيان ووجهاء وشباب مسلمي الجزيرة موريس الواقعة شرق مدغشقر، ورفعوا احتجاجهم إلى نظارة الخارجية البريطانية ضد الاعتداء الإيطالي على طرابلس الغرب «ليبيا» ونظموا مظاهرة عظيمة، ثم أرسلوا إلى رئيس اللجنة العليا بخمسة عشر ألف روبية لمساعدة المجاهدين، وفي يوم ٢٠ ذي الحجة سنة ١٣٢٠هـ دعا جلالة ملك أفغانستان حبيب الله خان، جميع وجوه مملكته ورجال حكومته وأعيانها وتجارها، دعاهم لاجتماع عظيم وعرض عليهم القضية الطرابلسية وما يعانيه المسلمون في طرابلس الغرب من الظلم والعدوان ودعاهم إلى الإنفاق لجمع أموال لهم وفتح كتاب أسماه كتاب «إغاثة يتامى وشهداء ومجروحي مجاهدي طرابلس الغرب» وقال لهم: افتحوا كيس همتكم وبلوا قلوبكم بماء الشفقة الأخوية، أعينوا يتامى وأيامى أولئك المجاهدين الذين جادوا بأرواحهم لأجل حفظ وطنهم وشرف ملتهم، أعينوهم على الأقل بلفائف يشدون بها جروحهم، لا تنظروا إلى قلة ما تعطونه من المال وكثرته، أعطوا ما تتمكنون من إعطائه، واثبتوا أسماءكم هذا الكتاب إن الله لا يضيع أجر من أحسن عملاً» وقد تبرع سيادته بمبلغ عشرين ألف روبية، وكان يقول وكله حماس: ألا ليتني قريب منهم أمدهم بالفعل لا بالقول، ألا ليتني طائر أطير لمساعدة إخواني المسلمين[1]، ومن بين المتبرعين مسلمو إندونيسيا، ومسلمو الهند، وحاكم قطر الشيخ قاسم محمد، فقد تبرع للمجاهدين بعشرين ألف روبية، وأهل البحرين، وجاء إلى ميدان القتال كل من محمد حلمي، وعبد المعطي صالح ضابط مصري، عارف بك والي البصرة سابقًا، نشأت بك أحد كبار رجالات تركيا المشهورين، محمد طاهر أفندي مصري، وغيرهم كثير[2] .

---

(١) انظر: مجلة المنار، ج١٢، ص (٩٤٠ إلى ٩٤٣) لمحمد رشيد .

(٢) انظر: برقة العربية، ص (٢٤٩) .

وقد حفظ لنا التاريخ أسماء كثيرة ساهمت في دعم حركة الجهاد من تونس، وتشاد، والنيجر، ومالي، والسودان، ومصر، والجزائر، والشام، وتركيا، وغيرها، ويمكن الرجوع إلى المقال الذي كتبه محمد الأسطى بعنوان: «صدى حركة الجهاد الليبي في العالم الإسلامي» وهو من منشورات مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالي فيه معلومات جيدة عن أسماء من ساهم في الدعم الجهادي[١].

إن الذين كتبوا عن الجهاد وقالوا : إن الليبيين جاهدوا الإيطاليين وحدهم دون أن يتلقوا أية عون أو مساعدة، افتروا على الواقع الذي حدث وزيفوا الحقائق وهضموا حقوق إخوانهم، فهذا الجنرال الإيطالي غرسياني يعترف بذلك ويقول : إن مساعدة مصر للمجاهدين أجبرته على أن يأخذ الاحتياطات اللازمة في مراقبة الحدود الشرقية[٢] .

ثالثًا: معاهدة أوشي وانسحاب الأتراك:

واجهت القوات الإيطالية في ليبيا مقاومة عنيفة، والتحم المجاهدون بالأتراك، وشكلوا قوة عسكرية ضاربة، وأدركت إيطاليا عجزها عن إتمام احتلال بقية الولاية، ولذلك قررت أن تهاجم الدولة العثمانية في مراكزها الضعيفة، وتوجهت لهذا السبب نحو الجزر الاثني عشر التي كانت تؤلف الولاية المعروفة باسم «مجموعة جزر بحر إيجة - الدردنيل»، ففي الثامن عشر من جمادى الأولى سنة ١٣٣٠هـ الموافق ٤ مايو سنة ١٩١٢م، قامت أساطيل إيطاليا باحتلال الجزر، ثم قامت بتهديد مدخل الدردنيل، وقصفت ميناء بيروت على ساحل الشام، وكأنها بذلك تدعو إلى توسيع رقعة الحرب، وهذا ما أثار الدول الأوروبية خاصة بريطانيا العظمى صاحبة الإشراف المباشر على الحركة البحرية المتوجهة إلى البحر الأسود وقناة السويس[٣] .

وقد أقامت إيطاليا إدارة لهذه الجزر، وأصدرت بها طوابع بريد إيطالية، واستبدلت بالبحارة الذين قاموا بعملية الاحتلال حاميات إيطالية من الجنود وحملة

---

(١) انظر: الشهيد، العدد الخامس، ١٩٨٤م، مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالي، ص (١٠٣) .
(٢) ، (٣) انظر: حروب البلقان ، ص (٨٠) .

البنادق الصغيرة، كما استبدلت الأعلام العثمانية أعلامًا إيطالية، حينذاك سارعت الحكومة العثمانية إلى إجراء بعض التحصينات لسواحل آسيا الصغرى خوفًا من هجوم إيطالي جديد على تلك السواحل[١] .

في هذه الفترة الحرجة من تاريخ الدولة العثمانية استقالت وزارة الاتحاديين في أواخر شهر رجب ١٣٣٠هـ، المصادف لشهر يوليو ١٩١٢م لتتولى الحكم وزارة أطلق عليها اسم «الوزارة الكبرى» وقد ألفها أحمد مختار باشا الغازي[٢]، وقد استلمت هذه الوزارة الحكم في وقت كانت الحالة السياسية في الدولة العثمانية قد بلغت من الحرج حدًّا لا يمكن لهذه الوزارة أن تخرج منه دون تضحية كبيرة عليها، وهو ما تحقق في معاهدة الصلح مع إيطاليا، بعد ذلك ببضعة أشهر حاولت الوزارة الاتحادية التي كان يرأسها سعيد باشا أن تفتح أبواب المفاوضات مع إيطاليا عن طريق بعض الدول الأوروبية، وقد لعب بعض رجال الأعمال اليهود المؤيدين لجمعية الاتحاد والترقي دورًا بارزًا في بدء هذه المفاوضات[٣] ، وكانت محاولات الصلح تجري في طي الكتمان، بينما تعلن الحكومة شديد تمسكها بوحدة الدولة العثمانية، وعدم التفريط في ولاية طرابلس وبنغازي .

ولقد بين وزير خارجية بريطانيا لسفير دولته في الأستانة مدى معارضة الحكومة الإيطالية للمقترحات التي طرحها وزير الخارجية العثماني في حكومة الاتحاديين، واقترح الوزير البريطاني بدوره مشروع سلام، يحول دون إراقة ماء الوجه للسياسة التركية كما قال، ويتلخص مشروعه هذا في أن تعترف الدولة العثمانية بسيادة إيطاليا على الأمور المدنية مقابل اعتراف إيطاليا بالسيادة الروحية للسلطان، والسماح للمسلمين بممارسة عباداتهم الدينية بحرية تامة، والبقاء على قوانينهم وعاداتهم، وعلى أن تدفع إيطاليا مبالغ سنوية عن طريق شيخ الإسلام اعترافًا بالخلافة الروحية[٤] .

---

(١) ، (٢) انظر: حروب البلقان، ص (٨١) .
(٣) جريد المقطم عدد (٦٩٧٥) في ١٩ ربيع الأول عام ١٣٣٠هـ .
(٤) انظر: حروب البلقان ، ص (٨٢) .

وقد حاولت كل من حكومة النمسا - المجر، والحكومة الفرنسية، أن تقوما بدور الوساطة لإيقاف الحرب بين كل من الدولة العثمانية وإيطاليا، غير أن مساعيهما لم تلق نجاحًا يذكر في كلتا الدولتين[١]، وأمام الأزمات الخانقة التي تمر بها الدولة العثمانية رأت حكومة مختار باشا الغازي أن تصل بالمفاوضات مع إيطاليا إلى نتيجة حاسمة، فأوفدت وزير الزراعة العثماني وزودته بصلاحيات واسعة، وقد وصل المسئول العثماني إلى لوزان في ١٦ شوال سنة ١٣٣٠هـ، الموافق ٢٧ سبتمبر ١٩١٢م، ومع وصوله أخذت المباحثات تدخل في في دور حاسم ويتفق الطرفان على الخطوط العريضة لتوقيع الصلح بينهما[٢] .

كانت العقبة التي لا تلتقي فيها آراء الطرفين المتفاوضين هي الاعتراف العثماني بإلحاق طرابلس بإيطاليا، وانتقال جزر الدوديكانيز إلى إيطاليا، فالعثمانيون لا يستطيعون الإعلان صراحة عن إلحاق طرابلس بإيطاليا ؛ لأن ذلك يؤثر على مكانتهم في العالم الإسلامي والعربي، أما جزر الدوديكانيز أمرًا عسيرًا، إلا أن نذر الحرب في البلقان جعل الدولة العثمانية تعقد هدنة للحرب الدائرة في طرابلس[٣] وتتبعها بعقد معاهدة الصلح المعروفة بمعاهدة لوزان - أوشي مع إيطاليا والتي منحت الدولة بموجبها الاستقلال لولايتي طرابلس وبنغازي، ومن ثم أبدت استعدادها لسحب قواتها من هناك .

لقد تم توقيع معاهدة الصلح بين الدولة العثمانية، والحكومة الإيطالية في ٨ ذي القعدة ١٣٣٠هـ الموافق ١٨ أكتوبر ١٩١٢م ، وحررت مواردها الإحدى عشرة في لوزان - سويسرا ووقعه عن الدولة العثمانية كل من : محمد نابي بك، ورومبيوغلو فخر الدين، وعن الحكومة الإيطالية كل من : لبترو بروتوليني، وقويدو فوزيناتو، وجوسبي فولبي[٤] .

---

(١) انظر: حروب البلقان ، ص (٨٢) .
(٢) انظر: جهاد طرابلس الغرب، ص (٩٨ ، ٩٩) .
(٣) انظر: جريدة المقتبس ، عدد (١٠١٤) ٥ ذو القعدة ١٣٣٠هـ .
(٤) انظر: حرب البلقان ، ص (٨٦) .

ومن المفيد هنا أن نشير بصورة موجـزة إلى مضمون مواد المعاهدة كما وردت في النسخة الأصلية المحفوظة في الأرشيف العثماني في إستنابول تحت رقم ٣٣٥:

المادة الأولى: تعهدت الحكومتان فيها بإيقاف حالة الحرب بينهما وإرسال مفوضين من الجانبين لتنفيذ ذلك حال توقيع هذه المعاهدة .

المادة الثانية: تعهدت الحكومتان بإصدار أمر بسـحب القوات الحربية والضباط من جبـهات القتـال، فالدولة العثـمانية تسـحب قواتها من طرابلس وبرقـة، والحكومة الإيطالية تسحب قواتها من الجزر التي احتلتها في بحر إيجة .

المادة الثالثة: يتم تبادل أسرى الحرب بين الدولتين في أسرع وقت ممكن .

المادة الرابعة: تتعهد الحكومتان بمنح عفو شامل لكل من ساهم بأعمال عدائية أو حامت حوله الشبهات أثناء الحرب لصالح أيٍّ من الدولتين .

المادة الخامسة: التزام الحكومتين بجميع المعاهـدات والاتفاقات التي كانت بينهما قبل الحرب، والعودة بعلاقاتهما إلى وضعها السابق .

المادة السادسة: تلتزم حكومـة إيطاليا بما تفرضـه الدولة العثمـانية من زيادة في الجمارك، ومـا تقيمـه من امتيازات في إطار القـانون التجاري الذي تلتزم به جـميع الدول الأوروبية تجاه الدولة العثمانية .

المادة السابعة: تتعهد الحكومة الإيطاليـة بإلغاء مكاتب البريد الإيطالية في الدولة العثمانية، إذا علمت الدول الأوروبية ذلك .

المادة الثامنة: تؤيد الحكومة الإيـطالية الدولة العثـمانية في مطـالبتهـا إلغاء نظام الامتيازات واستبداله بنظام القانون الدولي .

المادة التاسعة: استعداد الدولة العثمـانية بإعادة الموظفين الإيطاليين الذين يعملون في الدولة، وفصلوا من عـملهم أثناء الحرب، على أن تدفع لهم رواتب الفـترة التي أوقفوا فيها عن العمل .

المادة العاشرة: تتعـهد الحكومة الإيطالية بدفع قـسط سنوي للدولة العثمـانية ، يعادل المبلغ المستوجب عن إيرادات الولايتين - طرابلس الغرب وبنغازي - لكل سنة

من السنوات الثلاثة التي سبقت الحرب، والذي لا يقل عن ٢ مليون ليرة إيطالية لكل سنة .

المادة الحادية عشرة: تدخل هذه المعاهدة حير التنفيذ وسريان المفعول في نفس يوم توقيعها، وإثباتًا لذلك وقع المفوضون ذوو الصلاحية المطلقة هذه الاتفاقية، وختموها بأختامهم(١) .

وقد ألحقت بالمعاهدة الرسمية المشار إليها بعاليه أربعة ملاحق اعتبرها الموقعون على المعاهدة جزءًا مكملاً لها، وأهم هذه الملاحق هو المنشور الموقع من السلطان العثماني والذي تم بموجبه منح الاستقلال الإداري التام لولايتي طرابلس وبنغازي(٢)، على أن تدار بقوانين جديدة من قبل الأهالي الذين يجب أن يساهموا بتقديم الوصايا والإرشادات، وأنه سيعين نائبًا للسلطان لمدة خمس سنوات للمحافظة على المنافع العثمانية، كما يعين قاضي للولايتين من قبل السلطان ليقوم بتنفيذ أحكام الشرع الشريف على أن يعين هذا القاضي بدوره من العلماء المحليين نوابًا شرعيين له وفقًا للأحكام الشرعية، وتدفع الدولة العثمانية راتب القاضي من خزينتها، أما رواتب نائب السلطان والموظفين الشرعيين غير القاضي فتصرف رواتبهم من مداخيل الولاية المحلية(٣) .

كما أن الملحق الثاني لا يقل عن الملحق الأول أهمية؛ لأنه عبارة عن منشور من ملك إيطاليا على غرار منشور السلطان العثماني، إلا أنه يؤكد فيه خضوع ولايتي طرابلس وبنغازي لإيطاليا، وفيه منح ملك إيطاليا العفو العام لمن ساهم في الحرب إلى جانب جيوش الدولة العثمانية من أهل الولايتين، وترك لهم الحرية بإقامة شعائرهم الدينية، وذكر اسم السلطان العثماني في خطبة الصلوات باعتباره خليفة المسلمين، وذكر أن هناك لجنة سيتم تشكيلها تضم في عضويتها بعض الأهالي تقوم بوضع الأنظمة المدنية والإدارية على النمط الإيطالي(٤) .

---

(١) انظر: حرب البلقان ، ص (٨٧) .
(٢) انظر: الطريق إلى لوزان ، محمد الوافي، ص (٢١٣ ، ٢١٤) .
(٣) انظر: حروب البلقان ، ص (٨٩) .
(٤) انظر: ميلاد دولة ليبيا ، محمد فؤاد ، ص (٤٣٥ ، ٤٣٦) .

إن موافقة الدولة العثمانية على عقد معاهدة الصلح مع إيطاليا على تلك الصورة السالفة الذكر دليل قاطع على أن الدولة العثمانية كانت تعيش أسوأ مراحل تاريخها، وأن الأزمات العنيفة كانت تهدد كيانها[١] وهو ما عبر عنه السفير البريطاني في الأستانة الذي اعتبر شروط الصلح التي تم التوصل إليها بين الدولة العثمانية وإيطاليا من «أفضل ما يمكن أن تحصل عليه الحكومة العثمانية في ظل الظروف القائمة»[٢] وصدر الأمر من الأستانة إلى القائد العام التركي أنور بك بأن يغادر برقة، فوقع هذا النبأ على نفس أنور وقوع الصاعقة وتوجه إلى الجغبوب لمقابلة أحمد الشريف السنوسي والتفاهم معه .

كان موقف أحمد الشريف واضحًا قبل توقيع الصلح بين إيطاليا وتركيا، فقد بعث إلى أنور باشا في درنة يذكر فيه ما وصله من أن الدولة تعتزم إعطاء ليبيا إلى إيطاليا، فقد جاء في رسالته: «نحن والصلح على طرفي نقيض، ولا نقبل صلحًا بوجه من الوجوه»[٣] إذا كان ثمن الصلح تسليم البلاد إلى العدو، وزيادة على ذلك فقد حذره مما سوف يحدثه قبول الصلح في نفوس المسلمين في جميع الأقطار من نفور شديد من الدولة العثمانية، وحمل الكتاب أربعون شخصًا من كبار السنوسية المجاهديين إلى القائد العثماني[٤] .

استقبل أحمد الشريف أنور بك بسيارته، وكانت هذه أول سيارة تدخل صحراء برقة، وقوبل بحفاوة بالغة، وأقام في ضيافة السيد أحمد ثلاثة أيام، وأبلغ أنور مضيفه أوامر السلطان وأدلى إليه بتوجيهاته «إسناد أمر الأمة الطرابلسية إلى سيادته وإخباره بأن السلطان قد منح الأمة الطرابلسية استقلالها تاركًا لها الحق في أن تقرر مصيرها وتدافع عن نفسها»[٥] .

---

(١) انظر: حروب البلقان، ص (٨٩) .

(٢) انظر: الحملة الإيطالية على ليبيا، محمود حسن، ص (١٦٦) .

(٣) ، (٤) انظر: السنوسية دين ودولة، ص (١٤٢) .

(٥) المصدر السابق نفسه، ص (١٤٦) .

وفي هذا اللقاء تم التصديق بين الرجلين على تأسيس الحكومة السنوسية لتسد الفراغ الذي ترتب على انسحاب تركيا من ولاية طرابلس وملحقاتها[١] ولم يطلب أحمد الشريف من أنور بك غير شيء واحد وهو مساعدته بالأسلحة والعتاد الحربي[٢] ولم يكن المجاهدون في برقة وحدهم الذين قرروا المضي في القتال ورفض الصلح مع إيطاليا على أساس غير الجلاء من بلادهم، فقد أرسل سليمان الباروني برقية إلى مجلس النواب العثماني يعارض فيها باسمه وباسم المجاهدين عقد أي صلح مع إيطاليا لا يكفل انسحابها الكلي من أراضي ليبيا العزيزة[٣] .

انسحب أنور باشا إلى بلاده واستطاع أن يحقق انتصارات للحكومة التركية، وللأسف الشديد استطاعت الصهيونية العالمية والمحافل الماسونية أن تستخدم هذا الرجل في إفساد الخلافة، وإسقاط الخليفة السلطان عبد الحميد الثاني، ولم ينتبه أنه ألعوبة في يد أعداء الإسلام إلا بعد أن سبق السيف العذل، وقد مدح صاحب كتاب «الفوائد الجلية»، وصاحب كتاب «برقة العربية» أنور باشا كثيراً .

لقد اعترف أنور باشا بأنه استغل من قبل أعداء دينه، وأمته وشعبه ووطنه، ولم يكن يدري لقد قال بعد فوات الأوان! إن مصيبتنا قمنا بالانقلاب ونحن آلة في يد الصهيونية ولم نكن ندري؛ كنا أغبياء[٤] .

إنها لعبرة للضباط والزعماء الذين يريدون خدمة شعوبهم الإسلامية أن يعرفوا أين يضعوا أقدامهم؟ وبمن يثقون؟ وكيف يتصرفون؟ حتى لا يندموا حين لا ينفع الندم .

رابعًا: نزول أحمد الشريف إلى ساحات الوغى:

جمع أنور باشا بعد رجوعه إلى الجغبوب الضباط العثمانيين وأبلغهم حقيقة الأمر وسرهم بأن السيد أحمد سيحل بينهم في القريب العاجل، ثم غادر أنور درنة

---

(١) انظر: الحركة الوطنية شرق ليبيا، ص (٤٢) .

(٢) المصدر السابق نفسه، ص (٤١ ، ٤٢) .

(٣) انظر: السنوسية دين ودولة، ص (١٤٢) .

(٤) انظر: السلطان عبد الحميد الثاني ، لمحمد حرب، ص (٦) .

متوجهًا بسيارته إلى السلوم، ومنها إلى الإسكندرية متنكرًا ووصل إلى الأستانة للمشاركة في حرب البلقان[١] .

توجه عزيز المصري الذي تم تعيينه قائدًا للجيش أخيرًا إلى الجغبوب لاستصدار ما يلزم من صاحب القيادة الشرعية، فأكرم أحمد الشريف وفادته وأمره بالرجوع فورًا إلى الميدان الجهادي، وكتب إلى رؤساء الزوايا وشيوخ القبائل وضباط الجيش يأمرهم بامتثال أوامر وكيله القائد الجديد عزيز المصري، وترك أحمد الشريف الجغبوب متهجًا نحو مدينة درنة، ووصل إلى موضع يدعى «الظهر الأحمر» يقع جنوبها، فاستقبل استقبالاً عظيمًا، وبعد استقباله للشيوخ والزعماء طلب منهم أن يعودوا إلى معسكراتهم ثم أصبح بين المجاهدين، وبذل كل جهوده لتنظيم حركة الجهاد أثر الانسحاب العثماني، وكتب منشورًا إلى مشايخ الزوايا والقبائل يعلن فيه استمرارية ومواصلة الجهاد، وطلب من كل مسلم من سن الرابعة عشر حتى الخامسة والستين أن يذهب إلى ميدان الجهاد مزودًا بمؤونته وسلاحه[٢] وقام بتفقد المعسكرات، وأبدى نصائحه وآراءه حول الاستعداد لمواصلة الجهاد بدون الأتراك وأصدر أوامره التنظيمية للمعسكرات والمجاهدين .

عزم الإيطاليون على سحق قوات أحمد الشريف، فدبروا تنظيم حملة قوية قوامها خمسة آلاف جندي مسلح تسليحًا حديثًا لضرب معسكري المجاهدين في سيدي عزيز، وسيدي القرباع على ضفتي وادي درنة، وفي اليوم السادس عشر من مايو سنة ١٩١٣م أي في نفس اليوم الذي وصل فيه أحمد الشريف إلى منطقة الظهر الأحمر جرت معركة مهولة عرفت باسم سيدي القرباع، واشتهرت باسم «يوم الجمعة» وقد تمكن المجاهدون بفضل الله من تحقيق الانتصار الحاسم في تلك المعركة وقد أصيب الكثير من ضباط القوات الإيطالية بالجنون، وجيء على تلك القوة بأجمعها فكسي أديم الأرض بأشلاء الموتى والجرحى والعتاد المبعثر هنا وهناك،

---

(١) انظر: الحركة الوطنية شرق ليبيا، ص (٤٢) .

(٢) انظر: صفحات مجهولة من تاريخ ليبيا ، جامعة الكويت، الحولية الأولى، محمد عيسى صالحية، ص (٧) .

وكانت أول معـركة يخوضها أحـمد الشريف[١] وكان لهذا الانتـصار العظيم أثره في جذب الناس إلى حركة الجهاد وانتسابهم للأدوار[٢] .

خامسًا: الجولة التفتيشية في الجبل الأخضر:

وبعد أن اجتمع برؤساء الزوايا وشيوخ القـبائل شرع أحمد الشريف في جولات تفتيشية ابتدأت من العزيات وانتهت بجدابية، فمر بجميع معسكرات الجبل الأخضر، وفـتشـها واطلع على سـير الأمـور فـيهـا، ورتب أمور الضـباط، ونظم المجـالس الاستشارية بالمعسكرات، ووقعت معارك بين الطليان والمجاهدين أثناء مروره بدواخل البلاد ، فـاشتـرك في الكثيـر منها، وقد لـقي في هذه الجولة من الأتعـاب والمشاق والسهـر، وقد أمضه الجوع، وأضـناه العطش في كثير من الأيام، وكـان لا يبالي بما يلاقيه ولا ينظر إلى التعب إلا بعـين الازدراء ما دام ينظر إلى ما عند الله من الثواب والجزاء، وقد وصـفه الكثيـر من رفاقه بأنه في تلك الحالة كـان باسم الثغر، مبـتهج الخاطر، مرتاح الضمير، ساطع المحيا، صبيح المنظر، لا يركن للراحة، ولا يفكر في رغد العيش[٣] .

يقول شكيب أرسلان عن أحمد الشريف : «. . . اشتهر أثناء الحرب الطرابلسية وقام فـيها المقـام المحمود الذي لـم يقـمه أحد، ولولاه لم يكن أنور، ولا غـيره من أبطال الدفاع عن بر طرابلس أن يعملوا شيئًا . . .»[٤] .

«. . . وقد لحظت منـه صبرًا قل أن يوجـد في غيره من الـرجال وعزمًـا شديدًا تلوح سيـماؤه على وجهه، وقـد بلغني أنه كان في حرب طـرابلس يشهد كثـيرًا من الوقائع بنفسه ولا يقـتدي بالأمراء، وقواد الجيوش الذين يتأخـرون عن ميدان الحرب مسافة كـافية، أن لا تصل إليهم يد العدو فيمـا لو وقعت هزيمة، وفي إحدى المرات أوشك أن يقع في أيدي الطليـان، وشاع أنهم أخـذوه أسيـرًا، وقد سألتـه عن تلك

(١) انظر: الفوائد الجلية، (٢ / ٢٦) .
(٢) المصدر السابق نفسه (٢ / ٣٠ ، ٣١) .
(٣) انظر: برقة العربية، ص (٢٧٠) .
(٤) انظر: حاضر العالم الإسلامي، (٢ / ١٤٤) .

الواقعة فحكى لي خبرها بتفاصيله، وهو أنه كان ببرقة فبلغ الطليان بواسطة الجواسيس أن السيد في قلة من المجاهدين، وغير بعيد عن جيش الطليان، فسرحوا إليه قوة عدة آلاف ومعها سيارة كهربائية، إذ كان اعتقادهم أنه لا يفلت من أيديهم تلك المرة ، فبلغه خبر زحفهم، وكان يمكنه أن يخيم عن اللقاء أو أن يتحرف بنفسه إلى جهة يكون فيها بمنجاة من الخطر، أو يترك الحرب للمجاهدين فلم يفعل . وقال لي: «خفت أنني إن طلبت النجاة بنفسي، أصاب المجاهدين الوهن، فدارت عليهم الدائرة، فثبت للطليان -وهم بضعة آلاف- بثلاثمائة مقاتل واستمات العرب، وصدموا العدو، فلما رأى هؤلاء وفرة من وقع من القتلى والجرحى، ارتدوا على أعقابهم، وخلصنا نحن إلى جهة وافتنا فيها جموع المجاهدين» وقال لي: «وفي هذه الوقعة جرح الضابط نجيب الحوراني، الذي كان من أشجع أبطال الحرب الطرابلسية، كان قائدًا شجاعًا، ولكنه كان يغامر بنفسه في كل وقعة، فجرح مرتين واستشهد في الثالثة رحمه الله»[1] لقد كان في جولاته يشارك الناس في شرابهم وأكلهم، ويصلي معهم، ويجاهد بنفسه بينهم، فقد كان قمة في الصبر والحلم والتواضع والبساطة، والشجاعة، والإقدام، ولا يعرف الخوف إلا من الله وحده سبحانه وتعالى، فقد قوى الله به عزم المجاهدين، وشحذ به هممهم ، ووحد به صفهم وكلمتهم في برقة كلها، ومن الأشعار التي قيلت بمناسبة نزوله إلى ساحات النزال ما قاله حمزة الفقي الجهيني من قصيدة طويلة:

يا ليث «جغبوب» أتيت برقة	والأم ثكلى والدموع هوامي
والأسد في كنف الهلال يظلها	يا ابن البواسل والجروح دوامي
قد عودت أن لا تضام فخاطرت	والعرب لا ترضى سوى الإقدام
والخيل تصهل والوجوه عوابس	والطير غرثى والسيوف ضوامي
قل للصوص تشتتوا فأنا الذي	أحمي الذمار بهمتي وحسامي[2]

(١) انظر: حاضر العالم الإسلامي، (٢ / ١٦٠ ، ١٦١) .

(٢) انظر: برقة العربية، ص (٣٤٢) .

وقد قال أيضًا في قصيدة أخرى:

ولي نفس إذا ما رمت أمرًا ... تحمل جسمها يا قوم مالا
فقالوا: ما وهبت؟ فقلت روحي ... وقالوا: ما بذلت؟ فقلت مالا
ولي قلب «ببرقة» مشتهاه ... يميل مع «السنوسي» حيث مالا
ولي الله مقدام تقي ... إذا ما جئته شمت الجلال[1]

وقد وصف الشاعر الليبي الأستاذ حسين بن محمد الحلافي أعمال أحمد الشريف في الجهاد في قصيدة عصماء قال فيها:

فتاريخ السنوسي الدهر باق ... على رغم الخطوب المبليات
غداة احتل جيش الظلم «ليبيا» ... بنسافاته ومدمرات
فصير بحرها الأسطول نارًا ... وأحرق برها بمفرقعات
وزلزل أرضها بدوي تنك ... وأزعرج جوها بالطائرات
فعاف العيش في ترف وعز ... بعيد عن ضروب المهلكات
ببيت أبدع الصناع فيه ... تحوط به الحدائق باسقات
ينعم فيه بين أخ وابن ... وبين أفاضل كالنيرات
وغادر «تاجه» وسعى إليها ... ونادى معلنًا بين الكلمات[2]
أجيبوا داعي الله استعدوا ... بني قومي إلى حرب الطغاة
دعى فأجابه جم غفير ... وهل حرب تكون بلا دعاة
فضل حياته يسعى ويدعو ... لتوحيد الشعوب على العداة
فكم ليل تطاول لم ينمه ... ولم يعمل به غير الصلاة
وكم يوم طواه بغير زاد ... قضاة على ظهور الصافنات

---

(١) انظر: برقة العربية، ص (٣٤٢).
(٢) التاج: اسم زاوية الكفرة.

بمعـــمعـــة يشـــيب الطفل منـــهـــا ... يضـــيق لهـــولهـــا صـــدر الـــفـــلاة
فلـــم تنظـــر إذا حـــقـــقـــت إلا ... «مـــدافع» كـــالصـــواعق داويات
قنـــابلهــــا تدك الأرض دكًّـــا ... وتقـــتلع الجـــبـــال الـــشـــاهقـــات
فـــاخض الأرض أموات وجـــرحى ... ووارى الشـــمس تصـــنع العـــاديات
وكم يوم «بـــبـــرقـــة» مـــثل هذا ... تســـطره تـــواريخ الثـــقـــاة[1]

لقد طاف أحـمد الشريف بين المدن والقبـائل يحض الناس على الجهـاد وحمل السلاح ضد الغزاة، وحـضر بنفسه في المعارك، ونبه المجاهدين إلى ضـرورة اعتماد حرب العصابات القـائمة على الكر والفر، وأكد لهم صعوبة اعتـماد الخطط السابقة التي كان الأتراك يعتمدونها خلال المراحل الأولى[2] .

سادسًا: مجلس شورى أحمد الشريف:

انتخب أحمد الشـريف - رحمه الله تعالى - بعض أعيان الحـركة السنوسية ممن اشتهروا بنفاذ الرأي، وجودة العقل، وحسن الخلق، وقوة التدين، والمكانة العالية بين الناس ، لرفقته وليكونـوا معه في رحلاته لاستشارتهم في الأمـور الهامة وكان منهم كل من الشيـوخ الآتية أسـماؤهم: محـمد علي بن عبـد المولى، ومحـمد الدرقي، ومحمد بن عمور، وأحمد بن إدريس الأشهب، ومرتضي فركاش[3] .

مساعي إيطاليا لإغراء أحمد الشريف:

أراد عزيز المصـري أن يضعف الصف الجهادي ضـد إيطاليا، فسولت له نـفسه أن يذهب إلى أحمد الشريف ويصور له استحـالة المقاومة وضررها، ونفاد الميرة والذخيرة والأموال، واقتـرح عليه الصلح مع إيطاليا، وسـوف تدفع له لندرة، وروما، وباريس مبلغًـا يليق بمقامـه وشرفـه، وكرامتـه، وأن تكف فرنسـا عن محـاربته في الصـحراء

---

(١) انظر: برقة العربية، ص (٢٧١) .
(٢) انظر: تاريخ ليبيا المعاصر، ص (٩١) .
(٣) انظر: الفوائد الجلية (٢ / ٢٩ إلى ٣٥) .

والسودان، وكان عزيز المصري طلب من أحمد الشريف أن يتنازل عن قطعة الأرض الواقعة بين «بومبا» والجغبوب وبين الحدود المصرية، وترك برقة للطليان، فقال له أحمد الشريف: اسمع يا ولدي إني كنت أقبل عن طيب خاطر التنازل عن القطعة المذكورة وضمها إلى مصر لو كانت حكومة إسلامية حرة أتركها وأنتقل أنا ورجالي إلى الغرب لمحاربة الطليان على بقية برقة حتى أزيل ظلمهم الثقيل عنها دفاعًا عن بقية الإسلام، أما ومصر في قبضة إنكلترا فلا معنى لهذا العمل وإني سأوقام حتى النهاية(١) .

ولقد اطلع المؤرخ محمد الطيب الأشهب على وثيقة تاريخية موقعة من أحمد الشريف بعث بها إلى أنور باشا الذي أصبح وزير الحربية التركية بتاريخ ٢٩ صفر ١٣٣٥هـ عند إبراهيم بن أحمد الشريف، وكان فيها: «أتى الطليان للوطن وراسلني وأرسل إليَّ الأموال الهائلة فرجعتها كلها تعففًا وطلبًا لرضاء الله ورسوله وقمت بمعاضدة الدولة العلية ولله الحمد ، وأمرت كافة أهل الوطن وقمت بجهدي ثم بعد ذلك قدمت بنفسي للجهاد»(٢) .

حاولت إيطاليا أن تضغط على أحمد الشريف بواسطة الخديوي عباس باشا بعد أن فشلت جميع وفودها التي كانت تتوافد على المجاهد أحمد الشريف وتعرض عليه أن تضمن له إمارة هو أميرها، تحت حمايتها أو انتدابها وتكون له منطقة نفوذ تحت سلطانه، وتحتفظ هي بالموانئ والثغور الساحلية فضرب بقولها عرض الحائط وقال: «إنني أقسم أمام جميع المجاهدين على هذا المصحف والبخاري إني لن أنفك أذود عن حياض الإسلام ومجاهدة أعدائه إلى النفس الأخير ما دام معي نفر واحد من المجاهدين، وإذا خانني الجميع وسلموا للعدو أهاجر إلى المدينة لأعيش بجوار جدي الأعلى شاكيًا إلى الله من خيانة الخونة مستنزلاً لعنته عليهم إلى يوم الدين»(٣) .

وقال: «إنني لا أتفاوض مع إيطاليا في بلادي، ولا أتفق معها على تنازلي عن

---

(١) ، (٢) انظر: برقة العربية، ص (٣٠٥) .

(٣) انظر: برقة العربية، ص (٣٠٥) .

شبـر واحد من البلاد، ولا أحيـد عن أحد أمرين إما تحـرير الوطن، وإما الموت في سبيل ذلك» [١] .

وقال: «إنني أعـاهد الله على أن لا أتساهل مع إيطاليا في حق من حـقوق أهل البلاد، ولا أتنازل عن مـقدار حافر حـصاني»[٢] . وكان جـوابه للوفد الذي أرسله الخـديوي عبـاس وكان يتكون من أنجـال محـمـد عبـد المتعـال الإدريسي، كل من السنوسي ومصطفى، وعبد الحميد بك شديد، بأن شروطه للاتفاق مع إيطاليا هي أن تجلو عن البلاد وليس هناك من سبيل غير هذا السبيل للتفاهم[٣] .

سابعًا: خيانة عزيز المصري للمجاهدين:

عزيز مصري رجل عـصبي المزاج حاد الطبع كثير المطامع حـقود، جاء إلى برقة من اليمن، وكـان أول عمله في درنة أن خطب العـرب فقال: «أيهـا الناس إن كنتم مسلمين حقيقة ولديكم ذرة من الشهـامة والشرف، فحاربوا العدو إلى آخر قطرة من دمائكـم» فتكدر العـرب منه وقالوا: «مـا له يشك في ديننا وشهـامتنا ألم يرنـا نهزأ بالموت ونذود عن بيضة الإسلام من قـبله، وها نحن نبلى في الطليان خير بلاء رغم نيران مدافعـهم المتهاطلة كوابل المطر»[٤] . وأراد أنور باشا أن يترك درنة ويذهب إلى بنغازي، فرفض الشـيوخ والزعماء ذلك، وطلبوا منه أن يبـقى ويرسل عزيز المصري أين شاء، وأبو الخضـوع لعزيز المصري، فأرسل أنور عزيـزًا إلى بنغازي، وبدأ عزيز منذ وصوله إلى بنغـازي بالهجوم على أنور خـصوصًا ، والأتراك عمـومًا[٥]، وكان المجاهدون بادئ الأمر لا يحـصون عليه خطواته، ولا يتعقبـونه في حركاته لظنهم به خيـرًا، وعندما وصلت أخـبار مطاعنه إلى أنور قال: إننا في مـصلحة عـامة تذيب الأضغان الشخصية فليستمر في دفاعه عن البلاد، ولو أصبح رئيسها لكنت عن طيب خاطر من أتباعه ما دام ذلك في مصلحة الإسلام وأهله[٦].

بعد سفر أنور باشـا تولى القيادة العامة عزيز المصري واسـتطاع العميل الإيطالي

---

(١) ، (٢) ، (٣) انظر: برقة العربية، ص (٣٠٦) .

(٤) ، (٥) انظر: برقة العربية، ص (٢٧٣) .

(٦) المصدر السابق نفسه، ص (٢٧٤) .

حسن حمادة أن يقنع عزيز المصري بالتفاوض والتعامل مع إيطاليا سرًّا مقابل حطام من الدنيا زائل، وعمل عزيز المصري على خدمة المصالح الإيطالية، وقبل جميع شروطهم، وانكشف أمره للمجاهدين ، فأحرق الأوراق الخاصة بالمجاهدين والأدوات الطبية وجعلها طعمة للنار، ومنع تسليم الأسلحة للمجاهدين وقرر ترك ليبيا وقطع الأسلاك البرقية، والتلفون، حتى لا يجد المجاهدون وسيلة للمخابرة وجردهم من وسائل الدفاع، وأخذ سلاح المجاهدين وجعله في أماكن مطمورة وأوعز إلى الإيطاليين إلى محلها، فدمروها بقنابلهم وغادر درنة ولما وصل طبرق اشتبك مع المجاهدين، وقتل منهم خمسة، وجرح أكثر من ثمانية عشر، وأخذ أسلاب الموتى وحرق ستة من الأسرى المجاهدين، وذبح اثنين منهم كالأغنام، وفي طريقة إلى السلوم التقى بألماظ أفندي يحمل مساعدات للمجاهدين، وكان المبلغ الذي معه تسعة آلاف جنيه، فأخذها منه، وباح بجميع الأسرار الحربية لأعداء الإسلام[١] .

وكان عزيز المصري قد واعد أحمد الشريف بتسليم السلاح والذخائر للمجاهدين قبل رحيله، إلا أنه رفض وتذرع بأنه لا يركن إلى القبائل البدوية ويخشى أن تهاجمه وقواته عزلاء من سلاحها، لقد أثبتت الوثائق البريطانية التي نشرت مؤخرًا صلات عزيز المصري بالمخابرات الإنجليزية[٢] والإيطالية، ولقد قام بحرق الأسلحة التي معه عندما صعد ظهر الباخرة الألمانية التي كانت في انتظاره هناك، ولم يكتف بذلك، فقد أشاع لدى وصوله إستانبول بأن السيد أحمد الشريف قد خان وتنكر للسلطان العثماني ومساعداته، مما جعل أحمد الشريف يوفد سفيره عبد العزيز العيساوي إلى إستانبول ليوضح الحقيقة للمسئولين العثمانيين الذين يعرفون صدق أحمد الشريف[٣] .

ثامنًا: استمرار العمليات الجهادية:

ورغم كل الظروف الصعبة التي مرت بها البلاد عام ١٩١٣م إلا أنها شهدت عددًا من المعارك ضد الإيطاليين في معظم جهات برقة، ومن أشهر تلك المعارك:

---

(١) انظر: برقة العربية، ص (٢٧٩) .

(٢) انظر: الحركة الوطنية شرق ليبيا، ص (٤٥) .

(٣) المصدر السابق نفسه، ص (٤٦) .

معركة شتوان ببنغازي ١٠ مارس، معركة قاريونس يوم ٢٦ مارس، معركة بنينه يوم ١٤ أبريل، معركة الرجمة يوم ٢٢ أبريل، معركة الأبيار يوم ٢٦ أبريل، معركة البويرات يوم ١٨ يوليو بالجبل الأخضر، معركة زاوية ترث يوم ٢٤ مايو غرب القبة بالجبل الأخضر، معركة الصفصاف أول يونيه قرب سيدي حميدة، معركة ١٥ يوليه شمال الأبيار، معركة تاكنسي يوم ١٦ سبتمبر بالجبل الأخضر، معركة سيدي رافع يوم ٢٧ سبتمبر بالبيضاء، معركة المرج ١٩ أغسطس[١] .

ومع بداية عام ١٩١٤م أحاطت بالمجاهدين صعوبات شديدة منها: انقطاع الموارد عنهم من أسلحة وذخائر ومؤن، واستدعاء تركيا لبقية قواتها العاملة في برقة بكامل معداتها، وبقيت البلاد خالية من وسائل الدفاع ومعرضة للهجوم[٢] واستجاب خديو عباس لضغوط وترغيب إيطاليا، وحاول شكيب أرسلان أن يقنع خديو عباس بدعم المجاهدين ، وكان الخديو قد غير موقفه من المجاهدين وخصوصًا بعد الصلح الذي تم بين تركيا وإيطاليا، يقول شكيب أرسلان في رسالة بعثها إلى فضيلة الشيخ محمد الأخضر العيساوي من جنيف في ١٨ سبتمبر ١٩١٦م يشرح فيها ما وقع له عندما قابل الخديو في أثناء سفره من طرابلس ومروره بمصر في طريقه إلى الأستانة للبحث في مصير طرابلس الغرب مع الوزارة العثمانية الجديدة: «وعندما جئت من طرابلس إلى مصر في شهر أغسطس ١٩١٢م وذهبت من مصر إلى الأستانة مسرعًا كان السبب في ذلك أني علمت بأن الدولة قررت الصلح مع إيطاليا فخفت أن تهمل طرابلس تمامًا، فأحببت أن أجعل الدولة تساعد الطرابلسيين بطرق خفية عن يد الأمير عمر طوسون وغيره حتى يستمر الجهاد، ولا تذهب طرابلس، ولما وصلت إلى السلوم قال رجال الحكومة المصرية هناك إن سمو الخديوي أرسل يسأل عني. . »[٣]. ويتحدث الأمير شكيب كيف كانت مقابلة الخديوي له، وكيف سأله عن كل شيء ما عدا الجهاد في ليبيا، وينقل لنا الحوار الذي تم على مائدة الإفطار، وكان بجانب الخديوي حسين باشا رشدي ثم قاضي مصر - وكان تركيًا - والشيخ علي يوسف،

---

(١) انظر: الحركة الوطنية شرق ليبيا، ص (٤٦) .
(٢) انظر: السنوسية دين ودولة، ص (١٥٦) .
(٣) انظر: السنوسية دين ودولة، ص (١٥٢) .

فقال الشيخ علي يوسف: إن الدول قررت عدم إقراض مال لتركيا إذا كانت لا تزال ترفض الصلح مع إيطاليا، فقال شكيب أرسلان: إن تركيا مضطرة أن تتابع الحرب حفظًا لشرفها، فقال الشيخ علي: ومن أين تأتي بالمال؟ فقال شكيب: كل ما تنفقه تركيا على حرب طرابلس هو ٧٠ ألف جنيه كل شهر، والحال أن إيطاليا تنفق في الشهر مليون جنيه، فقال الشيخ علي: إلا أن السبعين ألف جنيه بالنسبة إلى تركيا، كالمليون جنيه بالنسبة إلى إيطاليا، فالدولة لا تقدر على متابعة الحرب، فقلت له: إذا عجزت الدولة فالعالم الإسلامي يقدر على مساعدة طرابلس، فقال: أما نحن أهالي مصر فلا نقدر إذا صالحت الدولة على طرابلس أن نستمر على مساعدة الطرابلسيين إذ يكونون حينئذٍ رعية ثائرة على إيطاليا. قال شكيب: هذا كله يقوله الشيخ علي يوسف لا الخديوي، بل الخديوي كان ساكتًا وقد علت وجهه الحمرة، .. فلما سمعت جدال الشيخ علي هذا غضبت، وقلت له بحدة: لا تساعدون أهل طرابلس فالله يغنيهم عنكم، فانقطع الكلام على أثر هذه الحدة ووجم الخديوي، وصار قاضي مصر يبتسم، وقمنا عن السفرة إلى الصلاة، فأخذني الخديوي بيدي؛ لأنه شعر بكوني تأثرت جدًا، وما زال حتى وصلنا إلى السجادة الخاصة به فتنحى قليلاً إلى اليمين حتى أن السجادة تسعه وتسعني، وكل هذا يقصد به تلطيف خاطري، وأنا لا أعي من التأثر، فلما بدأ الإمام بالصلاة ولم يكن الإمام حاضرًا مجلسنا ولا سمع شيئًا مما دار بيني وبين الشيخ علي ألهمه الله أن يقرأ بعد الفاتحة[1] قوله تعالى: ﴿ **وَلا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا** ﴾ (سورة يونس: ٦٥) .

وبالرغم من كل الظروف وبقاء المجاهدين وحدهم في القتال، وأمام تعدد احتياجاتهم ونواقصهم الحربية، وضغط الإيطاليين عليهم بالتركيز في شن حملات قوية وكبيرة إلا أن المجاهدين استمروا بنفس الروح الجهادية الأولى[2] وكان المجاهدون التزموا الدفاع والتربص بالعدو حتى إذا خرج الطليان من مراكزهم انقضوا عليهم، فأوقعوا بهم شر مقتلة، وغنموا منهم أسلابًا كثيرة أمدتهم في الحقيقة بأكثر

---

(١) انظر: السنوسية دين ودولة، ص (١٥٣) .

(٢) انظر: الحركة الوطنية شرق ليبيا، ص (٤٧) .

الأسلحة والعتاد ودواب التنقل مما كانوا في حاجة ملحة إليه جميعه وظل الحال على هذا المنوال[١] .

تاسعًا : تمركز قوات أحمد الشريف قرب السلوم:

بعد أن سحبت تركيا قواتها وتركت البلاد تخوض جهادًا شعبيًّا، متعمدة على طاقاتها الكامنة، ومقوماتها الذاتية، عقد أحمد الشريف السنوسي اجتماعًا عامًّا لشيوخ الزوايا، ورؤساء الجند، وزعماء القبائل، تدارسوا خلاله الأوضاع العامة في برقة، واحتمالات الحرب، ومدى استعدادهم لمحاربة القوات الإيطالية الصليبية، واستقر رأيهم على الانتقال بكافة القوات الجهادية التي كان يبلغ عددها قرابة السبعة آلاف مقاتل، إلى منطقة إمساعد القرية الحدودية والمتاخمة للحدود الشرقية مع مصر؛ لأن مصر تشكل عمقًا إستراتيجيًّا لقوات المجاهدين، وكانت تأتيها المساعدات من قبل المسلمين بالتهريب عبر الحدود ، وكانت بريطانيا مضطرة لغض البصر على المساعدات التي كانت تصل المجاهدين خوفًا من إثارة الرأي العام الإسلامي ضدها، وخاصة مستعمراتها، إذا ما ظهرت متآمرة على جهاد الليبيين، ومع اقتراب الحرب العالمية الأولى ذهبت بريطانيا للتقرب من أحمد الشريف وحاولت أن تمد جسورها معه، كي تستعمله ورقة ضغط على إيطاليا، لا سيما وأن ملامح الحرب العالمية الأولى كانت قد بدأت تلوح في الآفاق، وكان أحمد الشريف يقظًا لما يجري حوله، فأقام معسكرات التدريب، ورسم خطة للدفاع ، وحماية الشعب، والاستعداد للجهاد، وشرع أحمد الشريف في تشكيل جيش نظامي مدرب، ليخوض به غمار حرب طويلة المدى ضد العدو الصليبي الإيطالي، ومع اندلاع الحرب العالمية الأولى بدأت الدول تتسارع وتتسابق لكسب ود أحمد الشريف وقواته المجاهدة، كانت القوى المهتمة بكسب أحمد الشريف إلى جانبها هي تركيا وألمانيا بالدرجة الأولى، وبريطانيا ومصر بعد ذلك[٢] .

---

(١) انظر: السنوسية دين ودولة، ص (١٥٦) .

(٢) انظر: حوليات كليات الآداب، جامعة الكويت، ص (١٢) .

المبحث الخامس
الحرب العالمية الأولى

في أول عام ١٣٣٣هـ قامت الحرب العالمية الأولى ما بين ألمانيا وحليفاتها النمسا وبلغاريا، وإيطاليا، وما بين بريطانيا وفرنسا وتبعتهم دول أوروبا الصغيرة ما عدا سويسرا، كما انضمت إليها روسيا وأمريكا، وكانت تركيا مترددة في الدخول مع هذا أو ذاك حتى أول عام ١٣٣٤هـ دخلت الحرب إلى جانب ألمانيا وحليفاتها، وفي نفس الوقت قامت إيطاليا وخانت حليفتها ألمانيا، وانضمت إلى صف الحلفاء فرنسا وبريطانيا، وحليفاتهم روسيا وأمريكا، وبدخول تركيا الحرب ضد الحلفاء الذين كانوا يتوقعون منها ذلك تكالبوا عليها، وفتحوا عليها عدة جبهات، فكانت روسيا تحاربهم بالقفقاس، وفي عموم شواطئ البحر الأوسط، والإنجليز في عموم شواطئ البحر الأحمر، واستطاعت بريطانيا أن تفتن أمير مكة الحسين بن علي وتحرضه على الدولة العثمانية وحدثت معارك أضعفت الدولة العثمانية بسبب تلك الأمور[1]، لقد خدعت بريطانيا الحسين بن علي وأعطته وعوداً وأملاً ومنته بإقامة دولة عربية تشمل كامل جزيرة العرب، تحت تاجه، وبذلك أعلن ثورته على الحكومة العثمانية وتابعته قبائل العرب في الحجاز، وشرق الأردن، وأطراف نجد، وبادية العراق، وسوريا وفلسطين، وثاروا على تركيا لثورته، فعمت البلوى، ولم يكتف الحلفاء بهذا كله، فجمعوا قواتهم الجوية، وأساطيلهم الحربية في البحر الأبيض، وفتحوا جبهة الدردنيل وكانت هذه الجبهة هي أشد الجبهات على تركيا وأخطرها، ولذلك كرست ما لديها من المجهود لدفع هذه الجبهة، واستمرت معركة الاستماتة زهاء ستة أشهر، استشهد خلالها ما ينوف عن مائتي ألف جندي للأتراك لكنهم دفعوا العدو إلى البحر[2].

وكانت بريطانيا حريصة على استمالة أحمد الشريف إليها قبيل الحرب العالمية

---

(١)، (٢) انظر: الفوائد الجلية (٢ / ٣٦ - ٣٧).

الأولى، وزاد حرصها بعد اندلاع الحرب الكونية، ويحفظ لنا التاريخ بعض الرسائل من القادة الإنجليز في مصر مرسلة إلى أحمد الشريف فهذه رسالة أرسلها اللورد كتشنر بواسطة بعض عملائهم .

بسم الله الرحمن الرحيم

من عبد الله المتوكل على الله سبحانه وتعالى اللورد كتشنر المعتمد السياسي لجلالة جورج الخامس ملك بريطانيا العظمى بالقطر المصري .

إلى مهبط أسرار الحضرة الربانية، ومصدر صفوة الإرشادات اللدنية صاحب التجليات الأسنية، والنفحات القدسية، قطب دائرة أهل الفضل والكمال، وخلاصة أرباب الحجا والجلال، المتحلي بروحانية أسلافه الطيبين الطاهرين، والمتجمل بصفات أهل الجمال واليقين، والمتخلي عن أوضار الأغيار في مهيع عبادة رب العالمين دوحة الشجرة الهاشمية وبضعة السلالة العلوية، خليفة صاحب ذلك النور القدوسي سيدي أحمد الشريف السنوسي رضي الله عنه وأيده بروح منه .

أما بعد، فإن الفرصة التي دعتني الآن لمكاتبة السيد الجليل أحسبها من أشرف الفرص، وإن كانت القصة الداعية إليها ليست من أحسن القصص على أن السيد الجليل والشريف النبيل خليفة ذلك الإمام المهدي العظيم وولي الله الكريم قد يسره أن ترفع إليه الظلامات ليحقق آمال رافعيها، وأن تصل إليه أصوات الضراعات ليكون ملجأ ضارعيها، ولهذا يسرني أن أكون الواسطة لديكم لرفع مظالم قد ارتكبها من لم تخالط هدايتكم قلوبهم، ولم تستأصل إرشاداتكم العالية من نفوسهم الخاطئة ذنوبهم، ولذلك أكتب لمقامكم الكريم ما يلي:

قد ورد لي من سعادة حاكم السودان العام أن جماعة من عربان الكبابيش التابعين لحكومة السودان ويبلغ عددهم تسعة وعشرين رجلاً قصدوا بير النظرون التابع لمديرية دنقلا، وبينما كانوا عند البئر إذ انقض عليهم عدد عظيم من العربان، بينهم نحو مائة من أهل فزان أتباع الطريقة السنوسية الشريفة، والباقون من أهل

زغاوة والبديات، واعتـدوا عليم شر اعتداء وكان دافعهم إلى هذا الشـر وداعيهم إليه قبل كل أحد زعيم الفزانين، واسمه الشيـخ محمد أبو دوشي الفزاني أحد الخاضعين لسلطانكم والمستـظلين بظل حمايتكم وإحـسانكم إذ ذهب برجاله إلى عـربان غزاوة والبديات ، وطلب منهم الانضـمام إليه لمقاتلة الكبابيش وحـرضهم على ذلك حتى انصـاع إليه جمـع منهم، فبلغ ذلك عـدد عصـابته التي أغـار بها على ذلك النـفر القلائل، ولـم يخف سطوة الله عـز وجل، ولم يذكر أن عمله المنكر فـضلاً عن دونه يغضـب الله وملائكته سـيجلب عليـه سخطكم وغـضبكم الذي هو مـن سخط الله وغضبه، وكأنه لم يكفه أن يكون عدده كثيـرًا كالجيش الجرار، بإزاء جماعة الكبابيش الذين كانوا عند البئر، بل أخذهم غدرًا وفاجـأهم على غرة منهم، فبينما كانوا آمنين لا يحسـبون للشر حـسابًا إذ أطلق عليـهم رجاله من بنادقـهم نارًا حاميـة كادت أن تحصدهم حصدًا، فلما رآهم قد وقفوا أمامهم برهة من الزمن حملوا عليهم بسيوفهم ورماحـهم، فطعنوا في صدورهم، أنـكى الطعنات، وقتلوا بذلك ثمـانية وجـرحوا ثلاثة، وأسروا اثنين، وسلبـوا ما كان معهم من سـلاح ومتاع، ثم استاقـوا جمالهم وعددها مائة وواحد وأربعون بما عليها من الأحمـال غير مبالين بأن يعدوا في شريعة الإسلام من العاثين في الأرض فسادًا، وأن جزاءهم فـيها إذا وجدوا قضاة عدولاً أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديـهم وأرجلهم من خلاف، أو ينفوا من الأرض، إلخ . الآية الكريمة، فيرى السيد حفظه الله ووفقه لإجراء عدله على حكم الله وسنة رسوله الأمين، أن جماعة الفزانين الذين ينسبون أنفسهم لطريقتكم الشريفة، ويعتزون بطول البلاد وعرضها بعـزها قد خانوا الله وخانوا محجة رسول الله البيـضاء، وخانوا عهد طريقتكم السـمحاء، ولـم يبالوا بغـضب الله ولا بغضبكم، ولم يذكروا الـيوم الآخر وحسـابه، وبطش الله وعقـابه، وهذا غريب جـدًا أيها السـيد الكريم، مع مـا يعلم القاصي والداني من خـضوع هؤلاء الأقوام لسطوتكم وائتمارهـم بأوامركم، ومع ما سارت الركبـان والأمثال من أخبـار عدلكم المشهور، وشـدة بأسكم على أهل البغي والعناد، وما تحلى به شخصكم الكريم من صـفات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر التي انتهت إليكم تراثًا عن أسـلافكم العظماء الأكابر ذوي البأس الشـديد، والتاريخ

المجيد، فكيف مع هذا يجرؤ قوم أشداء كثيرو العدد من أتباع طريقتكم الشريفة على الاعتداء على قوم مستضعفين قليلي النفر، فيقتلون منهم الأنفس، ويسلبون الأموال والمتاع، وهم مع هذا يرون أنهم من أتباعكم خليقون بحمايتكم وحسن رعايتكم، لقد كان في وسع حكومة جلالة الملك أن تتخذ في مثل هذا الحادث إجراءات أخرى عظيمة التأثير والأثر على أمثال أولئك الطغاة البغاة، وتضرب بهم الأمثال للناس، وهي لا تعدم الوسيلة لذلك، ولكن بما أعرفه عن سيادتكم من حب العدل والإنصاف، والغيرة على إقامة معالم الشريعة الغراء في البلاد والجهات التي يصل لها نفوذكم، وتمتد إليها سطوتكم، قد فضلت أن أراجع مقامكم السامي في هذه النازلة، لرفعها طبق ما يقتضيه العدل الإسلامي الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

فإذا شاء السيد حفظه الله تحقيق آمالي في عدله وإنصافه فما أسهل على حضرته أن يأمر تابعيه بكف الأذى عن جيرانهم، وإخوانهم في الدين، وأن يكلف أولئك المعتدين بردِّ الجمال والأحمال التي سلبوها مع دفع التعويضات كما يراها السيد بالحق الدية للمقتول، والتعويض للمجروح، ظلمًا وعدوانًا، ولست أظن أنه يوجد من الموانع ما يحول دون توقيع هذه الجزاءات على مستحقيها عند فضيلة السيد، ولكن إذا كان هناك مانع لا أعرفه فإنني أرجو من حضرته الكريمة أن تشرفني بإفادتي عن الطريقة التي يحسن اتباعها للوصول إلى تلك الغاية من غير أن يمس كرامتكم التي أودّ أن أحافظ عليها دائمًا وأطلب من الله المزيد فيها، وقد أرفقت بكتابي هذا بيانًا مشتملاً على أسماء الأشخاص المعتدى عليهم من عرب الكبابيش، ومن قتل ومن جرح منهم، لتكونوا على بينة من الأمر، ولتجروا العدل فيهم، كما أمر الله، جعلكم الله ملاذًا أعلى لتحقيق عدله بين خلقه وأمدكم بروح منه، ما دامت إحساناته إليكم متواصلة وعنايته بكم شاملة، ونفعنا الله ببركاتكم على الدوام آمين[1].

(اللورد كتشنر باشا)

---

(١) انظر: حاضر العالم الإسلامي (٢ / ١٢٩ إلى ١٣١).

بغض النظر عن حقيقة هذه القصة التي في الرسالة، إلا أننا نجد فيها أمورًا مهمة منها: اهتمام الإنجليز بشخصية أحمد الشريف واحترامها ومحاولة كسبها واستمالتها، ونجد أيضًا استعانة الإنجليز بالعرب الأدباء ليكتبوا لهم ما أرادوا توجيهه لسيادة أحمد الشريف - رحمه الله - وهذا أسلوب إنجليزي معروف، فيحاولون إيجاد ثغرات ومنافذ في كيان الأمة والسعي الدءوب في تضعيفها، وتمزيقها، فقد نجحوا مع أمير مكة الحسين بن علي، وهم الآن يحاولون مع أحمد الشريف، كانت بريطانيا حريصة على جذب السيد أحمد الشريف إلى معسكرها، أو تحييده، وكانت حريصة على أن تكسب الشعوب الإسلامية، وأنها تعمل على مساندة حركة المجاهدين المسلمين في ليبيا، فتخدر بذلك مشاعر المسلمين في مصر والهند، وغيرها، وأظهرت تعاطفها مع أحمد الشريف للضغط على إيطاليا، وتضعيف تحالفها مع ألمانيا في حربها المنتظرة .

أولاً: إقحام أحمد الشريف في الحرب:

بعد دخول تركيا الحرب العالمية الأولى بجانب ألمانيا، رأت الحكومتان التركية والألمانية الاستفادة من جهود السنوسيين لتشتيت القوات الإنجليزية وفق خطة لاحتلال قناة السويس وتطهير مصر من الوجود الإنجليزي، ولتحقيق هذه الغاية بعث أنور باشا إلى أحمد الشريف يبلغه أن السلطان العثماني قرر منحه النيابة عنه في إفريقيا، ويخوله ما له من نفوذ مطلق مدنيًا، وعسكريًا، مثل حق إعطاء الرتب، والنياشين، والعفو عن المحكومين، والتولية والعزل، دون الرجوع إلى الباب العالي بإستانبول، ثم وصل إلى برقة الضابط العثماني أخو أنور باشا «نوري باشا» ومعه الأوسمة الرفيعة والنياشين، وقابل أحمد الشريف قرب السلوم وسلمه رسالة أخيه أنور التي كانت تحمل نبأ إعلان الحرب، وتعيين السلطان له نائبًا عنه في إفريقيا الشمالية[١] ، وفي نفس الفترة وصل برقة الضابط الألماني مانسمان[٢] الذي كان معه كتاب خاص

---

(١) انظر: الحركة الوطنية شرق ليبيا، ص (٥٠) .

(٢) مسئول المخابرات الألمانية في المغرب العربي .

من إمبراطور ألمانيا إلى أحمد الشريف، ويحمل نيشانًا رفيعًا منحه الإمبراطور إليه، كما وصلها أيضًا جعفر العسكري[١].

وكان هؤلاء الضباط مستائين من سياسة أحمد الشريف تجاه الإنجليز، لأن ذلك يخالف أغراضهم التي جاءوا من أجلها، وبذل نوري باشا ورفقاؤه جهودًا مضنية للتأثير على أحمد الشريف كي يهاجم الإنجليز، فأخفقوا أمام إصرار أحمد الشريف عن الامتناع، ووصلت عدة كتابات من أنور باشا يبين فيها للسيد أحمد الشريف فوائد الصدام مع الإنجليز، والاصطدام بهم ورد عليه أحمد الشريف بتقرير بتاريخ ٢٩ صفر سنة ١٣٣٥هـ جاء فيه : «... حرب يأتيك - يقصد به حرب الطليان - وحرب تأتيه - يقصد بها حرب الإنجليز - فالحرب الذي يأتيك يجب عليك مدافعته بأي حالة كانت، والحرب الذي تأيته يجب عليك الاستعداد له»[٢] .

ويوضح تقرير أحمد الشريف أنه مهتم بأمر حرب الطليان الذين جاءوا إلى أرضه، وأنه يجب عليه أن يركز جهوده عليها من أجل تحرير بلاده، وفي نفس الوقت فهو غير مستعد لإعلان حرب جديدة لا قدرة له عليها، ولا تسمح له ظروفه الحربية والسياسية، والاقتصادية القيام بها .

وهناك سؤال يطرح نفسه في نص تقرير أحمد الشريف وهو ماذا يقصد بعبارة «يجب عليك الاستعداد له» إن أحمد الشريف يؤكد لأنور وزير الحربية من خلال هذا التقرير أنه يجب الاستعداد لهذه الحرب، إن أحمد الشريف كان لا يريد الدخول في حرب إلا مع أعدائه الإيطاليين المحتلين للأراضي الليبية، وخصوصًا أنه يريد أن يحافظ على علاقته الجيدة مع الإنجليز الذين كانوا قد تركوا السنوسيين وشأنهم ولم يعتدوا عليهم ، «وكان حيادهم على جانب عظيم من الأهمية بالنسبة لحركة الجهاد؛ لأن جميع ذخائر المجاهدين في الجبهة الشرقية كانت تأتي من مصر حيث كانوا يتمتعون بعطف الشعب كله»[٣] وقد ترك الإنجليز المجاهدين يبيعون الأسلاب التي

---

(١) قائد تركي أصله عراقي أسر في هذه الحرب عام ١٩١٦م .

(٢) انظر: برقة العربية، ص (٣١٤) .

(٣) انظر: الطريق إلى الإسلام، محمد أسد ، ص (٣٣٦) .

غنموها من الطليان في ميناء السلوم، وحرصوا على أن تكون العلاقة بينهم وبين السنوسيين جيدة، فكانوا يبعثون الهدايا والكتب ومعها رسائل الاحترام والتقدير لشخصه وبلاده، كما أن أحمد الشريف نفسه كان يجامل المسئولين الإنجليز لتأمين حدود بلاده وسلامتها أولاً ، ثم لقضاء حاجياته من مصر، فقد كانت تصنع فيها ألبسة رجال جيشه وكان بعض العتاد والذخائر يصل إليها منها[١] .

كان أحمد الشريف مشفق من التورط في أمور هو في غنى عنها في ذلك الوقت بالذات، ولذلك فقد طلب من الشيخ محمد سوف المحمودي الذي وصل من تركيا أن يسافر برجاله إلى طرابلس، وأن يقيم معسكراً بمجرد وصوله إلى هناك لمواصلة حرب الإيطاليين، وقد منحه أحمد الشريف رتبة بكباشي شرف تقديراً لشخصه وجهاده، وأطاع الشيخ سوف الأمر، وسافر برجاله إلى طرابلس، وذلك في أوائل شهر يناير سنة ١٩١٥م .

إلا أن منظمة تشكيلات مخصوصة وهي تابعة للمخابرات العسكرية العثمانية يعرفها البعض: «بأنها منظمة عثمانية سرية غامضة مهمتها الأساسية الأمن الخارجي للإمبراطورية العثمانية، ومكافحة التجسس الأجنبي عليها وكان لمعظم المنتسبين إليها الصفة العسكرية[٢] حاولت هذه المنظمة أن تجعل من أحمد الشريف آداة طيعة تستغلها حسبما تمليه مصالح الإمبراطورية العثمانية، وليس حسبما تقتضيه مصالح ليبيا والمتمثلة في تحريرها من الاستعمار الإيطالي، وكانت الحكومة التركية قد أرسلت بعض أنصارها الذين هم من ولاية طرابلس الغرب، وكانوا قد هاجروا إلى تركيا بعد فشل المجاهدين في معركة جندوبة سنة ١٩١٣م وكان من هؤلاء الشيخ سليمان الباروني، عضو مجلس المبعوثان ، وزعيم الجهاد الطرابلسي في الفترة الأولى ١١ / ١٩١٣م وكان الشيخ الباروني: «عثماني الميول وهو على علم بالمخطط التركي لغزو مصر، وإعداد حملتين لها شرقية وغربية وإخراج الإنجليز منها، ثم تحرير

---

(١) انظر: الحركة الوطنية شرق ليبيا، ص (٥٧) .
(٢) المصدر السابق نفسه، ص (٥٣) .

طرابلس بعد إخراج الطليان منها..» وقد عبر عن هذا عند وصوله إلى برقة وسأله هلال محمد الشريف السنوسي وهما بالسلوم عن شعر رأسه الطويل، وهو رجل متقدم في السن وصاحب منزلة كبيرة، ما هذا الشعر يا باشا؟ فردّ الباروني سأجيبك بقصيدة من شعري؛ لأنه أجمل من شَعْري.. وكان مما قال:

هذا هو الشعر الذي	شهد الحروب الهائلات
وعليه أمطرت القنابل	كالصواعق نازلات
خاض المعامع لا يهاب	على الجياد الصافنات
حبًّا بتطهير المواطن	من بني الإيطاليات
آليت أن يبقى إلى	أن يعبر الجند القناة[1]
لنرى الغزاة على ضفاف	النيل تفتك بالبغاة
ونرى طرابلس العزيزة	في ليال باهرات
تختال في برد الهنا	بالانتصار على الطغاة
وتسود أعلام الخليفة	في البلاد الضائعات
ونرى الهلال متوجًا	جزر المحيط الخالدات
إذ ذاك يحلق بين	أفواج الأعاظم والغزاة
ما بين تهليل وتكبير	وتقديم الصلات
فيكون عنوان الفتوح	مدى العصور الدائرات
أو هكذا يبقى إذا	لم ننتصر حتى الممات
يا من وعدت المسلمين	النصر امنن بالحياة[2]

عزمت المنظمة العثمانية على الزج بقوات أحمد الشريف في حرب لم يكن في حاجة إليها، خاصة في ذلك الوقت، ولما يئست هذه المنظمة من إقناع أحمد الشريف

---

(١) القناة: قناة السويس في مصر .

(٢) انظر: الشهيد، العدد الخامس، ١٩٨٤م، ص (١٤٦) .

بتلك الحرب، اتجهت نية ضباط تشكيلات مخصوصة إلى الخلاص من أحمد الشريف، وأعدت انقلابًا ضده، وتفجير خيمته، ووضع بديل له من العائلة السنوسية، يكون أسهل انقيادًا وانصياعًا لمخططات هذه المنظمة، وتم إعداد المؤامرة إلا أنه اكتشف أمرها، وألقى القبض على المتهمين، وأمر أحمد الشريف البقية من مهاجري طرابلس بأن يسافروا إلى بلادهم بسرعة للانضمام إلى الشيخ محمد سوف، وأنذر أحمد الشريف من يخالف أوامره بالإعدام، فنفذت كاملة، وهدأت الحالة، وكان ذلك في شهر فبراير عام ١٩١٥م[(١)] ووصل الأمر بأن اتهم أحمد الشريف بأنه ممالئ للإنجليز سرًا، وفي مقابلة مع أحمد الشريف قام بها الضابط المصري محمد صالح حرب قبل نشوب الحرب ، سأل الأخير أحمد الشريف عن حقيقة موقفه، فأجابه: «. . . إن الأتراك إنما يريدون أن يورطوه في حرب مع الإنجليز قبل أن يستعد لها، وأنه لا يمالئ الإنجليز محبة فيهم أو تقربًا منهم، ولكن مصر هي الباب الوحيد المفتوح الذي تأتيه منه الأرزاق التي يستطيع بسببها متابعة القتال ضد الطليان، فإذا قفل هذا الباب تحرج موقفه، وأنه لم يستدع الأتراك إلى ليبيا إلا ليجلبوا معهم الإمدادات الكافية والتي يكون فيها الغناء عن ذلك المفتوح، ولكن هؤلاء حضروا وليس معهم أية إمدادات أو أرزاق أو مال، ومع ذلك فهم يطلبون منه كل يوم القيام بحركة ويلحون في هذا الطلب، مع العلم أن بدء الحركة قبل أن يحين الوقت الملائم يعود بالشر والوبال على الجميع، وختم السيد أحمد قوله: «وإني أصرح لك بأنه لا سلاح ولا ذخيرة، ولا مال ولا أرزاق كافية لدينا، وأنا ليس في نيتي أن أحارب الإنجليز»[(٢)] .

استمر ضباط منظمة تشكيلات مخصوصة في مهمتهم الرئيسة لإقحام أحمد الشريف في حرب ضد الإنكليز وقد اعترف نوري باشا بأنه صار مرغمًا بسبب سكوت أحمد الشريف على تدبير المخطط لقصم العلاقات القائمة بينه وبين

---

(١) انظر: الحركة الوطنية شرق ليبيا، ص (٥٩) .

(٢) انظر: السنوسية دين ودولة، ص (١٦٧) .

الإنكليز، وبادر الأتراك سريًّا بمهاجمة المراكز البريطانية، وزوروا أوامر أحمد الشريف إلى ضباط العرب وعساكرهم ووقع ما وقع[١] وأرسل الأتراك سعادة إلى مصر يقولون: إن أحمد الشريف يأبى الزحف إلى مصر مداراة للإنكليز مع أنه حضر من الأستانة لأجل إعداد حملة على مصر وإنقاذها من أيدي الإنكليز، فصارت تتوارد من مصر الرسل إلى أحمد الشريف تعاتبه على موقفه هذا[٢] .

وعلى العموم فإن الأمور تلاحقت، وتتابعت الحوادث على الحدود بفعل التأثيرات الشديدة للحرب وضغوطها على الجانبين، فلم يكن بمقدور أحمد الشريف صد تيار الانجراف ، فحدث ما حدث دون أن تكون له سيطرة على زمام الأمور، وحاول الإنكليز تدارك الموقف بالطرق الدبلوماسية، تجنبًا للعنف والصدام مع السنوسيين وتقليلاً لعدد خصومهم وأعدائهم، في وقت كانت الحرب العالمية الأولى على أشدها، فاتصلوا بالسلطان حسين كامل «سلطان مصر» وأطلعوه على ما جرء وراء الحدود، ورجوه أن يعمل للإصلاح والتوفيق ولإقناع أحمد الشريف بالتزام الحياد، والتنبيه إلى خطورة الاستماع إلى الأتراك والألمان، فأرسل السلطان حسين كامل وفدًا برئاسة محمد الشريف الإدريسي نجل عبد المتعال بن أحمد بن إدريس، وكانت معهم رسائل من السلطان حسين كامل، ومن السير ماكمهون نائب ملك الإنكليز في مصر، ومن الجنرال ماكسويل قائد جيش الاحتلال البريطاني في مصر، وتدور الرسائل حول فكرة النصح للسيد أحمد الشريف بالتزام الحياد[٣] .

وهذا نص الرسالة التي أرسلها الجنرال السير جون مكسويل القائد العام لجنود جلالة ملك بريطانيا العظمى:

مصر في ٣ ديسمبر سنة ١٩١٥ / ٢٥ محرم سنة ١٣٣٤هـ .

حضرة الأستاذ الأعظم السيد أحمد الشريف السنوسي الخطابي الإدريسي الحسني دام وجوده الكريم .

(١) انظر: برقة العربية، ص (٣١٥) .

(٢) انظر: الحركة الوطنية شرق ليبيا، ص (٦٣) .

(٣) انظر: الحركة الوطنية شرق ليبيا، ص (٦٥) .

تحيـة وسلامًا وبعد ، فـقد أدهشني ما وجـدته بعد عودتي إلى مـصر من زيارة الجيوش المتحـالفة في غليبولي ، إن العلاقـات بيننا قد حدث فيها تغـيير، وأن أتباع سيادتكم قد ارتكبوا أعمالاً عدائية ضد الحكومة المصرية .

وقد سمعت بارتيـاح أنكم أرسلتم كبيرًا من مستشـاريكم إلى البراني ليسعى في إرجاع بعض أتبـاعكم الذين عصوا أوامـركم، ولكني تعجبت إذ سـمعت أن هؤلاء الأتباع قد تمادوا في العصـيان، حتى أنهم لم يطيعوا الأوامر فـقط، بل أطلقوا فعلاً على جعفـر أفندي، هذا وقد بلغني أيضًا ما أهمني وهو أن سبـعين رجلاً من رعايا الدولة الذين نجوا من مركب غرّقته العدو قـد حجزوا غرب حدودنا، فأسألكم برهانًا على العواطف الودية التي أظهرتموها لنا أن ترسلوا هؤلاء الرجال المنكوبي الحظ حالاً بدون أذى إلى مـرسى مطروح، وهذا ويظهـر أن نفوذ نـوري بك وأصدقـائه الألمان عليكم يشبه نفوذ أنور باشا على جـلالة سلطان تركيا ، وهذا النفوذ الضار هو الذي زج تركيـا في الحرب المهلكة والتي ستنتـهي حتمًـا بزوال دولة الأتراك من الوجود، إنكم تعلمون أن الحكومـة المصرية والحكومة البريطانيـة عاملتا سيادتكـم بكل اهتمام واحتـرام ، وأما الآن فقد اضطررت بسـبب المقاصد السـيئة التي تحيط بسـيادتكم أن استدعي رجـالي من نقطة السلوم، واتخذ لهم مركـزًا في مرسى مطروح ، وعليكم الآن أن تبينوا بأعمالكم وأعمال أتباعكم إذا كنتم تحبون بقاء العلائق الودية أم لا .

ومن الآن وصاعدًا كل رجل من أتباعكم يتعدى الحدود حاملاً سلاحه اضطر أن أعده كمن له مقاصد عدائية وأعماله كذلك، لقد سألتكم أن تظهروا مقاصدكم الودية بإبعاد الأشخاص الذين معكم الآن المعروفين بعداوتهم لنا، وأنا أتأسف أن أرى أنكم لم تتمكنوا إلى الآن من إبعادهم ، إني لا أشك أن السيـد محمد الشريف الإدريسي قد سلمكم كتابي، وفاوضكم في جميع الشئـون التي ولج إليه مفاوضتكم فيها، ولا أشك في أنه بين لكم مـقاصدنا نحـوكم ودية محـضة، وأن ما أوجب التـغـيير في العلاقات بيننا هو أعمال صدرت من جهتكم لا من جهتنا، ولا يسعني إلا الظن بأن الدساسين قـد نقلوا أخبـارًا كاذبة عن الحرب الأوروبيـة، والحقـيقة هي أن خـسارة

إمبراطور الألمان وحلفائه بطيئة ، ولكنها أكيدة على جميع خطوط القتال والمستقبل يريكم ما أراد الله .

وإني أسألكم أن تمعنوا النظر في الأمر وتعتبروا أنه إذا اتخذتم بسوء الحظ خطة عدائية فإنكم لا تجلبون عليكم إيطاليا، بل فرنسا، وإنكلترا، ومصر، وتتحملون مسئولية جميع النفوس التي تضيع في هذا السبيل، وتعرضون بلادكم للجوع، إذ تسد عليكم طريق الزاد والمؤنة برًّا ، وتحصر الشطوط البحرية، وإذا كان مستشاروكم يعتمدون على غواصات الأعداء فاعتمادهم قائم على لا شيء، وأنى لكم ذلك كله ليس بقصد التهديد، بل بقصد «النصيحة» كصديق، والأتراك يقضون بكم مأربهم ، ثم ينبذونكم نبذ النواة وراء ظهورهم .

إن الحالة الحاضرة لا يمكن أن تبقى على ما هي عليه الآن، ولذلك فإني أسألكم أن تبرهنوا حسن مقاصدكم، بالأعمال، وليس بالأقوال، وأن ترسلوا حالاً إلى مرسى مطروح الرجال الإنكليز الذين نجوا من مركبهم وهو الآن غرب حدودنا، وأن تعيدوا العلاقات الودية معنا، وأن تخرجوا من بلادكم المستشارين الأتراك والألمان، أي نوري بك ومانسمان وغيرهما من الذين لا شك في أنهم يجلبون عليكم وعلى بلادكم بلاءً عظيمًا، ولي الرجاء أنكم توفون هذه المسائل حقها من الاهتمام قبل أن يقع ضرر ولا يمكن تلافيه[١] .

وقد كلف الجنرال ماكسويل رئيس الوفد بأن يبلغ أحمد الشريف باسم حكومته بأنها إذا انتهت الحرب العظمى الأولى، ولم يشترك فيها أحمد الشريف، وحافظ على الحياد، فإن إنكلترا تتعهد بأن تساعده في الحصول على استقلال بلاده وتوفق بينه وبين إيطاليا، كما أنه سيكون أعظم شخصية عربية في البلاد العربية ومرجعًا لأمراء العرب، وكبرائهم[٢] .

واستمرت جهود ضباط منظمة تشكيلات مخصوصة لإشعال نار الحرب على

---

(١) انظر: حاضر العالم الإسلامي (٢ / ١٣٢، ١٣٣، ١٣٤) .

(٢) انظر: جهاد الأبطال، ص (٢٦٤) .

الحدود، واستمالوا بعض العناصر بالوعود، والمال والذهب، ومن هؤلاء الذين تأثروا بدعاية الأتراك «أحمد مختار الطرابلسي وأبو القاسم وآخرون»[١] .

وكان هؤلاء الضباط قد هاجموا القوات الإنكليزية قرب السلوم، وكان كل هذا يجري دون علم أحمد الشريف، وفعلاً هاجم المسلحون نقطة حراسة القوات الإنكليزية في السلوم، وعلم أحمد الشريف بالحادثة في صباح اليوم التالي، فتأثر لذلك كثيرًا، واضطرب اضطرابًا شديدًا، وحاول إصلاح الموقف ، إلا أن الأمور سارت بما لا تشتهي، وانفرط زمام الموقف من يده فوجد نفسه هدفًا لهجوم مضاد من قبل الإنكليز، فما كان منه إلا أن يقبل الأمر الواقع الذي أوقعته فيه ضباط منظمة تشكيلات مخصوصة[٢] .

وكانت الأحداث تتجاذب أحمد الشريف بشدة، وتضعه في جملة من المواقف الحرجة منها :

١- أن تركيا مسلمة وهي تمثل الخلافة الإسلامية في نظره، وكان طبيعيًّا أن يميل إلى الإسلام والمسلمين ومساعداتهم .

٢- إن قوة الألمان العسكرية، وانتصاراتهم الباهرة مع بداية الحرب العالمية الأولى أقنعت بصورة أو أخرى أحمد الشريف بقوة ألمانيا العسكرية، وبأنها ستحقق النصر النهائي على قوات الحلف «فرنسا وبريطانيا وإيطاليا» .

٣- إن وعود بريطانيا للسيد أحمد الشريف بالتنازل له عن بعض الواحات هي وعود شفوية، أو كتابية فقط، ولن ترى النور، ولن تخرج إلى حيز التطبيق العملي مطلقًا ، وهذه هي عادة بريطانيا التي كانت تطلق وعودًا غامضة متكررة ومتناقضة تصدر تحت ضغط الحرب .

٤- كان أحمد الشريف مدينًا بالولاء الودي والجميل للأتراك، فهم الذين قاتلوا

---

(١) انظر: الحركة الوطنية شرق ليبيا، ص (٦٦) .

(٢) المصدر السابق نفسه، ص (٦٦) .

وجاهدوا مع الليبيين في برقة وطرابلس، وله ارتباطات متينة مع كبار الضباط الأتراك، وعلى سبيل المثال كعلاقته مع أنور باشا وزير الحربية، كما أنه أصبح نائب السلطان «بحكم فرمان سلطاني» في شمال إفريقيا .

٥- إن وعود الأتراك «الباب العالي - السلطان - وزارة الحربية - كبار الضباط- منظمة تشكيلات مخصوصة. . » للسيد أحمد الشريف بتزويده بالسلاح والعتاد، والمال، وكل مستلزمات الحرب، كانت وعودًا صادقة في البداية، وكان في تصور أحمد الشريف أن ذلك العون سيستمر حتى تحرير البلاد، وخصوصًا أنهم بعثوا له بعض العون عن طريق الغواصات الألمانية قبل قيامه بإعلان الحرب ضد الإنكليز في مصر.

٦- التقت مصلحة أحمد الشريف ومصلحة الأتراك والألمان في شيء واحد، ينتفعون جميعًا من فعله، والقيام به، ألا وهو محاربة إيطاليا؛ لأنها عدوة لهم جميعًا في تلك الفترة[١] .

ورغم كل ذلك ومهما كانت الظروف، فإن قراره بمهاجمة الإنكليز عبر الحدود المصرية، كان قرارًا سريعًا رغم أن السيد أحمد قد رفضه وبشدة في البداية، لأنه على يقين أن ذلك الهجوم لا يتمشى مع مصلحة بلاده، فإن الأتراك والألمان كانوا ينظرون إلى الحرب في شكلها المتكامل، والتي لا تمثل طرابلس إلا جبهة فرعية في تلك الاستراتيجية، اتخذوا من أحمد الشريف مطية لتحقيق أغراضهم، ونحن نستغرب موافقة السيد أحمد على الدخول في تلك الحرب، فهي خارج بلاده، وتنقصه العدة، والأسلحة، كما ليست ضد إيطاليا المحتلة لوطنه، لقد كان خطأ في الحكم والتقدير من رجل محنك صقلته التجارب، وابتلته الأحداث، وكان له في ميادين السياسة والحرب صولات وجولات .

كان يجب عليه أن يتعاون مع الأتراك والألمان ضد إيطاليا لتحرير بلاده أولاً [٢].

ومهما يكن من أمر فإن الظروف لعبت دورها واشترك أحمد الشريف بقواته،

---

(١) انظر: الحركة الوطنية شرق ليبيا، ص (٦٠،٦١) .

(٢) المصدر السابق نفسه، ص (٦٠، ٦١) .

وسار بجيشه وعدده أربعة آلاف مسلح وكان معه نوري باشا قائدًا أولاً وجعفر العسكري قائدًا ثانيًا، وغرضهم الهجوم على السلوم، وجهز الإنكليز جيشًا بلغ تعداده ثلاثين ألفًا من مشاة وفرسان .

وقامت الحرب بالفعل في نوفمبر سنة ١٩١٥م، وأخذت الفرق العسكرية النظامية والمتطوعة تنحدر إلى الأراضي المصرية، وبدأت القيادة في إعلان وجوب اشتراك رجال القبائل المصرية في الحرب ضد الإنكليز المحتلين لمصر، والوقوف إلى جانب الدولة العثمانية[١] .

وكان الضابط المصري محمد صالح حرب تابعًا للقوات الإنكليزية، فجمع الرؤساء والمشايخ وخاطبهم قائلاً: «نقف اليوم بين معسكرين: الإنجليز أعداء الله والوطن الذين رفعوا علينا الحماية، والآخر معسكر العرب والأتراك الذين يقولون إنهم جاءوا ليخلصونا ، وقد أقنعني ضميري وواجبي الديني بعدم البقاء مع الإنكليز، وقد خرجت في سبيل الجهاد ضدهم، فمن كان منكم يحرص على حياته أو تلزمه أية مسئولية عائلية بالعودة إلى مرسى مطروح فإنني لا أحول بينه وبين العودة، إنما شريطة أن يترك ما معه من سلاح ومؤونة. . »[٢] .

فلم يرغب أحد منهم في العودة، بل أبدوا جميعًا التصميم على البقاء إلى جانب رئيسهم، وعاهدوه على الجهاد والثورة التي بدأت بصورة علنية، واستجاب لها بعض عرب قبائل أولاد علي، وبغض النظر عن عدد هذه القوة التي انضمت لقوات السيد أحمد، وغالبًا ما كانت تقدر بحوالي مائة وخمسين جنديًا[٣] ، فإن هذه القوة المنظمة للمجاهدين أعطتهم دفعًا جديدًا وأججت في نفوسهم الرغبة لمنازلة الإنكليز وتحرير الديار من نير المستعمرين .

بدأ هجوم المجاهدين والأتراك على القوات الإنكليزية عند حدود مصر، ودارت

---

(١) انظر: الحركة الوطنية شرق ليبيا، ص (٦٩) .
(٢) انظر: السنوسية دين ودولة، ص (١٧٣) .
(٣) انظر: منظمة تشكيلات مخصوصة، عبد المولى الحريري، مركز الدراسات العربية، عام ١٩٧٩م، ص (٣٦) .

معارك طاحنة من أشهرها معركة وادي مـاجد في أواخر شهر ديسمبر عام ١٩١٥م، ومعركة بوتونس التي قال فيها ضابط بريطاني شارك في هذه المعارك: «... لقد قام العدو بعـزم شديد ومـقاومة عنيـفة ودام القتـال من أجل إحراز قـصب السبق أربع ساعات تحت نيران البنادق التي كان العدو يستخـدمها بنجاح ودقة بقيادة ضباط أتراك وألمان، وعلى حين كـنا نحـاول بشق الأنفس أن نصـمـد دبـت الفـوضى في صف الفرسان على الميسـرة، عندها قويت شوكة العرب الذين كانوا يـجابهون هذا الجانب من صف الفرسان...»[١].

إلا أن المجاهدين كان ينـقصهم الدواء واللباس، والذخيـرة، والسلاح، ولذلك تأثرت بقية المعـارك ونتائجها تبعًا لذلك، فـأخذ المجاهدون في الانسحاب والتـقهقر اضطرارًا، وبذلك النـقص والانسـحـاب تأزم الموقف، ودب الخـلاف بين أحـمـد الشريف ونوري باشا، لتفـاقم واشتداد الضرر الاقتصادي في مـعسكر المجاهدين وما حوله بشكل تجاوز حـد الاحتمال[٢] ولذلك عقـد أحمد الشريف اجـتماعًا عـاجلاً لوضع حد معين لهذه الاحتجاجـات والنواقص ولدراسة الأحداث من كل جوانبها، وعقد الاجـتماع في أواخر يناير ١٩١٦م، في خـيمة أحمد الشـريف وحضره نوري باشا وجـعفـر العسكري عن الجـانب التركي، ومحـمد صـالح حرب عن الضـباط المصريين، وثلاثة من كبـار رجال السيد أحمد الشريف الـذي ترأس ذلك الاجتماع، وكانت تبـدو على أحمـد الشريف عـلامات الانفـعال والغضب، وألقى نـقده على الضباط الأتراك الذين تسرعوا في بدء العمليـات العسكرية بالرغم من عدم استكمال الاستعدادات الـلازمة لها، وكان مما قاله موجـهًا حديثه لنوري وجعفـر: «لقد قفلتم فمن أين نتنفس؟..»[٣] وقد ختم أحمد الشريف حديثـه مخاطبًا «نوري وجعفر» : «فمـا رأيكم وقد أوصلتـموها إلى هذا الحال .. وظهـر إني كنت على هدى وكنتم على ضلال»[٤].

---

(١) انظر: كفاح الشعب الليبي في سبيل الحرية، عبد الرحمن عزام، ص (٣٨،٣٩).

(٢)، (٣) انظر: الحركة الوطنية شرق ليبيا، ص (٧٨).

(٤) انظر: السنوسية دين ودولة، ص (١٧٦).

وتناول الحديث محمد حرب بعد ما تكلم ضباط الأتراك وانتقد الخطة الحربية العامة للضباط الأتراك، وكان رأيه مناقضًا لما ذكره «نوري وجعفر» ذلك أن التقدم من جهة الساحل «قرب البحر» وعلى أرض تكاد تكون مكشوفة بالكامل يُمكن - حسب رأيه - القوات الإنكليزية على قوات المجاهدين، وتسليط نيرانهم المختلفة عليهم، هذا إضافة إلى أن الأراضي الساحلية متماسكة، وتساعد الإنجليز في أن يستخدموا عرباتهم وسياراتهم ونقلياتهم بسهولة، وكذلك فإن نشوب المعارك قرب البحر يُمكن الإنكليز من استغلال البحر سواء بسفنهم الحربية المزودة بالمدافع أو بنجدة سريعة للقوات الإنكليزية إذا ما حقق المجاهدون انتصاراً عليها، وبناءً على ذلك، فقد كان رأي الضابط المصري «محمد حرب» هو أن يتحرك المجاهدون في ناحية الجنوب محاولة منهم لاحتلال الواحات المصرية على التتابع، ويمكنهم بذلك الاتصال بمشايخ العرب ومسلمي الصعيد في المدن والقرى، الذين يرغبون في التخلص من الاستعمار الإنجليزي، لعل حركة الجهاد تشعل ثورة قوية تعصف بالحكم الإنجليزي في مصر، بالإضافة إلى توفر الماء، والتمور، وبالإضافة إلى ذلك فإن القوات الإنكليزية تضطر إلى نشر قواتها على طول وادي النيل، وبشكل يستهلك جزءاً من هذه القوات[١] .

ورأى أحمد الشريف بصفته رئيس الاجتماع ونائب السلطان العثماني، أن تنقسم قوات المجاهدين إلى قسمين، قسم يتوجه إلى الجنوب وهدفه احتلال الواحات المصرية، وكان هذا القسم يتألف من ثلاثة آلاف وخمسمائة مجاهد تقريبًا يقوده محمد صالح حرب تحت إشراف السيد أحمد، والقسم الآخر يبقى في الشمال «الساحل» ويقوده جعفر العسكري ويشرف عليه القائد العام نوري باشا، وعدد رجاله ستة آلاف مجاهد[٢] وانتهى ذلك الاجتماع على هذه المقررات، واتضح من خلال هذا الاجتماع بعض الأمور الهامة وفي مقدمتها ما يلي:

---

(١) انظر: المغرب الكبير، يحيى جلال، (٣/ ٨٦٠ ، ٨٦١) .

(٢) انظر: قضية ليبيا، محمود الشنيطي ، ص (٦٨) .

١- سيطرة أحمد الشريف الكاملة على جميع القوات الزاحفة ضد الإنكليز عبر حدود مصر الغربية .

٢- خطأ القادة الأتراك في سواء في عدم الاستعداد لهذه الحملة «عسكريًّا، وماليًّا، وبشريًّا» أو في رسم الخطط الحربية، ووضع إستراتيجية هامة وتنسيق كامل لتحطيم النفوذ الإنكليزي في مصر .

٣- إن وعود الأتراك للسيد أحمد الشريف بأن المدد متواصل، ومستمر، ولن ينقطع ولن يكون هناك نقص في السلاح والذخيرة والعتاد، والمؤن والأموال واللباس والدواء . . . كانت وعودًا غير عملية ولم ينفذ منه شيء ، بل كان نوعًا من الدعاية لخدمة مصلحة الأتراك وأعوانهم .

٤- اتضح وبجلاء أنه ليس بمقدور المجاهدين هزيمة الإنكليز والانتصار عليهم لتفوقهم في الإمكانات والقدرات المتباينة .

٥- اتضح الآن أن برقة يهددها شبح المجاعة ذلك أن جميع الطرق التجارية أقفلت «مع الإنكليز شرقًا، والفرنسيين جنوبًا، والإيطاليين شمالاً» .

٦- إن الحال الذي عليه المجاهدون يبدو من خلال ما دار في هذا الاجتماع متسمًا بالصعوبة والضيق .

٧- صواب رأي أحمد الشريف في عدم الرغبة في دخول الحرب مع الإنكليز.

دخلت القوات الشمالية بقيادة نوري باشا في معارك طاحنة مع الإنكليز في معركة وادي مقتلة، ومعركة العقاقير، وكانت النتيجة هزيمة المجاهدين الذين أخذوا في الانسحاب نحو الغرب، ولحقت بهم السيارات المدرعة الإنكليزية بعد أن حلقت فوقهم الطائرات الإنكليزية تنذرهم بالتسليم خلال الأربع والعشرين ساعة، وإلا هاجمتهم حتى الإبادة[١] واستمرت مطاردة المنسحبين إلى الحدود، بل وأكثر من ذلك داخل أراضي برقة نفسها، واستولى الإنكليز على سيدي براني يوم ٢٨ فبراير سنة

---

(١) انظر: الحركة الوطنية شرق ليبيا، ص (٨٦) .

١٩١٦م، وكان من أثر معركة العقاقير التي أسر فيها القائد التركي جعفر باشا أن تشتت شمل القوات الشمالية للحملة، واستطاع الإنكليز مطاردة فلول قوات المجاهدين، وتعقبتهم السيارات المدرعة متوغلة في برقة إلى ما وراء بئر واعر، لقد كانت معركة العقاقير تمثل نتيجة حملة أحمد الشريف على مصر، واستمرت القوات الإنكليزية تطارد فلول المجاهدين، فوقعت معركة بقبق شرق السلوم انتصر فيها الإنكليز، الذين احتلوا بعد ذلك معركة السلوم[1] ودخل الإنجليز الأراضي الليبية ووصلوا بئر حكيم في جنوب غرب طبرق واستطاعوا تخليص الأسرى الإنجليز وكان عددهم ٩٢ بحارًا بعد أن أبادوا قوات الحراسة[2] أما قوات المجاهدين في الجنوب فكان يقودها اللواء محمد صالح حرب تحت إشراف أحمد الشريف زحفت هذه القوات جنوبًا وتمكنت من احتلال الواحات البحرية، والفرافرة والداخلة، وانضم إليها كل من كان بهذه الواحات من الموظفين المصريين، وكذلك الضباط والجنود، واتصل محمد صالح حرب بشيوخ العرب في المنيا، وأسيوط، والفيوم، ولم تعط هذه الاتصالات نتائج مشجعة، وبدأت قوات الإنكليز تتزايد وتتكاثف بعد أن صدت الحملة العثمانية الشرقية على قناة السويس، وفشلت ثورة السلطان علي دينار في منطقة دارفور، واضطر المجاهدون للانسحاب من الواحات الداخلة إلى الغرب جنوب سيوه والجغبوب، وكان لاعتماد الإنكليز على الطائرات العسكرية في عمليات الكشف والإغارة، واستخدام قواتهم العسكرية للسيارات المصفحة والمدرعة والمزودة بالمدافع السريعة الطلقات أثر كبير في قلب ميزان القوى لصالحهم[3] .

وتمكنت قوات المجاهدين من الوصول إلى واحة سيوه في أمان تام، وكان أول ما عني به قائد المجاهدين محمد صالح حرب في سيوه هو إرسال التمور إلى الجغبوب ليتزود به المجاهدون هناك[4] .

---

(١) انظر: الحركة الوطنية شرق ليبيا، ص (٨٦،٨٧) .
(٢) انظر: الحركة الوطنية شرق ليبيا، ص (٩٠) .
(٣) انظر: السنوسية دين ودولة، ص (١٧٩) .
(٤) المصدر السابق نفسه، ص (١٨٠) .

وفي سيوة لحقت القوات الإنكليزية بالمجاهدين وحصلت بينهم معركة كبيرة بتاريخ ٨ فبراير ١٩١٧م دامت نحو يوم كامل، وكانت معركة فاصلة جهز لها الإنكليز كل إمكانياتهم لقتال وهزيمة وإفناء المجاهدين الذين دافعوا دفاعًا مستميتًا وانسحبوا من سيوة إلى الجنوب مسيرة ثلاثة أيام[1] وكان وصولهم إليها في شهر فبراير ١٩١٧م وحاول الإنكليز مطاردة قوات المجاهدين المنسحبة إلى الغرب نحو الجغبوب وبالقرب منها دارت بينهما آخر معركة في تلك الحرب وهي معركة «قرب» إحدى ضواحي الجغبوب[2] ولم يستطع الإنكليز مواصلة السير، والتجئوا بعد ذلك إلى الوسائل السياسية، وكان قبل وصول أحمد الشريف إلى الجغبوب قد أرسلوا إليه رسالة مطولة، وهذا نص رسالة الجنرال السير جون مكسويل القائد العام لجنود جلالة ملك بريطانيا العظمى:

مصر في ٤ جمادى الأولى سنة ١٣٣٤هـ الموافق ٨ مارس سنة ١٩١٦م

حضرة صاحب السيادة الأستاذ أحمد السنوسي الكبير تحية وسلامًا وبعد ، فقد وصلني كتابكم المرسل بيد رسولكم موسى، وليس لي أن أرد عليه عما قلته في كتبي السابقة، إني كنت دائمًا أحذركم من خطر الإصغاء إلى نصائح نوري بك، وجعفر وغيرهما لأن مصلحة هؤلاء تناقض مصلحتكم على خط مستقيم، فإنكم بالإصغاء إلى نصائحهم قد أثرتم حربًا على مصر ونسيتم جميل بيت محمد علي باشا الكبير الذي يمثله صاحب العظمة السلطان حسين سلطان مصر الحالي .

إنكم تعديتم الحدود ودخلتم الأراضي المصرية برجال مسلحين ومدافع وقد أطلقتم نيرانكم على العساكر المصرية والإنكليزية، وأظهرتم بكل جلاء ووضوح أن مقاصدكم عدائية .

تقولون إني صدقت مقالة سنوبك ولم أصدق ما قلتموه أنتم فما هو الصحيح؟

إن جماعات من المحافظية المسلحين كانت على الدوام تأتي إلى الأراضي

---

(١) انظر: جهاد الأبطال، ص (٢٦٦) .

(٢) انظر: برقة العربية، ص (٣١٧) .

المصرية، إما بعلم منكم أو بغير علم منكم، وتسيئ معاملة العرب الذين تحت إدارتنا وتأخذ منهم ضرائب بالقـوة، وقد أطلق أتباعكم النيران على الغـواصات الإنكليزية لغير ما سـبب، وأنزلت الغواصات الألمانية الأسلحة والعساكـر وغيرها بقرب برديه، وأطلقت نيرانهـا على طراد لخفـر السواحل وأغرقـته وأتباعكم لم يطـلقوا النار على الغواصات الألمانية، بل استقبلوها بالتـرحاب، ثم إنكم حفظتم في الأسر جماعة من رعايا الدولة البريطانية الذين غرق وابورهم ولجئوا إلى سواحلكم وقد هاجم أتباعكم نقطتنا في البراني والسبيل، وأسروا عسـاكر الحرس وسرقوا بنادقهم وقطعوا خطوطنا التلغـرافيـة، وهددوا نقطتنا بالسلوم حـتى اضطررت أن أصدر الأوامـر إلى سنوبك بالرجوع إلى مرسى مطروح، وفي الوقت الذي كنتم فيه تصرحون بأن علاقتكم معنا على غاية الوداد كنتم تكتبـون وترسلون مع رسلكم كتبًا كالتي أرفقـها بكتابي هذا، وإني مرسلها إليكم لتعلـموا الحقيقة، أرى أنكم لا زلتم تذكرون أمر مـعاهدة عقدت مع الطليان ووجدت بين أوراق سنوبك، وأنا أعود فأكرر القول أن ذلك غير صحيح لسبـبين: الأول لأنه لم نعـمل معـاهدة مثل هذه قط، والثـاني لأن سنوبك لم يكن عنده السلطة لأن يعقد معاهدة كهذه .

إن جعفـر هو الآن أسير حرب يقول: إن الإنكليـز الذين نجوا من الوابور والآن في الأسر عندكم هم في شـقاء عظيم وليس عندهم ما يلزمهم من الثـياب والطعام، وأنتم تقولون إنهم على أتم الراحة والأمـان، فأي القولين أصدق؟ إنكم تشكون من أني حجـزت رسلكم هنا، وأنا لم أفـعل ذلك إلا بعد أن بدأتموني بالـعداء، إن الله وحده يعلم بالخفايا، وما هو في ضميركم، وكل ما يمكنني أن أقوله لكم إن أعمالكم كلها دلت على عدم تبصر وروية، ويلزم أن تحصدوا الزرع الذي غرستموه.

إنكم بأعمالكم قد وقفتم موقف العدو وما دام في الأراضي المصرية رجل مسلح من رجالكم فإني أعـتبـركم عـدوًا، وقد سـبقت فأخـبرتكم عن الشـروط التي بها وحدها يمكنني أن أبدأ بالمفاوضة معكم، وهذه الشـروط أرسلتها في كتاب مؤرخ في ٢٨ صفر سنة ١٣٣٤هـ، الموافق ٤ يناير ١٩١٦م وهي كما يأتي:

١- أن تردودا بسلام جميع الأسرى البريطانيين أو الهنود أو الأوروبيين الذين في أيدكم .

٢- يجب أن تبعدوا كل الأتراك أو الألمان الذين عندكم، وإن كنتم تجدون صعوبة في إبعادهم فيمكنكم أن تسلموهم لي أسرى حرب .

٣- يجب أن تخرجوا جميع رجالكم المسلحين من الأراضي المصرية وتتعهدوا بعدم دخول رجال مسلحين إلى الأراضي المصرية، وإذا دخلوا عوملوا معاملة أعداء حيثما وجدوا .

٤- يجب أن تجلو جلاءً تامًّا عن سيوة والسلوم، وعن جميع البلاد التي إلى الشرق منها، وتقيموا بسلام في الجغبوب، فإذا كنتم الآن تجيبون هذه المطالب، وتظهرون بالأعمال أنكم تريدون أن تكونوا على الوداد فإني مستعد للتساهل معكم أكثر مما تؤملون[1].

الجنرال السير جون مكسويل

القائد العام لجيوش جلالة الملك بريطانيا العظمى

كانت تلك الرسالة قد كتبها ماكسويل قائد الجيش البريطاني في مصر بعد الاستيلاء على معسكر السنوسي، واحتلال السلوم .

كان إدريس المهدي السنوسي أثناء تلك الحوادث ببرقة وكيلاً عامًّا عن أحمد الشريف، وقد عرف سيادته ببعد النظر، والتضلع في معرفة الأمور، وكان قد نبه أكثر من مرة أحمد الشريف وأوضح له رأيه، وكان يرى عدم الدخول مع الأتراك ضد بريطانيا في الحدود المصرية، وقد أصبحت البلاد في حال يُرثى لها فقد تفشت فيها المجاعة، كما تسرب إليها مرض الطاعون، وسدت السبل في وجوه الليبيين بعد ما كانت السوق المصرية مفتوحة الأبواب، وأصيبت الحيوانات بالجدب، وهي أهم موارد البلاد وقد أمسكت السماء، ودخلت البلاد في حروب مع إيطاليا من جهة، ومع الإنكليز من جهة أخرى، والتفت القبائل وشيوخها حول زعامة إدريس المهدي

---

(١) انظر: حاضر العالم الإسلامي، (٢ / ١٣٤ ، ١٣٥) .

السنوسي[١] وكتبت إلى إدريس بمقره في إجدابية بصفته صاحب الحق الشرعي في إمامة السنوسيين، ليتدارك ما وقع فيه ابن عمه أحمد الشريف الوصي على الإمارة بمحاربته الإنكليز جريًا وراء الأتراك، خصوصًا أنهم لم يوفوا بوعودهم التي قطعوها له، فلم يرسلوا إليه بما يسد حاجة جيشه وبلاده كما وعدوه، بل ورطوا البلاد في نكبة الحرب ضد بريطانيا، وتركوا شعبها الأبي يموت جوعًا[٢] وكتب الأمير إدريس السنوسي إلى ابن عمه أحمد الشريف شارحًا له ما كان يجري في برقة، فرد الأخير برسالة مماثلة في أواخر سنة ١٩١٦م جاء فيها: «. . . اعمل ما تراه مناسبًا ، والحاضر يرى ما لا يراه الغائب، وأنا موافق على مطالب أهل الوطن حيث إن لهم حقًّا في ذلك. . .»[٣] .

كان فشل الحملتين الشرقية والغربية على مصر، وتدهور الحالة الاقتصادية في برقة من الأسباب التي ساعدت على ظهور الأمير إدريس على مسرح الأحداث، بعد أن أصبحت حاجة البلاد إلى قيادة جديدة تتولى معالجة تلك المواقف الحرجة، وسوف نرى بإذن الله تعالى الخطوات السياسية التي اتخذها الأمير إدريس، بعد أن نكمل مسيرة أحمد الشريف إلى وفاته .

ثانيًا: أسباب هزيمة أحمد الشريف:

إن حملة أحمد الشريف فشلت في تحقيق أهدافها لعدة أسباب منها:

١- لم تكمل الحملة استعداداتها العسكرية والاقتصادية، واتصفت بالسرعة، وعدم التخطيط الإستراتيجي .

٢- لم يكن جيش أحمد الشريف على مستوى من القدرة القتالية والاستعداد الكامل بحيث يستطيع أن يخوض حربًا مع عدو قوي مزود بأحدث الأسلحة وأشدها فاعلية .

---

(١) انظر: برقة العربية، ص (٣١٧) .

(٢) انظر: تاريخ حرب طرابلس، محمد إبراهيم لطفي، ص (٥٧)، رفع الستار عما جاء في كتاب عمر المختار لمحمد العيساوي، ص (١٩) .

(٣) انظر: الحركة الوطنية شرق ليبيا، ص (١٠٨) .

٣- ذهبت وعود الأتراك والألمان أدراج الرياح، ولم تستطع الغواصات الألمانية أن تقوم بالدور المنوط بها لتزويد المجاهدين بأدوات الحرب ومعداتها .

٤- إن التوقعات التي كانت محتملة عن قيام الشعب المصري بثورة عارمة ضد الوجود البريطاني في مصر ذهبت أدراج الرياح حيث استطاعت بريطانيا تفريغ شحنات الغضب الشعبي بوعودها وأموالها الطائلة، وبمحنها الجاه والسلطان للعديد من كبار المصريين ، كما أن ثورة علي دينار في دارفور بالسودان جاءت متأخرة «أكتوبر - نوفمبر ١٩١٦م» فسهل القضاء عليها ، وبعد فشل حملة جمال باشا الشرقية على قناة السويس وفشل حملة أحمد الشريف الغربية عبر حدود مصر، ومن ناحية أخرى فإن الكثير من مشائخ وأعيان الجهات الجنوبية والغربية من مصر «أسيوط، الفيوم، مثلاً . . .» لم يناصروا حركة الجهاد ضد الإنكليز .

٥- اختيار نوري باشا لمكان العمليات قرب البحر مكن للإنكليز من استغلاله وبعث المزيد من الحملات بسرعة عاجلة، كما أتاح الفرصة لبحريتهم، فشاركت في المعارك، لقد كان ميدان المعارك في الجبهة الشمالية محصوراً بين البحر وعقبة السلوم بما يتجاوز الثماني كيلومترات عرضًا، فوجدت بذلك قوات المجاهدين نفسها مقيدة الحركة[1] .

٦- كان لفشل جمال باشا قائد الجيش التركي في الشام في حملته على قناة السويس أثر كبير في هزيمة قوات أحمد الشريف؛ لأن الإنكليز قد انتهوا من الحرب على حدود مصر الشرقية، فتفرغوا للحرب على حدودها الغربية، وجندوا جميع إمكانياتهم لها .

٧- إن ميزان القوى كان منذ البداية لصالح الإنكليز، فالقوات المجاهدة كانت منهكة نتيجة صراعها مع إيطاليا الذي دام فترة طويلة «من سنة ١٩١١م إلى آخر سنة ١٩١٥م»[2] .

---

(١) انظر: الحركة الوطنية شرق ليبيا، ص (٩٥) .
(٢) انظر: الحركة الوطنية شرق ليبيا، ص (٩٦) .

ثالثًا: الخلاف بين إدريس وأحمد الشريف:

كان رأي الأمير إدريس السنوسي بأن الحرب ضد بريطانيا لا تحقق أية نتيجة، وعلى السنوسيين استغلال الظروف الدولية، لتحقيق استقلال ليبيا، وكان يرى أن بريطانيا هي المؤهلة لأن تأخذ على عاتقها إنجاز هذا الأمر، أما أحمد الشريف فيرى أن حميته الدينية وغيرته الإسلامية تمنعه من الوقوف مع الإنكليز ضد تركيا.

لقد كانت علاقات الإنكليز بالسيد إدريس ودية منذ البداية، واستمرت العلاقات بين الطرفين تنمو وتزدهر طول عام ١٩١٣هـ ، وفي بداية عام ١٩١٤م تجددت عندما توجه إدريس السنوسي إلى الحجاز لأداء فريضة الحج، فمر في طريقه بمصر وقوبل بالاحترام والتبجيل من قبل حسين كامل، السلطان النائب عن الإنكليز في مصر، وحملته باخرة خاصة إلى حيفا، ومنها إلى الأراضي المقدسة، وفي طريق عودته لقي من الاحترام والتبجيل الزائد عن المرة الأولى، واجتمع مع اللورد كتشنر، قائد القوات الإنكليزية في مصر، ومن ثم نقل بطرد بريطاني إلى السلوم، حين جرى له وداع رسمي على الحدود، وكان أحمد الشريف قد كلف إدريس السنوسي تبليغ قبائل حرب والبالغ عدد مقاتليها ثمانون ألفًا والتابعة للحركة السنوسية أن تعمل ضد الإنكليز وأعوانهم في مصر والحجاز، وكان جواب إدريس بعد رجوعه من الحج إلى السيد أحمد الشريف بأن القبيلة أجابته: «لم يصبنا أي أذى من الإنكليز، فهم عدول وكرام، وأغنياء، بينما نجد الترك متصفين بالظلم والقهر والترفع» ، وعليه فلا داعي للدخول معهم في أية معارك .

وقد كشفت الوثائق البريطانية رقم (٢١٣٩، ٢١٤٧، ٢٤٧٨) التي نشرت أن إدريس قد بلغ القبيلة بأنه يؤيد وجهة نظرهم ، وأنه يحب الإنكليز ولا يود أن يرفع سيفه ضدهم .

وقد انعكست نتائج تلك الزيارة على علاقة إدريس بابن عمه السيد أحمد إذ ما لبث السيد إدريس أن أعلن أنه لا يوافق على بقاء الأتراك في القوات الوطنية، وطلب من أحمد الشريف ضرورة الحفاظ على العلاقات الإنجليزية السنوسية، ولما

قوبل طلبه بالرفض الشديد من قبل أحمد الشريف ترك معسكره في مساعد، وتوجه إلى الجبل الأخضر، وأشاع بين الناس ، بأن المنفذ الوحيد لسكانه مع مصر سيغلق إن استمر أحمد الشريف في سياسته المعادية لبريطانيا، وبالتالي فإنهم سيجدون أنفسهم وقد أحكم الطوق عليهم من الشرق والغرب .

لقد تلاقت أهداف الإنكليز مع تمنيات السيد إدريس، حين عرضوا على هذا الأخير الصلح والاعتراف بإمارته، وهو على برقة والجبل الأخضر نظير طرد نوري ومن معه من الضباط الأتراك، وإقناع ابن عمه بمغادرة المنطقة في المرحلة الأولى[1] .

وقد وضحت أهداف إدريس في رسالته التي أرسلها إلى أحمد الشريف في ٢٥ صفر ١٣٣٥هـ، الموافق ٢١ ديسمبر سنة ١٩١٦م وجاء فيها:

«ألم تنظر إلى ما حدث للشريف حسين أمير مكة ، الذي عينه الأتراك، ثم وجد تحقيقًا لمصلحة بلاده أن ينقلب عليهم، ثم أرغم على الوقوف خصمًا، فأعلن استقلال البلاد، ووافقت الدول المتحالفة على ذلك، ونودي به ملكًا على العرب، وهو الآن يبذل قصارى جهده في إدارة شئون بلاده ، فيؤسس المجالس وينشئ الإدارات والمصالح؟ ولو أنه قبل أن يدخل الحرب إلى جانب الأتراك لكان الحلفاء الآن يحتلون مملكته، كما احتلوا البصرة العراق ومناطق أخرى .

فالملك حسين كون جيشًا كبيرًا الآن، ويريد احتلال الشام، وأرسل إليه الضباط وجاءت المدفعية من مصر، ووصله كل ما يحتاج إليه للقيام بحركة واسعة، وأذاع في العالم الإسلامي ، أنه لا يريد بالإسلام شرًّا، وإنما يعمل فقط ضد جماعة الاتحاد والترقي، ويذكر في خطبه اسم الخليفة العثماني، وهو الخليفة المعتد، والذي فقد كل سلطة بفضل القيود التي فرضها عليه أولئك الذين أحاطوا به من كل جانب من هؤلاء الاتحاديين، وقرر العرب المحافظة على شرفهم والذود عنه ضد هؤلاء الجماعة أيضًا فأقاموه ملكًا .

---

(١) انظر: كلية الآداب جامعة الكويت، ١٩٨٠م- ١٣٩٩هـ، الرسالة الثانية في التاريخ، ص (١٨) .

ثم حدثني بالله يـا سيدي، كـيف يستطيع الأتراك غـزو مصر ودخـولها، وهم الذين أخفقوا في محاولة استرجاع الحجاز، وألا تنظر يا سيدي إلى السيد إدريس في بلاد اليمن، فـهو يحتفظ دائـمًا باستقـلاله ، ويتمسك بحـياده وهذا على الرغم مما يفـعله الإنكليـز الذين يحاولون إقنـاعه بمحـاربة الأتراك، ومما يفـعله الأتراك الذين يريدونه أن يحارب الإنكليز ، ولكنه لا يريد أن يورط نفسه في شيء من هذا كله؟.

وكـان في إمكانكم أن تفعلوا مـثل هذا، قـبل حادث السلوم، وكـان في أيديكم الترك والإنكليز معًا، ولكن ما فائدة الحسرة على الماضي، والندم على ما فات إن الذي أريد أن أسترعـي نظركم إليه هو العالم الإسلامي؛ لأن الإسـلام يريد أن يعرف، ومن حقه أن يدرك ويفهم فهمًا صحيحًا ما تفعلون، وما تريدون ويجب علينا قبل كل شيء الانتباه إلى ما فيه فائدتنا، وما يحقق مصلحة بلادنا حتى لا تذهب ضحية لغيرنا»[١].

رابعًا: آثار حملة أحمد الشريف ضد الإنكليز على حركة الجهاد:

كان لفشل حملة أحمد الشريف آثار سلبيـة على سير حركة الجهاد في برقة ضد القوات الإيطالية نذكر منها:

١- ضاعت فرصـة مواصلة القتال ضـد الإيطاليين ، في فترة انشغـالهم بمعارك الحرب العـالمية الأولى في أوروبا، وقواتهم في ليـبيا مـحاصرة في المدن السـاحلية، وغير قادرة على الحركة وتقديم المساعدة .

٢- تزعزت العلاقات الروحـية التي كانت تربط أحمد الشريف بالـقبائل المصرية بسبب المواجهة بين الطرفين وسقوط القتلى من كل جانب؛ لأن الجيش البريطاني كان يضم رجالاً من أبـناء تلك القبائل وضـعف تعاطف المصـريين مع القضيـة الليبـية، وتضررت الزوايا السـنوسية في صـحراء مصـر، وتحطم نفوذها السـياسي والديني، وتشجع الإنكليز على اتخاذ موقف مناوئ ومعادٍ لهم[٢] .

(١) انظر: السنوسية دين ودولة، ص (١٩١) .

(٢) انظر: الحركة الوطنية شرق ليبيا، ص (٩٧) .

٣- انقطع الشريان الاقتصادي لحركة الجهاد في ليبيا وكان لهذا الانقطاع أثر كبير على المجاهدين وحركتهم .

٤- تأثرت نفوس المجاهدين وشعروا بالندم بما في ذلك السيد أحمد الشريف نفسه، ونستدل على ذلك من رسالة له إلى سليمان الباروني بمناسبة قدوم الأخير إلى طرابلس معينًا من قبل السلطان العثماني واليًا على طرابلس، ومما جاء فيها:

«. . . إني لو استطعت لقضيت عليهم - الطليان - وطهرت الأرض منهم اليوم قبل باكر، وتعرف أيضًا أنه ما تمكن مما تمكن منه إلا بعد حركتنا نحو مصر ولولاها كنا قذفنا به اليوم في البحر، وما كان له أثر ولا خبر ولكن تلك الحركة - الحملة- ولو أنها أفادت الدولة والملة من وجوه كثيرة، وشغلنا بها أكبر عدو لمقام الخلافة ناوأها العديد من السنين، إلا أنها كانت سببًا لنفوذ الطليان الذي لا يتألم منه أحد أكثر مما أتألم منه، ولو أن لي به قوة ما تأخرت يومًا عن مناوأته. . .»[1] .

لقد اعترف السيد أحمد بخطئه وقال: «يُخيل إليّ أنني أخطأت عندما باليت بنداء إستانبول ذاك. . .»[2] .

٥- تغير الوضع السياسي للمجاهدين، ولم يعد المجاهدون من القوة، والاستعداد بالقدر الذي يمكنهم من الصمود، والإصرار على تحقيق مطالبهم، بل اضطروا تحت ضغط الحاجة إلى المهادنة، والتفاوض والتنازل، بعدما كانت قيادة المجاهدين صلبة قوية لا تلين، تطالب بشيء واحد فقط هو تحرير الأرض والوطن وإجلاء الغاصبين، ولا نقبل في ذلك مهادنة أو مصالحة أو تفاوضًا إلا على هذا الأساس؛ تحرير البلاد من الغاصبين [3] .

٦- لقد كانت حملة أحمد الشريف ضد الإنكليز في مصر كسبًا ونفعًا كبيرين للإيطاليين، ولأنها زعزعت قيادة أحمد الشريف، وأشعرتها بضعف إمكاناتها

(١) حياة سليمان الباروني، لأبي القاسم الباروني، ص (٨٠) .
(٢) انظر: الطريق إلى الإسلام، لمحمد أسد، ص (٣٧٠) .
(٣) انظر: الحركة الوطنية شرق ليبيا، ص (٩٨) .

الحربية وقدرتها القتالية، ومهدت السبيل لطريق الصلح والتفاوض الذي قاده إدريس السنوسي فيما بعد[١] .

خامسًا: هجرة أحمد الشريف إلى تركيا:

وصلت قوات المجاهدين إلى الجغبوب، منهكة، متعبة لطول الحروب، فأذن أحمد الشريف للجنود، وقال لهم: من منكم يرغب بالذهاب إلى أهله ببرقة، أو الجبل الأخضر، فمعه الإذن، ولم يرخص لبعض المجاهدين، وذهب بعض المجاهدين وقال الباقون والله ما نتركك ما دمت حيًّا سواء نحيا أو نموت[٢] .

وبادر الإنكليز بتهديد أحمد الشريف بواسطة ابن عمه إدريس ، وطلبوا منه ترك الجغبوب وإلا ضرب قبر جده بالطائرات، واحتلت المدينة واستبيحت للجنود.

غادر أحمد الشريف الجغبوب عن طريق الصحراء الكبرى إلى جالوا، وأوجلة، وزلة ، والجفرة، وسوكنة، وهون، ومن هناك عرج على موقع سلطان بقرب سرت، وذلك عامي ١٣٣٥هـ و١٣٣٦هـ، وكان معه جيشًا جرارًا وكانت المجاعة قد ضربت أطنابها في جميع أنحاء برقة، وبالرغم من ذلك كان أحمد الشريف الضيف الكريم أينما حل، ويقابل في كل موقع بالإكرام والتقدير والتبجيل، وتقدم له جميع المساعدات من الأهالي، وكانوا يقدمون له الجزر، والأغنام، وكل ما تصل إليه أيدي الأهالي من التمور والحبوب، وكان يطلب أشياء من الأهالي ليبتاعها منهم مقابل سندات يقدمها على نفسه، فكانوا يجيبونه بكل ذلك، وقد اتصل كل إنسان بحقه عندما وصل أحمد الشريف إلى الأستانة، إذ أرسل من هناك مندوبًا خاصًّا يحمل المبالغ الكبيرة لتسديد تلك السندات وإيفاء كل ذي حق حقه[٣] ومن بين من تقدموا لخدمته بصدق وإخلاص والحالة هذه سيف النصر شيخ مشائخ أولاد سليمان وأولاده، أحمد، وعبد الجليل، وعمر، ومحمد، وقاسم، وقاموا بكل لوازم أحمد

---

(١) انظر: الحركة الوطنية شرق ليبيا، ص (٩٩) .

(٢) انظر: الفوائد الجلية (٢ / ٤٥) .

(٣) انظر: برقة العربية، ص (٣١٨) .

الشريف وأتباعه من المصاريف والأرزاق لمدة ستة أشهر[١] وقالوا: إن جميع ما نملكه وتملكه قبيلتنا هو لكم وتحت تصرفكم[٢]، وكان أحمد الشريف لا ينساها لهم ويشيد بها بين الخاص والعام في كل مناسبة، ويقول: وجدناهم صادقين عند الحاجة[٣] وكذلك وقفت الكثير من قبائل المغاربة وعلى رأسهم صالح باشا الأطيوش، والشيخ السنوسي البراني، والشيخ عبد المجيد سليم القبائلي، والشيخ ابن شرادة[٤] .

ولما وصل أحمد الشريف إلى العقيلة تقدم إليه أحمد بن إدريس الأشهب بواجب الضيافة وأعطاه سبعة جمال هي كل ما في وسعه ليذبحها للجند، ويقتاتوا بها كضيافة لهم، وكان تهيئة مؤنة أحمد الشريف الخاصة من قبل أحمد بن إدريس وهي مؤلفة من البيض المسلوق، واللحم، وشيء قليل من خبز الشعير، وكلما يأتي هذا الطعام الخاص بالسيد أحمد، ورجال مائدته، وهم محمد صالح حرب، ووصفي باشا الخازمي، والأستاذ مصطفى الهوني، وعبد السلام باشا أبو قشاطة، وطبيب السيد الخاص عبد السلام أفندي المسلاتي، وعندما يأتي الطعام المذكور يبادر أحمد الشريف بتوزيعه على بعض الجنود في حين أنه لا يكفي السيد ورفاقه الخاصين، وأحيانًا لا يمسك منه شيئًا بالمرة، فقاسى - رحمه الله - ما قاسى من أنواع الشدائد ما لا تتحمله الجبال بصدر رحب وجلد عظيم، وكثيراً ما تمر الأيام عليه بدون أن يتناول شيئًا يسد به رمقه ومع كل هذا لا يعرف عنه أنه شكا أو تألم[٥] وقد تساقط عشرات الموتى بسبب المجاعة والحصار المفروض عليهم[٦].

سادسًا: القافلة ورمضان السويحلي:

راسل محمد صالح حرب نوري باشا في مصراته، ووضح له الحالة التي يمرون بها وطلب منه مدهم بالسلاح والذخيرة، والملابس والمال، حتى يتمكنوا من مواصلة جهاد الإيطاليين، وكان أحمد الشريف قد راسل رمضان السويحلي، وناشده باسم

(١) انظر: الفوائد الجلية (٢ / ٤٦) .
(٢) انظر: برقة العربية ، ص (٣١٨) .
(٣) انظر: الفوائد الجلية (٢ / ٤٦) .
(٤) انظر: برقة العربية، ص (٣١٨) .
(٥) المصدر السابق نفسه، ص (٣١٩) .
(٦) انظر: الفوائد الجلية (٢ / ٤٦) .

الأخوة الإسلامية وطلب منه المساعدة والوقوف معه، فوافق السويحلي، وأرسل أحمد الشريف قافلة يرافقها الطبيب عبد القادر المصري، وما يزيد عن خمسة وعشرين رجلاً من خيار رجاله، يصحبهم الشيخ محمد بو طريف، ومعه كتاب وهدية إلى رمضان السويحلي ، واشترت القافلة لوازمها من شراء بعض الأمتعة والملابس[1] وقام نوري باشا بتزويد القافلة بالسلاح والذخيرة، والمؤن، حتى يؤكد لزعماء طرابلس على أن الدولة العثمانية لا يمكن أن تتخلى عن أصدقائها، ومناصريها[2] .

وعند رجوع القافلة إلى أحمد الشريف تعرضت لهجوم غادر نتج عنه قتل جميع أفراد القافلة، وسرقت الأموال ، والمؤونة، والسلاح، ويؤكد معظم المؤرخين أن رمضان السويحلي دبر أمر القضاء على هذه القافلة واغتصاب أرزاقها، وقتل أفرادها، ويذكر العيساوي: «إن السويحلي جهز قوة خفية عن نوري باشا قدرها مائة نفر مسلح، وجعل عليها رئيسين أحدهما يدعى محمد سليمان الجطلاوي والثاني عبد العزيز الدنيخ، وأمر تلك القوة أن تجد في السير لتكمن في وادي زمزم، وقد نفذت هذه الخطة بدقة»[3] ، وفاجأت قوة السويحلي القافلة في منطقة تماد حسان قرب تاورغاء[4] .

ويرى المؤرخ المتعاطف مع رمضان السويحلي محمد مسعود فوشيكة إن المعركة التي انتهت بانتصار جماعة الحداد والعودة إلى رمضان بصناديق النقود، إنما تمت بعلم رمضان نفسه، مما جعل بعض المخلصين له يلومونه كثيراً بسبب تجاهله ماضي السيد أحمد الشريف في الجهاد ضد الاستعمار الفرنسي، والغزو الإيطالي لبرقة، وفي عدم مبالاته بالظروف الصعبة التي كان يمر بها وحاجته الماسة إلى المساعدة[5].

---

(١) انظر: الفوائد الجلية (٢ / ٤٧) .

(٢) انظر: الحركة الوطنية شرق ليبيا ، ص (١٦٢) .

(٣) انظر: رفع الستار عما جاء في كتاب عمر المختار، ص (٥٣) .

(٤) انظر: الفوائد الجلية، (٢ / ٤٧) .

(٥) انظر: رمضان السويحلي البطل الليبي الشهيد، ص (١٢٨) .

أما الشيخ محمد بن حسن عبد الملك المصراتي قاضي مصراته عام ١٩١٥م فقد أشار إليها بقوله: «كنت أنا ومن معي وقت وقوع هذه النازلة الشنيعة بمعية السيد أحمد الشريف السنوسي، وقد بلغتنا قبل بلوغها بخمسة أيام وكتمنا أمرها حيث إن من حاشيته من يزين له أعمال رمضان، فلو سارعنا بإبلاغها وقتها لقيل لنا : إننا مفتنون فوكلنا أمرها للأيام والليالي. . .»(١) .

أما الشيخ طاهر الزاوي فيرى: «. . . أن سياسة الترك مجمعة على كراهة السنوسية، إلا أن بعضهم يجاهر بذلك وينادي بقطع الصلة بهم، وفريق يكتم هذه الكراهة في صدره ويريد أن يسلط بعضهم على بعض لينتقم لنفسه منهم بأيديهم، وقد أراد نوري -بما له من النفوذ في مصراته - أن يمد السيد أحمد الشريف بإعانة فأرسل إليه إعانة مالية، وبعض البنادق، ولكن الأتراك الذين لا يريدون الصلة بالسنوسية دبروا مكيدة ضد هذه المعونة، فأرسلوا من تربص لمن أرسلت معهم فقتلوهم عن آخرهم، وأخذوا ما معهم من المال، ولم يعلم رمضان بشيء من أمر هذه المكيدة إلا بعد وقوعها. . .»(٢) .

ويبدو للباحث أن الفعلة الشنيعة كانت مؤامرة ضد مساعي الصلح التي حرص أحمد الشريف على نجاحها بينه وبين رمضان السويحلي، وأحمد المريض وغيرهم ، ولذلك خاف الأعداء من حصول الصلح بين أحمد الشريف ورمضان السويحلي، فدبروا تلك المكيدة، والقرائن الكثيرة تدل على أن رمضان السويحلي ألصقت به التهمة، ولا يوجد دليل واحد قوي على إثباتها، بل القرائن تدل على عكس ذلك حيث أن رمضان السويحلي كان في تلك الفترة يتلقى الدعم من تركيا وألمانيا بواسطة الغواصات ، وأحمد الشريف نائب الخليفة في إفريقيا، قام بتضحية عظيمة وجهاد جليل ، خدم به المصالح التركية، كما أن سيرة رمضان السويحلي تدل على أنه من المجاهدين الذين ذادوا عن هذه البلاد، إلا أن له أعداء كثيرين عملوا على تشويه

---

(١) انظر: رفع الستار عما جاء في كتاب عمر المختار ، ص (٥٤) .
(٢) انظر: جهاد الأبطال، ص (١٩٨) .

سيرته الجهادية التي تحتاج إلى من يتفرغ لدراستها، وتحليلها وإلقاء الضوء عليها، ولا ننسى أن إيطاليا عملت بواسطة عملائها على إيجاد الفرقة والعداوة بين رمضان والحركة السنوسية وقادة الجهاد في غرب ليبيا، ويبدو أنها نجحت بواسطة مكائدها ومؤامراتها المتوالية لتحقيق هذا الهدف الحقير .

أما رأي أحمد الشريف في رمضان السويحلي فيظهر في الرسالة التي أرسلها إلى وصفي بك في المحرم سنة ١٣٤٠هـ قال رحمه الله مخاطبًا وصفي بك:

«نعم أيها الولد الكريم المحترم، فإني والله تأسفت غاية الأسف على ما حصل. .» إلى أن قال: «فبالله الذي لا إله إلا هو إني كنت عازمًا على إكرام رمضان بك السويحلي وإنزاله المنزلة التي ما كان يظنها، والناس الذين سعوا في الفساد مثل أمين وغيره فهؤلاء لا حاجة لهم في صلاح الوطن، بل حاجتهم في امتلاء جيوبهم. . .» إلى أن قال: «وقد بلغني ما أساءني جدًا وهو قتل المرحوم رمضان بك السويحلي فإني والله تأسفت غاية الأسف، لأنه كانت حاصلة منه رهبة للبلاد، ومنفعة عمومية لأهلها، ونحن كل من سعى في المصالح العمومية فهو حبيبنا. .»[1] . لقد اشتد الأمر بأحمد الشريف وأتباعه، وزادت الظروف قسوة عليهم، وأراد المجاهدون أن يهجموا على مصراته انتقامًا ممن قضى على القافلة إلا أن أحمد الشريف استطاع بفضل مكانته بين المجاهدين من تهدئة النفوس الثائرة[2] .

بعث أحمد الشريف قائده محمد صالح حرب إلى الأمير عثمان فؤاد المتواجد في مصراته، وحمله رسالة هامة إليه، يطلب من الأمير العثماني أن تقوم إحدى الغواصات الألمانية بنقله إلى الأستانة ليقابل صديقه القديم أنور باشا وزير الحربية، وليبحث معه تطورات الموقف في ليبيا، وعلى ضوء ذلك يمكن أن يرجع السيد أحمد مزودًا بكل ما يساعده على الاستمرار في الجهاد في ليبيا، أو أن يبقى في الأستانة مؤقتًا حتى يتسنى له الذهاب إلى الحجاز «الأراضي المقدسة بمكة والمدينة» حيث

---

(١) انظر: جهاد الأبطال، ص (٢٠٠) .

(٢) انظر: الحركة الوطنية شرق ليبيا، ص (١٦٤) .

يخلص العبادة إلى الله بعد أن عمل ما في وسعه من أجل قضية بلاده، ولكن الظروف المحلية في ليبيا والعالمية منعته من تحقيق أهدافه الإسلامية .

وقد اجتمع محمد صالح حرب مع الأمير عثمان فؤاد، وأوضح له حالة وظروف السيد أحمد الشريف، وبين له معظم آرائه ومطالبه، كما اجتمع برمضان السويحلي مع الكثير من أعيان مصراته، ووجهائها، وعاد مندوب أحمد الشريف بسلام، وكانت نتيجة هذه الرحلة العمل على نقل أحمد الشريف إلى العاصمة العثمانية بواسطة إحدى الغواصات الألمانية، وبالفعل وضعت وزارة الحربية الألمانية تحت تصرف أحمد الشريف غواصة لنقله مع بعض أتباعه إلى النمسا، واتفق على أن تبقى قواته في منطقة العقيلة في انتظار عودته، على أن تتلقى من القيادة العثمانية في مصراته، ما يمكن أن تجود به عليها مما كانت تحضره إليها الغواصات الألمانية[1] .

ووصلت الغواصة الألمانية إلى برقة وكان بها يوسف باشا شتوان، وحسام الدين بي، وهما عضوان هامان في منظمة تشكيلات مخصوصة[2] ويحملان رسالة من السلطان محمد وحيد الدين إلى السيد أحمد الشريف، يدعوه فيها لزيارة إستنابول «والسبب الحقيقي لهذه الدعوة هو أن الحالة في تركيا أصبحت تنذر بالخطر العظيم بسبب ثورة أمير مكة الشريف حسين ضدها، ومتابعة القبائل والجيوش العربية له، وانحلال جبهات القتال في فلسطين وسوريا والعراق، وكانت الحكومة العثمانية تثق كامل الثقة في إخلاص السيد أحمد الشريف للإسلام والخلافة، فأرادت أن تقنعه بالدخول في مفاوضات بينها وبين الشريف الحسين بن علي، على أن تعطي الشريف حسين مطالبه، هذه هي الحقيقة التي طلب من أجلها، أما في الظاهر فهو كما ذكر في وقته لتقليد السيف للسلطان عند جلوسه على العرش، وللمفاهمة معه في خصوص ليبيا»[3] .

---

(١) انظر: الحركة الوطنية، ص (١٧٢) .

(٢) المصدر السابق ، ص (١٧٢) .

(٣) انظر: الفوائد الجلية (٢ / ٤٩) .

لبى سيادة أحمد الشريف طلب السلطان محمد وحيد الدين، وأناب عن المجاهدين أحمد بن محمد بن أحمد الريفي، وأمره بالانضمام إلى الأمير محمد إدريس بعد سفره، وسافر من البريقة وركب معه الشيخ محمد عبد الله الموهوب، محمد صالح حرب، عثمان الشائقي، عبد السلام أبو قشاطة، الدكتور عبد السلام المسلاتي، وصالح بن محمد أبو عرقوب البرعصي، وركب الغواصة في شهر سبتمبر سنة ١٩١٨م، الموافق ذي القعدة ١٣٣٦هـ(١) .

وجاء على لسان الأمير شكيب أرسلان قوله: «قال لي السيد أحمد الشريف قبل ركوبي الغواصة تحادثت مع الضباط الألمان الذين فيهم وسألتهم عن خطر ركوبها فقالوا لي: لا يخلو الأمر من الخطر، ولكني ما باليت بذلك لأنني كنت رأيت أستاذي سيدي أحمد الريفي في المنام فقال لي: الشيء الفلاني ستأخذه من بولا، ففي اليوم التالي سألت الضابط هل يوجد محل اسمه بولا؟ فقالوا لي نعم إن المرسى الذي ستنزل فيه من بلاد النمسا اسمه بولا، فاعتقدت أننا بالغو هذا المكان بحول الله وقوته»(٢) .

اضطرت الغواصة أن تبتعد عن الجزر التابعة لإيطاليا خوفًا من الديناميت المزروع في المدخل، وصادف أن اصطدمت بقمة صخرة كبيرة في قاع البحر وتعطلت محركاتها، وخاف قبطانها، والبحارة خوفًا شديدًا، وكان أحمد الشريف أثناء ذلك منهمكًا في صلاته، وعبادته التي كانت شبيهة بتسبيح نبي الله يونس عليه السلام عندما كان في بطن الحوت، وفي قعر البحر، فلما أخبروه بالواقع وأتم صلاته التي كان فيها، ثم قام معهم ببساطة ورباطة جأش وبقدرة الله العلي القدير وسبب دعاء أحمد الشريف إذ بالمحركات تعمل فجأة، وسر الجميع وعادت لهم الطمأنينة وحمدوا الله على النجاة(٣) ولا شك عندي أن أحمد الشريف قد تلا قول الله تعالى:

---

(١) المصدر السابق نفسه (٢ / ٥٠) .

(٢) انظر: حاضر العالم الإسلامي، (٢ / ١٥٣) .

(٣) انظر: الفوائد الجلية (٢ / ٥١ ، ٥٢) .

﴿وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٨٧) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الأنبياء: ٨٧-٨٨) .

وقد عرف عن أحمد الشريف صلته بالله القوية، وكان دائمًا يرشد أتباعه إلى الالتجاء إلى الله القوي العزيز، ففي معاركه مع الإنكليز، وبعد معركة وادي ماجد الثانية انسحبت قوات المجاهدين إلى بئر الصريحات، ولما لم يجد الجيش ماء بهذا المكان الأخير انسحبت قوات المجاهدين إلى بئر يونس على أمل العثور على ماء، ولما لم يجدوا بها ماء كذلك، أشار أحمد الشريف باستسقاء الماء، ففتحت أبواب السماء وانهمر المطر مدرارًا حتى رويت قوات المجاهدين، وظل المطر ينهمر يومين(١).

إن صلاة الاستسقاء سنة مؤكدة بإجماع علماء المسلمين والاستسقاء طلب السقيا من الله تعالى عند حدوث القحط والجدب والتضرر من ذلك، ولا شك أن التقرب إلى الله وطلب مرضاته والبر والإحسان إلى خلقه من أعظم الأسباب الجالبة لكل خير(٢) .

وكان أحمد الشريف لصدقه وإخلاصه يقيض الله له من يدافع عنه في غيبته، فعندما كان أحمد الشريف مخالفًا لرأي نوري باشا وجعفر العسكري في شن الهجوم على الإنكليز في مصر ولم يوافق على ذلك، كانت حركة منظمة تشكيلات مخصوصة تشن حربًا إعلامية على أحمد الشريف في إستانبول، فقيض الله شكيب أرسلان للدفاع عنه حيث قال: كنت أشم من معية أنور باشا رائحة الوحشة من سيدي أحمد الشريف، وأسمع بعض رجال الدائرة المسماة بدائرة «تشكيلات» التابعة للحربية يلمزون، السيد، ويعزون إليه أمورًا، كنت على يقين أنها بهتان محض، مثل كونه يريد الخلافة لنفسه، ومثل إنه غير مخلص للدولة وما أشبه ذلك، وكان أنور دعاني مرة للإفطار معه في رمضان، فقلت له: «إن بعض بطانتك بدءوا يغمرون

---

(١) انظر: السنوسية دين ودولة .

(٢) انظر: توضيح الأحكام للبسام (٢ / ٤٣٢ ، ٤٣٣) .

السيد أحمد الشريف ويشيعون عنه أراجيف يصعب تصديقها، وهذا الأمر يمس جانبك أنت، ولا ينحصر في السنوسية، لأن أكثر مظهرك كان بهؤلاء الجماعة، فإن ظهر بعد ذلك أنم خائنون، لا سمح الله ، فتكون أنت الملوم، ويستدل الناس بذلك على كونك فائل الرأي، وإن كان عندك شيء راهن بحقهم، فصرح لي به لنعلم درجة الخبر من الصحة، قال لي أنور رحمه الله: «حاشا، ما يقدر أحمد أن يتهم سيدي أحمد الشريف بالخيانة ولكن الإنكليز كانوا يخدعونه أحيانًا»، قلت له: «إن سيدي أحمد الشريف لم ينخدع للإنكليز، وإنما كان يصانعهم كما يصانعونه، وما تلكأ عن محاربتهم إلا خشية الفشل، إذ كان يعلم أن القوة التي لديه غير كافية للدخول إلى مصر، أفلا ترى كيف أن الإنكليز مجرد زحف الأربعة آلاف مجاهد إلى مرسى مطروح، رموهم بثلاثين ألف مقاتل، وبالمدافع والطيارات والدبابات، ولولا لطف الله بهم لوقعوا جميعًا أسرى وأخوك من الجملة...» قال لي أنور: «أنا أعطيتهم أوامر بأن يتجنبوا المعارك الفاصلة» فقلت له: «يا سبحان الله: أنت عسكري صنعتك الحرب وأدرى مني بهذه الأمور، أفإذا هاجم الإنسان من هو أقوى منه مرارًا، أفيبقى له الاختيار في الكر والفر؟» وانتهت هذه المحاورة باقتناع أنور، وتركه مؤاخذة السيد[1] .

❊ ■ ❊

---

(١) انظر: حاضر العالم الإسلامي (٢ / ١٥٢ ، ١٥٣) .

المبحث السادس
وصول أحمد الشريف إلى تركيا

وصل أحـمد الشـريف إلى بولا «الساحل النمـساوي» بعـد أسبـوع تقريبًـا من ارتحاله، وواصل سفـره إلى فينيا عاصـمة النمسا برفـقة حاشيتـه، وهناك أرسل إليه الإمبراطور النمساوي يريد مقابلتـه ، ودون علم السيد أحمد ، أجاب يوسف شتوان الإمبراطور بالرفض، ولما علم السيد أحمـد الشريف بذلك أبدى استياءه ، وذكر أنه كان من اللائق مقابلته لا سيما أنه هو الذي طلب المقابلة[١] .

وتابع السيـد أحمد رحلتـه إلى إستنابول، وهناك استـقبله كبار رجـال الحكومة العثمانية، اسـتقبالاً حافلاً ورسميًا في محطة «سركه جي» حـضره بعض المسئولين العثمـانيين، يتقدمـهم صديقه أنور باشا وزير الحـربية العثمـانية، كما حـضره أيضًا إبراهيم بك، وإحسـان بك كاتب الديوان السلطاني، وفـؤاد بك مدير التشـريفات، وعلي رضا شيخ الإسلام وأمين الفتوى .

وأنزل بسراي طوب كوبر، التـي كانت مقر الخلفاء من آل عـثمان[٢] وفي اليوم التالـي خصصت له مـقابلة رسـميـة مع السلطان وحيـد الدين، الذين منحـه وسام النيشان المجيدي من الرتبة الخامسة[٣] .

ورغم بعد السـيد أحـمد الشريف عن مـيادين الجهـاد في ليبـيا، إلا أنه واصل جهوده من أجل تحرير ليبيـا، وكان له نشاطات على ذلك الطريق الطويل منها: اتفق مع أنور، والسلطان العـثمـاني على الرجوع، لتـقوى به عـزائم المجاهديـن، وقرر الأتراك مده بالمال، والعتاد والسلاح وتقرر إعطاؤه ١٢,٠٠٠ بندقية مع عدتها، عشر مدافع، وثلاثين رشاشًـا، و ٢٠٠,٠٠٠ جنيه فسأله السيـد قائلاً: بلغني من بعض

---

(١) انظر: حاضر العالم الإسلامي (٢ / ١٥٤) .

(٢) سراي طوب كبو تقع على ضفة البسفور الغربية أجمل بقعة في إستانبول.

(٣) انظر: الفوائد الجلية (٢ / ٥٢) .

الضباط الطرابلسيين الذين في خدمة الدولة، إنكم تبغونني أقاتل ابن عمي سيدي إدريس، لكونه اتفق مع الإنكليز والطليان» فقال له أنور: «معاذ الله أن نبغي منك ذلك، لأننا نعلم أنه لم يبق للإسلام في إفريقيا حصن أحصن من هذا البيت السنوسي الكريم، وإنه إن وقع لا سمح الله الشقاق في هذا البيت فسد الأمر، واضمحلت القوة السنوسية التي عليها معول الإسلام في إفريقيا، فكن على ثقة بأننا نبغي اتحادكم قبل كل شيء نصحًا بالإسلام وضنًا باستقلاله، وإن معاونتنا لكم إنما هي محض حمية على الإسلام؛ لأن تركيا من جهتها لم يبق لها أدنى أمل باسترداد طرابلس؛ ولأننا لا نحب إخواننا مسلمي إفريقيا تبعة للأجانب»[1] .

وتتابعت الحوادث بسرعة البرق، فتغيرت الوزارة في تركيا، وسقط أنور، وندم أحمد الشريف على تأخره عن السفر، وحاول الانسلال من الأستانة إلى النمسا، حتى يركب منها الغواصة راجعًا إلى ليبيا، واضطر مع دخول الحلفاء إلى الذهاب إلى بروسة، وكان الأتراك أينما حل يكرمونه غاية الإكرام، وكان في نيتهم الوقوف مع مجاهدي ليبيا ولكنه سبق السيف العذل، وحصل ما لم يخطر ببال، والأمر بيد الله وهو الفعال في ملكه ما يشاء، لا يسأل عما يفعل وهم يسئلون .

لقد دخلت جيوش الحلفاء إلى إستنابول واستولت على عموم الولايات والموانئ، وعقدوا العزم على إبادة تركيا، وتشتيتها وتقسيمها، وأراد الإنكليز أن يستغلوا هذا الظرف لصالحهم وبدءوا في تنفيذ مخططهم الهادف إلى تدمير الدولة العثمانية بواسطة الأتراك أنفسهم المتصلين بالنوادي الصهيونية، والماسونية، والدول الغربية، وحرصوا على أن يجعلوا منهم أبطالاً ضد الحلفاء ثم يقومون بتدمير الخلافة الإسلامية كليًّا، وكان من المؤهلين لتنفيذ هذا المخطط الرهيب مصطفى كمال، الذي لبس في بداية أمره ثوب الإسلام ورفع شعار الجهاد لحين من الزمن، وقاد حرب التحرير ضد اليونان التي احتلت أزمير في ١٦ مايو ١٩١٩م وكان يلقي الخطب الحماسية ويقول: «موتنا أعزاء شرفاء خير من حياتنا أرقاء أذلاء تحت اليهود النصارى

---

(١) انظر: حاضر العالم الإسلامي (٢ / ١٥٥) .

يلعبون بمقدراتنا ويمتصون دمائنا وأموالنا، ويعتدون على أعراضنا وديننا وكرامتنا»[١]، واستطاع أن يقود المقاومة الشعبية الضارية التي فضلت أن تموت في سبيل عقيدتها بدلاً من الرضوخ للأعداء وهكذا ظهر مصطفى كمال في ثوب المسلم الوطني المتدين الثائر وأصبح السلطان تحت قيود الحلفاء، وأصبحت تركيا تحت زعامتي مصطفى كمال، والسلطان وحكومته، وعمل مصطفى كمال على كسب أحمد الشريف لصفه لعلمه لما له من المكانة الروحية العالية في قلوب المسلمين، وكان مصطفى كمال ابتدأ حركته باسم الدين حتى أنه أمر بإحراق جميع الخمور، وتكسير أدواتها ومعاملها، وإبعاد جميع النساء المومسات، وإغلاق دور الدعارة، وإصدار أوامر شديدة بلزوم المحافظة على الصلوات في أوقاتها، وجعل يوم الجمعة يوم عبادة للعموم، وأمر بإغلاق المتاجر والمقاهي، والمتنزهات في كل يوم جمعة اعتباراً من يوم الضحى إلى بعد صلاة الجمعة، وهكذا تظاهر بهذه الأمور حتى أغرى المسلمين وقالوا هذا مجدد الدين ومنقذه، ولذلك قرر أحمد الشريف بعد تفكير طويل الذهاب إلى الأناضول والانضمام إلى مصطفى كمال رغم ما جاء من الرسل والرسائل من طرف السلطان وحكومته يحذرونه من الانخداع بمظاهر مصطفى كمال المصطنعة، وادعاءاته الكاذبة ويقولون لسيادته هذه كلها حيل لكسب عطف الشعوب الإسلاميه عليه وإذا تمكن فسوف يقلب المجن، ويكون حربًا على الإسلام، وإليك ما كتبه الداماد خالد درويش باشا: «يا مولانا يا خادم الإسلام يا فرع الدوحة النبوية، المباركة إياك أن تغتر بمظاهر الدين التي يصطنعها مصطفى كمال للوصول إلى غايته فإنني ربيته في بيتي، وبين عائلتي، وعرفت ظاهر أمره وباطنه فما في قلبه ذرة من إيمان أو خوف من الله أو مبالاة بما يعمله ودينه هواه، ولو تمكن لأضر في الإسلام والمسلمين، وأنا كابنك وأخيك ومحبك أقول لك هذا، ولولا محبتكم التي ملكت على جميع جوارحي ما قلته لكم، وربما سيكون قولي هذا في يوم من الأيام جريمة نؤاخذ عليها ونسأل الله أن يرشدنا إلى ما فيه سعادتنا في الدارين آمين. المحب المخلص» الداماد خالد

---

(١) انظر: الفوائد الجلية (٢ / ٥٣ ، ٥٤).

درويش ، جمادى الأولى ١٣٣٨هـ[١] ، كل ذلك لم يغير عزمه، سافر أحمد الشريف إلى الأناضول ونزل في «اسكى شهر» وكان انضمام أحمد الشريف نصراً عظيمًا لمصطفى كمال لما له من المنزلة الروحية الكبيرة في قلوب مختلف الشعوب الإسلامية وكان الناس يعتقدون أن أحمد الشريف لا يميل إلا إلى الجبهة التي على الحق، واحتفل به قائد الجبهة في «اسكى شهر» المدعو عصمت باشا ودعا إلى الاحتفال قادة الجيش، وأعيان البلاد ووجهائها، وألقى كلمة في ذلك الاحتفال الكبير، فقالوا: إنكم اليوم في ميدان الشرف، وإنكم الآن بعملكم هذا تعيدون للإسلام عزه ومجده وتنفضون عنه الغبار الذي علق به وتخلدون بطولتكم وتكتبون في صحائف التاريخ الإسلامي أسماءكم بحروف من نور ، وعليكم أن تتموا هذه الرسالة العظيمة التي كلفتم بها، وأن تغنموا هذه المكرمة وفقكم الله وأعانكم»[٢] وتأثر بتلك الكلمة الحاضرون وقالوا: يا مولانا لقد أيقظتم فينا الهمم، وبعثتم فينا روح القوة، والمقاومة، والاستماتة في سبيل إعادة عزتنا ومجدنا، ولكم علينا عهد الله وميثاقه أن نمضي في هدفنا حتى النصر أو الشهادة ثم توجه أحمد الشريف بعد مقامه في «اسكي شهر» إلى أنقرة بالسكة الحديدية ، وفي محطة أنقرة قابله مصطفى كمال وكافة رجاله، وكان يومًا حافلاً بأنواع المظاهر والزينات، ونزل في منزل مصطفى كمال الخاص به، وبدأت اتصالات مصطفى كمال مع السيد الشريف في أمور كثيرة[٣] .

أولاً: عرض مصطفى كمال على أحمد الشريف نيابة الخليفة وجهاده مع الأتراك:

عرض مصطفى كمال على أحمد الشريف منصب نيابة الخليفة وقال لسيادته: إن كافة الوزارات أصبح لها عندنا وكلاء يقومون باختصاصاتها بصفة مؤقتة حتى تمام

---

(١) انظر: الفوائد الجلية (٢ / ٥٧ ، ٥٨) .
(٢) المصدر السابق نفسه (٢ / ٥٩ ، ٦٠) .
(٣) انظر: الفوائد الجلية (٢ / ٥٩ ، ٦٠) .

النصر إن شاء الله تعالى، غير أن مقام نيابة الخليفة لم نجد له من يليق به إلا سيادتكم ونرجو أن تتموا لنا هذا النقص في جهازنا، ولكم علينا ميثاق الله وعهده أننا سنقوم بكل ما يترتب علينا نحو هذا المقام، ونرجو أن تتموا لنا نقصنا هذا فقال له السيد أحمد الشريف: أنتم الآن مشغولون بما هو أهم ، مشغولون بصد العدو المهاجم لكم، والمحيط بكم من كل ناحية وتحتاجون إلى من يؤازركم فعليًّا في ميادين الجهاد لا من يجلس على الكرسي، ثم أنتم فيكم البركة وإجراءاتكم حكيمة وصائبة، وأنا أحب أن أساهم معكم فعليًّا في جهادكم هذا بقدر استطاعتي في أي جهة كانت، وأرجو أن تعذروني ، وسوف يأتي الوقت الذي لا تحتاجون فيه إلى غيركم، وأنا معكم في السراء والضراء حتى يتم النصر إن شاء الله، فقال له مصطفى كمال: أنا مطمئن ، وواثق من ذلك، وهذا ظني وظن كل من يشاركني في هذه الثورة، وفي الحقيقة ما تعلمت هذه الدروس المفيدة ولا تشربت في جسمي هذه الروح الأبية إلا في مدرستكم التي أسستموها في برقة المجاهدة، وها أنتم اليوم تؤسسونها عندنا من جديد، وبذلك سننتصر بحول الله وقوته وستجني ثمرة جهادنا هذه ببركة مشاركتكم لنا، ووجودكم بيننا، فأنت الأب، وأنا الابن، وكل ما تراه صالحًا مرنا به ونحن على أتم الاستعداد للتنفيذ وفي اتباعنا لكم شرف لنا[1] .

لقد أتقن مصطفى كمال دور النفاق والتدليس ، قال تعالى: **﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ (٢٠٤) وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ (٢٠٥) وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾** (البقرة: ٢٠٤-٢٠٦) .

إن أحمد الشريف انخدع لكلام مصطفى كمال الذي مرد على النفاق وتفنن فيه؛ لأنه اكتفى بالظاهر، وترك الباطن لعالمه سبحانه وتعالى، ولأن مصطفى كمال ظهر بثوب الجهاد، وصد المعتدين، فالوقوف بجانبه واجب شرعي هذا رأي أحمد الشريف حسب ظني .

---

(١) انظر: الفوائد الجلية (٢ / ٦٠) .

ساهم أحمد الشريف بطلب من مصطفى كمال في إخماد ثورة الأكراد وخرج إليهم والتقى بشيوخهم ودعاهم إلى الوحدة، والوقوف صفًّا واحدًا ضد أعداء الدين، وطلب شيوخ الأكراد من أحمد الشريف أن يقيم بوسطهم، ويتولى أمرهم، فامتنع عن ذلك وقال: إنما أنا مجمع ولست مفرق، ومصلح ولست بمفسد، وسمع الأكراد وأطاعوا، وأخذ عليهم مواثيق غليظة لوقوفهم مع مصطفى كمال، وبقي في ديار بكر، ونصيبين ، وماردين، مدة ستة أشهر حتى تحقق تمامًا من تهدئة الثورة .

وفي مدة إقامته في ديار بكر كانت القوات اليونانية تتقدم ، والقوات الكمالية تدافع، غير أن القوات اليونانية انتصرت في عدة مواقع، وقامت بهجمات خاطفة، وجعلت هدفها أنقرة، فاندحرت القوات الكمالية أمام الجيوش اليونانية، واحتلت الجبهة تمامًا ، وتحققت حكومة مصطفى كمال من الفشل، وأخلت بلدة أنقرة من كل شيء إلا الجنود[1] .

وكانت القوات اليونانية قد استولت على ولاية أزمير وبروسة ومدانية، وعلى كوتاهيه، وإسبارطة، وأفيون قره حصار، وإسكيشهر، وأخيرًا قصدت العاصمة أنقرة، حتى لم يبق بينها وبين أنقرة إلا عدة كيلومترات، واضطربت الأحوال، وارتبكت حكومة أنقرة، وبدأ مصطفى كمال يوالي برقياته المطولة المثيرة إلى سيادة أحمد الشريف ويقول لسيادته فيها: تغلب علينا العدو، فاضرعوا إلى الله ليدركنا بعنايته، وكانت برقيات مثيرة تأثر منها أحمد الشريف تأثرًا بالغًا، ورد أحمد الشريف على برقيات مصطفى كمال وقال له: ثق بالنصر من الله، ويأتيك الغوث إن شاء الله تعالى، ثم انتدب إليه رفيقه في جهاده الشيخ محمد عبد الله الزاوي، وأعطاه مصحفًا شريفًا، وسيفًا، وبرنسًا من ملابسه الخاصة، وقال له في كتابه الخاص: بعثت إليك بمصحف الله تعالى، وسيف النصر، وكسوة العز والفوز إن شاء الله تعالى، فلما وصل مندوبه إلى مصطفى كمال وهو في الجبهة على رأس الجيش المستميت على نهر «سقاريا» سلمه الرسالة، وأعطاه الأمانة، فأمر مصطفى كمال بالتعبئة العامة،

---

(١) انظر: الفوائد الجلية (٢ / ٦٤، ٦٥) .

والهجوم المعاكس على العدو، ورتب الجبهة، وفي صباح اليوم الذي قرر فيه بدء الهجوم جمع القادة يتقدمهم رئيس أركان حربه فوزي باشا، وعصمت باشا، ورأفت باشا، وغيرهم ثم لبس البرنس المرسل له من السيد أحمد الشريف، وتقلد السيف، وعلق المصحف الشريف ، ثم تقدم وصلى بهؤلاء القادة ركعتين بحضور محمد عبد الله الزوي، وتضرعوا إلى الله وطلبوا العون والنصر، ثم أطلق مصطفى كمال من يده رصاصة الهجوم وبدأت معركة الاستماتة، ودامت ثلاثة أيام بلياليها، فني خلالها ما ينوف على العشرين ألفًا من الأتراك، وما يزيد على الثلاثين ألفًا من اليونان، واختلت في نهايتها مقدمة جيش اليونان، وولت فلوله على أعقابها وتعقبتها الجيوش الكمالية وكان ذلك بداية الانتصار النهائي على اليونان[1] .

وبعد ذلك الانتصار الحاسم ورجوع الحكومة الكمالية إلى أنقرة زار أحمد الشريف مصطفى كمال مهنئًا بالنصر، واحتفلت به الحكومة التركية ، ثم ذهب إلى طرسوس، وفي أثناء إقامته بها قام مصطفى كمال بجولة تفقدية في أنحاء الأناضول، وعرج على ولاية أظنة ، وأتي خصيصًا لزيارة أحمد الشريف، فأقام أحمد الشريف لمصطفى كمال حفلة غداء فخمة حضرها كل من معه من القادة، كما حضرها عموم أعيان البلاد ووجهاؤها، والموظفون ، وفي أثناء جلوس الجميع على المائدة وقف مصطفى كمال وقال مخاطبًا لقادته الحاضرين باللغة التركية: «أيها الإخوان اسمحوا لي لأعرفكم بمن نحن في حضرته، وعلى مائدته نحن الآن في حضرة فخر المسلمين، وحفيد سيد المرسلين، المجاهد السيد أحمد الشريف السنوسي، معلمنا الأول، ومؤسس أول مدرسة في برقة، كنا وفدنا إليها، وتلقينا دروس الجهاد، والمقاومة، والدفاع عن النفس، والدين، والوطن، بها، وهذا ويشير إلى سيادة أحمد الشريف، هو الذي غرس في نفوسنا شجرة الدفاع الثابتة، وهو الذي آزرنا في محنتنا القاسية، وشجعنا بأفكاره، وآرائه الصائبة حتى نلنا شرفنا، وعزتنا، وأنقذنا من براثن الأعداء بلادنا، فله من الحكومة والشعب التركي كمال الشكر والتقدير، ثم

---

(١) انظر: الفوائد الجلية (٢ / ٦٥، ٦٦، ٦٧) .

اختتم كلامه وجلس فقابله سيادته بكلمات شكر، وقال : الشكر لله وحده هو الذي أيدكم ونصركم، ومزق أعداءكم بسبب جدكم واجتهادكم وتوحيد صفوفكم ونرجو من الله لكم مزيد التوفيق .

وبعد إقامته في طرسوس لمدة سنة تقريبًا انتقل أحمد الشريف إلى مرفأ مرسين، وفي أثناء إقامته وفد إليه صديقه الحميم أمير البيان الأمير شكيب أرسلان وأتت بعض وجوه الناس من ليبيا، وأرسل الرسائل إلى ابن عمه محمد إدريس، وإلى قائد حركة الجهاد الغر الميمون عمر المختار يحثه على مواصلة الجهاد[1] .

ثانيًا: شكيب أرسلان يصف أحمد الشريف:

«فلما جئت إلى مرسين ذهبت توًّا لزيارته؟ فأبى إلا أن أنزل عنده، ريثما أكون استأجرت منزلاً في البلدة، وقد رأيت في هذا السيد السند بالعيان، ما كنت أتخيله عنه بالسماع وحق لي والله أن أنشد:

كانت محادثة الركبان تخبرنا ... عن جعفر بن فلاح أطيب الخبر

حتى التقينا فلا والله ما سمعت ... أذني بأحسن مما قد رأى بصري

رأيت في السيد حبرًا جليلاً، وسيدًا غطريفًا، وأستاذًا كبيرًا، من أنبل من وقع نظري عليهم مدة حياتي، جلالة القدر، وسراوة حال، ورجاحة عقل، وسجاحة خلق، وكرم مهزة، وسرعة فهم، وسداد رأي، وقوة حافظة، مع الوقار الذي لا تغض من جانبه الوداعة، والورع الشديد في غير رئاء ولا سمعة، سمعت أنه لا يرقد من الليل أكثر من ثلاث ساعات، ويقضي سائر ليله في العبادة، والتلاوة والتهجد، ورأيته مرارًا تنضج بين يديه السفر الفاخرة اللائقة بالملوك فيأكل الضيوف والحاشية ويجتزئ هو بطعام واحد لا يصيب منه إلا قليلاً، وهكذا هي عادته وله مجلس كل يوم بين صلاتي الظهر والعصر لتناول الشاي الأخضر الذي يؤثره المغاربة، فيأمر بحضور من هناك من الأضياف ورجال المعية، ويتناول كل منهم ثلاثة

---

(١) انظر: الفوائد الجلية (٢ / ٦٨، ٦٩) .

أقداح من شاي ممزوجًا بالعنبر، فأما هو فيتحامى شرب الشاي لعدم ملائمته لصحته، وقد يتناول قدحًا من النعناع، ومن عادته أنه يوقد في مجالسه غالبًا الطيب، وينبسط السيد إلى الحديث، وأكثر أحاديثه في قصص رجال الله وأحوالهم ورقائقهم، وسير سلفه محمد بن علي السنوسي، والسيد المهدي وغيرهم من الأولياء والصالحين . . .»[١] .

«والسيد أحمد الشريف سريع الخاطر، سيال القلم، لا يمل الكتابة أصلاً، وله عدة كتب. .»[٢] .

«وقد ذرف السيد المشار إليه على الخمسين ولكن هيئته لا تدل على وصوله إلى هذه السن، لندرة الشيب في شعره، وهو رائع المنظر، بهي الطلعة، عبل الجسم، قوي البنية، لا يمكن أن يراه أحد بدون أن يجله ويحترمه»[٣] .

ثالثًا: القضاء على سلطنة آل عثمان:

بعد الانتهاء من حروب اليونان تهيأت القوات الكمالية لدخول ولاية إستنابول وبعد حصار دام ما يقارب من الأربعة أشهر، ومحاولات طويلة مع دول الحلفاء تم الاتفاق على إخلاء إستنابول من قوات الاحتلال، وبذلك تحقق السلطان محمد وحيد الدين عدم قدرته على مقابلة القوات الكمالية، فقرر هو وحكومته الجلاء عن إستنابول والالتجاء إلى بعض دول أوروبا، وبذلك انطوى ملك آل عثمان بعد حكمهم للممالك الإسلامية مدة تزيد على السبعمائة سنة، فسبحان الذي لا يزول ملكه ولا يذل سلطانه: **﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾** (آل عمران: ٢٦) .

وقد تحدثت الدولة العثمانية في عوامل نهوضها وأسباب سقوطها منذ النشأة حتى النهاية في كتابي السادس «صفحات من التاريخ الإسلامي» .

---

(١) انظر: حاضر العالم الإسلامي (٢ / ١٥٦) .
(٢) المصدر السابق نفسه (٢ / ١٦١) .
(٣) المصدر السابق نفسه (٢ / ١٦٤ ، ١٦٥) .

بعد أن دخلت القوات الكمالية بلدة إستانبول نصبت ولي العهد الأمير عبد المجيد ولقبته بخليفة المسلمين لمدة ستة أشهر تقريبًا دون أن يكون له أي حل أو ربط، أو أي مظهر رسمي، أو صفة رسمية، وإنما هو ذر للرماد في عيون المسلمين، وتسكينًا للحالة حتى لا يثور المسلمون ويطالبوا ببقاء الخلافة ثم تدرجت حكومة مصطفى كمال بعد أن تمكنت من الوضع وخلعت الخليفة الصوري عبد المجيد، وأبعدته كما أبعدت كل من له صلة أو محبة، أو انتماء لآل عثمان، وفي ذلك اليوم قال أحمد الشريف كلمته المشهورة: ما زال أحمد الشريف «يعني لم يبق أمام مصطفى كمال إلا أحمد الشريف» .

بدأت نوايا مصطفى كمال الشريرة تظهر رويدًا رويدًا، فتدخل في الأحكام وغير القوانين الشرعية، فانزعج أحمد الشريف غاية وغضب نهاية، وخاطب مصطفى كمال وقال له: إننا والمسلمون لم نناصرك ونقف معك إلا لأجل حفظ كيان الدين الإسلامي، والتمس منه إعادة النظر سريعًا في الموضوع، كما حضه على التمسك بعرى الدين، الذي به انتصر، واكتسب عطف الشعوب الإسلامية عليه، فلم يرق هذا الكلام لمصطفى كمال ، وعَدَّهُ تدخلاً في سياسته الشيطانية.

لقد كان مصطفى كمال أفعى يهودية بحق، وماسوني متضلع، وحاقد على الإسلام والمسلمين، أتقن فنون الكيد والمكر والخداع، ولما تمكن من تركيا وشعبها قام بإلغاء الخلافة الإسلامية، وفصل تركيا عن باقي أجزاء الدولة العثمانية، دولة الإسلام، وأعلن بكل وقاحة العلمانية في دار الخلافة، وفصل الدين عن الدولة، واضطهد علماء المسلمين أبشع اضطهاد، وقتل منهم العشرات، وعلق جثثهم على أعواد المشانق، وأغلق كثيرًا من المساجد، وحرم الأذان، والصلاة باللغة العربية، وأجبر الشعب على تغيير زيه الوطني، وألزم الناس بلبس الزي الأوروبي، وألغى وزارة الأوقاف، ومنع الصلاة في جامع آيا صوفيا، وحوله إلى متحف، وألغى المحاكم الشرعية، وفرض القوانين السويسرية، وفرض العطلة الأسبوعية الأحد بدلاً من يوم الجمعة، وألغى استخدام التقويم الهجري، واستبدله بالتقويم الميلادي، وألغى

قوانين الميراث والزواج والأحوال الشخصية المستمدة من الشريعة الإسلامية، وحرم تعدد الزوجات، والطلاق، وساوى بين الذكر والأنثى في الميراث، وشجع المرأة التركية والفتيات على الدعارة والفجور، وأباح المنكرات، وضرب من نفسه المثل الأعلى على انحطاط الخلق والإدمان على الخمر والنساء والانحلال، ومارس عن طريق حزب الشعب الإرهاب والبطش بالشعب التركي المسلم[1] .

وأصبح مصطفى كمال مثلاً أعلى لكل طاغية مفسد في بلاد المسلمين، يتقدى به في كافة أموره بداية في لباس ثوب الدين حتى يتمكن ، ثم خلعه وكشف الفجور، والفسوق، وعلى العلماء، والدعاة أن ينتبهوا لهؤلاء المجرمين الذين يستغلون الشيوخ، والعلماء، والدعاة لحين، ثم يضربون بهم عرض الحائط، ويعلقونهم على المشانق، أو يفتحون لهم أبواب السجون على مصراعيها، وكم من طاغية متكبر لا يؤمن بيوم الحساب مكن نفسه بواسطة الدين، وعلمائه، إن في ذلك لعبرة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

إن مصطفى كمال يعتبر مرتداً ملحداً زنديقًا خارجًا عن الإسلام، وهو أول من جاهر بالعلمانية، كنظام دولة نظرية وتطبيقًا، وما قام به مصطفى كمال في حقيقته تنفيذًا لمخططات قديمة أشرف على تنفيذها اليهود، والماسون، والنصارى، ومارس الإنكليز ضغوطهم بالقوة بعد هزيمة الدولة العثمانية في الحرب العالمية الأولى ١٩١٤م-١٩١٨م وقال وزير خارجية بريطانيا يومئذٍ «كرزون» بأنهم لا يستطيعون أن يتركوا تركيا مستقلة حتى لا يجتمع المسلمون حولها مرة أخرى، وعندئذٍ طمأنهم مصطفى كمال بأن استقلال تركيا لن يكون خطرًا عليهم في المستقبل، فأملى الإنكليز شروطهم المعروفة بشروط «كرزون» الأربعة:

١- أن تقطع تركيا صلتها بالإسلام .

٢- أن تلغي الخلافة .

---

(١) انظر: الأفعى في معاقل الإسلام، عبد الله التل، ص (٩٤ ، ٩٥) .

٣- أن تتعهد بإخماد كل حركة يقوم بها أنصار الخلافة .

٤- أن تختار لنفسها دستوراً مدنيًّا بدلاً من الدستور العثماني المستمد من أحكام الشريعة الإسلامية على حدودها[1] .

وفرضت معاهدة لوزان التي ذكر فيها الشروط السالفة سنة ١٣٤٠هـ/١٩٢٣م على تركيا .

لقد اتفق الغرب الحاقد والصهيونية الماكرة والماسونية الخادعة، على تسليم تركيا لأبشع حركة تغريب، وتدمير للقيم الإسلامية .

رابعًا : طرد أحمد الشريف من تركيا وهجرته إلى الحجاز:

ومن طرف خفي بدأت السلطات التركية تضايق أحمد الشريف وتعد عليه أنفاسه، وأحكمت الرقابة على كل من له تعلق بالسيد، أو يزوره، وعلى المكاتبات الواردة إليه، والصادرة منه، ثم سحب بعض الجنود والضباط الذين كانوا مرافقين للسيد بالقيام بحراسته وخدمته، ومرافقته، وأخيراً توقفت المصاريف التي كانت تعطى لسيادته لمدة أربعة أشهر، واشتدت الضائقة في بلاد الغربة، وقام الأتراك المحبين للسيد للقيام بواجب الضيافة، وخشيت الحكومة حدوث ما لا تحمد عقباه، فقلبت المجن وعدلت عن خطتها وسارعت بحوالة الصرف، وبدأت تكيد في الخفاء لإيجاد أمر تدين به سيادة أحمد الشريف، فأرسلوا إليه شخصًا ادعى أنه طالب علم، وطلب منه أن يعطيه تزكية لحفيد السلطان عبد الحميد «الشهزادة سليم» الذي كان مقيمًا في بيروت ليعينه على مهمته، وهي وصوله لطلب العلم بالجامع الأزهر، وبالغ الطالب الذي يدعى ضياء الدين جودت في الترجي والاستعطاف، والتردد حتى أخجل أحمد الشريف، فكتب إليه: إن حامل هذا الكتاب إليكم هو أحد طلبة العلم المحتاجين للمساعدة، ويأمل أن تمدوا له يد العون بقدر المستطاع لإتمام مهمته وإذ بالكتاب يصل إلى مصطفى كمال الذي طلب من مجلس الحكومة الاجتماع وقرأ

---

(١) انظر: الاتجاهات الفكرية المعاصرة، جمعة الخولي، ص (١٠٠) .

عليهم الرسالة، فقالوا: هذه خيانة عظمى للدولة، وقرروا حالاً إبعاد سيادة أحمد الشريف عن تركيا في مدة لا تتجاوز العشرة أيام، أو إلزامه بالإقامة الجبرية في قرية عثمانية تابعة لولاية «أظنة» مدة حياته دون اتصال بأحد ما، وبذلك أبلغت حكومة أنقرة أمرها هذا لسيادة أحمد الشريف بواسطة والي الولاية «أظنة»، فقال أحمد الشريف عندما سمع القرار: كنت أتوقع منذ خلع عبد المجيد ؛ لأن بقائي في تركيا لا يروق لمن يريد أن يتلاعب بأمر الشرع الشريف، ويطمس معالم الدين الحنيف، وإنني أختار الخروج من تركيا، وهذا جزاء معاضدتي ومناصرتي لها، وسوف تخسر تركيا ميزتها بين عموم الشعوب العربية، والأمم الإسلامية، فرفع الوالي اختياره، وبذلك حددت لسيادته إقامة عشرة أيام، وتحصل على تأشيرة لدخول سوريا لمدة محدودة ونزل في دمشق ضيفًا على سعيد الجزائري حفيد المجاهد عبد القادر الجزائري، وفرح به أهل الشام فرحًا عظيمًا، وتوافد الأعيان والشيوخ والزعماء لزيارته، ونشطت الحمية الإسلامية، وزار القدس ونزل ضيفًا عزيزًا على أمين الحسيني رئيس المجلس الأعلى الإسلامي، وضايقه البريطانيون من أجل خروجه من القدس ورجوعه إلى دمشق، وعاملته فرنسا معاملة حذرة وطلبت منه الخروج ، وأرادت إيطاليا أن تستغل الموقف، وعرضت عليه مساعدات، والرجوع إلى ليبيا للتفاوض مع الحكومة الإيطالية من أجل مصلحة البلاد والعباد، فأجاب السيد الجليل، والجبل الشامخ رحمه الله: أما وأنا خارج حدود الوطن، فلن أساوم أو أصالح على شبر منه، كما لا حق لي في ذلك، وإذا كانت الحكومة الإيطالية صادقة في قولها فعندها الأمير السيد محمد إدريس المهدي السنوسي في مصر، وعندها رؤساء الوطن فتتفاهم معهم وهم أسهل لها وأخف شروطًا مني ، وبهذا قفل باب المفاوضات[1] ، ولقد قال لمندوب الحكومة الإيطالية في تركيا من قبل: «... لأن طرابلس وبرقة ليستا ملكي لأجود به على الطليان ، بل هما ملك أهلها»[2] .

---

(١) انظر: الفوائد الجلية (٢ / ٧٣ ، ٨١) .

(٢) انظر: حاضر العالم الإسلامي (٢ / ١٥٨) .

واشتد ضغط الحكومة الفرنسية على سيادة السيد أحمد الشريف للخروج من سوريا، فطلب مقابلة القنصل الإنكليزي بدمشق فقدم إلى سيادته وبعد مقابلة المجاملة قال له: إني أريد الخروج من سوريا إلى الحجاز عن طريق شرق الأردن، فقال القنصل: الحكومة الإنكليزية لا توافق، فقال له: إذًا إلى العراق، فقال له: أيضًا لا توافق، فقال له إلى مصر، فقال له: ملك مصر لا يوافق، فقال له إلى اليمن، أو الهند، أو السودان، فقال له: لا نوافق، وكل بلد يعتليه العلم البريطاني لا يمكن أن تدخلوه، فغضب أحمد الشريف، واشتاط غضبًا، وقال للقنصل: «إذًا مفاتيح الدنيا كلها بيد الإنكليز، أليس الأرض كلها لله وأن الأمر بيده، ثم قال له: أما أنا فيسجعل الله لي فرجًا ومخرجًا، وأما الحكومة البريطانية ، والله، ثم والله سيأتي يوم تندم فيه على هذا التصرف[1] وستخسر كل ما تحت يدها من الممالك، وستندم ولا ينفعها الندم» فقال القتصل كالمستهزئ عندكم طريق نجد، فقال له : نعرفها ولا حاجة لدلالتكم، فغضب القنصل وخرج محمر الوجه[2] .

يقول عبد القادر بن علي بعد فترة من الزمن: وها هو اليوم تحقق ما أقسم عليه سيادته، فقد خرج العراق وشرق الأردن، والهند، ومصر، والسودان.. وغيرها من يد الإنكليز[3] .

واتصل سعيد الجزائري بمندوب الملك عبد العزيز في دمشق الشيخ عبد العزيز الشقيحي، وعرض عليه رغبة السيد أحمد الشريف للحجاز، واتصل مندوب الملك، وجاء الرد بالموافقة، وبدأت الرحلة إلى الحجاز عن طريق أراضي نجد، تأخذ وضعها للاستعداد، وأعدوا ثلاث سيارات مع ثلاثة خبراء بمبلغ ٢٧٠ جنيه ذهب، ولم يكن هذا المبلغ متوفرًا ، وضايقته السلطات الفرنسية وهددته، بإرجاعه إلى تركيا، وعندما ضاق الأمر، واشتدت الكربة جاء فرج الله ، وكان السبب الأمير شكيب أرسلان الذي أرسل للسيد أحمد الشريف ٤٠٠ جنيه إسترليني أهداها الشيخ جاسم بن إبراهيم أحد تجار اللؤلؤ بمباي ﴿قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ (الطلاق: ٣) فعندما جاء

---

(١) ، (٢) ، (٣) انظر: الفوائد الجلية (٢ / ٨١) .

الخبر لأحمد الشريف خر ساجدًا لله تعالى يحمده ، ويشكره على هذا الغوث الرباني، والمدد الإلهي، ثم رفع رأسه، ورفع يديه إلى السماء، وقال: فرجت علينا يا شكيب، فرج الله عنك كرب الدنيا والآخرة، وساعدتنا في محنتنا ساعدك الله في كل أمور دينك ودنياك، ودعوات كثيرة نالها شكيب أرسلان بسبب إرسال ذلك المبلغ ووصوله في الوقت الحرج .

قال تعالى: ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ (سورة الطلاق: ٢-٣) .

وتحركت الرحلة إلى الحجاز عن طريق نجد، وكانت عناية الله وحفظه ورعايته محيطة به، ووصل إلى منطقة الجوف «دومة الجندل»، وظن أهل المنطقة أنهم أعداء، فألقوا القبض عليهم، وبعد أن عرف أميرهم عبد الله بن عقيل أن الذي أمامه أحمد الشريف السنوسي صاحب الجهاد في برقة وطرابلس، وأنه يقصد حج بيت الله الحرام، ثم زيارة الملك عبد العزيز بن سعود، ارتمى عليه الرجل وعانقه ورحب به، واعتذر لسيادته، وأحسن نزله، وأرسل إلى الملك عبد العزيز فرد عليهم بإكرامه واحترامه وإرجاع السيارات إلى محلها ؛ لأن هذا من إكرام أحمد الشريف؛ لأن الأمير عبد الله بن عقيل فكر في إحراقها، وكانت هذه السيارات هي أول سيارات تشق هذا الطريق وتقطع هذه الصحراء العظيمة، وكان قد أشيع أن أحمد الشريف مات في الصحراء هو ومن معه، ونهبتهم الأعراب، ولم ينفِ هذه الإشاعات إلا رجوع السيارات إلى دمشق واستمر في رحلته حتى وصل مكة واعتمر ثم جاءه وفد الملك عبد العزيز، ثم سافر إلى جدة والتقى بالملك عبد العزيز فأكرمه وأحسن نزله، وأصبح في ضيافته، وقدم خدمات عظيمة للإصلاح بين القبائل وتوحيدها تحت زعامة الملك عبد العزيز الذي كان يحارب الحسين بن علي في جدة، وأصبح أحمد الشريف يتردد بين مكة والمدينة في ضيافة الملك عبد العزيز[1] .

---

(١) انظر: الفوائد الجلية (٢ / ٨٨ إلى ١٢٠) .

خامسًا : نصيحة الملك عبد العزيز لأحمد الشريف:

في عام ١٣٤٦هـ أراد أحـمد الشريف أن يحج بيت الله الحـرام في ذلك العام، فأهل من ذي الحليفة وعند وصوله إلى جدة، وجد الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود بها نازلاً في بيت أحـد وجهاء جدة المسمى الشيخ محـمد حسين نصيف، وزار أحمد الشـريف الملك عبد العزيز، وطلب الملك منه البـقاء في جدة لمدة يومين لأمر خاص، وتم اللقاء بين الملك عبد العـزيز، وأحمد الشريف، وكان المقصود من هذا الاجتـماع هو التفاهم والمبـاحثة، لإيجـاد طريق لحل مسألة الحرب القـائمة في برقة، وعـرض عليه فتـح باب المفاوضات مع الحكومـة الإيطالية، وعـقد هدنة على شروط تعودون بموجبهـا إلى وطنكم وتتداركون البقية الباقيـة من أهله المتعبين، وقال الملك عبد العزيز: إن أهل وطنكم في ذمتكم ويحـتاجون إلى تفكيركم في راحتهم، وتداركهم قبل القضاء عليهم، وهم مهما يقاومون فلا بد أن يكلوا لأن هذه الحكومة قوية قائـمة ولديها ما يحـتاجون من لوازم الحرب، وعقـد الهدنة معهـا يجعل لكم فرصة تجتمعون خلالهـا بأهل وطنكم وتلمون شتاتهم، وترتبون أموركم على حسب ما تسـتطيعون من مـصالحة أو مـحاربة فيـما بعد، وهذا الذي دعـاني إلى طلبكم، فأجاب أحمـد الشريف: صدقتم في كل ما قلتم، ولكن يا حـضرة الملك؛ الحكومة الإيطالية غادرة وماكرة ولا عهد لها ولا ذمـة، وإذا كانت صادقة في رغباتها فعندها أهل الوطن، وهم المحـاربون لها، وأمـامهـا الأميـر السيـد محـمد إدريس المهـدي السنوسي عرفته وعرفها، وهو ينوب عني وعن أهل الوطن فتتفاهم معه، وهو أهون لهـا مني وألين، أما أنـا ما دمت خـارجًا عن الـوطن بعيـدًا عنه فلن نسـاوم فيـه، وحكومة إيطاليا تريد أن تحكم الوطن باسمي نظير إغرائها بأموالها ووعودها الخلابة، وأنا أريد تخليص الوطن منهـا كليًّـا، كـما سـيكون إن شاء الله عـاجلاً أو آجـلاً، ولذلك أرجـو أن تتمـوا إحسـانكم لي، وتسـاعدوني على هجـرتي، وإعفـائي من ألاعيب إيطاليا، وعدم انشغالكم وانشغالي بما لا يأتي بنتيجة، فقال الملك عبد العزيز - رحمه الله -: أما مساعدتكم على هجـرتكم فهذا حاصل إن شاء الله، ولا لنا فيه

جميل، وأما موضوع الوطن وأهله، فأنتم أدرى به، ولن نشغلكم ثانيًا إن شاء الله، نرجو الله أن يقدر للجميع ما فيه الخير والنصر والتوفيق[١] .

ثم توجه أحمد الشريف إلى مكة وأدى مناسك العمرة، ثم أدى مناسك الحج، ثم رجع إلى المدينة، وكان يتصل بأهل ليبيا عن طريق الحجاج ويجمع لهم الأموال والمساعدات ويقوم بتوجيههم خير قيام .

سادسًا : وفاته:

أخذ أحمد الشريف بعد وصوله للحجاز يتنقل بين المدينة المنورة، ومكة المكرمة، وإذا بداعي الموت يناديه في تمام الساعة الثامنة من يوم الجمعة ١٣ ذي القعدة سنة ١٣٥١هـ الموافق العاشر من شهر مارس سنة ١٩٣٣م في الزاوية السنوسية في المدينة المنورة[٢] إثر مرض عضال لم يمهله، ودفن في مقبرة البقيع قرب قبر الإمام مالك بن أنس إمام دار الهجرة[٣]، بعد أن عاش إحدى وستين سنة قضاها في خدمة الإسلام والمسلمين، ورفع شأن الدين، ومجاهدة الكافرين الغاصبين في شتى الميادين، فعليه وعلى أمثاله الرحمة والمغفرة والرضوان من رب العالمين وأعلى الله ذكره في المصلحين .

سابعًا: صدى وفاة أحمد الشريف في العالم الإسلامي:

نشر بمجلة «اللطائف» المصورة بعدد (٩٤٥) ٢٠ مارس سنة ١٩٣٣م ما يلي:

يوم ١١ الجاري نعت برقيات الحجاز السيد أحمد الشريف السنوسي الكبير فكان لنعيه رنة حزن مرير أعادت إلى الأذهان تلك الجهود الجبارة، والتضحيات الغالية التي بذلها هذا الفقيد العظيم في نشر الإسلام، وتثقيف أهل البيد، ومكافحة الاستعمار الإيطالي سنوات عديدة ، قضاها أرسخ ما يكون ثباتًا وإيمانًا، فقد كان للفقيد نفوذ روحي عجيب استطاع به أن يعمم دعوته في أحشاء الصحراء وشمال إفريقيا، وأعمال السودان، ولما أغارت إيطاليا على طرابلس منذ ربع قرن ثارت نخوته الوطنية

---

(١) انظر: الفوائد الجلية (٢ / ١٢٢، ١٢٣) .

(٢) انظر: الحركة الوطنية شرق ليبيا، ص (١٧٩) .

(٣) انظر: برقة العربية، ص (٣٢٣) .

الدينية ووقف يدافع عن وطنه ودينه مثيراً روح العزم والقوة في أنفس العربان، ثم انضم إلى الأتراك ضد الإيطاليين إلا أن تركيا اشتغلت بالحرب البلقانية الثانية سنة ١٩١١م فظل الفقيد يناضل وحده في الميدان، وصمد به ما يزيد عن ثلاث سنوات استطاع خلالها بجلده، ومضاء عزمه، ويقينه مع قواته القليلة أن يقهر القوات الإيطالية المنظمة الكبيرة، ويلحق بها الهزائم والخسائر حتى أرغم إيطاليا على طلب الصلح معه على يد الخديوي السابق عباس حلمي، فرفضه قائلاً: إني لا أصالح أبدًا دولة مسيحية على شبر من أرض للمسلمين، واستمر في جهاده المستميت إلى آخر سني الحرب العالمية، حيث سافر إلى تركيا، وعرضت عليه الخلافة الإسلامية فرفضها ، وبعد أن وضعت الحرب أوزارها التجأ إلى بلاد الحجاز، وظل فيها أربعة عشر عامًا بعيدًا عن وطنه محتفظًا بإيمانه وتقشفه، ووطنيته إلى أن لبى نداء ربه، وله في القلوب أفعم الذكريات. . . »[١].

فرح إيطاليا بموته:

أعلنت إيطاليا وفاة السيد أحمد الشريف على لسان وزير مستعمراتها وقتذاك الجنرال دي بونو داخل قاعة المجلس الفاشيستي المنعقد حنيذاك فقال: مات السيد أحمد الشريف السنوسي بالحجاز متأثرًا بالشلل، وبموته ماتت جميع مخاوفنا في إفريقيا، وقال أيضًا ما معناه: إن موت هذا الرجل العدو اللدود لنا يجعلنا نطمئن لجميع أعمالنا، ومقاصدنا الدينية في شمال إفريقيا، وقد كتبت أكثر الصحف الإيطالية؛ يومية كانت أو أسبوعية في فصول عقدتها حول تصدع ذلكم الصرح العظيم[٢] .

شكيب أرسلان يؤبن أحمد الشريف في عنوان كبير : بقية السلف الصالح وخاتمة المجاهدين:

لم يشعر بالخوف قلبي فيما عدا المصائب التي رزئت بها في أفراد عائلتي ما

---

(١) انظر: برقة العربية، ص (٣٢٤) .

(٢) المصدر السابق نفسه، ص (٣٢٥) .

أشعره النبأ الصادع، والخبر الفاجع الذي نقل إلى الآفاق نعي الأستاذ الأكبر، والسراج الأزهر خاتمة المجاهدين، ومثال الغزاة المرابطين، السيف الباتر على هدي الصحابة الكرام في العصر الحاضر محيي مآثر الأوائل في أيام الأواخر سيدي أحمد الشريف ابن سيدي الشريف ابن سيدي محمد بن علي السنوسي رضي الله عنه وعن سلفه وأرضاهم وجعل في جوار قدسه مأواهم .

إن فجيعة العالم الإسلامي بهذا الرجل الكبير من رجاله، بل بهذا الجبل الراسي من جباله هي من الحوادث التي تشغل مكانًا خاصًّا في تاريخ مصائب الإسلام الذي أصبح أغنى تواريخ الأمم بالمصائب، وإن هذا الفقيد العظيم لو عاش في زمن السلف الصالح وأيام الغزوات العربية والفتوحات العمرية لما كان مكانه في ذلك الوقت ليقصر عن مكان أحمد من أولئك الأبطال الذين نشروا الإسلام في الخافقين ورفعوا لواءه من نهر الرون إلى جدار الصين، فما ظنك وهو قد جاهد هذا الجهاد كله، ووقف مدة عشرين سنة في وجه دولة من الدول العظام في عصر دثرت فيه معالم الجهاد، وانطفأت جذوة الإسلام حتى لم يبق منها إلا الرماد، واستولى اليأس على قلوب المسلمين حتى حسبوا كل مقاومة لدولة أوروبية ضربًا من ضروب الحماقة، وعم ذلك جموعهم الحاضر منهم والباد، وانتشر في الربى والوهاد، ومع هذا فإن سيدي أحمد الشريف السنوسي قد أتى ببرهان ساطع، ودليل قاطع على أن فئة من المسلمين في قطر لا يتجاوز عدد أهله عدة مئات من الألوف يمكنها بقوة الإرادة، وثبات العزم، ومضاء الصريمة، وإباء الضيم، وترجيح المعنى على المادة، وإيثار الشرف على الترف، وامتلاء القلوب بالإيمان، ووقف النفوس على اعتزام عزائم الإسلام أن تثبت مدة ٢٤٠شهرًا ، بإزاء دولة عدد أهلها اثنان وأربعون مليونًا مجهزة بجميع ما هي مجهزة به عظميات دول العالم التمدن لها من فيالق البر وأساطيل البحر، وسيارات الكهرباء، والمحلقات في الفضاء ما لا تملك أعظم منه دولة من الدول القاعدة في الصف الأول في ممالك الأرض .

وقد يقول المتعنتون الذين في قلوبهم مرض والذين لا يروقهم إلا أن يروا

الإسلام ذليلاً مهينًا: وماذا أفادنا قيام السيد السنوسي في وجه إيطاليا، وهل كان ذلك إلا سببًا في زيادة قهر المسلمين، وإرهاقهم بأفانين الظلم، وأساليب الاستئصال في طرابلس الغرب؟ فلو كان هؤلاء الأهالي قد خضعوا من بداية الأمر للدولة التي قد احتلت بلادهم وقضى الله بسيادتهم عليهم لربما كانوا قد نجوا من العذاب المقيم الذي هم فيه، والخطوب التي أبادت خضراءهم، وما أشبه ذلك من الأعاليل التي تفيض بها قرائح النفوس الخاملة المولعة بالاستحذاء للأجنبي أيًّا كان.

وجوابنا على ذلك بسيط وهو: إننا ما رأينا أمة أوروبية مهما قل عددها وانقطع مددها ، قد رضيت بالاستحذاء لدولة أوروبية عظيمة مهما علا سلطانها، وغلظت ملكتها في الأرض؛ بل القاعدة عند الأوروبين - الذين هم قدوة الشرقيين الآن في جميع المآخذ والمتارك - هي أن الأمة المستقلة لا بد لها من أن تذود عن حوضها وتدافع بغير دفاع فالموت أولى بها من الحياة بلا نزاع، وأن بقية السيف مهما قلت هي أشرف مقامًا، وأرجى حياة من الكثرة المستنمية إلى الذل ولو كانوا كالجراء المنتشر، وقد حققت الحوادث ، وأيدت التجارب أن الخضوع ليس من أحسن الوسائل التي تعالج بها عداوة الأعداء، وأن قول الشاعر:

قاتل عدوك باللسان وإن قدرت فبالسنان

إن العداوة ليس يصلحها الخضوع مدى الزمان

لا تزال هي الحقيقة السياسية التي تدين بها دول العالم الحديث، كما دانت بها دول العالم القديم، ولعمري لو خضع الطرابلسيون من أول الأمر أكمل الخضوع لإيطاليا لما كانت لذلك نتيجة سوى زيادة الطغيان في معاملتهم واستخفافهم بملتهم، وامتداد أيدي الأوروبيين دون أدنى تردد إلى كل قطر من الأقطار الإسلامية قياسًا على قضية طرابلس، واعتقادًا بأن هذه الأمة قد فقدت حسيس الحياة فهي لا تبدي، ولا تعيد، ولا تفعل فيها الأسنة ولا السهام، لأنه ما لجرح بميت إيلام .

قد استشهدنا على صحة المقاومة ولو كان المعتدي قويًّا، والمعتدى عليه ضعيفًا

بالقاعدة السياسية والمبادئ الأساسية التي يسير عليها الأوروبيون حربًا وسلمًا، وعملاً وعلمًا، ولم تتعرض إلى ما يجب من ذلك على المسلمين الذين ينهاهم كتابهم عن الخضوع للأجنبيين عنهم ويقول لهم: ﴿ **قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ** ﴾ (التوبة: ٢٤) .

ولم يكن تقديمنا الحجة الأولى لكوننا أشد بها اقتناعًا من الحجة الثانية، ولكن لمعرفتنا أن مثل هؤلاء المصابين بمرض الافتتان بالسلطة الأوروبية ليسوا ممن يقبلون الجدال على قاعدة الأوامر والنواهي القرآنية، وإنك إن لم تستظهر عليهم بكتاب أوروبي أو سنة غربية لم يفدك الأخذ والرد معهم شيئًا .

فالسيد أحمد الشريف السنوسي هو خاتمة مجاهدي الإسلام إلى هذا الوقت، قد سبقه الشيخ شامل الداغستاني الذي قاوم الروسية أربعين سنة، والأمير عبد القادر الجزائري الذي ناهض فرنسا ١٧ سنة، وتبعه في الجهاد واقتدى بسيرته محمد عبد الكريم الخطابي الريفي الذي كانت مقاومته قصيرة ولكنها عريضة تواقف فيها مع دولتي فرنسا وإسبانيا معًا وجهًا لوجه، وزلزلتا في حربه زلزالاً شديدًا ، ولولا السيد أحمد الشريف رحمه الله تعالى لكانت إيطاليا استصفت قطري طرابلس ، وبرقة من الشهر الأول من غارتها الغادرة عليهما، وإننا لا نزال نذكر كلام القواد، ورجال السياسة الأوروبية عن الحملة الإيطالية يوم جردتها ذينك القطرين إذ قال بعضهم: إن إيطاليا ستقبض على ناصية الأمر، وتستكمل هذا الفتح في مدة ١٥ يومًا، وقال أشدهم تشاؤمًا وأقلهم تخيلاً ، وأبصرهم بأمور الشرق وهو اللورد كتشنر المشهور أن هذا الفتح الذي يستقله الناس على إيطاليا أمامه من الصعوبات أكثر مما يظنون، وقد يستغرق ثلاثة أشهر بالأقل. . . فليتأمل أولوا الألباب كيف أن هذه الثلاثة أشهر امتدت عشرين عامًا ورزأت الدولة الإيطالية بمائة وخمسين ألف عسكري قتلى عدا الجرحى، وبثلاثمائة مليون جنيه من الذهب الوضاح، هذا كان مجموع خسائر

إيطاليا منذ سنتين بحسب الإحصاءات الرسمية، وهذا كان ثمرة جهاد ذلك السيد السند .

نعم لم تأكل إيطاليا في اعتدائها الفظيع هذا مريئًا ولم تشرب هنيئًا، وعلق في حلقها من سمك الإسلام حسك لا يزول في الأحقاب، ولا في القرون، وكل ذلك بما أراده الله على يد رجل قد كان يفهم الإسلام حق الفهم، ويعمل بما يعلم منه بدون انحراف يمنة ولا يسرة، ولم يكن في قلبه شيء من الدنيا بجانب الآخرة، وكان جميع حطام هذا العالم الفاني لا توازي عنده جناح بعوضة في جانب الواجب الإسلامي، وهذا الرجل هو السيد السنوسي الكبير الذي لولاه لم يكن أنور قدر أن يعمل شيئًا ، ولا كانت الدولة العثمانية قدرت أن تدافع عن طرابلس شهرًا واحدًا، وما كان المرحوم الشهيد البطل الفريد عمر المختار إلا حسنة من حسنات السيد أحمد الشريف، وقائدًا من قواده .

قلت: إن السيد السنوسي لو كان في عصر السلف لكان في صف أعاظم أبطال المسلمين، فكيف وهو في عصر الخلف الذين بينهم وبين السلف ما بين المشرق والمغرب ؟ وإن هذه المقابلة تذكرني بما قاله أحد العلماء عن أحمد بن حنبل ﷺ : ما قام أحد بأمر الإسلام بعد رسول الله ﷺ مثل أحمد بن حنبل، فقيل لذلك القائل وأظنه ابن المديني المحدث المشهور: ولا أبو بكر الصديق، فأجاب ولا أبو بكر الصديق ﷺ؛ ذلك لأن أبا بكر الصديق ﷺ كان له رجال وأعوان، وإن أحمد بن حنبل لم يكن له رجال ولا أعوان، وإنما كان يناضل بقوة نفسه وحدها.

ونحن نقول لو كانت الدولة العثمانية قاومت إيطاليا هذه المقاومة أو قاومت أعظم من إيطاليا مما سبقت لها العادة بمقاومته وأحيانًا بتوالي الهزائم عليه لما كان في ذلك ما يقضي بالعجب، ولكن الذي قام هذا المقام الشريف، ووقف هذا الموقف التاريخي النادر النظير هو رجل لا يملك سوى قوة إرادته، ومتانة إيمانه، وإيمان رجاله، وعزة أنفسهم بالإسلام، وصبرهم في الباساء وحين البأس، وبينهم وبين عدوهم في العُدد والأسلحة والمال، والعدد من الفروق الهائلة ما لا يحتمل التنظير

في قليل ولا كثير، ففضله إذن أعظم جداً من فضل الدولة العثمانية في جهادها، وإن كان فضلها عظيم، وهو وحده كان مصدر هذه الإرادة التي أنشأت بإذن الله هذا الجهاد الطويل العريض، وحفظت شرف الإسلام المعتدى عليه في طرابلس، وغير طرابلس؛ لأنه مما يجب أن لا نتمارى فيه، أن أوروبا لا تعرف في ذات نفسها إلا إسلامًا واحدًا، إن السيد أحمد الشريف هو بنفسه أمة، وإن سيرة السيد أحمد الشريف هي بذاتها تاريخ، وإن كل من عرف عن كثب ذلك السيد الغطريف علم من أخلاقه وورعه وحلمه وعلمه، وزهده في الدنيا، وحبه لمعالي الأمور وعزوفه عن سفاسفها، ومواساته للفقراء، وحنانه على الضعفاء، وشدته مع ذلك في الدين، وانحصار كل همومه في استتباب أمر المسلمين، ومحافظته على الفرائض والسنن، وغير ذلك من الأخلاق العالية، والهمم الشماء، والمنازل القعساء ما يذكر بأخلاق الصحابة الكرام، بل يشبه من أخلاق الخلفاء الراشدين العظام، ولا أقول هذا في مقام تأبين من عادة الناس أن يروا فيه الحسنات مجسمة، وأن يحملهم الموت على طي الهنات، وتناسي السيئات، بل أقول إنه كان هذا لسان جميع من خالطوه، والفقيد رحمه الله ملآن حياة، وكل من خالطه يعرف منه هذه الأخلاق بأجمعها ويعرف أكثر منها، وطالما كان يقول الأمير سعيد حليم الصدر الأعظم: إن الأمة الإسلامية والدولة العثمانية لم تقدر هذا الرجل حق قدره . . وإني لمتذكر كوننا صمنا شهر رمضان في مرسين وذلك سنة ١٣٤٢هـ، فكنت أفطر في منزلي بالبلدة ثم أذهب إلى خرستيان كوى حيث يقيم السيد، ونصلي وراءه العشاء والتراويح، وكان يجتمع المغاربة الذين في مرسين نحواً من أربعين شخصًا ويصلون وراءه أيضًا، فكان يقرأ خمس القرآن في كل صلاة، وكنت صليت وراءه ساعتين، فعجزت عن ذلك، وصرت اقتصر على صلاة العشاء، وكانوا هم يصلون التراويح، وبعد الصلاة نجلس إلى السحور، وكان في القراءة يتدفق كالسيل ولا يتوقف، ولا يتردد ولا يتلعثم، وكنت أقضي من ذلك العجب العجاب، وأقول كيف أن رجلاً كهذا الرجل قد توسط بين الخمسين والستين من العمر، وتحمل من الهموم والأثقال ما تنوء به الجبال، وهو لا يزال يتذكر كتاب الله كله ويقرؤه عن ظهر قلب كقراءته للفاتحة؟ ولم

أتذكر أنه مدة الشهر من أوله إلى آخره وفي الختمات الست التي ختمها لكتاب الله توقف في القراءة أكثر من ثلاث أو أربع مرات، كان يقف قليلاً ليتذكر الآية، وكان وراءه شاب تونسي حافظ، فيسرع بإلقائه إياها، فيمضي في القراءة مضاء السهم، وهذا غريب، فيمن بلغ تلك السن، وانطوى على ذلك الهم العظيم، من فراق الأوطان وتنوع الأشجان، وجور الحدثان .

ولم يكن للسيد غرام في الدنيا إلا بأمر هذه الأمة، ولما سألته عند اجتماعنا في مكة عن أولاده الذين تركهم أطفالاً أجابني : قد صاروا الآن رجالاً، وما أنا بمفكر في أمرهم، وإنما يهمني أمر هذه الأمة المعذبة في طرابلس، وكان في قلبه من أمر طرابلس ما لا يعلمه إلا الله، ولكنه كان في إيمانه في ثبات الجبال، وكان يرى في هذه المصائب مقدمات يقظة الإسلام . . . اللهم إنه كان من أجل العارفين بك وأبر القائمين بأوامرك ونواهيك وأشد المحبين لعيالك الخلق، وأصلب المتمسكين بكلمتك الحق، وإنه كان القدوة المثلى بين خلائقك، والحجة الوثقى بحقائك والرجل الذي أدى إلى آخر نفس من أنفاسه جميع الواجب الذي عليه لدينه ولقومه، وللإنسانية التي كان لها مثالاً ، فأعلِ درجته يا رب في جوار قدسك ونور وحشة قبره بأنسك وبوئه في عقباه المقام الكريم الذي يليق بكرمك العميم، وبثوابك لمن سلكوا الصراط المستقيم، واستحقوا النعيم المقيم، إنك أنت الرحمن الرحيم»[(١)] .

لقد نعت أحمد الشريف رحمه الله أغلب الصحف في المشرق الإسلامي بأقلام أكابر الشعراء والكتاب، وقد كتب السيد عبد الرحمن عزام فصلاً عن حياة السيد أحمد الشريف نشرته جريدة «البلاغ» الغراء الصادرة بمصر[(٢)] ، وقد صلى عليه المسلمون صلاة الغائب بعد صلاة الجمعة الأولى من شهر المحرم فاتحة سنة ١٣٥٢هـ، وقالت مجلة «المنار» : تقام صلاة الغائب على الزعيم الإسلامي المجاهد العظيم والمرشد الشهير السيد أحمد الشريف السنوسي في جميع المساجد الجامعة في القطر المصري، وسائر الأقطار التي بلغتها الدعوة إلى هذه الصلاة من مكتب المؤتمر

---

(١) انظر: حاضر العالم الإسلامي، (٢ / ٣٩٦ إلى ٤٠٥) .

(٢) انظر: برقة العربية، ص (٣٢٥) .

الإسلامي العام في القدس الشريف، ستكون هذه الصلاة ممتازة بمعنى لم يسبق لها نظير في مثيلاتها من صلاة الغائب التي يقيمها المسلمون في بعض الأقطار عندما يموت عظيم من عظماء الإسلام في علمه الواسع وعمله النافع، لا باتصاف السيد السنوسي بشرف الحسب ولا باشتهاره بالصلاح والتقوى، ولا بمكانه المعروف في العلم والعمل والإرشاد والإصلاح، والبر والإحسان، ولا بالجاه العريض الذي ناله بتقليده سيف البيعة للسلطان محمد الخامس، وإنعام السلطان عليه بلقب الوزارة والنيشان المرصع، فكان أول عالم مرشد معهم تحلى بها، كما تقدم آنفًا، بل تمتاز هذه الصلاة على هذا الرجل العظيم بعمل له هو الذي تم به كماله وهو الجهاد بماله ونفسه في سبيل الله دفاعًا عن دينه، وقومه، ووطنه، وبما آل إليه أمره من جراء هذا الجهاد من هجرته الأولى إلى بلاد الترك، ثم إخراجه منها وتعذر رجوعه إلى وطنه، وتعذر إقامته في سوريا، ومصر، وفي كل قطر إسلامي خاضع لنفوذ الدول الاستعمارية الثلاثة المحاربة للإسلام المستذلة للمسلمين، وقد قاتلها كلها في سبيل الله، حتى لجأ أخيرًا إلى مهد الإسلام في حرم الله، وحرم رسوله ﷺ ، ومات بجوار جده صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله، فبهذا كله صار للصلاة عليه معنى لم يسبق لغيره من عظماء الإسلام المعاصرين [١] .

هذا وقد أبنه الشاعر الكبير الأستاذ أحمد محرم المصري بقصيدة قال فيها:

هتف النعي فما ملكت بياني	ليت النعي إلى الإمام نعاني
فزع الحيطم وراع يثرب عاصف	للموت ضج لهوله الحرمان
سهم أصاب المسلمين وجال في	كبد الهدى وحشاشة الإيمان
جرح الأئمة واستمر فما ارعوى	حتى استباح مقاتل الفرسان
ذهب الإمام يقيم حائط دينه	ويراه أنفع ما يقيم الباني
ذهب المجاهد يشتري لبلاده	عز الحياة بأشرف الأثمان[٢]

(١) انظر: مجلة المنار لصاحبها محمد رشيد رضا (٢ / ١٣٧) لعام ١٩٣٣م.

(٢) انظر: برقة العربية، ص (٣٢٦) .

وأما الأستاذ عبد القادر المجددي الأفغاني نزيل الحجاز فقد قال قصيدة عصماء في رثاء أحمد الشريف من أبياتها:

الله أكبر ما هذه المصيبات ... ذابت لأهوالها منا الحشاشات

أعلام جيش الهدى قد نكست جزعًا ... لما توالت من الأيام صدمات

مات الذي كان للإسلام خير حمى ... رباه رحماك ما هذه الدهيات

من للبواتر من بعد الفقيد ومن ... للمشرفيه إن صحت ملاقات

إلى أن يقول:

ذبيت عن حوض هذا الدين متكلاً

على الإله فوافتك الشهادات

في الغرب في الشرق في الإسلام في عرب

بطن الصحائف من ذكراك آيات[1]

هذه قصة أحمد الشريف السنوسي ، السيد الصنديد والعالم الجليل ، والعابد الخاشع ، والمجاهد الشجاع، والمهاجر الحزين، حاولت جاهدًا أن أوضح للقارئ الكريم ملامحها الإيمانية، وروائحها الزكية، وروحها الأبية، وحياتها المليئة بالدعوة، والجهاد ، والعبادة، والعطاء لهذا الدين العظيم .

إن هذه السيرة العطرة تبين لمسلمي ليبيا أن من أصلاب أجدادهم خرج مثل هؤلاء الأبطال ، وعاشوا للذود عن الإسلام، ونشره بين الأنام، وبذلوا الأنفس والأموال، وتقيم الحجة الدامغة بالبراهين الساطعة، والحجج الواضحة أن الشعب المسلم في ليبيا خرج منه قادة وأبطال، ورجال عظام، ندر الزمان أن يأتي بمثلهم وأن شجرة الإسلام الزكية الضاربة بجذورها في شعبنا منذ زمن الخليفة الراشد عمر بن الخطاب ﷺ لكفيلة بأن تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها، وأن ما نحن فيه من عثرة،

---

(١) انظر: برقة العربية ، ص (٣٢٦ إلى ٣٢٧) .

وكبـوة وذلة، وبلاء «لا شك أنه من ذنوبنا» ، كمـا أنها فتـرة تمر بها الشعـوب قبل تمكينها، فـإلى الغد المشرق مع فجـر الإسلام النير، فلتكن الهمم مـتجهة ولتـتوحد الصفوف للعمل والتضحـية والعطاء، والبذل من أجل أن تصبح بلادنا قلعة من قلاع المسلمين الحصينة منهـا تخرج جيوش المجاهدين ، والدعاة العاملين، وتسـتقبل وفود طلاب العلم من العالم أجمع، ونسأل الله تعالى أن تعـود بلادنا كما كانت وأكثر في دعوتها للإسلام وجهادها في سبيله عـلى أسس صحيحة من كتاب الله وسنة رسوله الكريم، وهدي الصحابة الميامين ومن تابعهم إلى يوم الدين .

وعلى أحمـد الشريف السنوسي وإخـوانه الميامين الذين سطروا لنـا هذا التاريخ العظيم عليهم من الله المغفرة والرحمة والرضوان .

وكأن الشاعر عندما صاغ الأبيات الآتية يجسد لنا حال أحمد الشريف رحمه الله :

أقسـمت أن لا أنثني عن غـايتي ... ما دمت أحـمل مصحـفي وسلاحي

سـأعـيد لـلإسلام سـالف مـجـده ... بعـزيمتي وبوحـدتي وكـفـاحي

أنا مـسلم لا أرتضـي بعـقـيـدة ... تُملـى من الدجـال والسـفـاح

أنا مـسلم سـجلت أروع صـفـحـة ... بعـقـيـدتي وعـدالتـي وصـلاحي

أنا ثـائر أبني الحـيـاة كـريمة ... وعـزيـزة وعلى هـدى وفـلاح

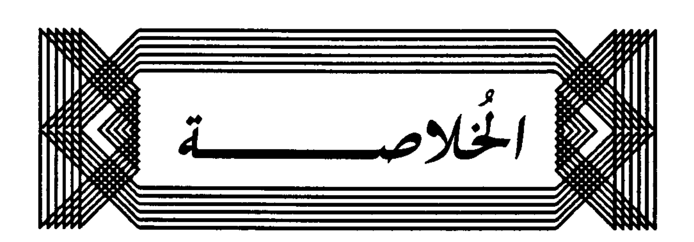
في الأرض أبذر شـرع دين مـحمـد ... ويشـع نور جـلاله الوضـاح

أقسـمت - يا وطني - بأن لا أنحني ... إلا لربـي فـالق الإصـبـاح

قـسـمًا بأن أسـعى لإسـعـاد الورى ... سـعـيًا حـثـيـثًـا مـؤذنًا بنجـاح

سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك

* ■ *



الخُلاصـــة

* ولد محمد المهدي السنوسي في الجبل الأخضر في ليـبيا في شهر ذي القعدة عام ١٢٦٠هـ الموافق نوفمبر ١٨٤٤م .
* كانت فرحة الإخوان ، وابن السنوسي بمولد محمد المهدي عظيمة .
* لما ولد الابن الثـاني لمحـمـد بن علي السنوسي عـام ١٢٦٢هـ/ ١٨٤٦م، كـتب عمران بن بركة لـشيخه يهنئه بالمولود الثاني، ويسـأله عن اسم الوليد الثاني رد له الجواب بتـسمية الشـريف قائلاً له: «إننا لا نحيـد بأسماء أبنائنا عن أسـماء النبي ﷺ وإنما يختلفـون في الألقاب والكنى، فكمـا سمـيت الأول محمـدًا المهدي ليحوز أنواع الهداية فسمٍّ هذا محمدًا الشريف ليحوز أنواع الشرف .
* أسند ابن السنوسي تربيـة أولاده للإخـوان وكان المسئول الأول الشـيخ العلامـة عمران بن بركة .
* وبعد أن حفظ محـمد المهدي القرآن الكريم طلبه والده للمجيئ للحـجاز وصحبه العلامة مـحمد بن إبراهيم الغمـاري، وهناك عهد به والده إلى نخبـة من العلماء لتربيته وتلقينه العلوم تحت إشرافه المباشر .
* رجع محمد المهدي إلى الجغبوب بصحـبة العلامة عبد الرحيم المحبوب، وواصل محمد المهدي تعليمه العالي في معهـد الجغبوب وأشرف على تعليمه وتربيته والده ابن السنوسي وكبار الإخوان .
* تميز مـحمـد المهدي منذ طفـولته بالذكاء، وحـسن الخلق، والصفـات الرفيـعة، والأخلاق الحميدة .
* تزوج محـمد المهدي في حـياة والده وهو لم يتجـاوز الخامسـة عشرة من عـمره

بفاطمة ابنة عمران بن بركة وذلك عام ١٢٧٥هـ / ١٨٥٨م، وقد أنجبت للمهدي عدة أولاد وتوفيت في حياته سنة ١٨٩١م .

* بعد وفاة ابن السنوسي خف كبار العلماء والشيوخ في الحركة السنوسية إلى مبايعة محمد المهدي .

* كون محمد المهدي السنوسي مجلسًا أعلى من كبار الإخوان، يتكون من العلامة عمران بن بركة، وأحمد الريفي، وعلي عبد المولى، وفالح الطاهري، وعبد الرحيم المحبوب، ومحمد المدني التلمساني، محمد بن الحسن البسكري .

* كان المجلس الأعلى للحركة يمثل قمة الهرم الذي قاعدته الزوايا ، وكان يضم كبار رؤساء الزوايا في برقة وطرابلس ومصر والحجاز، والسودان، وشمال إفريقيا، وكان يجتمع سنويًا في الجغبوب للنظر في أهم أمور الحركة .

* من الملاحظ أن مبدأ التفرغ كان موجودًا في الحركة لقناعة الحركة السنوسية أن الأعمال العظيمة تحتاج إلى أوقات كبيرة، وجهود ضخمة وهمم عالية، ولذلك سلكت الحركة السنوسية مسلك تفريغ بعض القيادات، ووفرت المال اللازم لهذا الهدف، ووفرت كل ما يحتاجه الأفراد المتفرغين حتى يستطيع المتفرغون أن يبذلوا ما في وسعهم من أجل الدعوة ونشرها بين الناس .

* اهتم محمد المهدي بتطوير العاصمة السنوسية، فحفلت الجغبوب بالنشاط العلمي، والزراعي، وانتظم سير العمل في معهد الجغبوب، ووزع تلاميذ المدارس القرآنية على أقسام، ورتبت بدقة أمور الدراسة، وكل ما يتعلق بالطلاب .

* كانت الزوايا تقوم بدورها في جمع المعلومات وما يتعلق بالقضايا الأمنية وترسلها إلى الجغبوب، وكان نظام البريد ينقسم إلى أربعة أقسام نقطة ارتكازها الجغبوب .

* نمت الحركة السنوسية في عهد محمد المهدي نموًا كبيرًا، وتضاعف عدد الزوايا أكثر من أربعة أضعاف ، وانتشرت هذه الزوايا في الصحراء الكبرى، وعلى طريق مصر، وتونس، وفي واداي .

* كان من أسباب هذا النمو السريع ، طبيعة الحركة، ونظمها المتطورة بالنسبة لعصرها، وفهمها لطبيعة المجتمعات القبلية، وطول المدة التي قضاها الزعيم الثاني في قيادة الحركة، إذ تجاوزت أربعين سنة، فتمكن أثناءها من تركيز العلم الذي بدأه والده .

* تمكن الإمام المهدي أن يبني علاقات قوية مع الإمارات الإسلامية في واداي، وبرقو، وكانم وغيرها، واختط خطة حكيمة كانت مبنية على الحيطة والحذر من النفوذ الصليبي الأوروبي في إفريقيا، ثم عدم التردد في مكافحة هذه الدول إذا جد الجد، كما فعل مع فرنسا .

* كان محمد المهدي يحرص دائمًا على إزالة البغضاء والشحناء من نفوس القبائل المتعادية، ويدعوها إلى أخوة الإسلام، وشغلها بالطاعة، ودفعها نحو المعالي، والأخلاق الرفيعة، واستطاع أن ينظم من القبائل كتائب للجهاد ساهمت في قتال فرنسا، وبعد وفاته قاتلت إيطاليا .

* كرس المهدي جهوده للبناء الداخلي في الحركة، واختط طريقًا سلميًّا تجنب الاحتكاك فيه جهد المستطاع بالقوى المحيطة به، واستطاع أن يتخذ مواقف تدل على بعد نظره وثاقب فكره من الثورات التي حدثت في السودان، ومصر، وكذلك الدول الأوروبية .

* نشطت الحركة السنوسية في تعبئة أتباعها على الاستعداد للجهاد، ونظمت صفوفها ، ورأى السلطان عبد الحميد الثاني في الحركة السنوسية قوة منظمة ومعدة إعدادًا ماديًّا ومعنويًّا جيدًا يمكن استغلالها في المواجهة العسكرية المتوقعة مع أعداء الدولة العثمانية في شمال إفريقيا .

* حققت الحركة السنوسية انتشارًا كبيرًا في أواسط إفريقيا، وتوطد سلطانها في قلب الصحراء الكبرى، وكانت عقبة في طريق الرسالات التنصيرية التي وجدت في الحركة السنوسية خصومًا عنيدين عطلوا عليها أعمالها لدرجة بعيدة.

* تولت فرنسا مهمة الهجوم الإعلامي على الحركة السنوسية، وأرسلت عددًا من

الرحالة منهم دوفـرييه، ثم وقفت من الحركة مـوقفًا عدائيًا وشنت عليهـا حربًا دعائية بواسطة رحالتها الذين كتبوا عن السنوسية، وقصدت بذلك تشويه الحركة، كما تجلى موقفها العدائي في ضغطهـا على الباب العالي للتضييق على السنوسية، ثم تبلور هذا الموقف في حربها الظالمة لمواقع الحركة السنوسية في تشاد .

* إن نظرة المهدي للثورات غير المدروسة دراسة دقيقة تتيح للأجانب التدخل، ويرى أن طريق البناء، والتربية، والإعداد العقدي، والوسائل السلمية هي الطريقة المثلى نحو النهوض الشامل للأمة .

* إن علماء الحركة السنوسية وعلى رأسهم المهدي السنوسي لم يؤمنوا بمهدية محمد أحمـد، وكذلك رفضـوا القول بمهدية المهـدي السنوسي واعتبـره محمـد المهدي السنوسي نوعًـا من التخريف، ويـرجـع ذلك إلى علمهم المتين، واسـتيـعابهم لكتاب الله، والسنة المطهرة التي بينت حقيقـة المهدي المنتظر، والتزموا بعقيدة أهل السنة والجماعة التي وضحت هذا المعتقد .

* إن التهـمة الموجهـة للحركة السـنوسية بأن أتبـاعها يعـتقدون في الإمـام المهدي السنوسي هو المهدي المنتظر تهمة باطلة، رفضها الإمـام محمد المهدي، وعارضها وأبى الموافقة علـى القول بها، وعندما سئل المـلك إدريس -رحمه الله - عن رأي أبيه في قول بعض أتباع الطريقة بمهدويتـه أجاب: «كان كلما سمع هذا القول نفاه بشدة، وأبدًا لم يعتقد به» .

* إن الليبـيين عمومًا ارتبطوا بفـكرة الجامعة الإسـلامية، وسيـاسة الدولة العثمـانية وسلطانها عـبد الحـميد الثـاني الذي تبنى الدعوة إليهـا، وأكدوا في كل مناسـبة ارتباطهم بهذه الدعوة، وخاصـة في أزمات الدولة، ففي حرب الدولة مع اليونان سارع أهل طرابلس بتشكيل اللجـان لجمع التبرعات وقد كـتب على الاستمارات المعدة للجـمع عبـارة «إعانة جهـادية» وبلغ مجـموع التبـرعات قـرابة «مائة ألف فرنك» .

* كانت خطة التـوسع عند الحركة السنوسـية تستـدعي من زعيمـها محمـد المهدي

الانتقال نحو الجنوب وفق خطوات مرسومـة، ومراحل معلومة لدى قادة الحركة، وتقرر لدى مـحمد المهدي الانتـقال من الجغـبوب إلى الكفرة، وشرع في تنفـيذ القرار الإستراتيجي بسرعة البرق، فجمعت الإبل الكافية للنقل، وخبراء الطريق، والأمتعة الضرورية .

* كان قرار انتقال الإمام المهدي إلى الكفرة مـفاجأة لأهالي ليبيا، واهتزت البلاد من أقصاها إلى أقصاها، وترك أثرًا حزينًا أليمًا في النفوس .

* تولى المهدي السنوسي تصريف أمور الحركة من الكفـرة، فعجت بالحركة وأصبح أتباع الحركة يقدمون إليها من كل حدب وصوب، حتى ضاقت بهم مساكنها .

* تأثر محمد المهـدي بوفاة أخيه محمـد الشريف الذي كان عالمًا ربانيًّا، ومستشاراً عبـقريًّا، وكان مشرفًـا على معهد الجغبوب، وقد تميـز بغزارة العلم ودقة الفهم، والقدرة على التدريس .

* استطاعت الحركة السنوسية أن تفجر طـاقات الشعراء، وأضفت عليهم معاني في الصدق، والمثل الرفيعـة، ومبادئ الدعوة، وكونت أدبًا رفيعًا خاصًـا بها، يستحق البحث والتنقيب، والدراسة والتحليل .

* بعد أربع سنوات من المكوث في الكفرة شد المهدي رحاله إلى زاوية قرو في برقو في السودان الغـربي، ليشرف بنفسه علـى تنظيم المقاومة، واتخاذ الأهبـة لمواجهة القوات الفرنسية الزاحفة نحو بحيرة تشاد .

* تقدم الفرنسيون نحو كانم في حملة مجـهزة بالأسلحة والمعدات الحديثة، واستعد السنوسيون لملاقاتهم فوضـعوا حامية كبيرة في بير الـعلالي، واشتبكت الحملة في معـركة حـامية الوطيـس مع الإخوان السنوسيـين، وكان النصر حليـف المدافعين برئاسة الشيخ محمد البراني .

* استمرت المعارك بين قـوات المجاهدين والجيش الفرنسي، واضطر المجاهدون تحت وابل الرصاص للانسحاب بعد أن قتلوا من الجيش الفـرنسي أضعافًا مضاعفة وفي هذه الأثناء وصل إلى المجـاهدين خبـر وفاة الإمـام المهدي، فـخارت العـزائم،

وضعفت الهمم، وكانت وفاة المهدي بعد أن اشتد المرض عليه، وكان ذلك في يوم الأحد ٢٤ صفر ١٣٢٠هـ الموافق ٢ يونيو ١٩٠٢م في زاوية قرو ثم نقل ودفن في زاوية التاج .

* كان محمد المهدي داعية من الطراز الأول، تجسدت في شخصيته صفات القادة الربانيين، وكان يهتم بأمر المسلمين ، في كل صقع من أصقاع العالم، وكان يؤلمه أي خلاف إسلامي أو أي مشكلة تقع بين الأفراد، أو بين القبائل، فكان يولي هذه الناحية مجهودات كبيرة في فكره وتفكيره، ويتخذ كل الوسائل لإزالة سوء التفاهم بعلمه وآرائه، وتدبيره عاملاً على إحلال الصفاء والوئام محل الشقاق والخصام .

* ترك لنا الشاعر أحمد رفيق المهدوي قصيدة رائعة تحمل في كل بيت منها صورة واضحة لسيرة الزعيم الثاني للحركة السنوسية ، وبينت إصلاحاته العلمية، والدينية، والعملية، والنظامية .

* تولى قيادة الحركة السنوسية بعد وفاة المهدي ابن أخيه أحمد الشريف الذي قاد كتائب الجهاد ضد فرنسا في تشاد، وضد إيطاليا في ليبيا، وضد بريطانيا في مصر.

* يتفق معظم المؤرخين بأن أحمد الشريف ولد بواحة الجغبوب ليلة الأربعاء بتاريخ ٢٧ شوال سنة ١٢٩٠هـ الموافق لسنة ١٨٧٣م ، انكب منذ طفولته على القراءة والتحصيل، وحفظ القرآن الكريم في سن مبكرة .

* تربى أحمد الشريف في حجر والده العلامة محمد الشريف ، وحينما ترعرع وبلغ السادسة من عمره دخل تحت كنف عمه المهدي السنوسي، فاهتم بتربيته وتهذيبه وأشرف عمه على تعليمه وتحفيظه للقرآن الكريم .

* شارك أحمد الشريف مع عمه في معارك الحركة ضد فرنسا في تشاد، ولما شعر محمد المهدي بدنو أجله، عهد إلى ابن أخيه بالقيادة لما توسم فيه من القدرة على الاضطلاع بأعباء الحركة .

* استمـر أحمد الشريف علـى نهج زعماء الحركة الـسنوسية، فواصل الجـهاد ضد الاستعمار الفرنسي، ونشر الدعوة الإسـلامية بكل حكمة في إفريقيا، واتخذ من الكفرة عاصمة للحركة السنوسية، وأناب عنه محمد السني لإدارة أمور الجهاد.
* كان الصراع بين فرنسا والحركة السنوسيـة في إفريقيا على أشده، وتميز السنوسيون في جهـادهم بقدرتهم على الكر والفر، وكـانت قبائل الصحـراء والقبائل الليبيـة تتمحور حول قيادة الحركة السنوسية .
* كان من أشـهر قادة الحركـة السنوسية في جـهادها ضد فـرنسا، المجاهد محـمد كاوصن، عـبد الله السني، عبد الله فـضيل، الطوير الزوي، البراني السـاعدي، غيث عبد الجليل سيف النصر، محـمد بو عقيلة الزوي، صالح بو كريم الزوي، كيلاني الأطيوش المغربي، عابدين الكنتي .
* استـمرت إيطاليا أكثـر من ثلاثين سنة وهي تجمع المعلومات وترسل الجـواسيس، وتخطط لغزو ليبيا، وتتوغل بالمؤسسات التجارية، والمدارس العلمية لغزو بلادنا .
* كانت إيطاليا عازمـة على احتلال ليبيا، وبذلت في سبيل ذلك جـهدًا كبيرًا على مستـوى الولاية نفسها، بتـعزيز مظاهر نفوذها أو على المستـوى الدولي بالحصول على موافقة أغلب الدول الأوروبية على ذلك، إلا أن شدة تمسك الدولة العثمانية بالولاية في زمن السلطان عـبد الحميـد الثاني، وقوة نفـوذ الحركة السنوسـية في دواخل ليـبيـا، وحسن التـنسيق القـائم ببين الطرفين، كل ذلك أدى إلى تأجـيل إيطاليا تنفيذ مشروعها الاستعماري العدواني الغاشم عام ١٩١١م .
* في عام ١٩١١م أعلنت إيطاليا الحرب على ليبيا وشرعت بوارجها في قصف المدن الليبية، واستعد أهالي البلاد للجهاد في سبيل الله .
* بعد وصول خبر احتلال ليبيا لطرابلس ، وقصـفها لبقية المدن الليبية بأساطيلها ، قام أحمـد الشريف بجمع السادة، والشـيوخ والعلماء، والقادة، وعـرض عليهم الأمر واستشارهم، وخـرج الأمر بتوجيه الشيوخ وعلماء الحـركة بقيادة المجاهدين في كـافة ساحـات الوغى، وقال أحـمد الشـريف: «والله نحاربهم ولـو وحدي بعصاتي هذه» .

* تدفق أتباع الحركة السنوسية كالسيل الجارف على ميدان القتال في طرابلس وفي منتصف يناير ١٩١٢م قال السيد أحمد الشريف كلمته لأهل ليبيا وأصدر نداءه المشهور يحث فيه أهالي البلاد على الجهاد ضد العدو المعتدي ، ويعلن فيه نبأ اعتزام النزول بنفسه إلى ميدان القتال .
* اعترف السلطان العثماني بجهود أحمد الشريف ، وأهداه في مارس ١٩١٢م سيفًا ونيشانًا مرصعًا بالجواهر مكافأة وتقديرًا لجهوده في الجهاد .
* خلد التاريخ المعاصر أسماء المعارك التي قام بها الأجداد ضد إيطاليا في المنطقة الغربية من ليبيا من أهمها: معركة طرابلس، معارك الخمس، معركة الهاني، سيدي مصري، معركة قرقارش، معركة أبي كماش، معركة لبدة، معركة تاجوراء.
* أرسل أحمد الشريف أخاه صفي الدين ليتولى قيادة الجهات الغربية من برقة، وكان لإرساله فرحة عظيمة لدى القبائل المنضوية تحت لواء الحركة السنوسية، وقاد صفي الدين معركة عظيمة ضد إيطاليا بموقع «أبي هادي» واستمرت المعركة بشدة وعنف عدة ساعات انجلت عن خسارة إيطاليا .
* كانت الانتصارات التي حققتها الحركة السنوسية، محل الإعجاب والتقدير، من أبناء ليبيا المخلصين، ولذلك اتصل كثير من القادة والشيوخ بصفي الدين، وكان رمضان السويحلي المجاهد الكبير على رأس أولئك الأبطال المغاوير .
* حقق المجاهدون نصرًا عظيمًا في معركة القرضابية وبدأت قواتهم في تطهير البلاد من المعتدين، وتركت الحاميات الإيطالية حصونها بسهولة، وهامت على وجهها عبر التلال والسهول المحرقة الجافة، وحررت مزدة، والقصبات، وسرعان ما وصل المجاهدون إلى ابن غشير على بعد ١٥ ميلاً من طرابلس .
* حقق المجاهدون انتصارًا عظيمًا على إيطاليا ولولا الشقاق والخلاف والنزاع الذي وقع بين رمضان السويحلي وصفي الدين السنوسي لأصبح الجهاد أمرًا آخر.

* تولى محمد عابد السنوسي جهاد الجنوب في فزان والجفرة والنواحي الغربية من فزان، واتخذ من زاوية «واو» مركزًا للقيادة .

* قاد سالم بن عبد النبي الزنتاني حرب عصابات ناجحة في ولاية فزان، وأثخن في أعداء الله، وهاجم القاهرة وهي ربوة عالية في «سبها» يوجد بها حصن وسياج من المدافع والأسلاك الشائكة وأصبحت تلك القلعة منيعة جدًا، واستطاع سالم عبد النبي فتحها بقواته المجاهدة عام ١٩١٤م، لقد أبلى أهل الجنوب بلاءً حسنًا في جهادهم ضد إيطاليا .

* جاهد أهالي بنغازي عن مدينتهم دفاعًا مجيدًا، وأظهروا من البطولة والشجاعة النادرة، ما جعلهم محل التقدير من كل المسلمين وسجلوا صفحات مجيدة خالدة في سجل التاريخ .

* توافدت النجدات العسكرية إلى مدينة بنغازي بقيادة شيوخ الحركة السنوسية، فوصلت كتيبة العرفا، وعددها ثلاثمائة مسلح يقودها الشيخ عمران السكوري، وتلتها بقية النجدات التي جاء بها زعماء القبائل وشيوخ الزوايا من كل حدب وصوب .

* صممت الدولة العثمانية على المقاومة حفظًا لماء الوجه، أمام الرأي العام الإسلامي، فأرسلت نخبة من ضباطها وقوداها المشهورين، لتقوية روح المقاومة والدفاع، وتدريب المجاهدين وتعليمهم كيفية استعمال الأسلحة الحديثة والمعدات.

* كان من أبرز قادة الأتراك الذين أرسلتهم الحكومة العثمانية كل من: الرائد أنور بك، ومصطفى كمال، فتحي أوفيار، وخليل بك عم أنور بك ، وفؤاد بولجا قاش باشي، سليمان العسكري، وعزيز علي المصري، أدهم باشا الحلبي .

* تفاعل العالم الإسلامي مع البطولات العظيمة التي حققها المجاهدون في ليبيا، وقامت الشعوب الإسلامية بواجبها نحو إخوانهم في الدين .

* أدركت إيطاليا عجزها عن إتمام احتلال بقية ليبيا، ولذلك قررت أن تهاجم الدولة العثمانية في مراكزها الضعيفة لترغمها على الدخول في المفاوضات للوصول إلى تخلي تركيا عن دعمها لليبيا ونجحت في ذلك .

* كان موقف أحمد الشريف واضحًا قبل توقيع الصلح بين إيطاليا وتركيا، فقد بعث إلى أنور باشا في درنة يذكر فيه ما وصله من أن الدولة تعتزم إعطاء ليبيا إلى إيطاليا، فقد جاء في رسالته: «نحن والصلح على طرفي نقيض، ولا نقبل صلحًا بوجه من الوجوه» إذا كان ثمن الصلح تسليم البلاد إلى العدو، وزيادةً حذره مما سوف يحدثه قبول الصلح في نفوس المسلمين في جميع الأقطار من نفور شديد من الدولة العثمانية .

* قامت الدولة العثمانية بتنفيذ معاهدة أوشي، فأصدرت أوامرها لضباطها وجنودها في ليبيا للانسحاب .

* تولى القيادة الفعلية الحركة الجهاد بعد خروج أنور باشا أحمد الشريف الذي بذل كل جهوده لتنظيم حركة الجهاد بعد انسحاب الأتراك، وكتب منشورًا إلى مشايخ الزوايا والقبائل يعلن فيه استمرارية مواصلة الجهاد، وطلب من كل مسلم من سن الرابعة عشرة حتى الخامسة والستين أن يذهب إلى ميدان الجهاد مزودًا بمؤونته وسلاحه.

* عزم الإيطاليون على سحق قوات أحمد الشريف ، فدبروا تنظيم حملة قوية قوامها خمسة آلاف جندي مسلح، تسليحًا حديثًا لضرب معسكري المجاهدين في سيدي عزيز، وسيدي القرباع على ضفتي وادي درنة، وفي اليوم الذي وصل فيه أحمد الشريف إلى منطقة الظهر الأحمر جرت معركة مهولة عرفت باسم سيدي القرباع، واشتهرت باسم «يوم الجمعة» وقد تمكن المجاهدون بفضل الله من تحقيق الانتصار الحاسم في تلك المعركة .

* بعد تلك المعركة شرع أحمد الشريف في جولات تفتيشية ابتدأت من الغريان، وانتهت بجدابية، فمر بجميع معسكرات الجبل الأخضر، وفتشها واطلع على سير الأمور فيها، ورتب أمور الضباط، ونظم المجالس الاستشارية ، والمعسكرات،

ووقعت معارك بين الطليان والمجاهدين أثناء مروره بدواخل البلاد، فاشترك في الكثير منها، لقد طاف أحمد الشريف بين المدن والقبائل يحض الناس على الجهاد وحمل السلاح ضد الغزاة، وحضر بنفسه في المعارك، ونبه المجاهدين إلى ضرورة اعتماد حرب العصابات القائمة على الكر والفر، وأكد لهم صعوبة اعتماد الخطط السابقة التي كان الأتراك يعتمدونها خلال المراحل الأولى .

* حاولت إيطاليا أن تضغط على أحمد الشريف بواسطة الخديوي عباس باشا بعد أن فشلت جميع وفودها التي كانت تتوافد على المجاهد أحمد الشريف وتعرض عليه أن تضمن له إمارة هو تحت سلطانه، وتحتفظ هي بالموانئ والثغور الساحلية، فضرب بقولها عرض الحائط .

* استمر المجاهدون في جهادهم بالرغم من احتياجاتهم ونواقصهم الحربية، والضغوط الخارجية التي تدفعهم لوقف مسيرة الجهاد .

* بدأت ملامح الحرب العالمية الأولى تلوح في الأفق، وكان أحمد الشريف يقظًا لما يجرى حوله، فأقام معسكرات التدريب، ورسم خطة للدفاع، وحماية الشعب، والاستعداد للجهاد، وشرع في تشكيل جيش نظامي مدرب، ليخوض به غمار حرب طويلة المدى ضد العدو الصليبي الإيطالي ومع اندلاع الحرب العالمية الأولى بدأت الدول تتسارع وتتسابق لكسب ود أحمد الشريف وقواته المجاهدة.

* كانت القوى المهتمة بكسب أحمد الشريف إلى جانبها هي تركيا، وألمانيا بالدرجة الأولى وبريطانيا ومصر بعد ذلك .

* كانت بريطانيا حريصة على استمالة أحمد الشريف إليها قبيل الحرب العالمية الأولى ، وزاد حرصها بعد اندلاع الحرب الكونية، وحفظ التاريخ بعض الرسائل من القادة الإنكليز في مصر مرسلة إلى أحمد الشريف .

* بعد دخول تركيا الحرب العالمية الأولى بجانب ألمانيا، رأت الحكومات التركية والألمانية الاستفادة من جهود السنوسيين لتشتيت القوات الإنجليزية وفق خطة لاحتلال قناة السويس وتطهير مصر من الوجود الإنجليزي .

* أقحم الأتراك أحمد الشريف في حربهم ضد الإنجليز رغم رفض أحمد الشريف بشدة في البداية، لأنه كان على يقين أن ذلك الهجوم لا يتماشى مع مصلحة بلاده، فإن الأتراك والألمان كانوا ينظرون إلى الحرب في شكلها المتكامل، والتي لا تمثل طرابلس إلا جبهة فرعية في تلك الإستراتيجية .
* فشلت هجمات الأتراك على القوات الإنجليزية في القناة وفي الصحراء الغربية، وتدهورت الحالة الاقتصادية في برقة وساعدت تلك الظروف في ظهور الأمير إدريس على مسرح الأحداث، بعد أن أصبحت حاجة البلاد إلى قيادة جديدة تتولى معالجة تلك المواقف الحرجة .
* فشلت حملة أحمد الشريف في تحقيق أهدافها لعدة أسباب منها: الضعف العسكري، والضعف الاقتصادي، وعدم التخطيط الإستراتيجي . . . إلخ .
* كان رأي الأمير إدريس السنوسي بأن الحرب ضد بريطانيا لا تحقق أية نتيجة، وعلى السنوسيين استغلال الظروف الدولية، لتحقيق استقلال ليبيا، وكان يرى أن بريطانيا هي المؤهلة لأن تأخذ على عاتقها إنجاز هذا الأمر .
* كان لفشل حملة أحمد الشريف آثار سلبية على سير حركة الجهاد في برقة ضد القوات الإيطالية نذكر منها؛ ضاعت فرصة مواصلة القتال ضد إيطاليا، تزعزت العلاقات الروحية التي كانت تربط أحمد الشريف بالقبائل المصرية بسبب المواجهة بين الطرفين وسقوط القتلى من كل جانب، انقطع الشريان الاقتصادي لحركة الجهاد وسدت المنافذ المصرية .
* غادر أحمد الشريف ليبيا إلى إستانبول بواسطة غواصة ألمانية إثر طلب من الحكومة التركية ليقوم أحمد الشريف بفتح المفاوضات بينها وبين الشريف حسين ابن علي أمير مكة الذي أعلن الانفصال عن الدولة التركية .
* وصل أحمد الشريف إلى تركيا واستقبله كبار رجال الدولة استقبالاً حافلاً ورسميًّا «سركه جي» حضره بعض المسئولين العثمانيين يتقدمه صديقه أنور باشا وزير الحربية العثمانية .

* دخلت جيوش الحلفاء إلى إستنابول واستولت على عموم الولايات والموانئ وعقدوا العزم على إبادة تركيا، وتشتيتها وتقسيمها، وأراد الإنكليز أن يستغلوا هذا الظرف لصالحهم وبدأوا في تنفيذ مخططهم الهادف إلى تدمير الدولة العثمانية .

* ظهر مصطفى كمال في ثوب المسلم الوطني المتدين الثائر وأصبح السلطان تحت قيود الحلفاء وأصبحت تركيا تحت زعامتي مصطفى كمال، والسلطان وحكومته، وعمل مصطفى كمال على كسب أحمد الشريف لصفه لعلمه لما له من المكانة الروحية في قلوب المسلمين، وكان مصطفى كمال ابتدأ حركته باسم الدين حتى أنه أمر بإحراق جميع الخمور وتكسير أدواتها ، ومعاملها ، وإبعاد جميع النساء المومسات، وإغلاق دور الدعارة، وأصدر أوامر شديدة بلزوم المحافظة على الصلوات في وقتها .

* قرر أحمد الشريف بعد تفكير طويل الذهاب إلى الأناضول والانضمام إلى مصطفى كمال رغم ما جاء من الرسل والرسائل من طرف السلطان وحكومته يحذرونه من الانخداع بمظاهر مصطفى كمال المصطنعة وادعاءاته الكاذبة .

* كان انضمام أحمد الشريف نصرًا عظيمًا لمصطفى كمال؛ لما له من المنزلة الروحية الكبيرة في قلوب مختلف الشعوب الإسلامية وكان الناس يعتقدون أن أحمد الشريف لا يميل إلا إلى الجبهة التي على الحق .

* ساهم أحمد الشريف بطلب من مصطفى كمال في إخماد ثورة الأكراد وخرج إليهم والتقى بشيوخهم ودعاهم إلى الوحدة والوقوف صفًا واحدًا ضد أعداء الدين.

* بعد الانتهاء من حروب اليونان تهيأت القوات الكمالية لدخول ولاية إستانبول وبعد حصار دام ما يقارب من الأربعة أشهر، ومحاولات طويلة مع دول الحلفاء، تم الاتفاق على إخلاء إستنابول من قوات الاحتلال، ودخلت القوات الكمالية إستانبول ثم تدرجت حكومة مصطفى كمال بعد أن تمكنت من الوضع وخلعت الخليفة الصوري عبد المجيد، وأبعدته كما أبعدت كل من له صلة أو محبة أو انتماء لآل عثمان .

* بدأت نوايا مصطفى كمال الشريرة تظهر رويدًا رويدًا، فتدخل في الأحكام وغير القوانين الشرعية، فانزعج أحمد الشريف غاية، وغضب نهاية، وخاطب مصطفى كمال وقال له: إننا والمسلمون لم نناصرك ، ونقف معك إلا لأجل حفظ كيان الدين الإسلامي .
* من طرفٍ خفي بدأت السلطات التركية تضايق أحمد الشريف، وتعد عليه أنفاسه، وأحكمت الرقابة على كل من له تعلق بالسيد، أو يزوره وانتهى الأمر بإخراجه من تركيا وسافر إلى الشام .
* اشتد ضغط الحكومة الفرنسية على أحمد الشريف للخروج من الشام وانتهى به المقام بالحجاز وأصبح ينتقل بين المدينة ومكة المكرمة ويتصل بأهل ليبيا عن طريق الحجاج ويجمع لهم الأموال والمساعدات ويقوم بتوجيههم خير قيام .
* توفي أحمد الشريف في تمام الساعة الثامنة من يوم الجمعة ١٣ ذي القعدة سنة ١٣٥١هـ الموافق العاشر من شهر مارس سنة ١٩٣٣م في الزاوية السنوسية في المدينة المنورة إثر مرض عضال لم يمهله، ودفن في مقبرة البقيع قرب قبر الإمام مالك بن أنس إمام دار الهجرة بعد أن عاش إحدى وستين سنة قضاها في خدمة الإسلام والمسلمين، ورفع شأن الدين، ومجاهدة الكافرين الغاصبين في شتى الميادين، فعليه وعلى أمثاله الرحمة والمغفرة والرضوان من رب العالمين وأعلى الله ذكره في المصلحين .

* هذه هي خلاصة التي وصلت إليها، وقد ملت إلى الاختصار الشديد خوفًا من الإطالة والإطناب .

وأسأل الله العلي العظيم رب العرش الكريم أن يتقبل هذا الجهد المتواضع قبولاً حسنًا وأن يبارك فيه وأن يجعله من أعمالي الصالحة التي أتقرب بها إليه وأن لا يحرم إخواني الذين أعانوني على إكماله من الأجر والمثوبة، وأختم هذا الكتاب بقول الله تعالى: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (الحشر: ١٠) .

وبقول الشاعر:

أنا الفقيــــر إلى رب البريــات أنا المسكين في مجمـوع حالاتي

أنا الظلـوم لنفســي وهي ظالمتـي والخيــر أن يأتينا من عنــده يأتي

لا أستطيــع لنفسي جلـب منفعة ولا عن النفس لي دفع المضرّات

والفقر لي وصف ذات لازم أبدًا كمـا الغنى أبـدًا وصـف له ذاتي

وهذه الحال حال الخلق أجمعهـم وكلهـم عنــــده عبـــــد له آتِ

«سبحانك اللهم وبحمدك

أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك»

« وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين »

* ■ *

أهم مراجع ومصادر البحث

(أ)

١- انتشار الإسلام في القارة الإفريقية، د. حسن إبراهيم حسن، مكتبة النهضة المصرية، الطبعة الثالثة، ١٩٨٤م .

٢- الإذاعة لما كان وما يكون بين يدي الساعة، لمحمد صديق حسن القنوجي البخاري، طبع دار الكتب العلمية، بيروت، سنة ١٣٩٩هـ .

٣- أشراط الساعة، يوسف بن عبد الله بن يوسف الوابل، دار ابن الجوزي، الطبعة الثالثة، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م .

٤- أعلام ليبيا، الطاهر أحمد، ط٢ ، طرابلس، مؤسسة الفرجاني، ١٩٧١م.

٥- الأفعى في معاقل الإسلام، عبد الله التل، المكتب الإسلامي .

(ب)

٦- برقة العربية الأمس واليوم، محمد الطيب، أحمد إدريس الأشهب، مطبعة الهواري، شارع محمد علي بمصر .

(ت)

٧- التواضع في تواتر ما جاء في المهدي المنتظر والدجال والمسيح للإمام محمد علي الشوكاني .

٨- تفسير المنار للعلامة محمد رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت، لبنان .

٩- تهذيب شرح الطحاوية، د. محمد صلاح الصاوي، دار الفرقان، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م .

١٠- تاريخ الإسلام، أنور الجندي .

١١- التعليم في ليبيا خلال القرن التاسع عشر، عمر بن إسماعيل .

١٢- تاريخ ليبيا المعاصر، محمود عامر، منشورات جامعة دمشق طبعة عام ١٤١١هـ/ ١٩٩١م .

١٣- تاريخ لبيا، جون رايت، كتاب مصور، دار الفرجاني، طرابلس، الطبعة الأولى ١٩٧٢م .

١٤- تاريخ حرب طرابلس، محمد إبراهيم لطفي، مطبعة مؤسسة الأمير فاروق ، بنها، ١٩٤٦م .

١٥- توضيح الأحكام من بلوغ المرام، عبد الله بن عبد الرحمن البسَّام، دار القبلة للثقافة الإسلامية، جدة، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ، ١٩٩٢م .

١٦- الاتجاهات الفكرية المعاصرة وموقف الإسلام منها، د. جمعة الخولي، طبعة أولى ١٤٠٧هـ / ١٩٨٦م ، مطابع الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة .

(ث)

١٧- الثورة السنوسية أو كاوض نشر المركز النيجيري للبحوث في العلوم الإنسانية، نيامي ، ١٩٧٣م، ترجمة عبد الرحمن عبد اللطيف، مخطوط صاحب الكتاب ساليفو أندري .

(ج)

١٨- جهاد الليبيين ضد فرنسا في الصحراء الكبرى، محمد القشاط، طبعة عام ١٩٨٨م .

١٩- جلاء الكرب عن طرابلس الغرب، محمد بن عثمان الحشائشي التونسي، تحقيق: علي مصطفى المصراتي، دار لبنان، الطبعة الأولى ، بيروت ١٩٦٥م .

٢٠- جهاد الأبطال في طرابلس الغرب، الطاهر أحمد الزاوي، ط٣، بيروت : دار الفتح للطباعة والنشر، ١٩٦٢م .

٢١- جريدة المقطم، عدد ٦٩٤١، ٩ صفر ، عام ١٣٣٠هـ .

٢٢- جريدة الأهرام، عدد ١٠٦١٣ ، في ٢١ صفر عام ١٣٣١هـ .

٢٣- جريدة المقتبس ، عدد ١٠١٤، ٥ ذو القعدة ١٣٣٠هـ .

(ح)

٢٤- الحركة السنوسية، نشأتها ونموها في القرن التاسع عشر، أحمد الدجاني، الطبعة الأولى، ١٩٦٧م، دار لبنان .

٢٥- حركة الجامعة الإسلامية، أحمد الشوابكة، مكتبة المنار، الطبعة الأولى، ١٩٨٤م / ١٤٠٤هـ .

٢٦- حاضر العالم الإسلامي، تأليف لوثروب ستودارد الأمريكي، نقله إلى العربية الأستاذ عجاج نويهض وعلق عليه الأمير شكيب أرسلان، دار الفكر .

٢٧- الحوليات الليبية، شار فيرو، نقلها عن الفرنسية وحققها بمصادرها العربية، ووضع مقدمتها النقدية، محمد عبد الكريم الوافي، دار الفرجاني، طرابلس - ليبيا .

٢٨- الحركة الوطنية شرق ليبيا، مصطفى هويدي، منشورات مركز دراسات جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالي، طبعة ١٩٨٨م .

٢٩- حروب البلقان والحركة العربية في المشرق العربي العثماني، د. عايض بن حزام الورقي ، نشرته جامعة أم القرى طبعة عام ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م .

٣٠- الحملة الإيطالية على ليبيا «دراسة وثائقية في إستراتيجية الاستعمار والعلاقات الدولية» ، دار الطباعة الحديثة، القاهرة، ١٩٨٢م .

٣١- حوليات كلية الآداب، الحولية الأولى، جامعة الكويت، قسم التاريخ، ١٩٨٢م.

٣٢- حياة سليمان الباروني، لأبي القاسم الباروني .

(د)

٣٣- الدولة العثمانية، عوامل النهوض وأسباب السقوط، لعلي محمد الصلابي، منشورات دار البيارق .

٣٤- الدولة العبيدية في ليبيا، لعلي محمد الصلابي، دار البيارق ، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ / ١٩٩٨م .

٣٥- دائرة معارف القرن العشرين .

٣٦- دراسات وصور من تاريخ الحياة الأدبية في المغرب العربي، د. محمد طه الحاجري، دار النهضة العربية، بيروت، ط أولى، عام ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م .

(ر)

٣٧- رحلة إلى صحراء إفريقيا الكبرى، صادق المؤيد العظم، إستانبول، عالم مطبعة سي ١٣١٤هـ .

٣٨- رمضان السويحلي البطل الليبي الشهير بكفاحه لـلطليان، محمد مسعود فشيكه، دار الفرجاني، طرابلس - ليبيا ، الطبعة الأولى ١٣٩٤هـ / ١٩٧٤م .

٣٩- رفع الستار عما جاء في كتاب عمر المختار، لمحمد العيساوي، القاهرة، مطبعة حجازي ، ١٩٣٦م .

(س)

٤٠- السنوسي الكبير، محمد الطيب بن إدريس الأشهب، مطبعة محمد عاطف، ميدان الخازندار، بمصر .

٤١- السنوسية دين ودولة، د. محمد فؤاد شكري، دار الفكر، طبعة ١٩٤٨م .

٤٢- السلطان عبد الحميد الثاني، مذكراتي السياسية، تقديم وترجمة د. محمد حرب، دار القلم، الطبعة الثالثة، ١٤١٢هـ / ١٩٩١م .

٤٣- السودان بين يدي غوردن وكتشنر، إبراهيم فوزي، الجزء الأول، ١٣١٩هـ.

٤٤- سنن ابن ماجة للإمام أبي عبد الله محمد بن يزيد القزويني، حققه محمد فؤاد عبد الباقي ، دار التراث العربي .

٤٥- سنن أبي داود ، سليمان بن الأشعث، تحقيق عزت عبيد الدعاس، حمص، الناشر: محمد السيد .

(ش)

٤٦- الشهيد، العدد الخامس ، مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالي.

(ص)

٤٧- صحيح البخاري ، للإمام محمد بن إسماعيل البخاري، دار الطباعة العامرة بإستانبول ١٣١٥هـ، المكتب الإسلامي، إستانبول ، تركيا .

٤٨- صحيح مسلم، للإمام أبي الحسن مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، دار الحديث، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م .

٤٩- صحيح الجامع الصغير وزيادته، تحقيق الشيخ محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٣٨٨هـ .

٥٠- صفحات خالدة من الجهاد، زعيمة الباروني، بيروت، ١٩٦٨م .

٥١- صلات بين ليبيا وتركيا «التاريخية والاجتماعية» طرابلس الغرب - ليبيا ١٩٦٨م.

٥٢- صحافة ليبيا في نصف قرن، علي مصطفى المصراتي، دار الكشاف، بيروت ، ١٩٦٠م .

٥٣- صفحات مجهولة من تاريخ ليبيا، محمد عيسى، جامعة الكويت الحولية الأولى عام ١٩٨٠م .

(ط)

٥٤- الطريق إلى لوزان، الخفايا الدبلوماسية والعسكرية للغزو الإيطالي لليبيا، ط١، ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م، محمد عبد الكريم الوافي، دار الفرجاني، طرابلس، ليبيا.

٥٥- الطريق إلى الإسلام، محمد أسد، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة السابعة، ١٩٨١م .

(ع)

٥٦- عقيدة أهل السنة والأثر في المهدي المنتظر، عبد المحسن العباد، مطابع الرشيد، المدينة المنورة، الطبعة الأولى، ١٤٠٢هـ .

٥٧- العلاقات الليبية التشادية، سعيد عبد الرحمن، مركز دراسات الجهاد الليبي .

٥٨- العدوان الحرب بين إيطاليا وتركيا، مكتبة الفرجاني عام ١٩٦٥م ، محمد مصطفى بازامة .

(غ)

٥٩- الغزو الإيطالي لليبيا، عبد المنصف حافظ البوري، الدار العربية للكتاب، طبعة ١٩٨٣م .

(ف)

٦٠- الفوائد الجلية في تاريخ العائلة السنوسية، عبد القادر بن عبد الملك بن علي، مطبعة دار الجزائر العربية، دمشق، عام ١٩٥٦م .

٦١- قضية ليبيا، محمود الشنيطي، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥١م.

٦٢- قادة فتح بلاد المغرب، محمود خطاب، الطبعة السابعة، عام ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م ، دار الفكر .

(ك)

٦٣- كفاح الشعب الليبي في سبيل حريته، عبد الرحمن عزام، ترجمة عماد غانم (مخطوطة محفوظة بمركز الجهاد) .

(ل)

٦٤- ليبيا في العهد العثماني الثاني (١٨٣٥-١٩١١م) ترجمة يوسف العسلي، مطبعة الحلبي، القاهرة، ١٩٤٦م .

٦٥- ليبيا قبل الاحتلال الإيطالي، أحمد الدجاني .

(م)

٦٦- منهج التربية النبوية للطفل، محمد نور عبد الحفيظ سويد، مؤسسة الريان، الطبعة الخامسة، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م ، الناشر مكتبة المنار الإسلامية ، الكويت.

٦٧- المهدي السنوسي ، محمد الطيب الأشهب، مطبعة بلينوماجي ، طرابلس .

٦٨- المنار المنيف في الصحيح والضعيف، للحافظ شمس الدين أبي عبد الله محمد ابن أبي بكر ابن قيم الجوزية، تحقيق الشيخ عبد الفتاح أبو غدة ، طبع مكتب المطبوعات الإسلامية، جمعية التعليم الشرعي، حلب، ١٣٩٠هـ .

٦٩- مقدمة ابن خلدون، عبد الرحمن بن خلدون .

٧٠- مسند الإمام أحمد بن محمد بن حنبل .

٧١- مجلة البحوث التاريخية، العدد الأول، السنة الأولى، طرابلس، مركز جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالي، يناير ١٩٧٩م .

٧٢- المسألة الشرقية دراسة وثائقية عن الخلافة العباسية، محمود ثابت الشاذلي، مكتبة وهبة ، القاهرة، الطبعة الأولى، عام ١٤٠٩هـ / ١٩٨٩م .

٧٣- مجلة المنار، محمد رشيد رضا، المجلد الثاني عشر .

٧٤- المغرب الكبير، د. جلال يحيى، دار النهضة العربية، بيروت، طبعة عام ١٩٨١م .

٧٥- مذكرات الضباط الأتراك حول معركة ليبيا، أورخان قول أوغلو، ترجمة وجدي كدك، مراجعة د. عماد حاتم، منشورات مركز بحوث ودراسات الجهاد الليبي، سلسلة المذكرات التاريخية، طبعة عام ١٩٧٩م .

٧٦- ميلاد دولة ليبيا، محمد فؤاد شكري، مطبعة الاعتماد، القاهرة، عام ١٩٥٧م.

(ن)

٧٧- (النهاية، الفتن، الملاحم) للحافظ إسماعيل بن كثير، د. طه زيني، دار النصر للطباعة، الناشر: دار الكتب الحديثة، مصر، الطبعة الأولى .

٧٨- نظم المتناثر في الحديث المتـواتر، للشيخ جعفر الحـسني الإدريسي الكتاني، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٠هـ .

٧٩- نشأة الحركة العربية الحديثة، محمد عزة .

* ■ *



الفهرس

الفصل الثاني
الزعيم الثالث للحركة السنوسية أحمد الشريف

* ● *


قامت بالجمع التصويري
والإخراج الفني لهذا الكتاب
دار التابعين للنشر والتوزيع
٢٥ ش أحمد عصمت بعين شمس - برج التوحيد - الدور الأول
ت: ٤٩٣٨١٤٤ - فاكس: ٤٩٣٤٣٢٥